

ميراث الترجمة

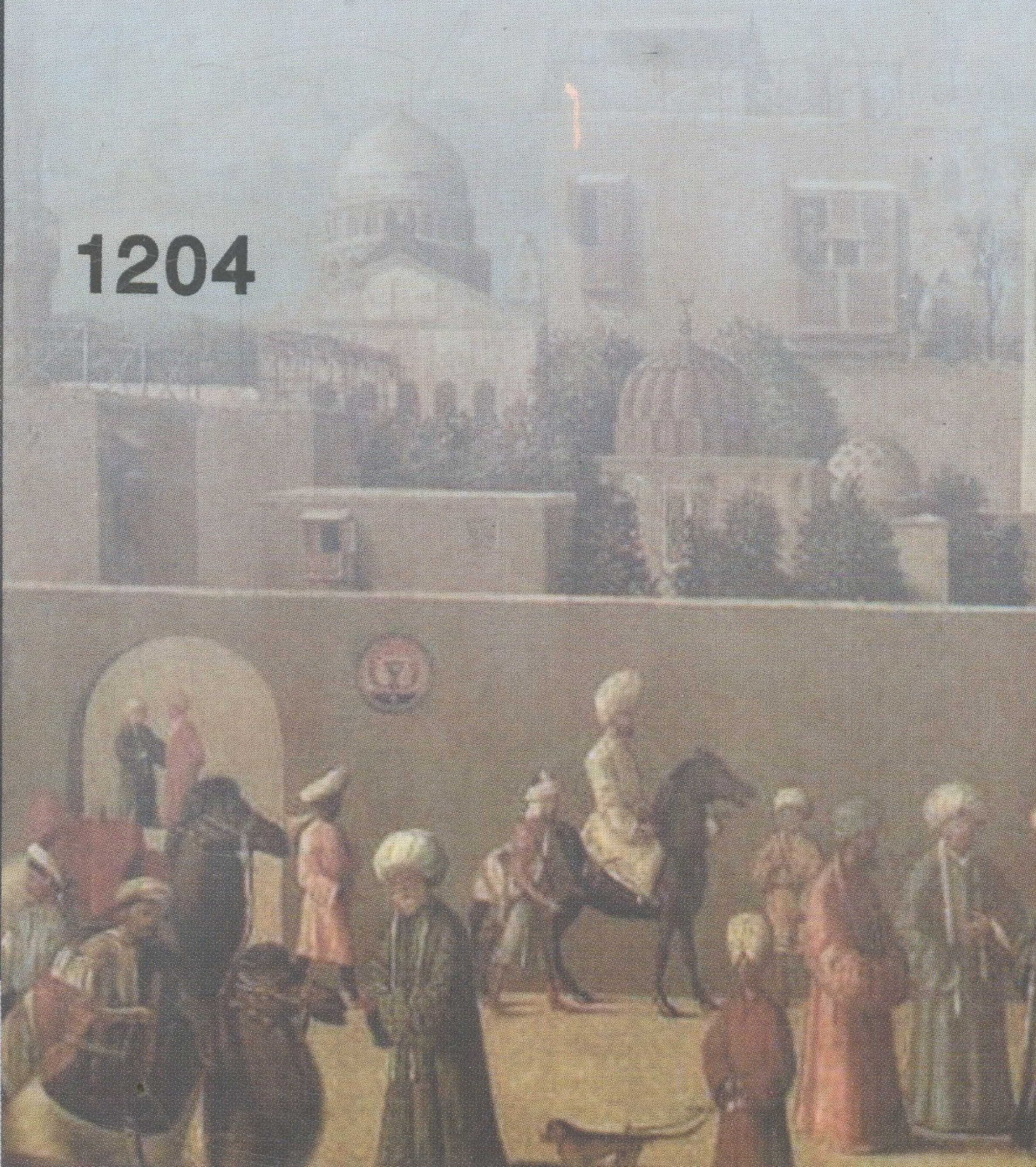
آدم متنز

الجزء الثانية

الخطارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري

ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريطة

1204



الحضارة الإسلامية

في القرن الرابع الهجري

(الجزء الثاني)

المركز القومي للترجمة

إشراف : جابر عصفور

سلسلة ميراث الترجمة

المشرف على السلسلة : طلعت الشايب

– العدد : ١٢٠٤

– الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ج ٢

– آدم متز

– محمد عبد الهادي أبو ريذة

– مصطفى لبيب عبد الغنى

– ٢٠٠٨

هذه ترجمة الجزء الثانى من كتاب :

Die Renaissance des Islams

by : Adam Mez

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة .

شارع الجبلية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة ، ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ – ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo

E.Mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel.: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

الحضارة الإسلامية

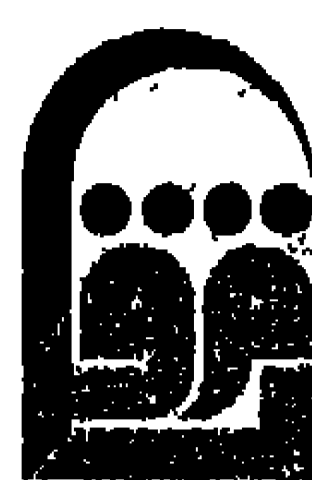
فى القرن الرابع الهجرى

(الجزء الثانى)

تأليف : آدم متز

ترجمة : محمد عبد الهادى أبو ريدة

تقديم : مصطفى لبيب عبد الغنى



٢٠٠٨

<p>بطاقة الفهرسة إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية إدارة الشئون الفنية</p>	
<p>متز ، آدم الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى آدم متز ؛ نقله إلى العربية : محمد عبد الهادى أبو ريدة ؛ تقديم : مصطفى لبيب عبد الغنى ؛ القاهرة ، ٢٠٠٨ ٣٩٢ ص ؛ الجزء الثانى ؛ ٢٤ سم (المركز القومى للترجمة) ١ - الحضارة الإسلامية . (أ) أبو ريدة ، محمد عبد الهادى (مترجم) . (ب) عبد الغنى ، مصطفى لبيب (مقدم) . (ج) العنوان</p>	٩٥٣
<p>رقم الإيداع ٢٠٠٨/١٠١٤٧ الترقيم الدولى X - 746 - 437 - 977 I.S.B.N. طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية</p>	

هدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الانجازات ذات الأهمية العلمية والثقافية للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها من ثقافتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز

الْحَضَارَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ

فِي
الْفَتْرَةِ الرَّابِعَةِ الْخَامِسَةِ

DIE RENAISSANCE DES ISLAMIS

تأليف

الأستاذ آدم ميز

ADAM MEZ

أستاذ اللغات الشرقية بجامعة « بال » بسويسرة

الجزء الثاني

نقله إلى العربية

محمد عبد الهادي أبو ريدة

بكلية الآداب بالجامعة المصرية

فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة
الفصل الثامن عشر — الجغرافيا (تقويم البلدان)	١
» التاسع عشر — الدين	١١
» العشرون — الأخلاق والعادات	١٢٧
» الحادى والعشرون — مستوى المعيشة	١٧٢
» الثانى والعشرون — أحوال المدن	٢٢٣
» الثالث والعشرون — الأعياد	٢٣٦
» الرابع والعشرون — الحاصلات	٢٥٣
» الخامس والعشرون — الصناعات	٢٩٥
» السادس والعشرون — التجارة	٣١١
» السابع والعشرون — الملاحة النهرية	٣٣١
» الثامن والعشرون — المواصلات البرية	٣٤٢
» التاسع والعشرون — الملاحة البحرية	٣٦١

الفصل الثامن عشر

الجغرافيا (تقويم البلدان)

في القرن الرابع الهجري تقدّم المسلمون في البحث الجغرافي تقدماً واضحاً كل الوضوح ؛ ولا أريد أن أتناول بالبحث في هذه الناحية إلا ما صُنّف من الكتب وذلك في شيء من الإنجاز . كان البحث في أحوال الأقاليم وليد النهضة العلمية التي ظهرت في القرن الثالث الهجري ؛ وأول ما كان من ذلك كتبُ الكندي^(١) حوالى عام ٢٠٠ هـ — ٨٠٠ م^(٢) ؛ وكان الكندي من رؤساء حملة العلم اليوناني ؛ ثم ظهر بعد ذلك ، حوالى عام ٢٣٢ هـ — ٨٤٦ م ، كتابُ المسالك والممالك لابن خردادبة ؛ ويُعترف هذا المؤلف بأنه اعتمد في بيان حدود الأرض وممالكها وممالكها على ما كتبه بطليموس في ذلك^(٣) ؛ ويقول المسعودي حوالى عام ٣٣٢ هـ — ٩٤٣ م ، إن كتاب ابن خردادبة ، على الرغم من عيوب فيه ، هو أحسنُ كتاب في موضوعه^(٤) . أما المقدسي الذي أُنّف كتابه في الجغرافية حوالى عام ٣٧٥ هـ — ٩٨٥ م ، فهو يرى أن كتاب ابن خردادبة مختصر جداً ، لا يحصل منه كبيرُ فائدة^(٥) والمقدسي ينتقص أيضاً كتب من تقدمه

(١) - مروج الذهب ج ١ ص ٢٧٥ — ٢٧٦ .

(٢) هذا التاريخ غير دقيق ؛ وليرجع القارىء إلى الترجمة العربية لكتاب تاريخ الفلسفة في الإسلام للأستاذ دي بور عند الكلام عن الكندي (المترجم) .

(٣) المسالك والممالك لابن خردادبة ص ٣ ؛ ويقول مترد إن كلمة خردادبة تطلق على نوع من الآنية ، ويشير إلى كتاب مطالع البدور (ج ١ ص ١٨٩) ولكن النص هو : ثم أخرج الصوائف فيها الخناسيات والخرداديات (المترجم) وكذلك يريد أن يقرأ المقرئ : خردادبي بلور بدلا من خردادي بلور (خطط ج ١ ص ٤١٤) .

(٤) مروج الذهب ج ٢ ص ٧٠ — ٧١ .

(٥) المقدسي ص ٤ — ٥ .

من الجغرافيين ؛ فيقول عن أبي عبد الله الجيهاني (حوالي آخر القرن الثالث الهجري) ، وهو الذي جاء بعد ابن خرداذبه وردّد كلامه ، إنه كان وزيراً لأمير خراسان ، وكان صاحب فلسفة ونجوم وهيئة ، « فجمع الغرباء وسألهم عن الممالك ودخلها ، وكيف المسالك إليها . . . ليتوصل بذلك إلى فتوح البلدان ، ويعرف دخلها ، ويستقيم له علم النجوم ودوران الفلك . . . مرة يذكر النجوم والهندسة ؛ وكرّة يورد ما ليس للعلوم فيه فائدة ، وتارة ينعت أصنام الهند ، وطوراً يصف عجائب السند . . . ، ولم يفصل السكور ، ولا رتب الأجناد ، ولا وصف المدن ، ولا استوعب ذكرها ، بل ذكر الطرق شرقاً وغرباً ، وشمالاً وجنوباً ، مع شرح ما فيها من السهول والجبال ، والأودية والتلال ، والمشاجر والأنهار ؛ وبذلك طال كتابه وغفل عن أكثر طرق الأجناد ، ووصف المدائن الجياد » . أما أبو زيد البلخي فيقول المقدسي عنه إنه اختصر ، ولم يذكر الأسباب المفيدة ، ولا أوضح الأمور النافعة ، وترك كثيراً من أمهات المدن فلم يذكرها ، ثم يرميه بأنه لم يدوّن البلدان ، ولا وطي الأعمال . أما ابن الفقيه (حوالي آخر القرن الثالث الهجري) فيقول المقدسي إنه لم يذكر إلا المدائن العظمى ، وإنه « أدخل في كتابه ما لا يليق به من العلوم ، مرة يزهد في الدنيا ، وتارة يرغب فيها ، ودفعة يبكي ، وحيناً يضحك ويلهي »^(١) . والحق أن ابن الفقيه تلمّح بأن جعل بين الكلام عن اليمن والكلام عن مصر بائين ، أحدهما في تصريف الجد إلى الهزل والهزل إلى الجد ؛ والثاني في مدح الغربة والاغتراب ؛ وهو يجعل من وصف مدينة رومية مناسبة للبناء وذمّه ، ثم يتكلم في ذكره لهماذان عما جبل عليه الناس من حب الأوطان . أما معاصره ابن رسته فأكبر ما كان يستهويه الأشياء العجيبة النادرة في اليمن ومصر والقسطنطينية والهند وفي بلاد الجوس والصفالبة . وأما الهمداني (المتوفى

(١) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للمقدسي من ٣ — ٤ .

عام ٣٣٤ هـ — ٩٤٥ م) فهو يصف جزيرة العرب ووصف عالم اللغة ؛ وكذلك ووصف قدامة بن جعفر (المتوفى عام ٣١٠ هـ — ٩٢٢ م) مملكة الإسلام ، وما جاورها من الممالك ، في كتابه الصغير المسمى كتاب الخراج وصناعة الكتاب . وكان اليعقوبي (حوالي آخر القرن الثالث الهجري) أول جغرافي بين العرب وصف الممالك معتمداً على ملاحظاته الخاصة ، ومتكماً عن البلدان من حيث خصائصها الحقيقية وما تمتاز به ، وهو يقول عن نفسه إنه عني في عنفون شبابه وحدة ذهنه بعلم أخبار البلدان ، ومسافة ما بين كل بلد وبلد ؛ لأنه سافر حديث السن ، واتصلت أسفاره ، ودام تغربه ؛ وقد طاف في بلاد المملكة الإسلامية كلها ، فنزل أرمينية ، وورد خراسان ، وأقام بمصر والمغرب ، بل سافر إلى الهند ؛ وكان متى لقي رجلاً سألته عن وطنه ومصره ، وعن زرعه ما هو ؛ وساكنيه من هم ؟ عرب أو عجم ؟ وعن شرب أهله ولباسهم ودياناتهم ومقالاتهم ، من غير أن يلحقه من ذلك ملال ولا فتور . وهو يقول : « ثم أثبت كل ما يخبرني به من أثق بصدقه ، وأستظهر بمسألة قوم بعد قوم ، حتى سألت خلقاً كثيراً وعالماً من الناس في الموسم وغير الموسم ، من أهل المشرق والمغرب ، وكتبت أخبارهم ، ورويت أحاديثهم . . . فلم أزل أكتب هذه الأخبار ، وأؤلف هذا الكتاب دهرًا طويلاً وأضيف كل خبر إلى بلده ، وكل ما أسمع به من ثقات أهل الأمصار إلى ما تقدمت عندي معرفته »^(١) . وقد وصف المملكة الإسلامية ، مبتدئاً ببغداد ، وصفاً منظماً مع إصابة جديرة بالإعجاب ؛ ولم يخطر له مع الأسف أن يؤلف كتاب رحلة على الحقيقة ، يصف فيه تجاربه الخاصة ، وأحوال الناس ، وما لقيه في أسفاره ؛ ولعله لم يجد ذلك شيئاً طريفاً جديراً باهتمامه .

(١) كتاب البلدان لأحمد بن أبي يعقوب بن واضح الكاتب المعروف باليعقوبي ص ٢٣٢ من الطبعة الأوربية .

على أن المسعودي (الذي ألف كتاباً في التاريخ سوا إلى عام ٣٣٢ هـ — ٩٤٤ م لم يكن أكبرَ حظاً من اليعقوبي في ذلك ، مع أن حبه للاستطلاع حمله إلى بلاد بعيدة في إفريقية وفي الصين ؛ ولكنه تكلم في كتبه التاريخية عن كثير مما لقيه من التجارب والمشاهدات في أسفاره ، وهذا ما تجنّبه اليعقوبي وتحاشاه تحاشياً تاماً . ثم جاءت كتب المقدسي وابن حوقل في القرن الرابع الهجري ، فكانت مثالا لأعلى درجة بلغها العرب في وصف البلدان ؛ وكلاهما قد سافر حتى دوّخ الممالك ، وحمله تيار الارتحال في بلاد الإسلام ؛ فأما المقدسي فيقول عن نفسه إنه لم يبق شيء مما يلحق المسافرين إلا وقد أخذ منه نصيباً^(١) غير الكُذبة وركوب الكبيرة ، وإنه أنفق في أسفاره ما يزيد على عشرة آلاف درهم . أما ابن حوقل فيقول إنه شاهد كل ما كتب عنه وعايينه إلا الصحراء الغربية الكبرى ، فيعترف بأنه لم يشاهد جميعها^(٢) ؛ وقد اقتصر كلٌّ من المقدسي وابن حوقل على وصف مملكة الإسلام ؛ ويعترف المقدسي بأنه لم يتكلف وصف ممالك الكفار ، لأنه لم يدخلها^(٣) ، ولم يذكر إلا مواضع المسلمين

(١) وهو يقول (ص ٨) : « لأنه لم يظهر كتابه حتى بلغ الأربعين . أما تجاربه فهو يقول (ص ٤٤) : « فقد تفقّنت وتآدّبت وترهّدت وتعبّدت ... وخطبت على المنابر ، وأذنت على المنائر ، وأتممت في المساجد ، وأكلت مع الصوفية الهرائس ، ومع الخانقائيين الزناد ، ومع النواقي المعصائد ... وسحت في البراري وتحت في الصحاري ، وصدقت في الورع زماناً ، وأكلت الحرام عياناً ... ، وملكت العبيد ، وحملت على رأسى بالزنبيل ، وأشرفت مراراً على الفرق ، وقطّعت على قوافلنا الطرق ... ومُسجنت في الحبوس ، وأخذت على أي جاسوس ، ومشيت في السائم والثلوج ، ونزلت عرصة الملوك بين الأجلة ، وسكنت بين الجهال في محلة الحاكّة ، وكملت العز والرفعة ، ودُبر في قتل غير مرة ، وكسيت خلع الملوك ، وأمرأت بالصلوات ، وضربت وانتفرت مرات » ، وكان يداخل كل طائفة لا بسا ثوبها ليعرف حقيقة أمرها ، حتى دعى بأسماء تزيد على الثلاثين لاجتلاف البلدان والأحوال (انظر كتابه ص ٤٣ ، ٤١٥ وكتاب تاريخ الفلسفة في الإسلام للأستاذ دي. بور في الترجمة العربية عند الكلام عنه) (المترجم) .

(٢) المسالك والممالك ص ١١١ .

(٣) أحسن التقاسيم ص ٩ .

منها ، وكان عدم دخوله لها كافياً في منعه من التعرض لوصفها ، لأنه كان يجعل المشاهدة ومعاينة ما يريد الكلام عنه أول دعامة لكتابه^(١) . وكلاهما أيضاً قد اطلع على الكتب التي صنفت في هذا الفن ، فقد صرح المقدسي بذلك في وضوح وإيجاز^(٢) . أما ابن حوقل فهو يقول إنه لم يزل منذ عهد الصبا شغوفا بقراءة كتب المسالك... «وترعرعتُ فقرأتُ الكتبَ الجليلةَ المعروفةَ ، والتوالييفَ الشريفةَ الموصوفةَ ، فلم أقرأ في المسالك كتاباً مُقنعاً ، وما رأيت فيها رسماً متبّعاً.....» وكان لا يفارقني كتاب ابن خرداذبة وكتاب الجيهاني وتذكرة أبي الفرج قدامة بن جعفر^(٣) . وكلاهما قد وجد اللغة أكثر انصقالات ودقة وأسلس قياداً مما وجدها المؤلفون المتقدمون ، وقد استعملوها في فهم استعمال من يملك ناصيتها ، وإن كان ابن حوقل في ذلك أقرب إلى الطرافة والجمال من المقدسي . على أن بعض العلماء من معاصري المقدسي المحافظين قد رموه بمخالفة الأصول المعروفة وبالعدول عن التقسيم السباعي المعروف إلى التقسيم الرباعي في كلامه عن الفرق والمذاهب ، فهو يجيب على تقديم بحجج مثل حججهم ويقول إنه يتأسى — فيما خالف فيه — بأهل الرأي من صدور الأئمة ، ويقول : « فلا عجب أن نرى نحن أيضاً في هذا العلم آراء ، ويكون لنا فيه قياس واختيار »^(٤) . وكذلك حاول المقدسي أن يثبت من القرآن أن في العالم بحرين هما : بحر الروم ، والبحر الصيني ، مستنداً إلى سورة الرحمن آية ١٩ وما بعدها ، حيث يقول الله تعالى : (مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ . بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ ، لَا يَبْغِيَانِ ، فَبَأَى آفَافُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . يُخْرِجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤَ وَالْمَرْجَانَ) ؛

(١) نفس المصدر ص ٣ ، ٤٣ ، وكتاب تاريخ الفلسفة في الإسلام (المترجم) .
(٢) انظر ما تقدم ؛ وص ٤٣ من كتاب المقدسي حيث يقول إنه لم تبق خزانة ملك إلا وقد لزمها ، ولا تصانيف فرقة إلا تصفحها (المترجم) .
(٣) المسالك والممالك لابن حوقل ص ٥ ، ٢٣٥ — ٢٣٦ من طبعة لندن ١٨٧٢ م .
(٤) أحسن التقاسيم ص ٣٧ — ٤٣ .

فلقى من العلماء معارضة شديدة^(١)، ثم إنه رسم مع كتابه خريطة مثل فيها الأقاليم وحدودها وخطوطها؛ ولكن هذه الخريطة لم تصل إلينا. وهو يقول إنه بين الطرق المعروفة بالحمرة، والرمال الذهبية بالصفرة، والبحار المالحة بالخضرة، والأنهار بالزرق، والجبال المشهورة بالغبرة^(٢) ويذكر أنه رأى مثل هذا التصوير في كتاب البليخي (المتوفى عام ٣٢٢ هـ - ٩٣٤ م)، وفي خزانة أمير خراسان، وفي نيسابور عند أبي القاسم الأنماطي، وفي خزانة عضد الدولة والصاحب، هذا إلى دفاتر آها مع البحريين^(٣). وقد لقى أبا علي بن حازم بساحل عدن؛ وكان الشيخ من أعلم الناس بالبحر الصيني؛ لأنه إمام التجار، وسرا كبه أبدأً تسافر إلى أقاصيه، فسأله عن صفة بحر الصين، فمسح الرمل بكفه، ورسم صورة البحر أمام المقدسي، وبين له معارجه المتلسنة، وشعبه الكثيرة^(٤)؛ وقال له غسان الحكيم، وهو بأريحا: ترى هذا الوادي؟ قال: بلى، قال: هو يمتد إلى الحجاز، ثم يخرج إلى اليمامة، ثم إلى عمان وجر، ثم إلى البصرة، ثم إلى بغداد، ثم يصعد إلى ميسرة الموصل إلى الرقة، وهو وادي الحر والنخيل^(٥). وكذلك زعم ابن حوقل أن الرمل المعروف بالهبير يمتد من وراء جبلى طى غرباً ماراً بمصر والمغرب، حتى ينتهي بالحيط وغانة؛ وكذلك يمتد شرقاً إلى الصين والحيط^(٦)، وهو يزعم كذلك أن جبال الصين تمتد إلى التبت وفارس وأرمينية، حتى تتصل بجبال الشام وجبال المقطم وجبال المغرب^(٧). على أن الجغرافيين المتأخرين أخذوا عن ابن حوقل لا عن

(١) ليرجع القارىء إلى هذه المناقشة الطويلة في كتاب المقدسي ص ١٦ - ١٩ (الترجم).

(٢) نفس المصدر ص ٩ وما بعدها.

(٣) نفس المصدر ص ١٠. (٤) نفس المصدر ص ١١.

(٥) نفس المصدر ص ١٧٩. (٦) ابن حوقل ص ٣٠، ١٠٤.

(٧) نفس المصدر ص ١١٠، ١٠٤ وما بعدها؛ وانظر المغرب في ذكر بلاد إفريقية

والمغرب للبكري ص ١٦٠. وأول من ذهب إلى ذلك ابن خرداذبة (ص ١٧٢ - ١٧٣)؛

وانظر مروج الذهب للسعدي ج ٢ ص ٧١.

المقدسى ، واعتبروه أستاذ هذا الفن دون المقدسى^(١) ؛ وكلاهما كان باحثاً ناقداً .
يتحرى تمحيص ما ينقل ، فهما مثلاً أكثر نقداً من الإدريسي أحد الجغرافيين
التأخرين ، فإنه نقل عن كتاب العجائب للحسن بن المنذر ، وهو الكتاب الذى
تاستنقسه كل من المقدسى وابن حوقل .

وفى القرن الرابع الهجرى قويت عزيمة الاستطلاع العلمى ، وأخذت أصابعها
تمتد متلمسة للحقائق فى كل ناحية ، وكان الناس يصغون متشوقين لما يقصّه
عليهم البحريون من مشاهداتهم وتجاربهم ومن أخبار بحر الصين وبحر الهند^(٢) .
وحوالى منتصف القرن الثالث الهجرى أرسل الخليفة الواثق بعثة برية إلى سد
ياجوج وماجوج^(٣) . وقد وصف ابن فضلان رحلته التى قام بها حوالى عام
٣٠٩ هـ — ٩٢١ م إلى البلغار الذى يسكنون حول نهر أتل (الفلجا)^(٤) .
وكذلك حكى أبو ذؤلف خبر رحلته إلى بلاد آسيا الوسطى والشرقية حوالى
عام ٣٣٣ هـ — ٩٤٤ م^(٥) . وحوالى هذا الوقت عرف الأبطخري من رجل كان
يخطب بمدينة بلغار أن الليل عندهم يقصر فى الصيف لا يتهاى للإنسان أن يسير
فيه أكثر من فرسخ ، وفى الشتاء يقصر النهار ، ويطول الليل ، حتى يكون نهار
الشتاء مثل ليل الصيف^(٦) ، وكذلك خرج من مدينة لشبونة جماعة كلهم رجال

(١) جغرافية أبي الفدا طبعة رينو (Reinaud) ص ١ — ٢ .
(٢) سلسلة التواريخ ، عجائب الهند ، طبعة رينو (Reinaud) مارس ١٨١١ .
(٣) حفظ لنا الإدريسي ما حكاه سلاّم قائد هذه البعثة ولغير ذلك دى غوى (De Goeje)
بعنوان : سدّ ياجوج وماجوج . وانظر معجم البلدان لياقوت ج ٣ ص ٦٠ وما بعدها من
الطبعة الأوروبية (المترجم) .
(٤) انظر معجم ياقوت طبعة فرين (Frähn) ، ويتزبرج ١٨٢٣ .
(٥) هذه القصة كما جاءت فى معجم ياقوت تحت كلمة صين غير صحيحة . انظر :
Marquart, Sachau-Festschrift, S. 272

(٦) ابن حوقل ص ٢٢٥ .

أبناء عمّ ، فأنشأوا مركباً ، وتزوّدوا فيه ، ثم ركبوا بحر الظلمات ، واقتحموه ليعرفوا ما فيه من الأخبار والعجائب ، وليعرفوا إلى أين اتهاؤه ، وهم يُسمّون المغرّرين (أو المغرّين) ^(١) . وكان صاحب الفهرست يستقى أخبار الصين حوالى عام ٣٧٧ هـ — ٩٨٧ م من راهب نجرانى كان الجاثليق قد أنفذه إليها ، ومعه خمسة من النصارى القائمين بأمر الدين ، فأقام بها سبع سنين ، ثم رجع ^(٢) ، وكان التجار يزوّدون أهل بلادهم بأخبار بلاد الألمان وبلاد الفرنسيين . وفى سنة ٣٧٥ هـ — ٩٨٥ م كتب المهلبى للخليفة الفاطمى العزيز بالله كتاباً فى الطرق والمسالك ، وهو أول كتاب وصف بلاد السودان وصفاً دقيقاً ، وكان علماء الجغرافية فى القرن الرابع لا يعرفون من أخبار بلاد السودان إلا قليلاً جداً ^(٣) . وكذلك ألف محمد التّاريخى المتوفى عام ٣٦٣ هـ — ٩٧٣ م وهو عالم جغرافى أندلسى ، كتاباً فى وصف إفريقيا والمغرب ^(٤) . وكذلك وضع العلم خواشير بن يوسف بن صلاح الأركى الذى سافر حوالى عام ٤٠٠ من الهجرة فى مركب دبوكره الهندى وطاف بسواحل إفريقيا الجنوبية أصول المصورات البحرية (وكانت تسمى رهامنيات) التى عملت فى القرن السادس الهجرى أو الثانى عشر الميلادى ^(٥) . وحوالى ذلك الوقت ^(٦) بدأت الحروب تُشنّ من غزنة على الهند فأتاح ذلك مناسبة للأستاذ أبى الريحان البيرونى كي يكتب أول كتاب خاص بالهند [وهو الذى سماه تحقيق ما للهند من مقولة ؛ مقبولة

(١) الإدريسى طبعة دمرزى ص ١٨٤ وانظر فصل الملاحة البحرية .

(٢) الفهرست ص ٣٤٩ .

(٣) وكان كتابه المسمى العزيزى باسم الخليفة الذى أهداه إليه أكبر مصدر اعتمد عليه ياقوت فى كلامه عن السودان .

(٤) وهو أكبر مرجع اعتمد عليه البكرى ؛ انظر كتاب المغرب للبكرى ١٦ .

(٥) كتاب الفوائد فى أصول البحر تأليف رئيس علم البحر وقاضيه وأستاذ هذا الفن وكامله الشيخ شهاب أحمد بن ماجد السعدى مخطوط رقم ٢٢٩٢ بالمكتبة الأهلية بباريس ص ٣ ب — ١٠٤ .

(٦) يعنى سنة ٤٠٠ هـ .

في العقل أو سرذولة] ، وهو يعيب فيه الهنود بأن علومهم غير مَهذبة ، وأن كتبهم مضطربة غير منظّمة ، مشوبةٌ بخرافات العوام ، ويشبّه ما في كتبهم « بصدف مخلوط بخزف ، أو بدرّ ممزوج ببعر ، أو بمهي مقطوب بمصى ، والجنسان عندهم سيّان ، إذ لا سبيل لهم إلى معارج البرهان »^(١) . على أن كلا من الجاحظ والمسهودي قد كتب على نحو ما كتب الهنود . ولكن نقد البيروني للهنديدل على أن مؤلفي العرب خطوا في التأليف خطوة جديدة قُبِضَ بها عنان الاستطراد والخلط .

(١) كتاب تحقيق ما للهند من مقولة من ١٢ — ١٣ .

تعليق

يزيد المرحوم الأستاذ خدابخش مترجم هذا الكتاب إلى الإنجليزية ، أن
أحمد بن سهل البلخي من قرية الشامستيان بجوار بلخ ، وكتابه يسمى صور
الأقاليم ، وهو أكبر مصدر رجع إليه الأصطخري .

أما أبو بكر أحمد بن محمد الهمداني المعروف بابن الفقيه ، فيقول صاحب
الفهرست (ص ١٥٤) إنه أخذ كتابه من عدة كتب ، وخصوصاً كتاب
الجهاني ؛ ولكن يتبين من كتاب الهمداني أنه أُلّف قبل عام ١٩٠ هـ أي قبل
أن يؤلف الجهاني كتابه بمدة سنين . انظر مقدمة دي غوى لكتاب البلدان
حيث يشك دي غوى في صحة التاريخ الذي ذكره ياقوت لوفاة الهمداني ، وهو
عام ٨٣٠ هـ .

وفيما يتعلق بالجغرافيين المسلمين يرجع القاري* إلى هذين الكتابين :

1 — Beazley, Dawn of Modern Geography, vol I (1897)

2 — Wright, Geographical Lore of the time of the Crusades,
New York, 1925.

وأبو عبد الله محمد بن أحمد الجهاني من جيهان ، بلدة بخراسان ، على شاطئ
نهر جيحون ، تولى الوزارة للأميز أبي الحسن نصر بخراسان بعد مقتل أبيه ،
فقبض على زمام الحكومة بالحزم والحكمة . أما كتابه فيسمى كتاب المسالك
في معرفة الممالك ، وقد مات قبل أن يتمه ، فاختصر وكتب من جديد .
ويذهب رينو (Reinaud) في مقدمته لجغرافية أبي الفدا (ص ٦٤) إلى أن الذي
اختصره أبو بكر أحمد بن محمد الهمداني المعروف بابن الفقيه ، ويقول إن اختصار
الكتاب ربما كان هو السبب في إهمال شأنه . انظر أيضاً مقدمة دي غوى
لكتاب البلدان .

الفصل التاسع عشر

الدين

وكذلك أحسّ المسلمون من أعماق نفوسهم حاجات جديدة في الدين منذ القرن الثالث الهجري ، وسرعان ما تقدمت لسد هذه الحاجات الديانات القديمة التي كانت دائماً مستترة وراء ستار ظاهري ، ولا سيما الديانة المسيحية المشربة بفلسفة متأخرى اليونان . وإن الحركة التي غيرت الإسلام تغييراً كبيراً في أثناء القرنين الثالث والرابع ليست في مجموعها سوى نتيجة لنفوذ التيارات الفكرية المسيحية إلى الدين الإسلامي^(١) ، وعبر البعض عن المثل الأعلى الجديد في الدين بأنه « معرفة الله » ، وهي عبارة ربما كانت في نظر محمد (عليه الصلاة والسلام) مشعرة بالانتقاص من قدر الذات الإلهية . وهذا المثل الأعلى الجديد ، حتى من حيث التسمية ، هو مذهب الغنوسطين القديم يعود إلى الظهور في وطنه الأول ، وتصبح

(١) وربما كان المذهب الأفلاطوني الجديد وحده غير قادر على إخذات هذه الحركة العقلية الشاملة ، وينبغي ألا ننسى أن هذا المذهب نفسه كان من قبل وليد الحكمة الفرقة القديمة . وقد عالج الأستاذ جولد زيهر (Goldziher) في كتابه المسمى محاضرات عن الإسلام (Vorlesungen über den Islam) ص ١٦٠ وما بعدها بيان الآثار الهندية ، ولا سيما البوذية ، التي لا يشك أنها قد أثرت في المسلمين ، وإن كان تأثيرها ثانوياً المرتبة . ولنلاحظ أنه — فيما عدا الجلاج — يُذكر عن بعض الصوفية أنهم جاءوا إلى بلادهم بالحكمة من الهند (انظر مثلاً رسالة القشيري ص ١٠٢ ؟ وكشف المحجوب للحجويري ص ١٤٣ ، ٢٤٢ وما بعدها ؟) . أما كتاب جولد زيهر فهو مترجم إلى الإنجليزية بعنوان : Mohammad and Islam وإلى الفرنسية بعنوان Le Dogme et la Loi de l'Islam . أما ما يذكره المؤلف عن القشيري فلم أجده مقابلاً في الرسالة ؛ غير أن كثيرين من الصوفية يُنسبون إلى مدن في شرق المملكة الإسلامية ، ويحكى القشيري (ص ١٣٠ من طبعة مصر ١٣٤٦) أن أحد الصوفية أخذ في طريق الزهد بعد كلام له مع خادم لبنت أصنام يلاذ الترك (المترجم) .

له السيادة في جميع نواحي الحياة الروحية طول هذين القرنين ؛ وقد ظهر عند أهل التفكير الحر في صورة مذهب عقلي أو مذهب اعتقادي أساسه العقل ، وعند الآخرين في صورة التصوف . والتصوف عند المسلمين أيضاً يحمل الدلائل الواضحة على صلتته الوثيقة والتحام نسبه بالمذهب العقلي ، هذا الالتحام الذي نستطيع إثباته في كل أطوار التاريخ العالمي ؛ لأن التصوف أيضاً علم له أصوله ، وليس الذي يقابله هو المعرفة العلمية النظرية ، بل المذهب الذي يقول به نبي يجب الإيمان بدينه على أن يكون معرفة غير نظرية بل تقوم على العاطفة الملهبة وتؤسس على الحياة الواقعة ، وكذلك عادت إلى الظهور كل علامات المذهب الغنوصي الأول من علوم سرّية ، وتنظيم للجمعيات السرية ، وإنشاء لمقامات في المعرفة بعضها فوق بعض ، وقول بصدور الموجودات عن الله ، وبالتوازي والتقابل بين العالمين ، وظهور خصائص الحكمة البابلية القديمة ، ونشوء مذاهب تتردد بين الزهد والإباحة ، وتصور الكمال والسمو الروحي على أنه « طريق » . وتدل أقدم الكتب الصوفية التي وصلت إلينا ، وهي مصنّفات الحارث بن أسد المحاسبي المتوفى سنة ٢٤٣ هـ — ٩٥٨ م دلالة واضحة على أنه تأثر بالمسيحية تأثراً كبيراً ، فإنه قد بدأ أحد كتبه بمثل الباذر المذكور عن المسيح عليه السلام ؛ والكتاب الآخر نستطيع أن نعتبره صورة مكبرة لخطبة الجبل^(١) . وكذلك نجد

(١) Margoliouth, Verhandlungen des 3 Religionsgeschichtlichen Kon-

gresses, Oxford, Bd I, S. 292.

وهي قرارات المؤتمر الثالث لتاريخ الأديان الذي عقد بأكسفورد (ج ١ ص ٢٩٢) . الكتاب الأول هو كتاب الرعاية لحقوق الله ؛ أطلعني الأستاذ لويس ماسينيون على صورته الفوتوغرافية ، وينقل المحاسبي فيه عن بعض الحكماء تمثيل الهادي بالباذر ، وكلامه بالبذر ، والناس بأرض صالحة مشجرة ، أو أرض ذات شوك يخنق الزرع ، أو صخر أملس لا يمكن الزرع من إنباء ، وهكذا . وتدل المقارنة بين كلام المحاسبي وبين مثل الباذر في إنجيل لوقا^(١) (الفصل السابع والعشرين) على أن المحاسبي ينقل عن السيد المسيح عليه السلام . أما الكتاب الثاني =

الحكيم الترمذى ، وهو من كبار شيوخ الصوفية القدماء (توفى عام ٢٨٥ هـ — ٨٩٨ م) ، يقول إن عيسى عليه السلام خاتم الأولياء ، ويبين مكائده^(١) . ولم تكن المملكة الإسلامية « مملوءة بالآلهة » كما امتلأت في ذلك العصر ؛ حتى انمحت الحدود بين الله وبين عبده ؛ وصار بعض المتصوفة يدعون الوصول إلى درجة الاتحاد بالله ، ويروى أبو العلاء لبعض أهل النحلة الحلولية :

رأيت ربى يمشى بلا لكة فى سوق يحى فكدت أنفطر

فقلت هل فى اتصالنا طمع . فقال هيهات ، يمنع الحذر^(٢) .

وكان بين يدي بعض طوائف القائلين بالمهدى من يعبث بالقول فيصف الخلفاء بالألوهية ، على نحو لا نظيره من قبل ولا من بعد ؛ فمن ذلك غلو ابن هانى* فى مدحه للخليفة المعز حتى كفره العلماء :

ماشئت لاما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

وقوله مخاطباً حامل لواء الخلافة :

ولطالما زاحمت تحت ركابه جبريلا

ولما نزل هذا الخليفة فى مدينة رقادة ، وهى بلد قريبة من القيروان . قال

ابن هانى* :

= فله كتاب الوصايا وهو المسمى كتاب التصايح كما أخبرنى الدكتور عبد الحليم محمود الذى ألف كتاباً عن المحاسنى . (المترجم)

(١) كتاب الطوآسين للحلاج طبعة باريس ١٩١٣ ص ١٦١ هامش رقم ٢ . وقد ذكر ابن العربى فى الفتوحات المكية (ج ١ ص ٢٠٦ من طبعة بولاق عام ١٢٥٩ هـ) أن عيسى عليه السلام سينزل ويحكم بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم بوحي من الله أو باطلاعه على روح النبى محمد عليه السلام ، ومن هذا الوجه يرى ابن العربى أن سيدنا عيسى يكون صاحباً وتاباً ، وخاتم الأولياء وأفضل الأمة المحمدية . ويذكر ابن العربى أن الحكيم الترمذى نبه على ذلك فى كتابه ختم الولاية ، وشهد لعيسى عليه السلام بالفضيلة على كبار الصحابة .

(٢) الجزء الحاس بالزندقة من رسالة الغفران لأبى العلاء فى : Jras, 1902, S 835 .

حلّ برقادة المسيح . حل بها آدم ونوح
حلّ بها الله ذو المعالي وكل شيء سواء ربح^(١)

وفي آخر ذلك العصر ظهر أمر الخليفة الحاكم بأمر الله ، ولا يزال الدروز حتى
اليوم يعظمونه معتقدين أنه إله .

وكان أول ظهور طوائف الصوفية حوالى عام ٢٠٠ هـ — ٨٠٠ م ؛ وذلك في
مصر مهد الرهبنة المسيحية . « ففى عام ٢٠٠ هـ ظهرت بالإسكندرية طائفة
يسمّون الصوفية ، يأمرّون بالمعروف ، فيما زعموا ، ويعارضون السلطان فى أمره ،
وترأس عليهم رجل منهم ، يقال له أبو عبد الرحمن الصوفى »^(٢) . وكذلك يطلق
ابن قديد المتوفى عام ٣١٢ هـ — ٩٢٥ م اسم الصوفية على جماعة كانت تحيط
بعبسى بن المنكدر ، الذى ولى قضاء مصر فى عهد المأمون .

وكان هؤلاء القوم « يأمرّون بالمعروف وينهون عن المنكر » . ولما ولى ابن
المنكدر القضاء كانت هذه الطائفة تأتية ، وهو فى مجلس الحكم ، فتقول : أيها
القاضى ! ذهب الإسلام ، فُعل كيت وكيت ، فيترك المجلس ويمضى معهم ؛ ثم لم
يزالوا به حتى جعلوه يكتب إلى المأمون كتاباً لا يرضى فيه بولاية أبى إسحاق
المتصم على مصر ؛ فكان ذلك سبب خلعه من القضاء وموجدة المعتصم عليه^(٣) ،
وإذن فقد كان ثم صوفية أتقياء من أصحاب النزعة العملية ، أجدوا جاذباً
بالواجبات المفروضة على المسلم ، وكانوا يتدخلون فى حياة المجتمع تدخلا شديداً

(١) نفس المصدر ص ٨٣٦ . ويقول ابن الأثير (ج ٨ ص ١٥٧) بعد ذلك بكثير إنه
لم يجد هذين البيتين فى ديوان ابن هانى ، ولكنهما فى الديوان طبعة بيروت ١٣٢٦ هـ ص ٤٠ .
(٢) الولاة الكندى ص ١٦٢ ؛ ونقل ذلك المقرئ فى الخطط ج ١ ص ١٧٣ ،
وقد ذكر جولدزير Goldziher, Za 1909 S 343 حديثين يتضمنان أن عام ٢٠٠ هـ هو
مبدأ ظهور التصوف .

(٣) الكندى ص ٤٤٠ .

الوطاة . وأول ما أطلق اسم الصوفية على فريق من هؤلاء القوم الصالحين وذلك أنه كان يقال لخواص الناس ، ممن لهم شدة عناية بأمر الدين ، الزهاد والعباد ؛ ثم « انفراد خواص أهل السنة ، المراعون أنفاسهم مع الله تعالى ، الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم التصوف ؛ واشتهر هذا الاسم هؤلاء الأَكابر قبل المائتين من الهجرة »^(١) ، ولم يكن في مذهب هؤلاء القوم في أول أمرهم شيء من مذاهب الصوفية المتأخرين . على أن إبيفانيوس (Epiphanius) يشكو في القرن الرابع الميلادي بمصر من بقاء عدد كبير من الغنوسطيين الذين لا ضابط لأخلاقهم^(٢) . وتسرب كثير من آراء هؤلاء إلى جماعات الصوفية . وقد أشار الأستاذ رينولد نيكلسون (Reynold A. Nicholson) إلى الأثر الكبير الذي أحدثه ذو النون الكيمياءى المصرى المتوفى عام ٢٤٥ هـ — ٨٥٩ م في مذهب الصوفية^(٣) ، والحق أن كثيرين من مشايخ الصوفية في المشرق تأثروا بالتصوف المصرى^(٤) . ولم تنقطع حجة الفقراء في دخولهم مصر إلا بعد موت أبي بكر الزقاق^(٥) . أما نمو مذهب الصوفية وتكامله فقد كان كله في المشرق ، وخصوصاً في بغداد ؛ وكان نمو^(٦) سريعاً . ويروى أن أول من تكلم في علوم التوحيد

(١) رسالة القشيري (ألفت عام ٣٤٧ هـ — ١٠٤٥ م) ص ٧ — ٨ من طبعة

سنة ١٣٤٦ هـ بمصر .

(٢) Hilgenfeld. Ketzer Geschichte. S 283 .

(٣) Jras. 1906. 309 S 309 ff .

(٤) منهم أبو محمد سهل بن عبد الله التستري المتوفى عام ٢٧٣ هـ أو ٢٨٣ هـ (القشيري

ص ١٤) ؛ وكذلك صاحب أبو تراب النخشي المتوفى عام ٢٤٥ هـ أبا حاتم المطار المصرى ، وتقل ما سمعه للكثيرين (قشيري ص ١٧) . وقد سمع من ذى النون أيضاً وصحبه أبو عبد الله ابن الجلاء ، وهو من أكابر مشايخ الشام (قشيري ص ٢٠) ؛ وكذلك يوسف بن الحسين المتوفى عام ٣٠٤ هـ ، وكان شيخ الجبال والرى في وقته ؛ وأبو سعيد أحمد بن عيسى الخراز المتوفى سنة ٢٧٧ هـ ، فقد صحبا ذى النون أيضاً (قشيري ص ٢٢ — ٢٣) .

(٥) القشيري ص ٢١ .

(٦) لا تقول الآثار البغدادية شيئاً عن مصر ؛ أما الخلدى المتوفى عام ٣٨٤ هـ وهو أقدم =

والورع ببغداد هو أبو الحسن السري السقطي المتوفى عام ٢٥٣ هـ - ٨٦٨ م ؛ وكان تاجراً ، فترك التجارة ، وقام من السوق ، ولزم بيته للعبادة وانقطع عن الناس^(١) . وقد اشتهر بأنه أول من تكلم ببغداد في الحقائق والتوحيد^(٢) ، ويقال أيضاً إنه أول من تكلم في المقامات والأحوال^(٣) . وكان أول من تكلم في اصطلاحات الصوفية من صفاء الذكر ، وجمع الهمة ، والمحبة والعشق ، والقرب والأنس أبا حمزة محمد بن إبراهيم الصدي البغدادي المتوفى عام ٢٦٩ هـ - ٨٨٢ م ؛ ولم يسبقه إلى الكلام بهذا على رؤوس المنابر ببغداد أحد . وكان تلميذ أحمد بن حوقل ، وهو الذي خاطبه بقوله له : يا صوفي^(٤) . ويظهر أن معاصره طيفوراً البسطامي هو الذي أحدث لفظة السكر ، فكان لها ، إلى جانب كلمة العشق ، أكبر أثر في التصوف الإسلامي^(٥) . وقد روى لعل بن الموفق (المتوفى عام ٢٦٥ هـ - ٨٧٨ م) دعاء لا يتمشى مع ظاهر الإسلام من حيث الجوهر ، وهو قوله^(٦) . اللهم إن كنت تعلم أني أعبدك خوفاً من نارك فعذبني بها ؛ وإن كنت تعلم أني أعبدك حباً مني

== من أَرَّخ للصوفية ، فإنه ينسب ، في أخباره ، إلى معروف الكرخي المتوفى عام ٢٠٧ هـ - ٨٢٢ م ، وهو الشيخ البغدادي الذي يعظمه أهل بغداد ، ويرد بقية نسبه إلى الزاهد القديم المشهور وهو حسن البصري . انظر كتاب الفهرست ص ١٨٥ .

(١) زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة مخطوط باريس ص ٥ ب ؛ وانظر أيضاً Schreiner Z D M G. 52. 515 .

(٢) تذكرة الأولياء لأبي حامد محمد بن أبي بكر إبراهيم الشهير بفريد الدين العطار النيسابوري (كتاب بالفارسية) طبعة ليدن ١٩٠٩ ج ١ ص ٢٧٤ ، نقلاً عن نيكلسون Nicholson في J R A S. 1906. 322 ، وروضة الناظرين للوترى ص ٨ .

(٣) كشف المحجوب ترجمة نيكلسون ص ١١٠ .
(٤) النجوم الزاهرة لأبي المحاسن (ليدن) ج ٢ ص ٤٧ ؛ وزبدة الفكرة ص ٧٣ (مخطوط باريس رقم ١٥٧٢) ، وقيل في وفاته إنه تكلم يوماً في علوم الإرادات بجامع الرصافة فسقط من المنبر ، وأقام مريضاً ؛ ثم توفي بعد أيام (نفس المصدر ص ٧٣ ب) .

(٥) كشف المحجوب ص ١٨٤ .

(٦) زبدة الفكرة ص ١٤٧ - ب .

لجنتك قاحر منيها ، وإن كنت تعلم أني إنما أعبدك حبا مني لك ، وشوقا إلى وجهك الكريم ، فأبجنيه وافعل بي ما شئت .

ثم جاء أبو سعيد الجزار البغدادي المتوفى عام ٢٧٧ هـ — ٨٩٠ م ، وهو تلميذ ذى النون المصري ، فكان أول من تكلم فى القناء ، وهو من أقوال الغنوسطين الأولى ، ولا شأن له مطلقا بالترقانا عند الهنود^(١) . وكان أبو صالح حمدون بن أحمد بن عمارة القصار النيسابورى المتوفى عام ٢٧١ هـ — ٨٨٤ م أول من سلك طريق الملامة ، ومنه انتشر مذهب الملامتية بنيسابور ؛ وكان يفضل أن يكون مظهره مظهر المذنبين على أن يبعده تعظيم الناس عن الله^(٢) ، على أن مذهب الملامتية ليس بمجديد ؛ فقد وصف أفلاطون فى أول الكتاب الثانى من الجمهورية حال العادل الحق الذى يُظن به أنه ليس عادلا . وهكذا خرج الصوفية عن طريقهم الأول ، فعلى حين أنهم كانوا فى أول الأمر تدفعهم الغيرة الدينية إلى التدخل فى حياة الناس وإلى « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » حتى جرّم ذلك إلى معارضة أمر السلطان أحيانا كما تقدم القول ؛ نجد أبا عمرو إسماعيل بن نجيد المتوفى بمكة عام ٣٦٦ هـ — ٩٧٦ م يُسأل عن التصوف ، فيقول : هو الصبر تحت الأمر والنهي^(٣) ، وهذا ينطوى على عدم المبالاة بما يكون عليه حال المجتمع .

(١) كشف المحجوب ص ١٤٣ ، ٢٤٢ وما يليها ، على أنه فى القرن الخامس الهجرى والحادى عشر الميلادى شنع على « الصوفية الجاهلين » الذين يقولون بالقناء الكلى ، ومما تنبى ملاحظته أن الجويرى فى الهند ينتقد هذا القول الذى يقوله الصوفية الجاهل ، ويقول إن القول بالقناء الكلى مكابرة (كشف المحجوب ص ٢٤٣) .

(٢) نفس المصدر ص ١٨٣ ، ويحكى القشيري (ص ١٨) عنه أنه قال : إذا برأيت سكرانا قتايل لثلا تنبى عليه فتبتلى بمثل ذلك ، وأنه كان يقول : من ظن أن نفسه خير من فرعون فقد أظهر الكبر .

(٣) القشيري ص ٢٨ .

وكانت بغداد والبصرة مختلفتين في أمر التصوف ؛ كما كانتا مختلفتين في مسائل اللغة وعلم الكلام ؛ فكانت بغداد أكبر مركزاً للتصوفين ، على حين كانت البصرة أكبر مركزاً للزهاد ، وبقيت كذلك حتى أيام المقدسي ؛ وينسب للحسن البصري شيخ زهاد البصرة أنه رأى على مالك بن دينار كساء صوف ، فقال له : يعجبك هذا ، قال : نعم ، قال : إنه كان على شاة قبلك^(١) . ولكن هذا النقد للصوفية لم يمنعهم من أن يضموا إلى رجالهم أكبر رجل من خصومهم ، فيعتبروا الحسن البصري — وهو أشهر عبّاد العراق — أول أستاذ أوضح سبيل مذهبهم . على أن سند المذهب امتدأ أكثر من ذلك فأراد قوم أن ينسبوا مذهب التصوف إلى النبي (عليه السلام) لإعطائه صبغة الكلام النبوي المقدس ، فردّوا علم الحسن إلى حذيفة بن اليمان الصحابي المشهور ، ويحكى ، أن الحسن سئل عن ذلك « فقال أخذته عن حذيفة بن اليمان ، وقال حذيفة : خصني به رسول الله صلى الله عليه وسلم » ، ويروى أن النبي صلى الله عليه وسلم اختص حذيفة من الصحابة بعلوم منها علم معرفة النفاق والمناقين وعلم خفايا اليقين ؛ « وكان عمر رضى الله عنه إذا دُعِيَ لجنّاة ليصلي عليها ، نظر فإن حضر حذيفة صلى عليها ، وإن لم ير حذيفة لم يصل عليها »^(٢) .

وحوالى أواخر القرن الثالث الهجري حل تلاميذ السريّ السقطي مذاهب

(١) انظر ما يلي : على أنه يحكى أيضاً عن مالك بن أنس أنه سئل عن لباس الصوف للرجال ، فقال : لا خير في الصهرة ، ومن غليظ القطن ما هو في مثل ثمنه وأبعد عن الصهرة . انظر المدخل لابن الحاج ج ٢ ص ١٨ ، ومن هذا ما حكاه جولنزيهر : Goldziher W.Z.K.M. 13. 40 .

(٢) قوت القلوب للمكي ج ١ ص ١٤٩ — ١٥٠ ، وانظر فيما يتعلق بحذيفة : Goldziher Vorlesungen über den Islam. S) 193 . وكان للفراسة ومعرفة ما في نفوس الناس ووقوع الحوادث في القلب شأن كبير عند الصوفية في القرن الرابع (انظر بابه الفراسة في الرسالة الفشرية) .

الصوفية البغداديين إلى أنجاء المملكة الإسلامية ، فحملها موسى الأنصاري بمرور
(توفي حوالي عام ٣٢٠ هـ — ٩٣٢ م) إلى خراسان ؛ والروذباري (المتوفى حوالي
عام ٣٢٢ هـ — ٩٣٤ م بالفسطاط) إلى مصر ؛ وأبو زيد الآدمي (المتوفى
عام ٣٤١ هـ — ٩٥١ م) إلى جزيرة العرب^(١) ؛ وكذلك ظهر التصوف بمدينة
نيسابور علي يد أبي علي محمد بن عبد الوهاب الثقفي المتوفى سنة ٣٢٨ هـ —
٩٤٠ م^(٢)؛ وكانت شيراز بنوع خاص مملوءة بالصوفية حوالي آخر القرن الرابع^(٣)
وفي النصف الثاني من القرن الخامس الهجري لقي الحجويزي الأفغاني « ثلاثمائة
من مشايخ الصوفية بخراسان وحدها ، لكل منهم مشرب والواحد منهم يكفي الدنيا
بأسرها »^(٤) . وكان يعيش في بغداد حوالي عام ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م ثلاثة من
كبار مشايخ الصوفية متقاربين وهم : أبو بكر الشبلي المشهور بإشاراته ، وكان أبوه
حاجباً بدار الخلافة ، وتولى هو نفسه إدارة دواوين كثيرة ؛ وأبو محمد عبد الله بن
محمد المرتعش المتوفى عام ٣٢٨ هـ — ٩٣٩ م صاحب النكت الصوفية ؛ والخلدي
المتوفى عام ٣٤٨ هـ — ٩٥٩ م عن خمس وتسعين سنة ، وهو أول من ألف في
تاريخ الصوفية وحكاياتهم ، وقد افتخر بأنه يحفظ أكثر من مائة ديوان من
دواوين الصوفية^(٥) .

وكان في المملكة الإسلامية خوانق وأماكن للعبادة قبل ظهور الصوفية ،
ويحكى لنا مثال واحد يدل على التأثر بالمسيحية . يُحكى أن أبا الخير فخر بن جابر

(١) روضة الناظرين ص ١٣ .

(٢) القشيري ص ٢٦ .

(٣) أحسن التقاسيم للمقدسي ص ٤٣٩ .

(٤) كشف المحجوب ص ١٧٤ ، ص ٢١٦ من الأصل البارسى .

(٥) بالفهرست ص ١٨٣ ، (٤) ٤ . وأبو الحسن ج ٢ ص ٢٩٢ ، وروضة الناظرين

ص ١٥٠ ، ١٣٥ ، ١٤٢ .

الطائي المتوفى عام ٢٢٥ هـ — ٨٣٦ م دخل بلاداً كثيرة من ديار الشام ؛ واجتمع بالنصارى ورهبانهم ، وكان جده نصرانياً ثم أسلم تقرباً من الأمويين ؛ ولما دخل في السنة الخمسين من عمره اعتزل الناس في جوار دمشق ، وقد ألف كتاباً يسمى « العروج في درج الكمال ، والخروج من درك الضلال » ذكر فيه تاريخ الزهد عند اليهود والنصارى وغير ذلك ؛ وذلك طبقاً لما شاهدته عياناً أو سمعته من الرهبان^(١) .

ويحدثنا المقدسي أنه لقي في جبل الجولان من جبال الشام أبا إسحاق البلوطي في أربعين رجلاً ، يقتاتون بالبلوط ، يفلقونه ويطحنونه ويخلطونه بشعير برّي ، ويلبسون الصوف^(٢) . وكان الكرامية^(٣) أصحاب محمد بن كرام هم الذين أنشأوا أكبر عدد من الخوانق ، ويذكر المقدسي أنه كان لهم خوانق كثيرة بآيران وما وراء النهر ، وكان لهم أيضاً خوانق ومجالس بيوت المقدس . وكان لهم فوق ذلك محلةً بالقسطنطينية ، ويذكر المقدسي أنه قرأ في كتاب صنفه بعض مشايخ الكرامية بنيسابور أن بالمغرب سبعة خانات لهم ، ثم يقول : قلت : لا والله ، ولا واحدة ، وكان لهم في خوانقهم مجلسٌ ذكر يقرءون فيه من دفتر ، كما كان ذلك لأصحاب أبي حنيفة^(٤) . وكان الكرامية جماعة من المتسولين ، وقد دعوا إلى الزهد وترك الكسب الدنيوي ؛ ويقول المقدسي إنهم لا يخلون من أربع خصال : التقى ، والعصبية ، والذل ، والكذبة^(٥) .. ولم يكن للصوفية خوانق في ذلك

(١) مجلة المشرق عام ١٩٠٨ ص ٨٨٣ وما بعدها .

(٢) المقدسي ص ١٨٨ .

(٣) التكرامية بكسر الكاف وتخفيف الراء ؛ انظر كشف اصطلاحات الفنون للتهانوي طبعة كلكتة ١٨٦٢ ص ١٢٦٦ .

(٤) المقدسي ص ٣٢٣ ، ٣٦٥ ، ١٧٩ ، ٢٠٢ ، ٢٣٨ ، ١٨٢ ؛ والفصل لابن حزم ج ٤ ص ٢٠٤ ؛ ويقول أبو الفدا (تحت سنة ٨٢٥٥ ج ٢ ص ٢٢٨ من الطبعة الأوروبية) إن محمد بن كرام هو صاحب المقالة في التشبيه ؛ وهو سبجستاني ، وتوفي بالشام .

(٥) المقدسي ص ٤١ ؛ والكلاباذي ص ٩٤ / ٩٥ ب في كتاب التعرف لمذهب =

الوقت^(١) وكل ما كان لهم بيوت صغيرة للذكر في ظاهر المدن سموها رباطات بالاسم الحربي^(٢). ولكن يظهر أنه كان يعيش في هذه البيوت المنعزلة بعض العباد في ذلك العصر: فيحكى عن علي بن إبراهيم الحصري الصوفي المتوفى عام ٣٧٠ هـ — ٩٨٠ م «أنه كبرت سنه فصعب عليه الحجى إلى الجامع، فبنى له الرباط المقابل لجامع المنصور، ثم عرف بصاحبه الزوزنى»^(٣). وكان الكرامية يلبسون رداء من الصوف وفوطة^(٤) مدلاة على رؤوسهم تحيط بقلنسوة طويلة، ثم لبسوا فيما بعد اللون الأزرق، إما لأنه لباس الحداد؛ وإما لأنه كما يقال أيضاً، يلائم حال قوم فقراء جوالين في البلاد^(٥)؛ وربما كان الأول هو الصحيح لأن الفوطة أيضاً كانت لباس الرأس عند الحزن^(٦)، ويقول ابن عبد العزيز السوسى في القرن الرابع الهجرى من قصيدته التى ذكر فيها تنقله بين المذاهب والديانات، يصف عهده في التصوف^(٧).

= أهل التصوف طبع بمصر ١٣٥٢ — ١٩٣٣ ص ٥٧، ٧٢ (الترجم). وانظر

Goldziher WZKM 13. s 43 هامش رقم ٢.

(١) يقول المقرئى (الخطط ج ٢ ص ٤١٤) إن الخوانك حدثت في حدود الأربعمئة من سنى الهجرة — ويلاحظ القارىء أن بين كلام المؤلف هذا وبين كلامه منذ قليل شيئاً من التناقض. ويقول المقرئى إن أول من اتخذ بيتاً للعبادة فجمع فيه العباد وجعل لهم ما يقوم بمصالحهم زيد بن صوحان في خلافة عثمان بن عفان.

(٢) المقدسى ص ٤١٥، والقشبرى ص ١٤.

(٣) المنتظم لابن الجوزى مخطوط برلين ص ١١٩.

(٤) المقدسى نفس الإشارة.

(٥) كشف المحجوب ص ٥٣.

(٦) طبقات السبكى ج ٣ ص ٢٥٧. أما في القرن الخامس الهجرى، فكان يندر أن يلبس الصوفية الصوف، وكانت عاداتهم لبس المرقعة. كشف المحجوب ص ٤٥ وما بعدها، على أن المرقعة كانت من قبل إلى جانب كساء الصوف لباس الصوفية ثم صارت لباس المتجولين من الصوفية الذين لا ينتمون إلى طريقة معينة وذلك بعد أن صار اتخاذ الصوف علامة الصوفية. انظر القشبرى ص ١٦، ١٦٢، وإرشاد الأريب لياقوت ج ٢ ص ٩٢ — (٢٩٤).

(٧) يتيخة الدهر للثعاللى ج ٣ ص ٢٣٧.

سلكت في مثلك التصوف تنسينا فكم للذيول قحمرت
سويت سجادة بيوم وأحفيت سبالا قد كنت طولت
وكان للأغاني الروحية شأن كبير في عبادات الصوفية ، كما كان الحال بين
عباد الألمان في القرن التاسع عشر . ويقول الجاحظ : « ومن تمام آلة الشعر أن
يكون الشاعر أعرابيا ويكون الداعي إلى الله صوفيا »^(١) . ويحدثنا المقدسي عن
حضوره مجالس الصوفية بمدينة السوس قائلا : « فكرة أزغق معهم وتارة أقرأ
لهم القصائد »^(٢) . وفي القرن الخامس الهجري زاد الرقص إلى جانب الغناء ،
ويقول الحجویری إنه لقي طائفة من العوام يظنون أن مذهب التصوف ليس
إلا الرقص^(٣) ، وكذلك يعيب المعري (المتوفى عام ٤٤٩ هـ — ١٠٥٧ م) ذلك
على الصوفية وهو يقول :

أرى جيل التصوف شر جيل قتل لهمو : وأهون بالحلول
أقال الله حين عبدتموه كلوا أكل البهائم وارقصوا لي^(٤)
وكانت عادة النساء أن يشاهدن غناء الدراويش من فوق الأسطح أو من
مكان آخر ، ويحذر الحجویری المبتدئين من السماع وما يتصل به^(٥) . وسرعان
ما اخترع الخيال الصوفي أن في الجنة كراسي يجلس عليها الصوفية ، وهي تميل
بهم ، وتدور فتكفيهم مؤونة الرقص ، وذلك ، كما قالوا ، بأن يبعث الله لأهل
الجنة مغاني من الحور العين ، وتُنصب لأهلها المراتب واليسان ، ثم تغني الحور

(١) البيان والتبيين للجاحظ ج ١ ص ٤١ ، على أن المؤلف يريد أن يفهم أن كلام الجاحظ
مماثله أن الشاعر الربوعي الحقيقي لابد أن يكون صوفيا .

(٢) المقدسي ص ٤١٥ .

(٣) كشف المحجوب ص ١٦٦ انظر أيضا ص ٤٣ .

(٤) الإرشاد ج ٢ ص ١٧٥ . (الترجم)

(٥) كشف المحجوب ص ٤٢٠ .

العين بأصواتٍ لم يُسمع أحسن منها ، ويقول الله للحدود العين : اسمع عبادي الذين تزهوا أنفسهم عن مطربات الدنيا وقلدوا بسماع كلامي وأحاديث الرسول عليه السلام ، فيطرب القوم ويهيمون ، فتقدم الملائكة إليهم كراسي من ذهب ، وتقول لهم : لا تزعموا أعضاءكم بالرقص ، فقد كفى ما تعبت في الدنيا بالصلاة والعبادة واجلسوا على تلك الكراسي ، وهي تميل بكم وتدور ؛ فيغيبون عن وجودهم من الطرب^(١) .

ولم يكن ثم ما يوجب الكدّية على الصوفية ؛ ولكن الخوارزمي يقول إن «الفقير خفيف الظهر من كل حق ، منك الرقبة من كل رق ، لا يلزّمه أداء الزكاة ، ولا تتوجه إليه غوائل النّائبات ، ولا يستبطئه إخوانه ، ولا تطمع فيه جيرانه ، ولا تنتظر في الفطر صدقته ، ولا في العيد أضحيته ، ... فإنما هو مسجد يُحمل إليه ولا يحمل عليه ، وعلوي يؤخذ بيديه ولا يؤخذ من يديه فهذا إما غانم أو سالم»^(٢) ؛ وكذلك سُمّي الصوفية فقراء^(٣) ، وكان المحبّون لأهل الطرق الصوفية يدعونهم إلى الطعام ، ويحكى لنا المقدسي أنه دفعت به الظروف إلى مجلس الصوفية بشيراز ، فأراد معرفة طريقتهم وحقائقهم ، وحلّ من قلوبهم بحيث لا غاية ، وقصده الزوّار ، وحملت إليه الثياب والصّرر ، فكان يأخذ ذلك ويدفعه إليهم وهو يبين سبب ذلك قائلا : «لأنني كنت غنيا في وسطى نفقة وافرة ، وأنا كل يوم في دعوة وأى دعوة»^(٤) . وكان الشيخ أبو عبد الله أحمد بن عطاء

(١) قرّة العيون ومفرح القلب المحزون لأبي الليث السرقندي على هامش الروض الفائق في المواعظ والرفائق طبعة مصر ١٣١١ هـ ص ٢١١ وما بعدها .

(٢) رسائل الخوارزمي ص ٩٠ ؛ على أنه ليس من الحق أن الخوارزمي يقصد بالفقير الصوفي ، لأنه يتكلم بعد ذلك مباشرة عن الغنى فيقول إنه غنيمة كل يد سائلة ، وصيّد كل نفس طالبة ، هذا مع أن تسمية الصوفي بالفقير تسمية مألوقة . (المترجم)

(٣) المقدسي ص ٤١٥ ، والقشيري ص ١٢٠ ، ٢١٠ ، ٣٠٠ .

(٤) المقدسي ص ٤١٥ ، والقشيري ص ٣٠ .

الروذبارى (الثانى ، وهو ابن أخت أبى على الروذبارى) المتوفى بصور سنة ٣٦٩ هـ — ٩٧٩ م ، وشيخ الشام فى وقته ، إذا دعا أصحابه معه إلى دعوة فى دور السوق ومن ليس من أهل التصوف ، لا ينخر الفقراء بذلك ، وكان يُطعمهم شيئاً ، فإذا فرغوا أخبرهم ، ومضى بهم ، فكانوا قد أكلوا قبل ذهابهم بقليل ، فلا يمكنهم أن يمدّوا أيديهم إلى طعام الدعوة إلا بالتعزُّز ، وإنما كان يفعل ذلك لثلاث سوء ظنون الناس بهذه الطائفة فيأثموا بسببهم^(١) . وكان خاله أبو على الروذبارى (المتوفى عام ٣٢٢ أو ٣٢٣ هـ — ٩٣٣ م) أحد أئمة الصوفية ، وكان بغدادى الأصل ، وأقام بمصر ؛ وكان من أبناء الوزراء والرؤساء ، يتصل نسبه بكسرى أنوشروان ، ويروى أنه « اتخذ مرة أحمالاً من السكر الأبيض ، ودعا بجماعة من الحلوانيين حتى عملوا من السكر جداراً عليه شرافات ومحاريب على أعمدة ونقشوها كلها من سكر ، ثم دعا الصوفية حتى هدموها وكسروها واتهبوها »^(١) وكان الصوفية فى كثير من الأحيان مشهورين بكثرة الأكل حتى يُضرب المثل « بأكل الصوفية »^(٢) .

وكان أكبر الآفات على الصوفية فى ذلك العصر « معاشره المخالفين ورققة النساء » ؛ وهذه هى بعينها الآفات التى تعرّض لها الفقراء المسيحيون فى العصور الوسطى ؛ على أنه أُضيفت إلى ذلك آفة شرقية خاصة هى « صحبة الأخداث »^(٣) . ويحكى عن أبى سعيد الجرازى المتوفى عام ٢٧٧ هـ — ٨٩٠ م أنه قال : « رأيت إبليس فى النوم ، وهو يمرّ عنى ناحية ، فقلت له : تعال ، مالك ! فقال : إيش أعمل بكم ، أئتم طرحتم عن نفوسكم ما أخادع به الناس ؛ فقلت : وما هو ؟ قال :

(١) طبقات السبكي ج ٢ ص ٩٩ — ١٠٢ والقشيري أيضاً ص ٢٦ .

(٢) ثمار القلوب فى المضاف والمسلوب للشالي ص ١٣٦ — ١٣٧ .

(٣) القشيري ص ٢٢ .

الدنيا ؛ فلما ولي عنى التفت إلى ، وقال : غير أن لي فيكم لطيفة ، فقلت : وما هي ؟ قال : صحبة الأحداث ^(١) . ويُروى عن الواسطي المتوفى بعد عام ٣٢٠ هـ — ٩٣٢ م أنه قال : « إذا أراد الله هوان عبد ألقاه إلى هؤلاء الأتنان والجيف » ، يريد به صحبة الأحداث ^(٢) . ويعترف الحجویری ، في القرن الخامس الهجري أنه قد بلغ من جهال الصوفية أنهم جعلوا صحبة الأحداث من مذهبهم ، وأن بعض العوام أخذوا عليهم ذلك وأنكروه ^(٣) .

على أنه قد ظهرت عند الصوفية نزعة قديمة إلى عدم المبالاة بكل ما في هذه الدنيا حتى بالشرعية ؛ فيحكى ابن حزم « أن من الصوفية من يقول إن من عرف الله سقطت عنه الشرائع ، وزاد بعضهم : واتصل بالله تعالى . وبلغنا أن بنيسابور اليوم في عصرنا هذا رجلا يكنى أبا سعيد أبا الخير من الصوفية ، مرة يلبس الصوف ، ومرة يلبس الحرير المحرم على الرجال ، ومرة يصلي في اليوم ألف ركعة ، ومرة لا يصلي فريضة ولا نافلة ، وهذا كفر محض ، ونعوذ بالله من الضلال ... » ^(٤) ، ويشكو ابن حزم فوق ما تقدم من أن طائفة من الصوفية ادعت « أن في أولياء الله تعالى من هو أفضل من جميع الأنبياء والرسل ؛ وقالوا : من بلغ الغاية القصوى من الولاية سقطت عنه الشرائع كلها من الصلاة والصيام والزكاة وغير ذلك ، وحلت له المحرمات كلها من الزنى والخمر وغير ذلك ، واستباحوا بهذا نساء غيرهم ، وقالوا إننا نرى الله ونكلمه ، وكل ما قُذِف في نفوسنا فهو حق » ^(٥) . ويقول الحجویری إن دعوى « سقوط الشريعة إذا كُشفت الحقيقة » هي مقالة الزنادقة من القرامطة

(١) نفس المصدر ص ٢٣ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٤ ، وقارن ص ١٨٤ .

(٣) كشف المحجوب ص ٤١٦ ، ٤٢٠ .

(٤) الفصل لابن حزم ج ٤ من ١٨٨ .

(٥) نفس المصدر ج ٤ ص ٢٢٦ . وانظر Schreiner, ZDMG, 52 476 .

والشيعة ومن وسوسوا إليهم من الأتباع^(١) . ويحكى القشيري أنه سمع الشيخ أبا عبد الرحمن السلمي يقول سمعت أبا القاسم الدمشقي يقول : سئل أبو علي الروذباري (المتوفى عام ٣٢٢ هـ — ٩٣٣ م) عن يسمع الملاحى ويقول : هى لى خلال ، لأنى وصلت إلى درجة لا تؤثر فى اختلاف الأحوال ، فقال : نعم ، قد وصل ، ولكن إلى سقر^(٢) .

وكان أكثر الصوفية القدماء متزوجين ، ويحكى أن امرأة أحد الصوفية كانت سيئة الخلق تستطيل عليه ؛ وأعطته مرة درهمين من ثمن غزلها ليشتري الدقيق ، فلقى فى طريقه جارية تبكى لأنها أضاعت درهمين لسيدها ، فخافت أن يضربها فدفع إليها الدرهمين ، وقعد على حانوت صديق له يشق الساج ، وذكر له الحال ، وما يخاف من سوء خلق امرأته ، فقال له : خذ من هذه النشارة فى الجراب لعلكم تنتفعون بها فى سجر التنوز ، إذ ليس فى إمكاني مساعدتك بشيء آخر ، فحمل الصوفى النشارة ، وفتح باب داره ، ورمى بالجراب ، ورد الباب ، وذهب إلى المسجد إلى ما بعد العتمة ليأخذ أهله النوم ولا تستطيل عليه زوجته ، فلما فتح الباب وجدهم يخبزون الخبز ، فقال : من أين لكم هذا الخبز ؟ فقالوا : من الدقيق الذى كان فى الجراب ، لا تشتري غير هذا الدقيق ، قال أفعل إن شاء الله ، وهكذا لم ينقذه من سوء خلق امرأته إلا كرامة^(٣) . وكانت تخدم الجنيد جارية تسمى زيثونة ، وكذلك خدمت شيخين غيره ، ويدل اسمها^(٤) على أنها كانت أمة مملوكة ؛ وأعطى الجنيد جارية أخرى أهديت إليه إلى أخذ أصحابه ليتزوجها^(٥)

(١) كشف المحجوب ص ٢٨٣ .

(٢) القشيري ص ٢٦ .

(٣) نفس المصدر ص ١٦٨ .

(٤) نفس المصدر ص ١٧١ .

(٥) روضة الناظرين ص ١٠ .

وكان الشبلي متزوجاً^(١). ويحكي عن أبي الحسين أحمد بن أبي الحواري، ريحانة السام، المتوفى عام ٢٣٠ هـ — أنه كان له أربع نساء، وعن معاصره أبي عبد الرحمن حاتم الأصم من أكابر مشايخ خراسان أنه خلف تسعة أبناء^(٢)، ومما يزيد في غرابة مثل هذه الحكايات أننا نجد بين جماعة الزهاد العباد الذين لا ينتمون لأهل التصوف من تمسك بالتجريد أعنى العزوبة، وهي نزعة غير إسلامية مطلقاً؛ ففي كتاب بستان الغارفين ص ١٩٧ — ١٩٨ لأبي الليث السمرقندي الحنفى المتوفى عام ٣٨٣ هـ — ٩٩٥ م حض من يستطيع الاستغناء عن الزواج أن يظل حصوراً، وأن يتفرغ إلى عبادة الله، فهي أفضل^(٣). ولا بد أن يكون هذا الرأي قد غلب على الصوفية في القرن الرابع الهجرى، حتى يقول الحجویری في القرن الخامس: «وقد أجمع رأى شیوخ هذه الطريقة على أن أحسن الصوفية وأفضلهم المجرّدون فإن قلوبهم خالية من الآفات، وطباعهم معرضة عن المعاصي والشهوات. وبالجملة فإن أساس هذه الطريقة هو التجريد وأن الزواج لغيرهم»^(٤).

ولكن كلام الحجویری هذا يخالف ما قد وقع تمام المخالفة، والحجویری أيضاً أول من حكى عن الصوفية أنهم يتزوجون في الظاهر فقط، فذكر أن أحد مشايخ الصوفية في القرن الثالث الهجرى عاش مع زوجته خمسة وستين عاماً من غير أن يقربها^(٥)، وحكى عن أبي عبد الله محمد بن خفيف الشيرازى المشهور، المتوفى عام ٣٧١ هـ — ٩٨١ م^(٦)، وكان من أبناء الملوك، أن بنات الملوك والرؤساء

(١) نفس المصدر ص ١٢ .

(٢) نفس المصدر ص ١٢٨ .

(٣) Amedroz Notes on some sufi liues JRAS 1912's 558 .

(٤) كشف المحجوب ص ٣٦٣ .

(٥) نفس المصدر ص ٣٦٢ .

(٦) يقول القشيري لأنه توفى عام ٣٩١ هـ . (المترجم)

لن يتقرب منه تبركا حتى يعقد عليهن ، وقد عقد أربع مائة نكاح ، ولكنه كان يقبل الزواج ثم يطلقهن قبل الدخول بهن^(١) على أن الحجويزي نفسه لم يكن متزوجا ، وهو يقول : « وبعد أن صانتني الله من آفة الزواج أحد عشر عاما قدر لي أن أقع في فتنة وأن أصير أسيرا لتلك التي لم أرها ، وبقيت في ذلك عاما حتى قرب ديني من الهلاك إلى أن من الله علي بكامل فضله وتمام لطفه فأرسل عصمته إلى قلبي الضعيف وخلصني من هذه الأوزار ، فالحمد لله على جزيل نعمائه »^(٢) .

ويظهر أن كثيرين من الصوفية أنفسهم لم يرضوا عن تطور مذهبهم وانهائه إلى ما انتهى إليه ، ولما صنف الشيخ أبو سعيد الأعرابي المتوفى عام ٩٥٢ هـ — ٩٥٢ م كتاب طبقات النساك ، وهو أول كتاب في ذلك ، وصف أول من تكلم في هذا العلم ، ثم من بعده من البصريين والشاميين وأهل خراسان إلى أن كان آخرهم البغداديين ، وهو يجعل أول التصوف آخره فيقول مثلاً إن آخر من تكلم في هذا العلم الجنيد وإنه ما بقي بعده « إلا من مجالسته غيظ » ، « وإلا من يستحي من ذكره »^(٣) ، وقد حكى عن أبي سهل التستري الإمام الصوفي (المتوفى عام ٢٧٣ هـ — ١٨٦ م أو ٢٨٣ هـ — ١٨٩٦ م كما يقول القشيري) أنه « كان يقول : بعد سنة ثلثمائة لا يجلب أن يتكلم بعلمنا هذا ، لأنه يحدث قوم يتصنعون للخلق ، ويتزينون بالكلام ، لتكون مواجيدهم لباسهم ، وحليتهم كلامهم ، ومعبودهم بطونهم »^(٤) . وفي سنة ٤٣٧ هـ — ١٠٤٥ م كتب عبد الكريم بن هوازن القشيري رسالته المشهورة إلى جماعة الصوفية ببلدان الإسلام ، وذلك أنه لما رأى انقراض أكثر شيوخ الصوفية المحققين ، وفساد

(١) كشف المحجوب ص ٢٤٧ .

(٢) نفس المصدر ص ٣٦٤ ، ص ٤٧٦ من النص الفارسي .

(٣) قوت القلوب لأبي طالب المسكي ج ١ ص ١٦٢ .

(٤) نفس المصدر .

حال كثير من الباقين ألف رسالته ، وذكر فيها سيراً من سير شيوخ هذه الطريقة في آدابهم وأخلاقهم ومعاملاتهم وعقائدهم لتكون قوة للصوفية وعوناً على صلاح أمرهم ؛ ومما قاله في أولها : « اندرست الطريقة بالحقيقة ، ومضى الشيوخ الذين كان بهم الاهتداء ؛ وقبل الشباب الذين كان لهم بسيرتهم وستهم اقتداء ؛ وزال الورع وطوى بسامه ، واشتد الطمع وقوى رباطه ؛ وارتحلت عن القلوب حرمة الشريعة ، فعدوا قلة المبالاة بالدين أوثق ذريعة ؛ ورفضوا التمييز بين الحلال والحرام ؛ ودانوا بترك الاحترام وطرح الاحتشام ؛ واستخفوا بأداء العبادات ؛ واستهانوا بالصوم والصلاة ، وركضوا في ميدان الغفلات ؛ وركنوا إلى اتباع الشهوات ، وقلة المبالاة بتعاطي المحظورات ؛ والارتفاق بما يأخذونه من السوقة والنسوة وأصحاب السلطان ؛ ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه الأفعال حتى أشاروا إلى أعلى الحقائق والأحوال ، وادعوا أنهم تحرروا عن رق الأغلال ، وتحققوا بحقائق الوصال ؛ وأنهم قائمون بالحق تجري عليهم أحكامه ، وهم نحو ، وليس لله عليهم فيما يوثرونه عتب ولا لوم ؛ وأنهم كوشفوا بأسرار الأحدية ، واختطفوا عنهم بالكلية ، وزالت عنهم أحكام البشرية »^(١) . وفي هذا العصر المتأخر أثرت عن قدماء مشايخ الصوفية حكايات تدل على شدة وقسوة في قمع شهوات النفس والتكفير عن ميولها ، ويشبه أن تكون هذه الحكايات إنما اخترعت ونسبت لأصحابها دفعا لما شاع من ركوض بعض المتصوفة في الشهوات وتعاطيهم للمحظورات ؛ فيُحكى عن السري السقطي المتوفى عام ٢٥١ هـ أو ٢٥٧ أنه كان إذا أفطر كل ليلة ترك لقمة ، فإذا أصبح جاءت عصفورة ، وأكلت تلك اللقمة من يده ؛ وذات يوم انتهى أكل الخبز بالقديد فامتنعت العصفورة من أكل اللقمة ، فعاهد نفسه

(١) مقدمة الرسالة القشيرية ص ٢ . ج ٣ .

ألا يتناول أبداً شيئاً من الأدام^(١) وقد لبث ستين سنة لم يضطجع ، فإذا غلبه النوم نام قاعداً القرفصاء^(٢) .

وتُحكى عنه حكاية شبيهة بما يؤثر عن ديوجينيس (Diogenes) ، قال الجنيد : « دخلت يوماً على السرى السقطى ، وهويبكى فقلت له : ما يبكيك ؟ فقال : جاءتني البارحة الصبية ، فقالت : يا أبت ؟ هذه ليلة حارة ، وهذا الكوز أُعلِّقُه ههنا ؛ ثم إنه حملتنى عيناي فنمت ، فرأيت جارية من أحسن الخلق ، قد نزلت من السماء ، فقلت : لمن أنت ؟ فقالت : لمن لا يشرب الماء البارد في الكيزان ، فتناولت الكوز فضربت به الأرض فكسرتة »^(٣) . ويحكى عن أبي محمد رُويم ابن أحمد البغدادي المتوفى عام ٣٠٣ هـ — ٩١٥ م أنه اجتاز بغداد وقت الهجرة بيعض السبك ، وهو عطشان ، فاستسقى من دار ، فتفتحت الصبية بابها ، ومعهما كوز ماء ، فأخذ منها وشرب ، فقالت الجارية : صوفى يشرب بالنهار ! فما أفطر . بعد ذلك اليوم قط^(٤) ؛ ويروى عن الجنيد أن ورده كان في كل يوم وليلة ثلثائة ركعة وثلاثين ألف تسبيحة^(٥) . وأقام عشرين سنة لا يأكل إلا من الأسبوع إلى الأسبوع^(٦) ، على أنه يحكى خلافاً لهذا أنه كان بديناً ، ولذلك كان يشك الناس في زهده^(٧) . ويحكى عن أبي نصر بشر الحافي المتوفى سنة ٢٢٧ هـ أنه مر بيعض الناس ، فقالوا : هذا الرجل لا ينام الليل كله ، ولا يفطر إلا في كل ثلاثة

(١) عجائب المخلوقات للقزويني طبعه فستفلد ص ٢١٦ ، والقشيري ص ١٠ .

(٢) روضة الناظرين للوترى ص ٨ .

(٣) القشيري ص ١١ .

(٤) القشيري ص ٢١ ؛ والقزويني ص ٢١٨ .

(٥) زبدة الفكرة ص ١٤٦ .

(٦) القزويني ص ٢١٦ .

(٧) روضة الناظرين ص ١٢ وتحكى حكايات أخرى كلها من المصادر المتأخرة وتدل

على الزهد الجام ، انظر ff 559 JRAS. Amedroz .

أيام مرة ، فبكى بشر ، فقيل له في ذلك ، فقال : إني لا أذكر أني سهرت ليلة كاملة ، ولا أني صمت يوماً ولم أفطر من ليلته ، ولا كن الله سبحانه وتعالى يلقي في القلوب أكثر مما يفعل العبد لطفاً منه سبحانه وكرماً^(١) .

ولا نجد مفراً من القول بأن مذاهب الصوفية تأثرت بمذاهب المعتزلة ؛ ذلك أن الصوفية أخذوا المسائل والنهائج من المعتزلة ، فتأمل مثلاً قول أبي علي ابن الكاتب الصوفي المتوفى سنة ٣٤٠ هـ (٩٥١ م) « إن المعتزلة نزهوا الله من حيث العقل فأخطأوا ، والصوفية نزهوه من حيث العلم فأصابوا »^(٢) ، ولذلك انتشر مذهب التصوف أسهل انتشار بين معتزلة فارس^(٣) ، ثم إن الصوفية جعلوا مسألة القدر — وهي أهم شيء عند المعتزلة — نقطة أساسية من مذهبهم ، فقالوا بالجبر على نحو لا تناقض فيه : يحكى عن أبي عبد الله أحمد بن يحيى الجلاء أنه قال « من استوى عنده المدح والذم فهو زاهد ، ومن حافظ على الفرائض في أول موافقتها فهو عابد ؛ ومن رأى الأفعال كلها من الله عز وجل فهو موحد لا يرى إلا واحداً »^(٤) .

(١) القشيري ص ١١ .

(٢) القشيري ص ٢٧ ؛ ومعنى هذا أن المعتزلة نفوا عن الله العقل بالمعنى الإنساني ، والصوفية نفوا عنه المعرفة العلمية الاستدلالية . انظر ما قاله الأستاذ ماسينيون في هامش كتاب الطواسين ص ١٨٧ . ولكن لعل صاحب هذا القول يقصد أن المعتزلة نزهوا الله مستنديين في ذلك إلى العقل والنظر ، فأنتهوا إلى التعطيل وما يشبهه النفي ، على حين أن الصوفية لم يلجأوا إلى العقل ، بل إلى الأخذ بالصرع في ظاهره وإلى العلم المنقول وإلى طريقتهم في التصفية ليحصل لهم العلم به من غير رجوع إلى النظر . (المترجم)

(٣) كان أبو القاسم علي بن أحمد بن مبروك الزوزني الشاعر متفتناً في العلوم ، فاثلاً بالاعتزال والزهد والتصوف (ينمية الدهر ص ٣٢٤) ؛ وكذلك كان أبو حيان التوحيدى أكبر كتاب النثر في القرن الرابع الهجري متفتناً في الكلام على مذهب المعتزلة ، وكان صوفياً السمى والمهبة (الإرشاد لياقوت ج ٥ ص ٣٨٠) .

(٤) القشيري ص ٢٠ ؛ ولكن توحيد الصوفية على هذا المعنى يناقض ما ذهب إليه المعتزلة من قولهم باختيار الإنسان في أفعاله وخلقه لها .

والجبر عند الصوفية ليس هو ذلك الذي يردده جماعة الفلاسفة من القول بالارتباط
الضروري بين الأسباب والمسببات ، بل إن الصوفية جعلوا للجبر معنى دينيا .
وكان الإسلام قد دعا من أول الأمر إلى الثقة بالله والتوكل عليه ؛ أما الصوفية
فإنهم لم يألوا جهداً في دعوة الناس إلى التوكل على الله والثقة المطلقة به ، تاركين الأمر
كله لمشيئته من غير أن يعملوا شيئاً ، ذاهبين إلى أن « أول مقام التوكل أن يكون
العبد بين يدي الله عز وجل كاليت بين يدي الغاسل يقلبه كيف شاء لا يكون
له حركة ولا تدبير »^(١) ، ومعظم كرامات الصوفية إنما هي جزاء وتحقيق لهذه
الثقة التي بفضلها تنفتح خزان الله . وكان التوكل أكبر عقيدة للصوفية في القرن
الرابع الهجري^(٢) . وكان مذهبهم يقوم على أربعة أصول ؛ فكان فيها بعد
التوكل الصبر والرضا والرجاء ، وهذا شبيه باعتقاد البروتستانت بالفضل الإلهي .
وقد أثر الصوفية تأثيراً قويا في الإسلام من طريق قولهم بالتوكل حتى طبعوه
بطابعه ، وهو ما يسمى بالاستسلام أو الجبر الإسلامي (Muhammedanische Fatalismus)
ولم يكن للقول بالجبر عند المتكلمين ولا عند المنجمين من الأثر
ما كان لتوكل الصوفية ، لأن الصوفية كانوا يطبقون قاعدة التوكل ، جادين
كل الجد ، في شئون الحياة اليومية العملية . على أن الاصطلاحات الإسلامية
الخاصة بالجبر ، لم يكن ظهورها في هذا العصر ، بل هي جمعت فيه ورسخت كما

(١) ونجد هنا لأول مرة التمثيل باليت بين يدي الغاسل ، ولم يكن هذا التشبيه قد
أصبح في القرن الرابع شيئاً عادياً مألوفاً . وإذا كان السكلافاذي (المتوفى عام ٣٨٠ هـ —
٩٩٠ م) قد ذكره (انظر مقالة الأستاذ جولده زيهر Goldziher, Materialien Zur
Enturcklungsgeschichte des Sufismus, WZKM. 1899, s. 42 فإن المبكي (المتوفى
عام ٣٨٦ هـ — ٩٩٦ م) لم يذكره ؛ وذلك خلافاً للقشيري (ص ٧٦) وقد بين جولده زيهر
في مقاله المتقدم شأن القول بالتوكل عند الزهاد :
(٢) انظر مثلاً باب التوكل في رسالة القشيري (الترجم) :

هي عليه اليوم^(١) ؛ وهذه هي النقطة الهامة ، وقد رَسَخ المتصوفة في ذهن كل مسلم بكلامهم البليغ ؛ وبأفعالهم ، أن الأرزاق قد قُسمت ، وكُتبت قبل خلق الناس بزمان طويل ، « وأن لكل عبد رزقا هو آتيه لا محالة ؛ ولو هرب العبد من رزقه ، كما لو هرب من الموت ، لأدركه »^(٢) ؛ « وأن من اهتم برزق غد وعنده اليوم قوت فهي خلية نُكُتبت عليه »^(٣) ؛ وأن رزق كل إنسان قد كُتِب في اللوح المحفوظ ، « ولا يُزادُ فيه بحول ولا حيلة »^(٤) ، وأن الأرزاق قد خلقت قبل خلق الأجسام بألفي عام^(٥) .

وقد كان وهب بن الورد يقول : « لو كانت السماء نحاساً والأرض رصاصاً ثم اهتممت برزقي، لظننت أني مشرك »^(٦) ، وأخيراً قَوَّى الصوفية روح التوكل ، كما دعا إليه الزهاد العباد ، وحَث عليه النصوص الماثورة — وهذا شيء في غاية الأهمية من الناحية الدينية — وقَسروه بأنه الرضا التام بكل الأحكام الإلهية^(٧) والسُرور باستقبال تجاري القضاء كلها ، بحيث يكون العبد راضياً عن المصيبة والنعمة على السواء ، ويحكى عن رابعة أنها سئلت متى يكون العبد راضياً ؟

(١) أما كلمة الفَنُوح (كفولهم العيش من الفتوح أو على الفتوح من أبواب الرزق) وهو الاصطلاح الذي صار فيما بعد هو وحده المستعمل بين الصوفية ، فقد كان في هذا العصر نادر الاستعمال وإن كان يذكر بين حين وآخر (انظر Goldziher, WZKM, 1899, s 48 ff.)

(٢) قوت القلوب ج ٢ ص ٧ . (٣) نفس المصدر ص ٩ .

(٤) نفس المصدر ص ٧ .

(٥) قوت القلوب ج ٣ ص ١١ من طبعة ١٣٥١ هـ — ١٩٣٢ م .

(٦) قوت القلوب للمسكي ج ٢ ص ٩ .

(٧) يقول القشيري (ص ٨٩) : « وقد اختلف العراقيون والخراسانيون في الرضا : هل هو من الأحوال أو من المقامات ؟ فأهل خراسان قالوا : الرضا من جملة المقامات وهو نهاية التوكل ، ومعناه أنه يؤول إلى أنه مما يتوصل إليه العبد باكتسابه ؛ وأما العراقيون فانهم قالوا الرضا من جملة الأحوال ، وليس ذلك كسبا للعبد ، بل هو نازلة تحمل بالقلب كسائر الأحوال » (المترجم)

فقلت : إذا سرته المصيبة كما سرته النعمة ؛ ويحكى عن بعض مشايخ الصوفية أنه قال : أرجو أن أكون عرفتُ طرفاً من الرضا : لو أدخلني النار لكنت بذلك راضياً^(١) . وتدل على توكل الصوفية الحقيقيين تلك الحكاية المشهورة التي تروى عن الدرويش الذي وقع في دجلة ، فقد أبصره رجل من المارة ورأى أنه لا يعرف السباحة ، فقال له : أتريد أن أرسل إليك من ينقذك ؟ فقال : لا ؛ فقال له الرجل : أتريد أن تغرق ؟ فقال : لا ، فقال له : فأى شيء تريد ؟ فقال : أى شيء أريد ! أريد ما يريد الله لي^(٢) . وفي أوائل حركة التصوف كان المحاسبي (المتوفى في عام ٥٢٤٣هـ — ٨٤٨ م) أول من فصل بين الرضا بمجارى الأحكام الإلهية وبين التوكل بمعناه المعروف ، وقال إن الرضا من جملة الأحوال التي لا تكتسب وإنما هي نوازل تحل بالقلب^(٣) . وهو أول من جعل للرضا الحظ الأوفر من عنايته . ونستطيع أن نعتبر المحاسبي مؤسس مذهب الاستسلام Fatalismus الذي ينسب للمسلمين^(٤) على أن الصوفية لم يبنوا عقيدتهم في القدر ولم يهضموها على أساس المنطق ، واقتصروا في ذلك على الناحية العملية الدينية ، فمن ذلك أنهم مثلاً لم يغتبروا بالغلم النظري فيؤدى بهم المنطق إلى رأى صارم صلب فيما ذهبوا إليه بين حين وآخر من القول بالقدر^(٥) .

أما القاعدة الثانية الكبرى في مذهب الصوفية ، وهي مسألة الولاية ، فإنها

(١) القشيري ص ٨٩ — ٩٠ (باب الرضا) .

(٢) كشف المحجوب ص ١٨٠ ، ٣٧٩ وما بعدها .

(٣) انظر نس القشيري المتقدم وكتاب كشف المحجوب ١٧٦ وما بعدها .

(٤) على أن المحاسبي مع قوله بالتوكل يعتبر العمل واجباً كالجري على المعاش . ويقول إن العمل في بعض الأحيان فضل ينال الإنسان عليه الثواب . وهذا موجود في كتاب المنكاسب للمحاسبي ، وفيه لقد لتقيق البلخي المتوفى عام ١٩٤ هـ . ونوه القائل بالتوكل من غير عمل ومؤسس مذهب الاستسلام (المترجم)

(٥) قوت القلوب للسكي نج ٢ ص ٧ .

مذهب نصراني غنوسطي . والولي^(١) هو من يواليه الله وينصره ، وهذه فكرة صوفية أحدثها الصوفية في الإسلام ، فلم ينفك عنها في كل عصوره ؛ وهذا هو أكبر نجاح ظاهر للصوفية وهو النجاح الذي بدأ يظهر في القرن الرابع الهجري . وينسب للمحاسبي (المتوفى عام ٢٤٣ هـ — ٨٤٨ م)^(٢) الذي تأثر بالمسيحية تأثراً قوياً أنه تكلم في مسألة درجات الأولياء وفي مقدمات الحياة الصوفية^(٣) . ويقال إن الذي بنى مذهبه على القول بالولاية هو أبو عبد الله محمد بن علي الحكيم الترمذي المتوفى عام ٢٨٥ هـ — ٨٩٨ م ، وينسب إلى الترمذي أنه قال إن عيسى عليه السلام خاتم الأولياء^(٤) . أما مؤرخو القرن الرابع وأصحاب التراجم فيه فلا يعرفون من الأولياء إلا الطائفة المستنيرين بالأبدال^(٥) . ويذكر ابن دريد

(١) انظر المعاني الأولى لهذه الكلمة في كتاب جولد زيهر Goldziher المسمى f. Muhammedanische Studien II 286 انظر معنى الكلمة أيضاً في رسالة القشيري ص ١٦٠ وكانت كلمة الولي في القرن الرابع تستعمل في معنى عادي غير دقيق بمعنى القريب أو النصير . انظر رسائل الصابي مخطوط ليدن رقم ٧٦٦ ص ٢١٥ ب ، ٢١٩ / (٢) ، ٢٢٠ / (٣) . وفي رسالة القشيري ص ١٧٤ يوصف الجندي بأنه أحد أولياء السلطان : « وقد تقابل اثنان أحدهما من أولياء السلطان والآخر من الرعية » وانظر أيضاً رسائل الخوارزمي ص ٢٦ ، ٢٧ .

(٢) انظر ما تقدم عن المحاسبي في أوائل هذا الفصل .

(٣) Margoliouth' Verhandl 3 Kong. f. Religionsgeschichte Oxford, Bd

I, s. 292

(٤) انظر أوائل هذا الفصل .

(٥) ربما كانت هذه الكلمة تعريباً للكلمة الفارسية التي تدل على الآباء وهي : پدر ، وهي التي تدل على القائد الروحي منذ عهد الغنوسطيين إلى عهد فرقة اليزيديين (بير) ويحيى عن أبي ثوبة (المتوفى عام ٢٤١ هـ) والذي ولد بحلب وعاش في طرسوس أنه كان من الأبدال (طبقات الحفاظ للذهبي طبعة فستفلد ج ٢ ص ١٨١) وفي سنة ٢٤٢ هـ مات الطوسي أحد الأبدال (نفس المصبر ص ٣٢ ، ٣٣) وفي عام ٢٦٥ هـ مات إبراهيم بن هاني النيسابوري وكان من الأبدال (تاريخ أبي الفدا تحت مجام ٢٦٥ هـ (ج ٢ ص ٢٥٦)) وكذلك كان خير ابن عبد الله النساج البصري المتوفى عام ٣٢٢ هـ من الأبدال (ابن الأثير ج ٢ ص ٢٢٢) . وفي سنة ٣٢٧ هـ توفي أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم التميمي الحنظلي وكان زاهداً مبدعاً من

المتوفى عام ٣٢١ هـ — ٩٣٣ م أن الأبدال جمع بديل وهم فئة من الصالحين لا تخلو الدنيا منهم أبداً وعددهم سبعون ، أربعون منهم في الشام ، وثلاثون في سائر البلاد^(١). أما الحجویری في القرن الخامس الهجري فهو يذكّر طبقات أخرى من الأولياء : فهناك ثلاثمائة يسمون الأخيار ، وأربعون يسمون الأبدال ، وسبعة يسمون الأبرار ، وأربعة يسمون الأوتاد ، وهم يطوفون العالم بجملته في كل ليلة ، ثم أيضاً ثلاثة نقباء ، وأخيراً يوجد القطب أو الغوث ، والأولياء هم ولاية العالم ، والحل والعقد منوط بهم ، وتدير العالم موصول بهم^(٢) . ومن الجلي أن القطب هو الصورة الموروثة للإله (Demiurgos) عند الغنوسيين ، وكانت صحراء تيه بنی اسرائیل تعتبر في ذلك الوقت موضع لقاء الغوث^(٣) وكانت الأُبُلَّة مقر الأبدال^(٤) . ولم يكن يأتي الاعتراف بالأولياء إلا المتمسكون بالنصوص على الطريقة القديمة ، وكان الصوفية يزددونهم ويشنعون عليهم بأنهم حشوية (مشيئة) ولم يكن أولئك المتمسكون بالنصوص يعترفون بالدرجة الرفيعة عند الله إلا للأنبياء ، أما المعتزلة فكانوا ينكرون بالكلية أن يختص بعض المسلمين بالولاية دون البعض ، ويرون أن جميع المسلمين الذين يطيعون الله ويقومون بأحكام الدين هم أولياء الله . وقد نشر جماعة الصوفية القول بالولاية حتى صار المتأخرون لا يعترفون إلا بأولياء الصوفية ، ثم ألحقوا بهم الأولياء الأقدمين مثل معروف الكرخي وبشر الحافي . وقد جعل على

الأبدال (طبقات السبكي ج ٢ ص ٢٣٧) . وقيل في حق أحد علماء الأندلس في القرن الرابع الهجري : « وإن كان أحد في عصره من الأبدال فيوشك أن يكون هو منهم » (ابن بشكوال ج ١١ ص ٩٢) .

- (١) الجمهرة لأبن دريد .
- (٢) كشف المحجوب ص ٢١٤ ، ٢٢٨ .
- (٣) نفس المصدر ص ٢٢٩ من الترجمة ، ٢٨٩ — ٢٩٠ من النص الفارسي .
- (٤) رسائل الخوارزمي طبعة القسطنطينية ص ٤٩ .
- (٥) كشف المحجوب ص ٢١٣ ، ٢١٥ .

رأس هؤلاء الصوفية الحسن البصرى^(١) ، وهو الرجل الذى كان يستبشع مظهر الصوفية ، فيحكى أنه تكلم عن كساء الصوف الذى كان يرتديه الصوفية ، والذى ادعى عليه البعض أنه لبسه بعبارة قاسية ؛ فقد رأى على مالك بن دينار كساء صوف فقال له : يعجبك هذا الطيلسان ؟ قال : نعم ؛ قال : إنه كان على شاة قبلك^(٢) . وقد اختص القرنان الأولان فى حياة التصوف بوجود كثير من الصالحين الذين اجتمع لهم شرطتا الولاية وهما أن يكون الوليّ مجاب الدعوة ، وأن تقع على يديه الكرامات^(٣) . وأولئك هم أولياء الإسلام القدماء الذين تؤثر أخبارهم فى جملة المأثورات القيّمة ؛ فالقزويني مثلاً لم يذكر فى كلامه عن بغداد فيما عدا بشرا الحافى إلا الأولياء الذين عاشوا حوالى عام ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م^(٤) . وكان كتاب طبقات الصوفية للسامى المتوفى عام ٤١٢ هـ — ١٠٢٤ م أول كتاب فى تراجم الأولياء ، ويشعر ما قاله أبو المحاسن الذى قرأ هذا الكتاب^(٥) بأن ظهور الأولياء إنما كان منذ القرن الثالث فما بعده ، وأنهم كثروا فى القرن الرابع^(٦) .

وكرامات الأولياء كثيرة متنوعة « وقد تكون إجابة دعوة ، وقد تكون إظهار طعام فى أوان فاقة من غير سبب ظاهر ، أو حصول ماء فى زمان عطش ، أو تسهيل قطع مسافة فى مدة قريبة ، أو تخليص من عدو ، أو سماع خطاب من

(١) روضة الناظرين ص ٥٠ .

(٢) لب اللباب (الآداب) فى رد جوابات ذوى الألباب مخطوط برلين رقم ٨٣١٧

Ahlw ص ١٠٩٥ .

(٣) وكذلك تستعمل كلمة كرامات استعمالاً غير ديني أيضاً ؛ فمن ذلك ما جاء فى رسائل الصباي (مخطوط ليدن ص ١٢٢٨) : ذلك ما أهلتى له ورفعتى إليه مولانا من تقليد ديوان الرسائل بمحضته وملازمة مجلسه وتوفيقه إياي ضروب الكرامات بالخائى التامة والعُملان الرابع بالمركب المذهب الخ » .

(٤) عجائب المخلوقات طبعة قسنطينة ص ٢١٥ وما بعدها ..

(٥) أبو المحاسن ج ٢ ص ٢١٨ .

(٦) تمارن الإرشاد لياقوت ج ٤ ص ٢٠٢ .

هاتف ، أو غير ذلك من فنون الأفعال الناقضة للعادة ^(١) ، ومنها أيضاً الأعاجيب التي تظهر عليهم عند موتهم . ويحكى أنه وجد مكتوباً على جبهة ذى النون المصري بعد موته : « هذا حبيب الله ، مات في حب الله ، قتل الله » وعند ما سارت جنازته تجمعت طيور السماء فوقها وألقت أجنحتها على الجنازة لتظلها ^(٢) . ولما مات أبو محمد البربهاري في عام ٣٢٩ هـ — ٩٤١ م مستتراً من السلطان عند أخت توزون — لأنه كان يحارب أهل البدع فغيروا قلب السلطان عليه — بحثت عن يغسله ويصلي عليه ؛ فجاء رجل وغسله وصلى عليه وحده ؛ وكانت أخت توزون قد أغلقت الأبواب حتى لا يعلم أحد بذلك ، فاطلمت فإذا الدار ممتلئة رجالاً بثياب بيض وخضر ^(٣) . وكذلك أمر أحمد بن طولون بأن يطرح بُنان الصوفي المعروف بالحمال المتوفى عام ٣١٦ هـ ٩٢٨ م بين يدي سبع فطرح ، وبقي ليلته مع السبع ، فكان السبع يشمه ولا يضره ؛ فلما جاء الصباح وجدوه قاعداً مستقبلاً القبلة ، والسبع بين يديه ؛ فأطلقه ابن طولون واعتذر إليه ^(٤) . وقد سُمي الشيخ أبو الخير العابد الأقطع الشامي صاحب الكرامات المتوفى عام ٣٤١ هـ بالبُناني ؛ وربما كان ذلك لأنه كان من كراماته أن الوحوش تأنس به ^(٥) . وفي سنة ٢٦٢ هـ توفي عبد الله المروزي ، أحد الأبدال ، وكان يقيم بقزوين ، وكان يمشي على الماء ، ويقف له بحر جيحون ^(٦) . ويحكى عن أحد الصوفية أنه كان يتناول الجواهر من الهواء ؛ وعن رجل أسود فقير يأوي إلى الخرابات أنه أشار بيده إلى الأرض ، فإذا الأرض كلها ذهب تلمع ؛ وجاءه رجل يحمل إليه شيئاً فقال له الأثر وهرب ؛

(١) القشيري ص ١٦٠ .

(٢) كشف المحجوب ترجمة نيكلسون ص ١٠٠ وص ١٢٥ من الأصل الفارسي .

(٣) المنتظم لابن الجوزي ص ٦٨ ب من مخطوط برلين .

(٤) المنتظم لابن الجوزي ص ٣٥ ب ؛ وأبو المحاسن ج ٢ ص ٢٣٣ .

(٥) أبو المحاسن ج ٢ ص ٣٣٥ .

(٦) نفس المصدر ج ٢ ص ٣٧٠ .

وعن آخر أن حمارة كلمه ، وعن بعضهم أن حمارة نفق في بعض الطريق ، فصرى ودعا الله أن يبعثه ، فقام الحمار ينفض أذنيه ، وعن رجل منهم أنه وقع فص له في دجلة فدعا بدعاء مجرب عنده ، فوجد الفص في أوراق كان يتصفحها ، وعن غيره أنه أوى إلى مسجد من المطر ، وكان سقفه يكيف فأراد إصلاح السقف بخشبة كانت معه ، وكانت قصيرة فطالت حتى ركبت الحائط ؛ ويحكى عن صوفي أنه لما مات ضحك على المقتسل ، فلم يجسر أحد على غسله ، وقالوا إنه حي حتى جاء واحد من أقرانه وغسله ؛ وروى عن آخر أنه انكسرت به السفينة ، وبقي هو وامراته على نوح ، وولدت امراته في تلك الحال جبيبة ، فصاحت به وقالت له : يقتلني العطش ؛ فقال : هوذا يرى حالنا ؛ فرفع رأسه ، فإذا رجل في الهواء جالس ، وفي يده سلسلة من ذهب ، وفيها كوز من ياقوت أحمر ، وقال : ها كما ، اشربا ، فشربا منه شيئا أطيب من المسبك ، وأبرد من الثلج ، وأحلى من العسل ؛ فقال الرجل لصاحب الكوز : من أنت رحمك الله ؟ فقال له : عبد لمولاك ، فقال له : بم وصلت إلى هذا ؟ فقال : تركت هواي لمرضاته فأجلسني في الهواء ، ويحكى عن شاب كان يكثر الصلاة عند الكعبة أنه سقطت عليه رقعة مكتوب فيها : من العزيز الغفور إلى عبدى الصادق ، انصرف مغفورا لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، وكان قد سئل هذا الشاب من قبل في كثرة صلاته ، فقال إنه ينتظر الإذن من ربه في الانصراف .

ويذكر عن رجل أنه كان يتعبد في غرفة ليس إليها سلم ولا درج ، فكان إذا أراد أن يتطهر يجرى إلى باب الغرفة ، ويقول : لا حول ولا قوة إلا بالله ، ويمر في الهواء كأنه طير ، ثم يتطهر ، فإذا فرغ يقول : لا حول ولا قوة إلا بالله ، ويعود إلى غرفته ؛ ويروى عن آخر أنه دخل الآتون وهو موقد وخرج من الباب الآخر ، لم يصبه شيء ، على نحو ما يحكى عن سيدنا إبراهيم عليه السلام ؛ وعن

أحدهم أنه تزوج امرأة ، فلما كان ليلة الدخول بها وقعت عليه ندامة^(١) ؛ فلما أراد الدنو منها زجر عنها ، فخرج ، فبعد ثلاثة أيام ظهر لها زوج ؛ وعن ذى النون المصرى أنه أراد أن يبين طاعة الأشياء للأولياء ، فأمر السرير أن يدور في أربع زوايا البيت ، فدار ، ثم رجع إلى مكانه ؛ وعن الفضيل أنه كان على جبل من جبال منى فقال : لو أن وليا من أولياء الله تعالى أمر هذا الجبل أن يميد لماد ، فتحرك الجبل ؛ فقال له : أسكن ، لم أريدك بهذا ؛ فسكن الجبل ، ويحكى عن السرى السقطى أن الدنيا كانت تأتي له على هيئة عجوز فتكنس بيته ؛ وتحمل إليه في كل يوم رغيفين ؟ وعن بعضهم أنه مات وهو في مركب فجهّز ، وأريد إلقاؤه في البحر ، فجفّ البحر ، ونزلت السفينة ، فحفروا له القبر ودفنوه ، فلما فرغوا استوى الماء وارتفع المركب ؛ وكثيراً ما يذكر أن الخضر يظهر للأولياء ، ولا يزال الخضر إلى اليوم موثلاً الدراويش^(٢) .

ويحكى ابن حزم^(٣) عن بعض نوكتي الصوفية أنهم « زعموا أن الخضر وإلياس عليهما السلام حيّان إلى اليوم ، وادعى بعضهم أنه يلقى إلياس في الفلوات ؛ والخضر في المروج والرياض ، وأنه متى ذكر حضر على ذاكره » . وقد تظهر كرامات الولي بعد فوات عصره ؛ فيحكى القشيري مثلاً أن مما شاهده من أحوال أبي على الدقاق أنه كان به علة حرقه البول ؛ وكان يقوم في الساعة غير مرة ؛ وربما كان يجدد لركعتي فرض أكثر من مرة ؛ ولكنه كان إذا تعبد على رأس الكرسي يتكلم لا يحتاج إلى الطهارة ولو امتدّ به المجلس زماناً طويلاً ، ثم يقول القشيري : « ولم يقع لنا في حياته أن هذا شيء ناقض لعادته ، وإنما وقع لي هذا ، وفتح على علمه بعد وفاته » ؛ وذلك لأن أحوال الولي تكون مستورة^(٤) .

(١) انظر باب الكرامات في رسالة القشيري . (المترجم)

(٢) الفصل ج ٤ ص ١٨٠ .

(٣) القشيري ص ١٧٢ .

على أننا لا نجد أنه قد وقع على أيدي المسلمين في ذلك العهد ما كان يقع على أيدي أصحاب الخوارق النصارى من إحياء الموتى^(١) ؛ أما المسلمون فلم يصلوا إلا إلى قيام الحيوانات بعد موتها على أيديهم^(٢) . ولم يكن يتعلق بالخوارق والكرامات إلا عوام الصوفية ؛ أما الخاصة الكاملون فكانوا لا يجعلون لها شأنًا بالنسبة إلى الأمور النفسية . فيُحكى أنه قيل لأبي محمد عبد الله بن محمد المرتعش المتوفى عام ٣٢٨ هـ — ٩٤٠ م إن فلانًا يمشى على الماء فقال : « عندى أن من مكنته الله تعالى من مخالفة هواه فهو أعظم من المشى في الهواء »^(٣) . ويُحكى عن بعض الصوفية أنه قال : كان في نفسى شيء من هذه الكرامات ، فأخذت قصبة من الصبيان وقت بين زورقين ، ثم قلت : وعزتك لئن لم تخرج لى سمكة فيها ثلاثة أرطال لأغرقن نفسى ، قال : فخرجت لى سمكة فيها ثلاثة أرطال ، فبلغ ذلك الجنيد فقال : كان حكمه أن تخرج له أفعى تلدغه^(٤) . ويحكى عن أبي يزيد البسطامي المتوفى عام ٢٦١ هـ — ٨٧٤ م أنه قيل له : فلان يمشى في ليلة إلى مكة ، فقال : الشيطان يمشى في ساعة من المشرق إلى المغرب في لعنة الله ؛ وقيل له : فلان يمشى على الماء ، ويطير في الهواء ، فقال : الطير يطير في الهواء والسماك يمشى على الماء ؛ وكان أبو سهل التستري (المتوفى عام ٢٧٣ هـ أو ٢٨٣ هـ — ٨٨٦ م أو ٨٩٦ م) لا يعتد بإظهار الكرامات ، فكان جزاؤه أن أضيفت إليه كرامات . ويحكى عنه أنه قال : أكبر الكرامات أن تبدل خلقًا مذمومًا من أخلاقك^(٥) . وجاء رجل إلى سهل ، وقال له : إن الناس

(١) انظر مثلاً Michael Syrus, s. 560 ff .

(٢) القشيري ص ١٧٤ .

(٣) نفس المصدر ص ٢٦ .

(٤) نفس المصدر ص ١٦٣ .

(٥) نفس المصدر ص ١٦٣ .

يقولون إنك تمشي على الماء ؛ فقال : سل مؤذن المحلة ، فإنه رجل صالح لا يكذب
قال : فسألته ، فقال المؤذن : لا أدري هذا ، ولكنه نزل الحوض في بعض الأيام
ليتطهر فوق في الماء ، فلم أكن أنا لبقى فيه ؛ يقول القشيري : « قال الأستاذ
أبو علي الدقاق إن سهلاً كان بتلك الحالة التي وصف ، ولكن الله تعالى يريد
أن يستر أوليائه ، فأجرى ما وقع من حديث المؤذن والحوض ستراً لحال سهل ،
وكان سهل صاحب الكرامات »^(١) ، وقد ذهب بعض العلماء الذين هم أئمة وخجعة
عند الصوفية إلى أن المعجزات دلالات صدق الأنبياء ، ودليل النبوة لا يوجد
مع غير النبي ؛ وإلى أن الأولياء لهم كرامات شبه إجابة الدعوة ؛ فأما جنس ما هو
معجزة للأنبياء فلا . وذهب بعضهم إلى أن المعجزات دلالات الصدق لصاحبها ،
فإن ادعى النبوة دلت على صدقه في مقالته ، وإن أشار إلى الولاية دلت المعجزة
على صدقه في حاله ، فتسمى كرامة ، ولا تسمى معجزة ، وإن كانت من جنس
المعجزات بالفرق ، وكان يقول : « من الفرق بين المعجزات والكرامات أن
الأنبياء عليهم السلام مأمورون بإظهارها ، والولي يجب عليه سترها وإخفاؤها ؛
والنبي صلى الله عليه وسلم يدعي ذلك ويقطع القول به ؛ والولي لا يدعيها ولا يقطع
بكرامته لجواز أن يكون ذلك مكراً »^(٢) ، وكذلك اختلفت الآراء في الولي : هل
يجوز أن يعلم أنه ولي أم لا ؟ فذهب البعض إلى أنه لا يجوز ذلك ؛ « لأنه يسلبه
الخوف ، ويوجب له الأمن » ؛ وذهب غيره إلى جوازه عند بعض الأولياء دون
بعض^(٣) . ويحكى عن السري السقطي شيخ التصوف أنه قال : لو أن واحداً
دخل بستاناً فيه أشجار كثيرة ، وعلى كل شجرة طير يقول له بلسان فصيح :

(١) . نفس المصدر ص ١٧٢ .

(٢) القشيري ص ١٥٨ — ١٦٠ ، ومن الفوارق الأخرى بين النبي والولي أن النبي
يكون معصوماً على خلاف الولي (انظر كشف المحجوب ص ٢٥) والقشيري ص ١٦٠ .

(٣) القشيري ص ١٥٩ .

السلام عليك يا ولي الله ؛ فلو لم يخف أنه مكر لكان ممكورا^(١) . والذي يدا
على أن تعظيم الأولياء رغم انتشاره كان إلى حد كبير شأن المتصوفة والعامه هي
كتب العلماء والأدباء ، فلسنا نجد من علماء الجغرافية في القرن الرابع من يتكلم عن
ولي من الأولياء ، ولا نجد شاعراً يذكر أحداً منهم .

وأخيراً فإن المذهب الصوفي أنشأ اعتقاداً كانت له قوة كبيرة جدا من الناحية
الدينية ؛ لأنه كان يشبع حاجة للتقديس موجودة قبل عهد الإسلام : فقد رفع
هذا الاعتقاد محمداً إلى درجة فوق درجة الإنسان ، حتى أو شك أن يرفعه إلى
درجة الألوهية . أما المسلمون الأولون فقد كانوا معتدلين مقتصدين ؛ فيضحى
عن أبي بكر رضى الله عنه أنه دخل على حبيبه ويهاديه النبي صلى الله عليه وسلم
وهو مسجى ، فقبله ؛ ثم بكى وقال : بأبي أنت وأمي يا نبي الله ، لا يجمع الله
عليك موتين ، أما الموتة التي كتبت عليك فقد مَّتها^(٢) .

أما الحلاج ، فإنه — وإن كان يعظم قدر عيسى عليه السلام — يجعل في الفصل
الأول من كتاب الطواسين ما يشبه أنشودة حماسية عن النبي محمد : « طس سراج
من نور الغيب بدا وعاد ، وجاوز السراج وصاد ، قر تجلّ من بين الأقمار ، برجه
في فلك الأسرار ، سماء الحق أمّياً لجمع همته ، وحرماً لعظم نعمته ، ومكياً
لتمكينه عند قربه ، شرح صدره ، ورفع قدره ، وأوجب أمره ، فأظهر بدره . طلع
بدره من غمامة اليمامة ، وأشرقت شمس من تحية تهامة ، وأضاء سراج من معدن
الكرامة ، ما أخبر إلا عن بصيرته ... » والذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما
يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون » . أنوار النبوة^(٣)

(١) . نفس المصدر ص ١٦٠ .

(٢) صحيح البخارى . باب الجنائز .

(٣) يقول منذ إن هذا التعبير تعبير غنوسطى :

من نوره برزت ، وأنوارهم من نوره ظهرت ، هَمَّتْهُ سبقت الهمم ، ووجوده سبق العدم ، واسمه سبق القلم ، لأنه كان قبل الأمم . . . وهو سيد البرية الذى اسمه أحمد ، ونعته أوحده ، كان مشهوراً قبل الحوادث والكوائن والأكوان ، ولم يزل مذكوراً قبل القبل وبعد البعد ، هو الذى جلا الصداً عن الصدر المغلول ، هو الذى أتى بكلام قديم لا يحدث ولا مقول ولا مفعول . . . فوقه غمامة برقت ، وتحته برقة لمعت ، وأشرقت وأمطرت وأثمرت ، العلوم كلها قطرة من بحره ، الحكم كلها غرفة من نهره ، الأزمان كلها ساعة من دهره ، هو الأول فى الوصلة ، هو الآخر فى النبوة ، والباطن بالحقيقة ، والظاهر بالمعرفة ، خرج عن ميم محمد وما دخل فى حاية أحد»^(١) .

بهذه الأصول الثلاثة الكبرى ، وهى ماسمى بالاستسلام ، ثم تعظيم الأولياء ، والغلو فى تعظيم النبي محمد (عليه الصلاة والسلام) رسم الصوفية فى القرنين الثالث والرابع للهجرة للحركات الإسلامية الاتجاهات الكبرى التى سارت عليها والتى بقيت إلى اليوم . ولكن التصوف لم يكن يضمن للناس اليقين بالفوز بالنجاة فى الآخرة ، كما أنه لم يكن يحقق لهم تبديد ما يساورهم من المخاوف والشكوك فيما يتعلق بحسن الخاتمة ، فيحكى أن أبا طالب المكي — وكان من أكابر الزهاد المتعبدين وصاحب كتاب فى التصوف — لما حضرته الوفاة عام ٣٨٦ هـ — ٩٩٦ م قال لأحد أصحابه : إذا علمت أنه قد ختم لى بخير ، فأنثر على سكرى ولوزاً إذا خرجت جنازتى ، وقل : هذا للحياضق ؛ فقال صاحبه : من أين أعلم ؟ فقال : خذ بيدى وقت وفاتى ، فإذا أنا قبضت بيدى على يدك ، فأعلم أنه قد ختم الله بالخير ، وإذا أنا لم أقبض على

(١) كتاب الطواسين ص ٩ — ١٤ . وكذلك القول بالوجود السابق أصله من مذاهب الغنوسطين . وقد أصلحت هنا بعض الآراء لتطابق النصوص التى يرجع إليها المؤلف وفيما يتعلق بسيدنا عيسى عليه السلام ، انظر ما يلى . (المترجم)

يدك وسييت يدك من يدى فاعلم أنه لم يُختم لى بخير. فقعدت عنده فلما كان عند وفاته قبض على يدى قبضاً شديداً ، فلما أخرجت جنازته نثرت عليه سكرًا ولوزًا ، وقالت : هذا للحاذق ، كما أمرنى^(١) . ويحكى مثل هذا عن الإمام أبى الحسن الماوردى المتوفى عام ٤٥٠ هـ — ١٠٥٨ م ؛ فقد قيل « إنه لم يظهر شيئاً من تصانيفه فى حياته ، وجمعها فى موضع ، فلما دنت وفاته قال لمن يثق به ، الكتب التى فى المكان الفلانى كلها تصنيفى وإنما لم أظهرها لأنى لم أجد نية خالصة ، فإذا عاينت الموت ، ووقعت فى النزع ، فأجعل يدك فى يدى فإن قبضت عليها وعصرتها فاعلم أنه لم يقبل منى شيء منها ، فاعمد إلى الكتب وألقها فى دجلة ، وإن بسطت يدى ولم أقبض على يدك فاعلم أنها قد قبلت وأنى قد ظفرت بما كنت أرجوه من النية . قال ذلك الشخص . فلما قارب الموت وضعت يدى فى يده فبسطها ولم يقبض على يدى فعلمت أنها علامة القبول فأظهرت كتبه من بعده وعليها خطه^(٢) » ومما يقرؤه الإنسان مع التأثر أنه فى أواخر التراجم الغربية التى تكتب الأولياء يذكر أن الولي يعرض فى المنام لأحد أصحابه أو تلاميذه وعليه ملابس تدل على ما ناله من الرحمة الإلهية والفضل ، وأن أصحابه يسألونه متلهفين عن الشيء الذى نال به السعادة والقبول . وكان أكبر شيء يضمن للإنسان الجنة عند المسلمين هو أن يستشهد الإنسان وهو يقاتل الكافرين . وقد فطن الإمبراطور نقفور — وهو أكبر عدو للإسلام فى القرن الرابع الهجرى — لقيمة هذه المسألة من الناحية الحربية ؛ فأراد أن يعلن أن كل من يموتون فى الحرب مع المسلمين ، فهم شهداء ، ولكن الكنيسة كانت ساخطة على نقفور لأسباب مالية فلم تجبه إلى ذلك^(٣) .

(١) المنتظم لابن الجوزى ص ١٣٩ ب .

(٢) طبقات السبكي ج ٣ ص ٣٠٣ — ٣٠٤ .

(٣) Krumbacher, Geschichte der byz Literature, 2, s 985

على أن حركة التصوف قد خرجت كثيراً في بعض صورها الأخرى عن حدود المبادئ الإسلامية ، وهذا هو الذى يجعلها فرعاً غير أوروبى له مميزاته الشرقية الخاصة ، فلم يكتف المتصوفون بأن يجعلوا للإحساسات صبغة إلهية ، بل هم أرادوا فوق ذلك أن يجعلوا للإرادة الإنسانية هذه الصبغة ، وأن يدعوا لهذه الإرادة الإلهية في زعمهم — بناء على ذلك — القدرة الإلهية على كل شيء ، وبهذه المذاهب عرّضوا هدوء الدولة وسكينة أهلها لأكبر الأخطار ، وازدادت قائمة الزنادقة حوالى عام ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م زيادة كبيرة ملحوظة ..

ففى عام ٣٠٩ هـ — ٣٢١ م قُتل الحسين بن منصور الحلاج قتلًا شنيعاً ، فضُرب ألف سوط ، وقطعت يداه ورجلاه ، وأُحرق بالنار^(١) . ويقول البيرونى^(٢) إنه رجل متصوف من أهل فارس ؛ ويقول صاحب الفهرست إنه كان يظهر مذاهب الشيعة للملوك ومذاهب الصوفية للعامة^(٣) . ويحكى أنه كان يصلى فى كل يوم أربعاً ركة^(٤) . ويذكر ابن النديم بعد وفاة الحلاج بست وستين سنة سبعة وأربعين من مصنفاته^(٥) ، وقد نشر الأستاذ ماسينيون أحد هذه الكتب وعلق عليه ، وقد استطاع الحلاج أن يعبر عن النكت الدقيقة فى

(١) انظر آخر ما كتب عن الحلاج عند Schreiner, ZDMG, 52, s. 468 ff ؛ وعربى القرطبي طبعة دى غوى من ٨٦ وما بعدها ؛ وأهم ما يرجع إليه كتاب الطواسين للحلاج (طبعة باريس ١٩١٣) ، ومقالة أنا الحق فى مجلة Der Islam, III, 248 ff.

(٢) الآثار الباقية ص ٢١١ .

(٣) كتاب الفهرست ص ١٩٠ .

(٤) كشف المحجوب ترجمة نيكلسون ص ٣٠٣ .

(٥) كتاب الفهرست ص ١٩٢ وما ذكره الأستاذ ماسينيون فى كتاب الطواسين ؛ ويقول البيرونى فى الآثار الباقية (ص ٢١٢) إن الحلاج صنف كثيراً فى دعواه مثل كتاب نور الأصل وكتاب جم الأصغر وكتاب جم الأكبر . ويذكر السبكي فى الطبقات (ج ٣ ص ٦١) أنه كان بين كتب عبد الرحمن السلمي (مؤرخ الصوفية المتوفى عام ٤١٢ هـ — ١٠٢١ م) كتاب للحلاج يسمى الصيهور فى نقص الدهور ، وكان هذا الكتاب فى مجلدة صغيرة منبرمة فيها أشعاره . . .

تفكيره ، وعما كان في مذهبه من نزعة قوية إلى القول بوحدة الوجود تعبيراً أدبياً يتجلى فيه الخلق والمهارة المدهشة ؛ ولم تكن هذه القدرة بنت أمسها ، بل هي تم عن نسبها وصلتها بمذاهب الغنوسطيين ؛ وتذكرنا أيضاً في كثير من الأحيان بأجل القطع في أناشيد الغنوسطيين ؛ أما طريقة العلاج فهي من كل وجوها طريقة المعتزلة ، فقد أخذ عنهم فكرة تنزيه الذات الإلهية عن جميع الصفات الإنسانية وجميع الأوصاف المتغيرة — كما أخذ عنهم تسمية الذات الإلهية باسم الحق — وتلك الفكرة هي آخر ما يصل إليه الإنسان بطريق التنزيه . ولكننا إذا وجدنا العلاج يميز بين اللاهوت والناسوت في الذات الإلهية — وها كلمتان غريبتان عن الإسلام يرجع أصلهما إلى النزاع الذي قام بين النصارى في الشام حول طبيعة المسيح — ؛ وإذا وجدنا عنده القول بأن الله سيحكم بين الناس يوم القيامة بصورة الناسوتية^(١) . وأنه ظهر قبل إيجاده للخلق أولاً في صورة الإنسان^(٢) وهذا يشبه الإنسان القديم (المسمى عند اليونان *proön anthrôpos* في مذهب الغنوسطيين انظر مثلاً Hilgenfeld, Ketzergeschichte, 294 ، ثم إذا وجدنا أنه يقول إن الله بدا خلقه ظاهراً في صورة آكل والشارب حتى يعاينه خلقه « كلحظة الحاجب بالحاجب »^(٣) فإننا نجد أنفسنا وسط ذلك العالم الغريب الذي كان للغنوسطيين المسيحيين وهو الذي كان من ناحيته مجرد صورة مطموسة للأساطير القديمة . ونستطيع أن نلاحظ صلة النسب والشبه بين ما ذهب إليه

(١) كتاب الطواسين ص ١٣١ .

(٢) نفس المصدر ص ١٣٠ .

(٣) قال العلاج (الطواسين ص ١٣٠) :

سبحان من أظهر ناسوته	سر سنا لاهوته الثاقب
ثم بدا في خلقه ظاهراً	في صورة الآكل والشارب
حتى لقد عاينه خلقه	كلحظة الحاجب بالحاجب

الحلاج وبين مذهب الغنوسطين حتى في التفاصيل . فثلاً يقول باسيليدس Basilides des Irenaeus إن الأب تصدر عنه الكلمة logos ثم الحكمة Phronesis ثم القدرة Dynamis ثم العلم Sophia^(١) وكذلك نجد الحلاج يتكلم في طاسين المشيئة عن أربع دوائر؛ الأولى مشيئته ، والثانية حكمته ، والثالثة قدرته ، والرابعة معلوماته وأزليته^(٢) . فطريقة التمثيل بالدوائر وهي التي وجدها Celsus عند الغنوسطين ، نجدها أيضاً عند الحلاج في كتابه الوحيـند الذي نعرفه إلى اليوم ، ونجدها أيضاً في مصنفات الدروز كما هو معلوم جيداً ، ويمثل العقل عند الغنوسطين بالشكل المعمل^(٣) ، وفي كتاب الطواسين يمثل الفهم بالمستطيل (ص ٣١) . ولما كبست دار أحد أصحاب الحلاج وجدت فيها دفاتر كثيرة مكتوبة على ورق صيني، وبعضها مكتوبة بماء الذهب ومبطنة بالديباج والحرير ومجلدة بالأدم الجيد^(٤) . وكانت هذه أيضاً من عادات الغنوسطين في العناية بكتبهم . وكان المنانية أيضاً يزيتون كتبهم الدينية بالذهب والفضة^(٥) . وكذلك نجد ما كان عند الغنوسطين من تنسك الناس وتطهرهم مجتمعين ، ومن بيان مراتب التصفية من الطبيعة البشرية ، ويصرّح الحلاج بأن عيسى (عليه السلام) هو المثل الأعلى الذي ينتهي إليه الإنسان بالتصفية . وقد بين الأضطخري^(٦) أحد معاصري الحلاج التأخرين مذهبه بقوله : « الحسين بن منصور المعروف بالحلاج من أهل البيضاء ؛ وكان رجلاً حلاجياً ينتحل التنسك ؛ فما

(١) Hilgenfeld, s. 199 .

(٢) كتاب الطواسين ص ٥٦ .

(٣) Hilgenfeld, s. 278 .

(٤) عريب ص ٩٠ نقلاً عن مسكويه .

(٥) المتنظم لابن الجوزي ص ٢٣٠ .

(٦) ص ١٤٨-١٤٩ .

زال يرتقى به طبقاً عن طبق حتى انتهى به الحال إلى أن زعم أن من هذب في الطاعة نفسه ، وأشغل بالأعمال الصالحة قلبه ، وصبر على مفارقة اللذات ، وملك نفسه في منع الشهوات ، ارتقى به إلى مقام القربين ، ثم لا يزال يتنزل في درج المصافاة حتى يصفو عن البشرية طبعه ، فإذا لم يبق فيه من البشرية نصيب حل فيه روح الله الذي كان منه عيسى ابن مريم ، فيصير مطاعاً فلا يريد شيئاً إلا كان من كل ما ينفذ فيه أمر الله ، وأن جميع فعله حينئذ فعل الله ، وجميع أمره أمر الله .

ويقول الجلاج نفسه :

مُزِجَتْ رَوْحُكَ فِي رَوْحِي كَمَا تُمِزُجُ الْخَمْرُ بِالْمَاءِ الزُّلَالِ
فَإِذَا مَسَّكَ شَيْءٌ مَسَّنِي فَإِذَا أَنْتَ أَنَا فِي كُلِّ حَالٍ^(١)

ويقول :

أَنَا مِنْ أَهْوَى وَمِنْ أَهْوَى أَنَا نَحْنُ رَوْحَانِ تَكَلَّمْنَا بِدَنَا
فَإِذَا أَبْصَرْتَنِي أَبْصَرْتَهُ وَإِذَا أَبْصَرْتَهُ أَبْصَرْتَنَا^(٢)

وقد مثل الوصول إلى الحقيقة تمثيلاً جميلاً فريداً ؛ فهو يقول في طاسين الفهم^(٣) : « أفهام الخلائق لا تتعلق بالحقيقة ، والحقيقة لا تتعلق بالخليقة ؛ الخواطر علائق ، وعلائق الخلائق لا تصل إلى الحقائق ؛ والإدراك إلى علم الحقيقة صعب ، فكيف إلى حقيقة الحقيقة ؛ الحق وراء الحقيقة ، والحقيقة دون الحق ؛ الفراش يطير حول المصباح إلى الصباح ، ويعود إلى الأشكال ، فيخبرهم عن الحال بالطف المقال ، ثم يمرح بالدلال طمعا في الوصول إلى الكمال ، صورة المصباح علم الحقيقة ،

(١) كتاب الطواسين ص ١٣٤ .

(٢) نفس المصدر ص ١٣٤ ، ومن العجيب أننا لا نجد هذه الصورة في كتاب الطواسين ، ولابد أن يكون مذهب الجلاج قد نشأ أطواراً في أوقات متباعدة .

(٣) كتاب الطواسين ص ١٦ — ١٧ .

وحرارته حقيقة الحقيقة ، والوصول إليه حق الحقيقة ؛ لم يرض بضوئه وحرارته
فيلقى جلته فيه ؛ والأشكال ينتظرون قدومه فيحذرون عن النظر حين لم يرض
بالخبر ، فحينئذ يصير متلاشياً متصاعراً متطائراً فيبقى بلا رسم وجسم واسم ووسم ،
فلاى معنى يعود إلى الأشكال ، وبأى حال بعد ما حاز اصار من وصل إلى النظر
استغنى عن الخبر ، ومن وصل إلى المنظور استغنى عن النظر .

ويقول (٢) :

أنت بين الشغاف والقلب تجرى مثل جرى الدموع من أجفاني
وتحمل الضمير جوف فؤادي كحلول الأرواح في الأبدان

على أن الصولي في كلامه عن الحلاج مراراً يقول إنه رجل جاهل يتعاقل ؛
ولكن الأصطخري يقول إنه استمال جماعة من الوزراء وطبقات من حاشية السلطان
وأسماء الأمصار وملوك العراق والجزيرة وما والآها (٢) . وقد اتهم نصره الحاجب
بوجه خاص ومعظم شأنه بالليل إليه ، وكذلك استحضر الوزير بغض القضاة
والفقهاء واستفتاهم في أمره فذكروا أنهم لا يفتون بقتله ، ومكث الحلاج محبوساً
في دار الخلافة ثمانية أعوام موتعاً عليه . وتشعرنا أخباره بأن الدسائس هي التي
كانت سبباً في قتله . وأغلب ما انتهى إلينا من أخبار الحلاج إنما ذكره خصومه ،
ويؤخذ من هذه الأخبار بوضوح أن الحلاج قد أثر في كبراء أهل بغداد تأثيراً

(١) نفس المصدر ص ١٣٣ . وقد ذكر غريب القرطبي (ص ٩٨) أحياناً للحلاج .

كل بلاء عليّ متى فليتني قد أخذت غني
أردت متى اختبار سرّي وقد علمت المراد مني
وليس لي في سواك حظ فكيفما شئت فاخترني

(٢) الأصطخري ص ٢٣٩ ؛ ويقول ابن حوقل إنه كان في أول أمره داعياً من دعاة
الفاطميين . ويقول صاحب الفهرست (ص ١٩٠) إنه كان في أول أمره يدعو إلى الزهراء من
آل محمد (الترجم) .

قويا نادر المثال ، ويدل على عظم شأنه أن كلاً من الذهبي وابن الجوزي كتب عنه كتاباً خاصاً ؛ ولكن يظهر أن هذين الكتابين قد فقدوا مع الأسف ، ولم ينل هذا الشرف — أعني تخصيص كتاب في حياة رجل — إلا القليلون بين رجال الإسلام .

وقد أثر الحلاج في علوم الدين عند المتصوفة أثراً كبيراً ؛ ورغم قتله فإن كثيرين من تلاميذه حملوا مذهبه من بعده ، وخصوصاً فرقة السالمية . ويحدثنا الحجویری في القرن الخامس الهجري أنه رأى بالعراق أربعة آلاف ينمون أنفسهم الحلاجية^(١) . ويصرح الحجویری نفسه بعطفه على الحلاج ويقول إنه لم ينكر فضله وصفاً حاله وكثرة اجتهاده ورياضته إلا فئة قليلة من مشايخ الصوفية^(٢) ؛ وكان لا يزال في عصر أبي العلاء المتوفى عام ٤٤٩ هـ — ١٠٥٧ م قوم في بغداد ينتظرون خروجه ، ويقفون بحيث صُلب على دجلة يتوقعون ظهوره^(٣) .

وكانت المذاهب المسيحية أيضاً هي الأصل التي نشأت منه جميع الآراء الأخرى التي جاء بها زنادقة ذلك العصر ؛ فمثلاً ذهب منصور العجلي الملقب بالكسف — لأنه كان يزعم أنه المقصود بقوله تعالى وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا — إلى أن أول من خلق الله عيسى ابن مريم (عليهما السلام) ثم خلق بعده علياً^(٤) . وكذلك ادعى الشلمغاني المعروف بابن أبي العزاقر ، وهو من قرية من قرى واسط ، أن روح الله حل فيه^(٥) . وقد تقدّم أمير المؤمنين عام ٣٢٢ هـ إلى

(١) كشف المحجوب ترجمة نيكلسون ص ٢٦٠ .

(٢) نفس المصدر ص ٦٥٠ وما بعدها .

(٣) رسالة الغفران في مجلة الجمعية الآسيوية الملكية JRAS, 1902, S. 833 .

(٤) الفصل ج ٤ ص ١٨٥ .

(٥) الإرشاد لياقوت ج ١ ص ٢٩٦ ، ٢٩٧ . وقد ذكر شرينر (Schreiner) المراجع

في ذلك (ص ٤٧٢) . ولم يذكر ابن حوقل شيئاً . وأول من ذكرها ياقوت في كتابه المسمى لإرشاد الأريب (ج ١ ص ٢٩٦) ويقول ياقوت إنه قرأ بمدينة مزو رسالة كتبت ببغداد عن

الوزير أبي علي بن مُقلة ليكشف أمر الشلمغاني وأمر صاحبيته ، فتجرد لذلك وحقق أمرهم وطلب من الرجلين التبرؤ من ابن أبي العزاقر وثقله بمهانة يصغر بها قدره ، فأما أحدهما فصغره مرة ، وأما الآخر فإنه أرعد وأظهر خوفا من ذلك واستعصى إلى أن لم يجد محيصا ، فمدّ يده إلى لحيته على سبيل توفير وتكريم وقال معلنا غير مخافت : مولاي مولاي ؟ فجُردا وقتلا وصلبا ، وأحرقت أجسامهما . وكان الشلمغاني يقول إن الله يحل في كل شيء على قدر ما يحتمل ، وإنه خلق الضد ليدل به على مضدوده ، فأدم وإبليس كلاهما يدل على صاحبه لمضادته إياه في معناه ، والدليل على الحق أفضل من الحق ، وال ضد أقرب إلى الشيء من شبيهه ، وكان يقول إن اللاهوتية اجتمعت في آدم وإبليس ، وكذلك في إبراهيم وإبليس نمرود ، وفي هارون وإبليس فرعون ، وفي داود وإبليس جالوت ، وكذلك في عيسى وإبليس ، ثم في تلاميذه كلهم ، وكان المسعودي يعد الشلمغاني من الشيعة^(١) ، على أن هذا الرجل وإن كان يقول إن اللاهوتية اجتمعت في علي وإبليس قبل أن تجتمع في شخصه هو ، فهو لا ينسب الحسن والحسين رضي الله عنهما إلى علي رضي الله عنه ، وكان يقول : « من اجتمعت له اللاهوتية لم يكن له والد ولا ولد » . وكان الشلمغاني يقول إنه قبل اجتماع اللاهوتية في علي وإبليس اجتمعت في عيسى وإبليس ثم في تلاميذه كلهم . أما موسى ومحمد عليهما السلام فيسمون عند الشلمغانية الخائنين ، لأنهم يدعون أن هارون أرسل موسى وعليهما أرسل محمدا فخاناها ، وزعم الشلمغاني أن عليا رضي الله عنه أعطى محمدا عليه السلام مهلة قدرها المدة التي لبثها أهل الكهف في كهفهم ؛ وبعدها تبطل الشريعة المحمدية ، وفي عصر الشلمغاني كانت

== أمير المؤمنين الراضي إلى أبي الحسين نصر بن أحمد الساماني بقتل العزاقري وقد ذكر ياقوت قطعة من هذا الخطاب .

(١) - التلخيص للمسعودي ص ٣٩٦ - ٣٩٧ .

هذه المدة قد قاربت نهايتها ، وكذلك أول الشلمغانية القرآن عن معانيه الظاهرة فقالوا إن معنى الجنة معرفتهم وانتحال مذهبهم ، ومعنى النار الجهل بهم والصدود عن مذهبهم ، وكانوا يغتفرون ترك الصلاة والصيام والاغتسال ؛ وكانوا لا يتناحون على السنة بل يبيعون القروج ، ولا ينكرون أن يطلب أحدهم من صاحبه حرمة ، وكانوا يرون أنه لا بد للفاضل منهم أن ينكح المفضول ليولج النور فيه ^(١) . على أن هذه الفرقة لم تكن فرقة عوام ؛ فقد كان ابن أبي العزاق نفسه كاتباً ببغداد ، وكان المحسن بن الفرات له عناية به ، فاستخلفه ببغداد لجماعة من العمال ، وكذلك كان صاحبه إبراهيم بن أبي عون شاعراً وصاحب تآليف كثيرة ومشتغلاً بالأدب وكان من القواد ^(٢) . ويقال إن الوزير الحسين بن القاسم بن عبيد الله أحد وزراء أسرة بني وهب المشهورة كان يعتقد أن أبا العزاق إليه ^(٣) .

أما الحركات التي منشؤها القول بظهور المهدي فكانت من نوع آخر يخالف ما تقدم كل المخالفة ، فالأشخاص الذين تكلمنا عنهم حتى الآن هم قوم كل منهم على حدته يبحث عن الله ، وقد ساروا في طريقهم على هدى علوم الدين القديمة ، وأعجب ما في أمرهم أنهم — رغم غرابة مذاهبهم — وجدوا من يصدقهم . أما الحركات المتعلقة بالمهدي فكانت منذ أول أمرها حركات سياسية تخاطب الجماهير ، فكان لها نتائج أخرى . فحوالي منتصف القرن الثالث الهجري ظهر حمدان قرمط ^(٤) ، والتفت عليه العناصر الثائرة في العراق ؛ ولكن الخليفة المعتضد

(١) الإرشاد لياقوت ج ١ ص ٢٩٦ — ٣٠٧ . ويقول الجبوري (كشف المحجوب ص ٤١٦) إن الحلولية جعلوا حكايات النملان وصمة الحقوا بأزلياء الله وبالتصوفين .

(٢) الإرشاد ١٥ ص ٢٩٦ .

(٣) كتاب العيون ص ١٨٥ ب .

(٤) يظهر لي أن أصبح ما قيل في بيان الأصل الذي اشتق منه هذا الاسم هو ما رجحه فولرز (Vollers) من اتصال كلمة قرمط بكلمة Grammata اليونانية ومعناها الحرف ، وذلك =

أخذ هذه الفتنة ، ولم يصبح لدعوة حمدان شأن سياسى إلا بعد انتقال هذه الفتنة إلى جزيرة العرب ، وكانت الجزيرة أكبر مركز يحتشد إليه الثوار على اختلاف أصنافهم حيث يكونون على قدم الاستعداد دائماً لاتباع قائد يسير بهم إلى أراضى الملاك الأغنياء يقتلون وينهبون .

وقد مات الخليفة المعتضد عام ٢٨٩ هـ — ٩٠١ م ، وهو الخليفة القدير الحنك ، وفي نفسه حسرة من القرامطة ، فكان في مرضه يتلّف ويتمنى أن يبلغ منهم قبل موته ما يريد^(١) . وقد أتاح القدر لهم قائدين عظيمين عرفا كيف ينظمان ما في جزيرة العرب من قوى خشنة ويقودانها في أكبر ثورة شهدتها الجزيرة منذ أيام الإسلام الأولى ؛ فحوالى أواخر القرن الثالث الهجرى خرب القرامطة الشام تخریباً شديداً ، وفي أوائل القرن الثالث امتدت غاراتهم إلى العراق ففتحوا البصرة والكوفة ، وأعملوا فيها النهب ، وألقوا الرعب في بغداد ، وقطعوا الطريق بين مكة والشرق . وفي عام ٣١٦ هـ — ٩٢٨ م شنوا غاراتهم متفرقة تقوم بها العصابات من صحراء الشام إلى جبال سنجار^(٢) . وفي عام ٣١٧ هـ — ٩٢٩ م بلغ الحجاج مكة من غير أن يصيبهم أذى ، ولكن وافاهم بعد ذلك في مكة يوم التروية أبو طاهر القرمطى في عدد قليل يدهشنا لقلته — اذ كان معه ستمائة فارس وتسعمائة راجل — فاقتحم مكة ، ونهب هو وأصحابه أموال الحجاج ، وقتلهم حتى في المسجد الحرام وفي البيت نفسه ، وقلع باب البيت ، وقلع الحجر الأسود ، وأنفذه إلى هجر ، وأخذ كسوة البيت ففرقها بين أصحابه ، ونهب دور

= لأن هذا الافتراض يجد ما يؤيده في لغة المُكْدَنَين بالعراق في القرن الرابع الهجرى . وقد جاءت كلمة قرمط في قصيدة أبي دلف في البكديّة (بتيمة الدهرج ٣ ص ١٨٤) بمعنى الرجل الذى يكتب التعاويذ بالدقيق والجليل من الخط .

(١) الاتعاظ للقريزى طبعة بونتر ص ١١١ .

(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ١٣٢ — ١٣٣ ؛ وعريب ص ١٣٤ .

أهل مكة . ولم ينهض لمقاومة هؤلاء المغيرين إلا البدو الذين لا يقيمون بمكة ،
فأما أهل مكة فقد شاركوا المغيرين في نهب بلادهم الحرام . على أن هذا الحادث
لم يؤثر في أهل ذلك العصر ما كنا ننتظر له من أثر ، ولم ينظر إليه بعين السخط
الشديد إلا أهل الأجيال التالية . أما ذلك العصر فكان فيه كثيرون لا يعنهم
أمر الدين ، ومن جهة أخرى فإن المتصوفة الذين صاروا يتجمعون حول شيوخهم
كانوا يرون في ذلك شيئاً أعظم من الحجر الأسود ؛ بل يظهر أن المسلمين المتمسكين
بأصول الإسلام كانوا يعظمون هذا الحجر من غير أن تطمئن قلوبهم لذلك تمام
الاطمئنان . وكان هذا الحادث منتهى ما وصلت إليه فتنة القرامطة وثورتهم . وبعد
ذلك أغاروا على المشرق ينهبون حتى بلغوا فارس ؛ وقد ألقوا الرعب في الصحراء
حتى أشفق الناس من اجتيازها ؛ وكثيراً ما كان أهل بغداد يغلقون أسواقهم خوفاً
منهم ؛ ولكن الخليفة استطاع بسياسته أن يشل حركتهم ، فدخل جنود
القرامطة في خدمة الخلفاء . وفي سنة ٣٢٧ هـ — ٩٣٨ م كاتب أبو علي عمر بن
يحيى العلوي القرامطة . وكانوا يخشونه لشجاعته وكرمه وسألمهم أن يؤمنوا
الحاج ويعطيهم عن كل حمل مكساً عينه لهم ، فرضوا بذلك . وفي سنة
٣٣٩ هـ — ٩٥٠ م رد القرامطة الحجر الأسود إلى مكة ؛ وقد استطاع حمل
نجيل أن يحمله ، وقد سمن بحمله له ؛ على حين أنه قبل ذلك باثنتي عشرة سنة
وقع تحت ثلاثة جبال أقوياء . ولم ينته ما أصاب الحجر الأسود عند هذا الحد ؛
ففي عام ٤١٣ هـ — ١٠٢٢ م عمده أحد الحجاج المصريين — وفي رأى بعض
المؤرخين أنه من الجهال الذين استغواهم الحاكم بأمر الله — إلى الحجر الأسود ،
فضربه بدبوس كان في يده ضربات متوالية فكسر قطعاً منه ؛ ولكن
الناس عاجلوا الرجل وقتلوه ، ثم أخذت القطع التي سقطت من الحجر وعجنت

بالمسك واللك وحشيت بها المواضع التي تُقبت^(١). وفي سنة ٣٥٠ هـ سار القرامطة وجموا على مصر والشام فساعدوا الفاطميين على قصد مصر، ولكن أمرهم انتهى عام ٣٥٨ هـ — ٩٦٨ م إلى مسألة الخليفة العباسي ببغداد، نخطبوا له على المنابر، وأعطاهم مالا وسلاحاً^(٢). ثم أغاروا على الشام كما أغاروا عليها في أول أمرهم ولكن كان عدوهم بها في ذلك العهد هو حليفهم قديماً، وهم الفاطميون. وصار القرامطة يقيمون الدعوة للخليفة العباسي في كل بلد يفتحونه، وسودوا أعلامهم، ورجعوا عما كانوا عليه من الخرقه، وأظهروا أنهم كأمرأاء النواحي الذين من قبل الخليفة العباسي^(٣)؛ ولكنهم هُزموا في الشام آخر الأمر، وارتدوا إلى جزيرة العرب، على أن يدفعوا قدرًا من المال في كل عام، وبعد ذلك ببضع سنين أخرجهم بنو بويه نهائياً من العراق، ولم يبق لهم في أواخر القرن الرابع إلا ولاية صغيرة على الشاطئ الشرقي للجزيرة العربية لا تستطيع قطع الطريق على الحجاج؛ ولكن كان لها على باب البصرة ديوان لأخذ الضرائب^(٤). وحتى عام ٤٤٣ هـ وجد الرحالة الفارسي ناصر خسرو عند ما زار الأحساء — عاصمتهم — أنهم كانوا يقيمون على باب البيت الذي فيه قبر مؤسس مذهبهم فرساً بسرج وجام، لا يغادر مكانه لا ليلاً ولا نهاراً؛ ويقولون إنه للمهدي يركبه متى ظهر^(٥). ويحكى أبو العلاء المعري عن سافر إلى اليمن أن بها في عهده جماعة «كلهم يزعم أنه

(١) التنظم لابن الجوزي ص ٦٠، ٨١ ب، ١٧٠ ب — ١٧١ أ.

(٢) تاريخ أبي يعلى حمزة بن القلانسي المعروف ببديل تاريخ دمشق طبع بيروت عام ١٩٠٨ م ص ١ — ٢ قفلا عن الصابي.

(٣) الأتعاظ للمقرئ ص ١٣٣.

(٤) المقدسي ص ١٣٣.

(٥) ناصر خسرو ص ٢٢٩ من الترجمة؛ وحكى هذا أيضاً لأبي العلاء (انظر مجلة

القائم المنتظر ، فلا يعدم جباية من مال يصل بها إلى خسيس الآمال»^(١) . ولن نستطيع أن نعرف إلى أى حد كان تصديق الناس لدعواهم — أو رغبة هؤلاء الناس في التكسب بهذا التصديق — سبباً في حصول هؤلاء المدعين على من يؤمن بدعواهم ، كما لن نستطيع معرفة مقدار الإخلاص الديني في تلك الحركة بجملتها . على أنه ينبغي أن نلاحظ أن اليمين كانت دائماً من الأقاليم النادرة المشهورة بالروحانية في العالم ، وأن روحها أبعد عن الروح الأوروبية من الروح المغوانية ، مثلاً . يقول أبو العلاء : « وما زال اليمين ، منذ كان ، معدتاً للمتكسبين بالتدين ، والمحتالين على السحت بالتزئين »^(٢) . على أن مذهب القرامطة المهيدين ليس مذهباً إسلامياً حقاً ، فقد كان وراء عقائدهم دائماً القول بالحلول ، كما كان الحال في مذاهب الغنوسطين المسيحيين . يقول ابن حزم : « ثم زادت فرقة على ما ذكرنا ، فقالت بإلهية محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد ، وهم القرامطة ، وفيهم من قال بإلهية أبي سعيد الحسن بن بهرام الجنابي وأبنائه بعده ، ومنهم من قال بإلهية أبي القاسم النجار القائم باليمن في بلاد همدان المسمى بالمنصور ، وقالت طائفة منهم بإلهية عبيد الله ثم الولاة من ولده إلى يومنا هذا ، وقالت طائفة منهم بإلهية أبي الخطاب محمد بن أبي زينب مولى بنى أسد بالكوفة ، وكثر عددهم بها حتى تجاوزوا الألوف وقالوا هو إله وجعفر بن محمد إله إلا أن أبا الخطاب أكبر منه ، وكانوا يقولون جميع أولاد الحسن أبناء الله وأحبائوه ، وكانوا يقولون إنهم لا يموتون ولكنهم يرفعون إلى السماء وأشبه على الناس بهذا الشيخ الذي ترون ثم قالت طائفة منهم بإلهية معمر بائع الحنطة بالكوفة وعبدوه ، وكان من أصحاب

(١) نفس المصدر عند أبي العلاء...

(٢) نفس المصدر .

أبي الخطاب لعنهم الله أجمعين»^(١) . وكذلك نجد ابن أبي زكريا الطامى مهدى القرامطة قد ادعى الربوبية وسنّ شريعة فاسدة ، وهذا بحسب رواية البيروني على الأقل^(٢) .

وقد استطاع الفاطميون ، وهم سادة القرامطة منذ عهد طويل ، أن يستغلوا فكرة ظهور المهدي بمقدرة وتوفيق لم يتها لم من بعد . وما أشبه الفاطميين بالنسبة للقرامطة في تفوقهم عليهم وبلوغهم ما بلغوه من الانتفاع بهذه الفكرة بنجبال الألب السوداء في وقوفها شامخة وراء مرتفعات «الجورا» الخضراء بسويسرة . وإن انبساط سلطان العرب على بلاد المغرب ودخول الخليفة الفاطمي القاهرة ومعه توايت أجداده هو أغرب وقائع ذلك العصر المضطرب . وفي ذلك العهد كأنما « قد طلعت الشمس من مغربها » حقيقة كما قال الخليفة المعز لدين الله في خطاب له^(٣) ، وإن قيام دولة الفاطميين هو أهم الحوادث السياسية في القرن الرابع الهجري . ولم يكد يمضي قرن على ظهور أول مهدي لهم ؛ أعنى أنه لم تكد تأتى سنة ٣٦٠ هـ — ٩٧٠ م حتى امتد سلطان الفاطميين على إفريقية الشمالية كلها وعلى الشام ، وحتى بلغ نهر الفرات . وكان لهم « دعاة منبثون في كل صقع وناحية »^(٤) ، ولقد قال الخليفة المعز لدين الله في كتاب كتبه لأحد قواد القرامطة عام ٣٦٢ هـ — ٩٧٢ م : « وما من جزيرة في الأرض ولا إقليم إلا ولنا فيه حجج ودعاة يدعون إلينا ، ويدلون علينا ، يأخذون بيعتنا ، ويذكرون رجعتنا ، وينشرون علمنا ، وينذرون بأسنا ، ويشرون بأيامنا ، بتصاريف اللغات

(١) الفصل ج ٤ ص ١٨٧ ، فان ما ذكره دى غوى في هامش ص ١١١ من كتاب
عريب القرطبي (٢)
(٢) الآثار الباقية ص ٢١٣ .
(٣) الانماط للمقرئى ص ١٤١
(٤) الفهرست ص ١٨٩ .

واختلاف الألسن»^(١) . وكان القرامطة يطيعون أمرهم ، وكانت بلوخرستان تعترف لهم بالسيادة . وأقل مظاهر هذا الاعتراف ما حدثنا به ابن حوقل من أن أهل هذه البلاد يصرحون بأنهم في دعوة الناططيين ، وأنهم يجمعون ببلادهم أموالاً وذخائر كثيرة تجلّ عن الوصف ، ويقولون إنها للإمام المعز لدين الله^(٢) . ولما قدم الهمداني الأديب الشاعر حوالي عام ٣٨٠ هـ على جرجان في أقصى الشمال من فارس — وكان الهمداني رجلاً يعرف دائماً أين تكون القوة الكبرى والمال الأوفر — أقام هناك مدة على مداخلة الإسماعيلية والتعشّيش في أكنافهم^(٣) . على أن الفاطميين لم يأتوا بشيء جديد من الناحية الروحية ، وفاتهم أن الذي يحدد مدة أجل العروش هو الروح لا كثرة عدد الجنود ، فلم تكد تمضي عشرون سنة على بلوغ دعوتهم ذروتها في أيام المعز حتى « تناقص أمر المذهب وقلّ الدعاة له حتى إني لا أرى من الكتب المصنّفة فيه شيئاً ... هذا ما أعلمه في هذه البلاد ، وقد يجوز أن يكون الأمر على حاله بنواحي الجبل وخراسان ، فأما ببلاد مصر فالأمر مشتبّه ، وليس يظهر من صاحب الأمر المتعلّك على الموضع شيء يدل على ما كان يُحكى من جهته وجهة آبائه»^(٤) .

أما مذهب الإسماعيلية في القرن الرابع الهجري فلا نعرف عنه إلا القليل ، وأكبر مصدر يرجع تاريخه إلى ذلك العهد ، هو ما حكاه أخو محسن ، وحفظه لنا النويري والمقريزي وترجمه دي ساسي^(٥) وهو كتاب مطعون في مصدره ، لأنه

(١) الاتعاظ للمقريزي ص ١٣٩ — ١٤١ ، وكان حاكم المشرق من قبل المهدي يم في الري ، وكان يخضع له الدعاة حتى دعاة العراق مثل بني حماد في الموصل (الفهرست ص ١٨٩) .

(٢) ابن حوقل ص ٢٢١ .

(٣) الإرشاد لياقوت ج ١ ص ٩٦ .

(٤) الفهرست ص ١٨٩ .

(٥) de Sacy : Exposé de la Religion des Druses, LXXIV ff (٥)

مأخوذ عن كتاب في الرد على الإسماعيلية لابن رزام ؟ وقد أوجس صاحب
الفهرست خيفة من النقل عن هذا الكتاب فهو يروى عنه ويقول : وأنا أبرأ
من العهدة في الصدق عنه والكذب فيه^(١) ، وكذلك يعتبر المقرئ أن هذا
الكتاب مزيج من الحق والباطل . أما النصوص التي نشرها جويار (Gwyard)
فلا نعرف تاريخها حتى الآن ؛ ولا يكفي مجرد ذكر أسماء القدماء فيها لإثبات
تاريخها ، لأن الانتحال في الكتب كان على أشده بين جميع هذه الفرق . ونجد
بين مؤلفي القرن الرابع الهجري من يزيف الكتب المنسوبة لعبدان صاحب حمدان
قرمظ ، فيقول إن أ . كثرها منحولة إليه^(٢) . على أن أهم نقطة هي التي نجدها عند
الشهرستاني من أن هناك بين الإسماعيلية في القرن الرابع الهجري وبين متأخريهم
في القرن الخامس الهجري بونا بعيدا ، وأتينا يجب أن نفرق بين اعتقاد الخليفة
المعز وبين اعتقاد « شيخ الجبل » تفرقة تامة^(٣) . ومما يؤسف له أن ابن حزم يكاد
يسكت عن الإسماعيلية سكوتا تاما يدعو إلى الاستغراب ، وهو يكتفي بأن يقول
إنهم والقرامطة طائفتان مجاهرتان بترك الإسلام جملة ، قائلتان بالمجوسية المحضة^(٤) .
وكذلك سكت عنهم أبو العلاء في رسالة الغفران ، فلم يقل إلا قليلا جدا ، ولعل
وجوده على مقربة من سلطانهم هو الذي أمسك لسانه عنهم . فليس عندنا معلومات
ثقة بصحتها فيما يتعلق بهم إلا عند صاحب الفهرست ، وهو يذكر أنه كان عندهم
سبع درجات من الأتباع — خلافا لما ذكره أخو مجسن من درجات تسع — ؛

(١) . الفهرست ص ١٨٧ .

(٢) . الفهرست ص ١٨٧ ، ١٨٩ .

(٣) . الملل والنحل للفهرستاني على هامش الفصل لان حزم — الكلام على الإسماعيلية
في الجزء الثاني .

(٤) . الفصل ج ٢ ص ١١٦ ؛ على أننا يجب ألا تأخذ هذه التسمية على ظاهرها فقد
كانت كلمة المجوسية تستعمل في ذلك العهد بمعنى الزندقة ، فيحكى القشيري (٣٢) عن أحد
الصوفية أنه وصف رأيا لم يعجبه بقوله إنه مجوسية محضة .

ولكل طبقة كتاب يتضمن ما تعرفه ويسمى بالبلاغ ، والبلاغ الأول للعامّة ، والثاني لمن فوقهم قليلا ، أما الثالث فهو لمن دخل في المذهب سنة ، ثم يُعطى بعد ذلك بلاغا كلما طال بقاؤه سنة أخرى . ولكن ابن البديم لم يحدّد متى يبلغ الإنسان الدرجة السابعة ، ومتى يُعطى البلاغ السابع ، واكتفى بقوله عن هذا البلاغ إنه الذي فيه نتيجة المذهب والكشف الأكبر ، وإنه قرأه فوجد فيه أمراً عظيماً من إباحة المحظورات والوضع من الشرائع وأصحابها^(١) ، وكانت هذه الفرقة في ذلك العهد يستعملون التأويل حتى إن أحدهم وهو الحسين بن علي القرمطي ، كان يُجرى رزقا على أبي زيد البلخي المتوفى عام ٣٢٢ هـ — ٩٣٣ م فلما ألف أبو زيد كتابه المسمى البحث في التأويلات ، وأنكر فيه ما ليس بواضح مشهور من التأويل ، قطع الحسين عنه ما كان يُجرّيه عليه^(٢) . وإن ما نجده عند هذه الفرق من تصوّر الدين بأنه معرفة الله معرفة عقلية ، ومن تقسيم الناس طبقات بحسب درجتهم في المعرفة ، ثم ما نجده في كتب من جاء بعدهم من عناية وتدقيق في بيان اثنيّية العوالم أو كثرتها ، كل هذا يشير مرة أخرى إلى مذاهب الغنوسطين القدماء . ويتهم صاحب الفهرست ميمونا القداح وابنه عبد الله وهما مؤسسا مذهب الإسماعيلية بأنهما كانا ديصانيّين^(٣) ، ونستطيع أن نرد مذهب الإسماعيلية من حيث أجزاؤه إلى مذهب المعتزلة ، وهذا بعينه هو الذي ساعدهم على أن يضيفوا إلى مذهبهم كل ما ليس عباسيا ولا سنيّا^(٤) . على أن شيئا جديداً أحدثه هؤلاء

(١) الفهرست ص ١٨٩ .

(٢) الفهرست ص ١٣٨ والإرشاد لياقوت ج ١ ص ١٤٢ .

(٣) كتاب الفهرست ص ١٨٧ .

(٤) وكان أكبر نجاح للفرقة عام ٢٦٠ هـ — ٨٧٥ م مقارناً لموت الحسن بن علي الذي كان جمهور الشيعة يعتبرونه إماماً ، ويحلوونه لذلك ، والذي مات عن غير عقب فأحدث ذلك افتراقاً وفتناً بين الشيعة (ابن حزم ج ٤ ص ٩٣) .

القوم ، وهو التزام الخطة المرسومة والاشتداد في اتباعها ؛ وللشرق فهم خاص في ذلك ، إذا كانت الخطة لغرض ديني ، وقد استخدمها الحسين الأهوازي الداعي الفاطمي في إدخال حمدان قرمط في المذهب على صورة تمثل النموذج الذي احتذاه أولئك القوم في دعوة الناس إلى رأيهم . يقول المقرئزي : « لما خرج الحسين الأهوازي داعية إلى العراق لقي حمدان بن الأشعث قرمط بسواد الكوفة ، ومعه ثور ينقل عليه ، فتماشيا ساعة ، فقال حمدان للحسين : إني أراك جئت من سفر بعيد وأنت مُعْبِي ، فاركب ثوري هذا ؛ فقال الحسين : لم أوصر بذلك ؛ فقال له حمدان : كأنك تعمل بأمر أمر لك ، قال : نعم ، قال : ومن يأمرك وينهاك ؟ ؛ قال : مالكي ومالكك ومن له الدنيا والآخرة ؛ فبهت حمدان قرمط يفكر ؛ ثم قال : يا هذا ! ما يملك ما ذكرته إلا الله ؛ قال : صدقت ، والله يهب ملكه لمن يشاء . ثم بدأ يدعو ، ويقول له : دُفِعَ إلى جراب فيه علم وسر من أسرار الله ؛ فقال له حمدان : يا هذا ! نشدتك الله إلا دَفَعْتَ إلى من هذا العلم الذي معك ، وأنقذتني ينقذك الله . . . ثم أخذ عليه العهد . . . وصار الحسين معه إلى منزله ، وأقام به . وكان الحسين على غاية ما يكون من الخشوع ، صائماً نهاره ، قائماً ليله ، فكان المغبوط من أخذه إلى منزله ليلة ، وكان يخيظ لهم الثياب ويكتسب بذلك ، فكانوا يتبركون به وبخياطته » ^(١) . وهذه الفرقة التي أدمجت في مذهبها كثيراً من المذاهب القديمة التي كانت في العراق استعملت طريقة الكتابة على الطين ؛ فكان دعاة القرامطة يعطون أتباعهم خواتيم من طين أبيض مكتوب عليها مثلاً : محمد بن إسماعيل الإمام المهدي ولي الله ^(٢) . ومما استحدث أيضاً في دولة الفاطميين أنها أوجدت هيئة شبيهة بالكهنوت Klerus تعترف بهم

(١) الاتماظ المقرئزي ص ١٠١ — ٢

(٢) المنتظم لابن الجوزي ص ٣٩ ب

رسمياً وتعطيهم أرزاقاً ، وهو ما لم يحدث قط في الإسلام ، وهم للسمنون الدعاة الذين أصبحوا أشبه بالقسيسين Pfarrer ، ورئيسهم الأعلى الذي يشرف عليهم يُسمى داعي الدعاة ، وهو من أكبر أصحاب المناصب (١) .

على أنه كلما زاد عدد من يدعى المهديّة والألوهية أصبح ادعاء النبوة شيئاً قديماً لا يستهوى الأعداء . ومنذ قرن ادعى بعض الجهال النبوة وكانوا موضعاً للتندر والاستهزاء . وفي أخبار الخليفة المأمون أحاديث له مع كثير من المتنبئين ؛ ولا تخلو هذه الأحاديث من طرافة وتشويق . أما في القرن الرابع فنجد بين حين وآخر من يظهر بدعوى النبوة في إقليم من الأقاليم : ففي عام ٣٢٢ هـ — ٩٣٤ م ، ظهر بياستد من أعمال الصفانيان — وهي من بلاد ما وراء النهر المشهورة بالتقى والصالح — رجل ادعى النبوة ، فقصده فوج بعد فوج ، واتبعه خلق كثير ، وحارب من خالفه وكثر أتباعه من أهل الشاس ، وكان صاحب حيل ومخاريق ، فكان يدخل يده في حوض ملآن بالماء ويخرجها مملوءة دنائير ، إلى نحو ذلك . ولما كثر جمعه وخيف شره أنفذ إليه الحاكم جيشاً فخاربه وضيقوا عليه وقتلوه (٢) . وتنبأ رجل بمدينة أصفهان حوالي عام ٣٢٥ هـ ، فسئل عن آيته وحجته فقال : من كان منكم له زوجة حسناء أو بنت جميلة أو أخت صبيحة فليحضرها إلى أحبها بابن في ساعة واحدة (٣) ، فقال والي الخراج أبو الحسين بن سعد : أما أنا فأشهد أنك رسول الله ، وأعفني من ذلك ؛ وقال له رجل : نساء

(١) ناصر خسرو ص ١٦٠ من الترجمة .

(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ٢١٦ .

(٣) وحكي مثل هذا عن رجل تنبأ أيام المأمون ، فتوجه إلى الخليفة وقال للحاجب : أبلغ أمير المؤمنين أن نبي الله بالباب ، فأذن له ، فقال له ثمالة : ما دليل نبوتك ؟ قال تحضر لي أمك فأواقمها فتعلم من ساعتها ، وتأتى بسلام مثلك ، فقال ثمالة : صلى الله عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ذلك أهون عليّ من إحضارك أي ومواقفتها — المحاسن والمساوي لليهن من ٣٤ من الطبعة الأوربية .

ما عندنا ؛ ولكن عندى عنز حسناء ، فأحبها إلى ، فقام يمضى ، فقيل له : إلى أين ؟ قال : أمضى إلى جبريل ، وأعرفه أن هؤلاء يريدون تيساً ولا حاجة بهم إلى نبي ؛ فضحكوا منه وأطلقوه^(١) . وقد لُقّب الشاعر أبو الطيب المتنبي المتوفى عام ٣٥٤ هـ — ٩٦٥ م بالمتنبي لأنه ادعى النبوة فى بادية السماوة ونواحيها ، واجتمع إليه هناك قوم من قبائل العرب ؛ وكان ابن خالويه يعيّره بهذا الاسم ، ويقول له إن المتنبي معناه الكاذب ، ومن رضى أن يدعى بالكاذب فهو جاهل . وسئل المتنبي عن تلقيبه بهذا اللقب ، فأجاب سائله بجواب مغالط وقال : هو شىء كان فى الحداثة ، أوجبته الضرورة ، فاستحى سائله أن يستقصى معه الكلام وأمسك^(٢) .

على أن هذا القرن لم يخل من قوم تنكبوا عن الدعوى العريضة ، وبجاهدوا أنفسهم وقمعوها ، واكتفوا بأن يكونوا غابدين لله خاشعين ، لا يبتغون شيئاً فوق العبودية له ، متبعين سنن الرعيل الأول من المسلمين . وكان من العادات المحبوبة كثيراً عند كبار المتعبدين فى ذلك العصر أن الواحد منهم لا يخرج إلا يوم الجمعة للصلاة^(٣) . ولقد آلى أبو العلاء المعرى الشاعر المتوفى عام ٤٤٩ م — ١٠٥٧ م على نفسه ألا يترك بيته أبداً ، مع أنه لم يكن من رجال الدين المتعبدين ؛ وكان كثير من عبّاد ذلك العصر مأواهم المسجد^(٤) ، ويحكى أن الخليفة القادر كان يقسم الطعام الذى يهياً له ثلاثة أقسام ، فيترك قسماً بين يديه ، ويأمر بحمل القسمين الآخرين ليُفرّقاً على المجاورين فى جامعين كبيرين ببغداد^(٥) . وفى

(١) الإرشاد لياقوت ج ١ ص ١٣٠ — ١٣١ .

(٢) المنتظم لابن الجوزى ص ٩٦ — ب .

(٣) المنتظم مثلاً ص ١٥٨ ب وفى مواضع كثيرة مثل ص ١٦٩ .

(٤) نفس المصدر ص ١٥٨ ب .

(٥) نفس المصدر ص ١٣٢ ب .

وفي سنة ٣٨٤ هـ — ٩٩٤ م توفي أبو العباس عبد الله بن محمد البشتي الزاهد ،
 وكان من الصالحين وبقى سبعين سنة لا يستند إلى حائط ولا إلى سحدة^(١) .
 ويحكى الحجویری أنه لقي بخراسان رجلا من الصالحين يسمى الأديب الكُمندی
 مضت عليه عشرون سنة لم يجلس إلا للشهد في الصلاة ، وسئل في ذلك فقال :
 ليست لي هذه الدرجة بعد حتى أجلس وأنا أشاهد الحق^(٢) . ويحكى عن آخر من
 أصحاب التهجد والعبادة أنه لم يعرف له فراش أربعين سنة^(٣) . وكذلك بنى آخر
 قبرا لنفسه بحنب بشر الحافي ؛ وكان يمضي إلى ذلك الموضع فيختم فيه القرآن
 ويدعو ، ومضى على ذلك عدة سنين^(٤) . ويحكى عن محمد بن عبد الله بن أحمد
 الصفار الأصبهاني المحدث الصالح المتوفى عام ٣٩٩ هـ — ٩٥٠ م أنه كان مجاب
 الدعوة ، ولم يرفع رأسه إلى السماء نيفا وأربعين سنة^(٥) . وفي سنة ٣٣٦ هـ —
 ٩٤٧ م توفيت بمكة ابنة أحد الصالحين ، وكانت ورعة عابدة ، وكانت تقنت
 طول عامها من ثلاثين درهما يتفذهها لها أبوها^(٦) . وفي سنة ٣٤٨ هـ — ٩٥٩ م
 توفي أحد العلماء ، وكان يصوم الدهر ويفطر كل ليلة على رغيف ويترك منه لقمة ؛
 فإذا كان ليلة الجمعة تصدق بذلك الرغيف وأكل تلك اللقم التي استفضلها^(٧) .
 وفي سنة ٤٠٤ هـ . ١٠١٣ م توفي ابن البغدادی الزاهد العابد ، وكان يخرج إلى
 الناس وقد انشقت رأسه أو انفتحت جبهته ، لأنه كان لا ينام إلا عن غلبة ،

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٧٤ .

(٢) كشف المحجوب ص ٣٣٥ .

(٣) ذكر أخبار أصفهان لأبي نعيم مخطوط ليدن رقم ٥٦٨ ص ١٩٨ .

(٤) الإرشاد لياقوت ج ١ ص ٢٤٧ .

(٥) المنتظم ص ٨٢ وطبقات السبكي ج ٢ ص ١٦٦ .

(٦) المنتظم ص ٨٠ — ب

(٧) نفس المصدر ص ٨٨ .

وكان لا يخلو أن يكون بين يديه محبرة أو شئ من الأشياء موضوع ، فإذا غلبه النوم سقط على ما يكون بين يديه ، فيؤثر في جبهته أثراً ؛ وكان لا يدخل الحمام ، ولا يخلق رأسه ، لكن يقص شعره إذا طال بالجم . وكان يغسل ثيابه بالماء بحسب من غير صابون ، وكان يأكل خبز الشعير قليل له في ذلك ، فقال : الشعير والحنطة عندى سواء ^(١) . وكان أبو بكر أحمد بن إسحاق المتوفى عام ٣٤٢ هـ — ٩٣٥ م يدعو بين الأذان والإقامة ، ثم يبكى ، وربما كان يضرب برأسه الحائط حتى تكاد تدمى رأسه ^(٢) . ويحكى عن أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي النيسابوري المتوفى عام ٤٥٨ هـ — ١٠٦٦ م أنه كان يصوم الدهر قبل أن يموت بثلاثين سنة ^(٣) .

وذكر في عداد العباد أيضاً جماعة من أشد المدققين في مراعاة أحكام الشريعة ؛ فيحكى عن أبي محمد عبد الله بن يوسف الجويني المتوفى عام ٤٣٨ هـ — ١٠٤٦ م — وهو والد إمام الحرمين — أنه كان ورعاً زاهداً متحرراً في العبادات ، ومن ورعه أنه ما كان يستند في داره المملوكة إلى الجدار المشترك بينه وبين جيرانه ، ولا يدق فيه وتداً ، وأنه كان يحتاط في أداء الزكاة ، حتى كان يؤدي في سنة واحدة مبرتين خذراً من نسيان النية ، أو من دفع الزكاة إلى غير المستحق ^(٤) . وتوفى في عام ٤٩٤ هـ — ١١٠١ م أحد الزهاد بمرور ، وكان لا يأكل الأرز لأنه يحتاج إذا زرع إلى ماء كثير ، وصاحبه قل أن يظلم غيره في سقي الماء ^(٥) . ويحكى عن والد إمام الحرمين الجويني أنه كان حريصاً على ألا يطعمه ما فيه شبهة ،

-
- (١) نفس المصدر ص ١٦٠ ب .
 (٢) طبقات السبكي ج ٢ ص ٨١ .
 (٣) نفس المصدر ج ٣ ص ٥ .
 (٤) طبقات السبكي ج ٣ ص ٢٠٨ .
 (٥) نفس المصدر ج ٣ ص ٢٢٢ .

وقد بكى مرة وأمه مشغلة بطعام ، وكانت عندهم جارية مرضعة للجيران ، فأرضعته
مصّة أو مصتين ، فأنكر أبوه ذلك ، وقال : هذه الجارية ليست لنا ، وليس لها أن
تتصرف في لبنها ، وأصحابها لم يأذنوا بذلك ، وقلب ابنه وفوّهه ، حتى لم يدع في
باطنه شيئاً إلا أخرجه ^(١) . وكذلك جلس على عرش الخلافة بمصر خليفة أراد
حيناً من دهره أن يعيش على طريقة الزهاد الأولين من المسلمين ، وأن يطرح
الدنيا وشؤونها بعيداً وهو الحاكم بأمر الله . ففى حوالى عام ٤٠٠ هـ — ١٠٠٩ م
اقتصصر فى مطعمه ومشربه على ما تدعوه إليه الحاجة لتماسك الجسم دون
الزيادة والمغالة فى ذلك ؛ وأغلق مطبخ دار الخلافة واكتفى بأكل ما ترسله له
أمه ؛ ومنع الناس من تقبيل التراب بين يديه ومن بوس اليد والارتضاء بالسجود
له ومن مخاطبته بمولانا ، وربى شعره ، وترك ركوب الخيل ، وصار يركب الحمار
بسرج ولجام حديدى ، مختلطاً بالناس بلا مظلة وبلا طراد بين يديه ؛ وأسقط
الألقاب وجميع الرسوم والمكوس المستحدثة ، وأعاد للناس كل ما كان أخذ من
أملأهم وعقارهم فى جهده أو عهد جده بمصادرة أو بغير حق . وفى المحرم من
عام ٤٠٠ هـ اعتق سائر مماليكه من الإناث والذكور وحررهم جميعاً لوجه الله تعالى
وملكهم أمراً نفوسهم . وكان قبل ذلك قد أخرج من قصره جماعة من حظاياها
وأمهات أولاده مع ما كان من كثرة شغفه بالجماع ، بل غرق بعضهم فى صنديق
سمرت عليهن ، وأثقلت بالحجارة وألقيت فى النيل وذلك رفضاً منه للذة الجسدية .
وكان ولى عهده يركب بمراكب الخلافة المرصعة وعليه لباسها ، والحاكم يركب على
حمار بسرج ولجام من حديد ، وعليه ثياب صوف بيض ثم سود ، وفوطه زرقاء ،
وعمامة سوداء ^(٢) .

(١) نفس المصدر ج ٣ ص ٢٥١ .
(٢) تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكي مخطوط باريس رقم ٢٩١ ص ٢٢٢ — ١١٢٩ =

وكثيراً ما يُحكى لنا خبر قوم غيروا مجرى حياتهم رأساً على عقب ، فآثروا الإعراض عن الدنيا ؛ فيُروى عن أبي محمد إسماعيل بن محمد الدهان الذي برع في العلم والأدب وعلوم اللسان ، وأخذ عن الجوهري ، واختص بالأمير أبي الفضل الميكالي ، ومدحه وأباه بشعر كثير — أنه آثر الإعراض عن الدنيا وأحب الزهد وأزعم الحج والزيارة ، وقال أشعاراً في ذلك . وقد سأل الثعالبي ألا يورد في كتابه شيئاً من شعره في الغزل والمدح ، فعلم بما سأله^(١) . ويحكى من خبر أبي جعفر البحات محمد بن الحسين بن سليمان من إحدى كور نيسابور ، وكان له محل من الشعر والعلم والأدب ، وتصرف بالقضاء في بلاد خراسان ، أنه قال قصيدة في الشباب والمشيبي ، والحياة والموت ، ومنها :

شبابٌ كلامع برق رحل وشيبٌ كشـل غريم نزل

.....

مضت وانقضت غفلاتُ الشبا ب وجاء المشيب وبئس البدل
كأنى رأيت الصبا في المنا م خيالا تمثّل ثم اضمحل
ثم يذكر حال الميت مع أهله فيقول :

فهذا يجاذب ما قد حوا ه وهذا يخالسه ما فضل

إذا وضعوه على نعشه أشاعوا البكا وأسرّوا الجذل

وإن دفنوه نسوه معا وكلّ بميراثه مشغل

ويختم قصيدته بالتوجع لما مضى فيقول :

أقول وللدمع في مقلتي سوابق قطر له مستهل

== ويحكى عن الإمبراطور نقفو (Nikephoros Thokas) (٩٦٣ — ٩٦٩ م) القائد العظيم أنه كان في الليل يلبس ثوباً من الشعر وحزام التوبة الحشن لإيلاام نفسه .

(١) يتيمة الدهرج ٤ ص ٣١٠ .

سلام على طيب عيش مضي وأنس ياخوان صدق نبيل
سلام على قوّتي للقياس م إلى الفرض في وقته والنفل
سلام على الختم في ليلة بقلب كئيب حليف الوجل
سلام على الكتب ألفتها ووشحتها بصحاح العلل
سلام على مدح صفتها وحبّرتها في الليالي الطول
سلام امرئ ما اشتهى لم يجد وما رام مجتهداً لم ينل
أناب إلى ربه تائباً ومستغفراً للخطا والزلل^(١)

وكثيراً ما كان انقلاب الناس فجأة سببه سماعهم آيات من القرآن لا يظهرونها
في رأينا نحن هذا الأثر الكبير؛ فيحكى عن جعفر بن حرب المتوفى عام ٣٤٩ هـ،
والذي كان يتقلد كبار الأعمال للسلطان، وكانت نعمته تقارب نعمة الوزارة، أنه
اجتاز يوماً راكباً في مركب عظيم له، ونعمته على غاية الوفور والجلال، فسمع
رجلاً يقرأ قوله تعالى: «أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ
وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ» (سورة الحديد آية ١٦) فصاح: اللهم بلى أوكررها دفعات
وبكى، ثم نزل عن دابته، ونزع ثيابه، ودخل إلى دجلة واستتر بالماء، ولم
يخرج منه حتى فرّق جميع ماله في المظالم التي كانت عليه، وردها وتصدق بالباقي،
فاجتاز رجل فرآه في الماء قائماً، وسمع بخبره فوهب له قميصاً ومزراً، قاستر
بهما وخرج، وانقطع إلى العلم والعبادة حتى مات^(٢). على حين أننا نجد قوماً
آخرين لا يلتفتون إلى اتقاء شدايد يوم المعاد إلا في آخر عمرهم؛ فيحكى عن نصر
ابن أحمد الساماني المتوفى عام ٣١٠ هـ — ٩٤٢ م أنه في مرضه الطويل الذي

(١) يتيمة الدهر ج ٤ ص ٣٢٠ — ٣٢١.

(٢) المنتظم ص ١٨٩.

مات فيه بنى لنفسه بيتاً أمام باب القصر، وسماه «بيت العبادة»، وكان فيه يصلى ويدعوه ويتضرع وهو في لباس التوبة^(١)، ويحكى أيضاً عن السلطان معز الدولة المتوفى عام ٣٥٦هـ — ٩٦٦م أنه لما اشتدت به العلة وأحس بالموت أظهر التوبة، وأحضر وجوه المتكلمين والفقهاء، وسألهم عن حقيقة التوبة، وهل تصح له؟ فأفتوه بصحتها، ولقنوه ما يجب أن يقول ويفعل، فتصدق بأكثر ماله، وأعتق مماليكه، وردّ شيئاً كثيراً من المظالم، وبكى حتى غشى عليه^(٢).

وكان الحج في تلك العصور بسبب ما كان في الطرق العربية من الخفافات وقلة الأمن غير ممكن أحياناً، أو معرضاً صاحبه للموت أحياناً أخرى. فنجد خروج القرامطة وفتكهم بقوافل الحج وإيقاعهم حتى بقافلة السلطان^(٣) صار الحاج يدفعون مكساً للأعراب ليسمحوا لهم بالمرور آمنين. وفي سنة ٣٨٥هـ أرسل إلى الأصغر أمير العرب تسعة آلاف درهم عوضاً عما كان يأخذه من الحاج وصار ذلك رسماً له^(٤). وكان بعض الأمراء يدفعون أيضاً مالا من عندهم لتأمين طريق الحاج إلى جانب ما كانت تدفعه حكومة بغداد، فكان أمير الجبل يبعث إلى الأصغر أيضاً خمسة آلاف دينار في كل عام، وجعل ذلك رسماً له، وكان يزيده في كل سنة حتى بلغ تسعة آلاف ومائتي دينار^(٥). وفي سنة ٣٨٤هـ — ٩٩٤م خرج الحاج إلى مكة، فاعترضهم الأصغر الأعرابي، ومنعهم من الجواز، وذكر أن الدنانير التي أسلمها السلطان عام أول كانت ذراهم مطلية، وأنه لا يفرج لهم عن الطريق إلا بعد أن يعطوه رسماً لستينين، وطالت المخاطبة والمراسلة حتى

(١) Mirehond, Hist.Som. S. 50 وابن الأثير ج ٨ ص ٣٠١.

(٢) مسكويه ج ٦ ص ٢٩٥؛ والمتنظم لابن الجوزي ص ١٠٠.

(٣) التنبية والإشراف للسعودي ص ٣٧٥.

(٤) المتنظم ص ١٣٦ ب.

(٥) نفس المتنظم ص ١٣٩ ب.

ضاق الوقت على الحجاج فرجعوا^(١). وفي سنة ٤٢١ هـ ١٠٣٠ م تأخر الحاج من خراسان ، ولم يخرج من العراق إلا قوم ركبوا من الكوفة على جمال البادية ، وتنجروا من قبيلة إلى قبيلة ، بلغت أجرة الراكب إلى أربعة دنانير^(٢) . وكان الحاج في أوقات السلام والأمن يعانون الشدائد الخفيفة بسبب قلة الماء في الصحراء حتى بالنسبة لمن كان يجاور جزيرة العرب ؛ ويشبه ابن المعتز صاحب السوء الذي لا بد منه بماء طريق الحج فيقول^(٣) :

وصاحب سوء وجهه لي أوجه وفي فمه طبل بصرى يضرب
إذا ما قلا الإخوان كان مرارة يعرض في قلبي مراراً وينشب
ولا بد لي منه فحيناً يفصني وينساغ لي حيناً ووجهي مقطب
كماء طريق الحج في كل منهل يذم على ما كان منه ويشرب
وكثيراً ما نقرأ في تراجم المسلمين هذه العبارة المؤلمة ، وهي أن يقال : «ومات في طريق الحج» ، وفي عام ٢٩٥ هـ — ٩٠٧ م أصاب الحجاج في منصرفهم ببعض الطريق عطش حتى مات منهم جماعة ، قال الطبري : سمعت بعض من يحكي أن الرجل كان يبول في كفّه ثم يشرب^(٤) . وفي سنة ٤٠٢ هـ — ١٠١١ م هاجت ريح سوداء على الحجاج ، وهم في بعض الطريق ، ففقدوا الماء ، وهلك منهم خلق كثير ، وبلغ ثمن القربة من الماء مائة درهم^(٥) ، وفي عام ٤٠٣ هـ — ١٠١٢ م سبق بعض الأعراب الحجاج إلى مواضع الماء ، فنزحوها ، وغوروها ، وطرحوها الحنظل في الآبار ، وترصدوا الحجاج ، ومنعواهم من الاجتياز ، وطالبوهم

(١) نفس المصدر ١٥٣ ب ؛ وتاريخ ابن الأثير ٩ ص ٧٤ .

(٢) المنتظم ص ١٠٨١ .

(٣) ديوان ابن المعتز ج ٢ ص ٥ .

(٤) عريب ص ٢٤ .

(٥) المنتظم ص ١٠٨ .

بمال كثير ، وبلغ منهم العطش مبلغاً كبيراً ، وقيل إنه هلك منهم خمسة عشر ألفاً ولم يفلت إلا عدد يسير ، وكوتب عامل السكوفة — وكان عليه أن يحفظ طريق الحاج^(١) — بأن ينهض لطلب الأعراب الذين فعلوا هذا الفعل ، ويوقع بهم بما يشفى الصدر منهم ، فلحق بهم في البرية وأوقع بهم وقتل كثيراً منهم ، وأسر خمسة عشر من وجوههم ، وأرسلهم إلى بغداد فشهروا هناك ، وأودعوا الحبس ، وأجيع منهم جماعة وأطعموا المالح ، وتركوا على دجلة ، حتى شاهدوا الماء حسرة وماتوا عطشاً . وتم الظفر بعد سنين بيني خفاجة الذين كانوا أضرب الناس بالحجاج في ذلك العهد ، فأفلت من في أسرهم من الحجاج ، وكانوا قد جعلوهم رعاة لأغنامهم فعادوا ، وقد قُسمت تركاتهم وتزوجت نساؤهم^(٢) . وفي سنة ٤٠٥ هـ — ١٠١٤ م هلك من الحاج كثيرون ، وكانوا عشرين ألفاً فسلم ستة آلاف ، وقد اشتد الأمر بهم حتى شربوا أبوال الجمال وأكلوا لحومها^(٣) ، وكانت سيول الأنهار الصغيرة التي تنشأ عن المطر في الصحراء تصيب الحجاج أيضا ببعض الأذى ، ففي سنة ٣٤٩ هـ — ٩٦٠ م « انصرف حاج مصر بعد أن قضوا حجهم ، فنزلوا في وادٍ بمكة ، فلما كان بالليل حملهم الوادي وهم لا يشعرون ، ففرق أهل مصر ، وكانوا عدداً كبيراً جدا ، وكبسهم الماء مع أمتعتهم إلى البحر »^(٤) . وكان المفرطون في الصلاح والعبادة يحجون سيرا على أقدامهم ، ويحكي عن أحد العباد الراغبين في الحج أنه كان يصل عند كل ميل ركعتين^(٥) ، وكان من عادة الصوفية أن يخرجوا في هذا السفر الطويل متوكلين بلا زاد ولا مال^(٦) . وعلى عكس هؤلاء كان هناك قوم

(١) مسكويه ج ٥ ص ٢٤٧ . (٢) التتظم ص ١٥٩ .

(٣) نفس المصدر ص ١٦٢ ب . (٤) مسكويه ج ٦ ص ٢٤٠ .

(٥) ذكر أخبار أصفهان لأبي نعيم مخطوط ليدن ص ٧١ ب .

(٦) انظر رسالة القشيري في باب التوكّل ؛ والإرشاد لياقوت ج ٢ ص ٣٥٧ حيث

يقول أحد الصالحين :

قلو كان بالإمكان سعى بمقلبي إليك رسول الله أفئتها سعيًا

أرادوا جمع المال من القيام بالحج بالنيابة عن يأجرهم على ذلك ، وفي هؤلاء يقول
 المقدسي : « ورأيت من حج بأجرة ابتكس قلبه ، فإن عاد ازداد نكوسا ، وقل
 ورعه حتى ربما أخذ الحجتين والثلاث ، ولم أر لهم بركة ، ولا جمعوا منه مالا
 قط »^(١) . وكانت عودة الحجاج عيدا كبيرا ، فكان الحجاج يبيتون بالياسرية
 إحدى ضواحي بغداد ، ثم يبكرون لدخول بغداد^(٢) . وكان الخليفة يستقبل
 الحجاج العائدين الذين يمرون ببغداد في طريقهم إلى المشرق ، ففي عام ٣٩١ هـ —
 ١٠٠٠ م جلس الخليفة القادر بالله إلى أهل خراسان العائدين من الحج ، وقرئ
 في هذا الحفل العظيم على رؤوس الملائكة كتاب تقليد ولي العهد^(٣) . وكانت ثم
 أماكن مقدسة في كثير من الجهات من شأنها أن تأخذ نصيبا من مجموع الحجاج
 الذين يقصدون مكة ، وبما له دلالة أن البعض كان يزعم أن سبع زورات لمسجد
 يونس قرب نينوى القديمة — وهو المسجد الذي بنته جميلة بنت ناصر الدولة —
 يعدلن حجة ، ولا شك في أن المشاهد التي هي أهم من مسجد يونس تكون
 زيارتها التي تعادل حجة أقل من ذلك^(٤) . ونجد مدينة بيت المقدس بوجه خاص
 قد استفادت في هذه الظروف الجديدة مما كان لها منذ عهد طويل من مزايا تجذب
 الناس إليها . ويحدثنا ناصر خسرو في القرن الخامس الهجري أنه في وقت الحج
 كان الناس الذين لا يستطيعون الذهاب إلى مكة من سكان الشام وأطرافها
 يقصدون بيت المقدس في موسم الحج ويضجون ضحية العيد كما هي العادة ؛ وكان
 يجتمع بها أكثر من عشرين ألف إنسان في بعض السنين وكانوا يحملون أبناءهم
 ويؤدون السنة^(٥) . ويحكى لنا أيضا إنشاء نماذج للأماكن المقدسة ، على نحو يشبه

(١) المقدسي ص ١٢٧ .

(٢) مصارع العشاق للسراج طبعة القسطنطينية ص ١٠٩ .

(٣) كتاب الوزراء ص ٤٢٠ ؛ والمنتظم ص ١٤٦ .

(٤) المقدسي ص ١٣٦ .

(٥) ناصر خسرو ترجمة شيراز ص ٦٦ .

تمثيل جبل الجبلجة عندنا ، فقد روى عن الخليفة المتوكل في القرن الثالث الهجري أنه بنى بمدينة سامراء كعبةً ، وجعل هناك طوافاً ، واتخذ منى وعرفات ، لينتزع بذلك أمراء كانوا معه لما طلبوا الحج خشية أن يفارقوه^(١) . وكان في ذلك العصر طائفة كبيرة بين الصوفية لا يجعلون للحج ماله من شأن ، ويحكي عن أحد الصوفية الأولين أنه أمر أحد الحجاج بالرجوع عن الحج والقيام بحقوق أمه^(٢) ويؤثر عن صوفي توفي عام ٣١٩ هـ — ٩٣١ م أنه قال^(٣) : «عجبت لمن يقطع البوادي والقفار ليصل إلى بيت الله وحرمه ، لأن فيه آثار أنبيائه ، كيف لا يقطع نفسه وهواه حتى يصل إلى قلبه لأن فيه آثار موله ! » . ويذكر لأبي حيان التوحيدي ، وكان صوفي السميت والهيثة ، متفنناً في الكلام على مذهب المعتزلة ، أنه ألف حوالى عام ٣٨٠ هـ — ٩٩٠ م « كتاب الحج العقلى إذا ضاق الفضاء عن الحج الشرعى »^(٤) . ويحكي أن الوزير نظام الملك في القرن الخامس الهجري استأذن السلطان ملكشاه في الحج ، فأذن له ، فخرج ، فلما عبر دجلة ، وضرب خيامه ، جاء فقير تلوح عليه سيما القوم (الصوفية) إلى الخيمة التى فيها الوزير ، وأعطاه رقعة مطوية كان فيها : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم وقال لى : أذهب إلى الحسن ، وقل له : أين تذهب إلى مكة ؟ حجك بها هنا ، أما قلبت لك : أقم بين يدي هذا التركي ، وأعين أصحاب الحوائج من أمتي ؟ فرجع نظام الملك^(٥) . ويقول الحجویری نفسه في القرن الخامس الهجري وهو مثال الصوفية المعتدلين : « الحج نوعان : الأول في الغيبة ، والثاني في الحضور ، فمن كان غائباً عن الله في مكة كمن كان

(٢) كشف المحجوب ٩١ .

(١) المقدسى ص ١٢٢ — ١٢٣

(٤) الإرشاد لياقوت ج ٥ ص ٣٨٢ .

(٣) نفس المصدر ١٤٠ .

(٥) طبقات السبكي ج ٣ ص ١٤٠ .

غائباً عنه في بيته ؛ ومن كان حاضراً مع الله في بيته فكأنه حاضراً معه في مكة ..
فالْحج مجاهدة لكشف المشاهدة ، والمجاهدة ليست علة للمشاهدة ، ولكنها وسيلة
لها .. فليس المقصود من الحج رؤية البيت بل المقصود الحقيقي مشاهدة الله^(١) ،
ويُخيل للإنسان أن طوائف المثقفين صاروا يجعلون لزيارة المدينة شأنًا أكبر بسبب
ما صاروا يرونه من التبجيل العظيم للنبي (عليه السلام) ؛ ويحكى أن البخاري
صنف كتابه في التاريخ عند قبر الرسول عليه السلام^(٢) . ويقول أبو محمد
النيسابوري الذي أخذ عن الجوهرى ثم آثر الزهد والإعراض عن الدنيا ، وذلك
عند ما أزمع الحج والزيارة^(٣) :

أَتَيْتُكَ رَاجِلاً وَوَدِدْتُ أَنِّي مَلَكَتُ سَوَادَ عَيْنِي أَمْتِطِيهِ
وَمَالِي لَا أُسِيرُ عَلَى الْمَآقِي إِلَى قَبْرِ رَسُولِ اللَّهِ فِيهِ

ويحكى عن جعفر بن الفضل بن الفرات (المتوفى عام ٣٩١ هـ) وهو الذي
استجلب الدارقطني المحدث من بغداد ، وبراً إليه ، وأنفق عليه نفقة واسعة ،
وكان وزيراً لكافور الأخشيدى ، أنه اشترى داراً بالمدينة إلى جانب المسجد من
أقرب الدور إليه وأوصى أن يُدفن فيها^(٤) . ويحكى عن الوزير أبي شجاع محمد بن
الحسن المتوفى عام ٤٨٨ هـ — ١٠٩٥ م أنه « مات وهو أحدُ خُدَّامِ روضة المصطفى
صلى الله عليه وسلم ، وكان يكنس المسجد ، ويُفرش الحصر ، ويشعل المصابيح »^(٥)
وكذلك لم يهمل الناس واجب الجهاد فقد اعتنوا به جادين على عادتهم
دائماً ؛ وأراد كثير من المؤمنين الصالحين أن يدخلوا الجنة من باب الجهاد في
سبيل الله ؛ فكان غزاة المسلمين من كل بلد وناحية يتدفقون كالسيل إلى مدينة

(١) كشف المحجوب ص ٣٢٩ .

(٢) تاريخ أبي الفدا عام ٣٥٦ هـ (ج ٢ من ٢٣٦ من الطبعة الأوروبية) .

(٣) الإرشاد ج ٢ ص ٣٥٧ .

(٤) نفس المصدر ج ٢ ص ٤٠٦ . (٥) طبقات السبكي ج ٣ ص ٥٨ .

طرسوس ، وكانت قاعدة حربية وثغراً من ثغور مملكة الإسلام مما يلي حدود الروم ، وهم أعداء الإسلام الذين ورثوا عداوته جيلاً عن جيل ؛ كما كانت تَرِدُ على تلك المدينة صلاتُ أهل البر وأرباب النعم من المسلمين الذين لا يستطيعون الخروج للجهاد بأنفسهم ، يقول ابن حوقل : « ليس من مدينة عظيمة من حدَّ سجستان وكرمان . . إلى مصر والمغرب إلا وبها (طرسوس) لأهلها دار ينزل بها غزاةُ تلك البلدة ، ويرابطون بها إذا وردوها ، وتكثر لديهم الصَّلاتُ ، وتَرِدُ عليهم الأموال والصدقات العظيمة الجسيمة ، إلى ما كان السلاطين يتكفونهُ وأرباب النعم يعانونهُ وينفذونه متطوعين متبرعين ؛ ولم يكن في ناحية ذكرتها رئيسٌ ولا نفيسٌ إلا وله عليها وقف من ضيعة ذات مزارع وغللات أو مسقف من فنادق »^(١) . وكان أهل الثغور يُكرِّمون في بغداد ، ويحكى عن أبي علي القالى اللغوى المشهور المتوفى عام ٣٥٦ هـ — ٩٦٧ م أنه سُمِّي القالى لأنه لا انحدَر إلى بغداد كان في رقعة فيها أهلُ قالى قلا ، وهي قرية من قرى منازل جرد (بأرمينية) ، وكانوا يُكرِّمون لمكانهم من الثغر ، فنُسب إليهم لكونه معهم ، وثبت على ذلك^(٢) . وكثيراً ما كان من الحيل التي يلجأ إليها بعض المكذِّين والتي يجنون منها المال الوفير أن يسيروا مخادعين للناس بدعوى جمع المال للجهاد أو لفك الأسرى ، وكثيرٌ من هؤلاء المحتالين كانوا يركبون دواب كالغزاة ، ويطوفون البلاد ليؤمِّموا الناس بضدق حيلتهم^(٣) . وكانت ثغور مصر المسماة بالمواخير يغمرها أهل الديوان والمطلوِّعة ، وكانت أحباس السبيل التي يتولاها القضاة تُجمع في كل سنة ، فإذا كان شهر أَيْب بعث القاضي ما اجتمع من أموال السبيل ففُرِّقَت على مواخير

(١) ابن حوقل ص ١٢٢ — ١٢٣ .

(٢) الإرشاد لياقوت ج ٢ ص ٣٥٣ .

(٣) انظر القصيدة الماسانية لأبي دلف في يتيمة الدهر ج ٣ ص ١٧٩ — ١٨٠ .

مصر من العريش إلى لوبية ، وأعطيت للمطوعة ومن كان فقيراً من أهل الديوان^(١) . وكانت بلاد ما وراء النهر ثانية ناحية تلي طرسوس من حيث وقوف أهلها للجهاد ، وذلك لما اشتهر به أهل ما وراء النهر من الشوكة وشدة البأس ؛ ومن أنهم أكبر أهل الإسلام نصيباً في التضحية وأعظمهم حظاً في الجهاد ؛ يقول الأصطخري : « لا تجد في بلدان الإسلام أهل الثروة إلا والغالب على أكثرهم صرف نفقاتهم إلى خاص أنفسهم في الملاحى وما لا يرضاه الله ، وإلى المنافسات فيما بينهم في الأشياء المذمومة إلا القليل ؛ وترى الغالب على أهل الأموال بما وراء النهر صرف نفقاتهم إلى الرباطات وعمارة الطرق والوقوف على سبيل الجهاد ووجوه الخير إلا القليل منهم » ؛ وكان في مدينة بيكند بين بخارى ونهر جيحون ما يقرب من ألف رباط للغزاة المجاهدين^(٢) ؛ ويقال إنه كان بمدينة اسبيجاب ، وهى ثغر جليل ودار جهاد ، ألف وسبعمائة رباط يجد فيها أصحاب الحاجة طعاماً لهم وعلفاً لدوابهم^(٣) ؛ وكانت رغبة الخراسانيين في الجهاد وحميتهم له سبباً في سيرهم إلى الجبهة الغربية في مملكة الإسلام ، وذلك عند ما توالى نجاح الروم في مهاجمة بلاد الإسلام : ففي عام ٣٥٥ هـ خرج من خراسان قوم يظهرون أنهم غزاة ، وكان عددهم نحواً من عشرين ألفاً ، وساروا حتى بلغوا الحدود الشرقية لدولة بنى بويه ، ولكن سيرتهم لم تكن سيرة الغزاة ، فلم يكن لهم رئيس واحد ، بل كان لأهل كل بلد من بلادهم رئيس ، فامتزب بهم صاحب الحد ، وأرسل بصورتهم ، وخالف ركن الدولة وزيره ابن العميد في أمرهم ، وكتب صاحب الحد بأن يأذن لهم في الدخول ، فسار القوم بأجمعهم ، ومعهم فيل عظيم من بين الفيلة ، واجتمع رؤسائهم إلى الوزير ابن العميد ، وخاطبوه أن يسأل الأمير ركن الدولة أن يطلق لهم مالا يستعينون به على أمرهم ،

(١) القضاة والولاية للسكندى طبعة جوبست (Quest) ص ٤١٨ — ٤١٩ .

(٢) الأصطخري ص ٢٩٠ ، ٢٩١ . (٣) المقدسى ص ٢٧٣ .

وظن أن القليل يكفيهم على رسم الغزاة ، فإذا هم يطمعون في شيء كثير وقالوا :
 « نحتاج إلى مال خراج هذه البلاد كلها التي في أيديكم ، فإنكم إنما جبيتونها
 لبيت مال المسلمين لنائبه أن تأتيهم ، ولانائبته أعظم من طمع الروم والأرمن فينا ،
 واستيلائهم على ثغورنا ، وضعف المسلمين عن مقاومتهم » ، وسألوا مع ذلك أن
 يخرج معهم جيش ينضم إليهم ، وأخذوا في هذا النحو من الكلام ، وتبسطوا في
 الاقتراح ورفع الأصوات ، فلما لم تُجب مطالبهم شغبوا ، وعدلوا إلى مسافة
 الديلم ، فكانوا يكفرونهم ويلعنونهم ، وكان ذلك في شهر رمضان ، فكانوا
 يخرجون ليلاً ، ومعهم آلاتهم من السيوف والحراب والقسي والسهام ، ويزعمون
 أنهم يأمرسون بالمعروف ، فيسلبون العامة مناديلهم وعماصهم ، وإذا تمكنوا من
 تفتيشهم وأخذ جميع ما معهم لم يقصروا في ذلك ، وأدى شغبهم إلى وقوع القتال
 بينهم وبين أهل البلاد ، ثم حجز بينهم الليل ، فرجع الخراسانية إلى معسكرهم
 يضربون بطبولهم الليل كله ويتواعدون القتال ، فلما أصبحوا باكروا الحرب ،
 وهجموا على دار الأستاذ ابن العميد ، فكسروهم ، ثم كثروا عليه حتى مضى كل
 من معه ، ولم يولّ عنهم حتى طعنه أحدهم طعنة دخلت في كم درعه وأفضت إلى
 ساعده فخرحته ، واضطر أخيراً إلى أن يرجع إلى دار الإمارة ، واشتغل الخراسانية
 بنهب داره واصطبلاته وخزائنه إلى أن أتى الليل ، ثم انصرفوا ، فلما رجع الوزير
 إلى منزله ليلاً لم يجد فيه ما يجلس عليه ولا كوزاً واحداً يشرب فيه . ثم استفحل
 أمر هؤلاء الخراسانية وقويت نفوسهم ، ولكن الوزير وركن الدولة تمكنا من
 هزيمتهم حتى انصرفوا على سمت قزوين هائمين على وجوههم لا يابى بعضهم على
 بعض ، « ولئوأنهم خرجوا بالمال الذي كان لهم ليلعوا من الروم كل مبلغ ، ولكن
 غزاة المسلمين معهم ، والله أمر هو بالغه » (١) .

(١) مسكويه ج ٦ ص ٢٨٣ — ٢٩١ ؛ الأستخرى ص ٢٢٠ (٢) ؛ Amedroz.

قيل لعبد الملك بن مروان : أسرع إليك الشيب ، فقال : كيف لا ، وأنا أعرض عقلى فى كل جمعة على الناس . وقيل نعم الشئ الإمارة ، لولا قعقة البريد وصعوبة المنبر^(١) . وكان ارتقاء المنبر فى كل أسبوع للخطبة فى الناس واجباً شاقاً على كبار الأمراء أيضاً ، وكان فيه تكليف عسير على القواد لأنه يخرج بهم عما اعتادوا من صناعة السيف دون صناعة اللسان والبكتب ، ويحكى عن أحد الولاة أنه خطب فذكر أبياتاً للشعراء فى الوعظ ، وقدم لها بقوله : قال الله عز وجل فى كتابه^(٢) . وكان الرشيد أول من جعل الخطيب يخطب بكلام غيره ، فيحكى أنه استدعى الأصمى اللغوى لتأديب ولده محمد ، وقال : أريد أن يصلى بالناس إماماً فى يوم جمعة ، فاختر له خطبة وحفظه إياها ، فحفظه عشرأ ، فخرج وصلى بالناس ، فأعجب الرشيد به^(٣) . وكان فى هذه المسألة الصغيرة مسألة الخطبة ما يشير فى القرن الثالث الهجرى إلى انقطاع العادات الإسلامية التى جرى عليها الإسلام فى عهده الأول : فترك الخلفاء والولاة الخطبة فى الجمعة ، وعهدوا بذلك إلى خطباء ندبوا لذلك واختصوا به^(٤) . ويحكى عن الخليفة المهتدى (٢٥٥ — ٢٥٦ هـ = ٨٦٦ — ٨٦٧ م) . وكان شديد الورع أنه كان يحضر كل جمعة إلى المسجد الجامع فيخطب الناس ويؤم بهم^(٥) . وفى عام ٢٧٩ هـ صلى الخليفة المعتصد بالناس صلاة الأضحى ، ولم يسمع منه خطبة^(٦) . ولم يكن الخليفة يخطب إلا فى الأعياد . ويحكى عن الخليفة الراضى بالله (٣٤٤ — ٣٦٣ هـ = ٩٤٥ — ٩٧٤ م) أنه لما عزم على

(١) محاضرات الأدباء ج ١ ص ٨٣ . (٢) الإرشاد لياقوت ج ٦ ص ٩٤ .

(٣) الفرج بعد الشدة للتونجى ج ٢ ص ٢٠ — ٢١ .

(٤) وكان جهل كثير من الولاة باللغة العربية سبباً فى تخليهم عن هذا الواجب الدينى ، ويحكى أن غنبة بن إسحاق الضبي الذى ولى حكم مصر عام ٢٣٨ هـ كان آخر من وليها من العرب ، وآخر أمير صلى بالناس فى المسجد الجامع (الولاة للسكندى ص ٢٠٢) .

(٥) مروج الذهب للسعودى ج ٨ ص ٢ .

(٦) تاريخ أبى الجاسن (طبعة ليدن) ج ٢ ص ٩٧ .

بصلاة بالناس في عيد الفطر لم يعرف ما يقوله إذا انتهى في الخطبة إلى الدعاء لنفسه ، فأرسل في ليلة العيد إلى أحد العلماء بذلك ، فاختار له دعاء^(١) . وقد رُويت لنا الخطبة التي قالها الخليفة الطائع في عيد الأضحى سنة ٣٦٣ هـ ؛ وكانت خطبة قصيرة أشار فيها بكلمة أو بكلمتين ، إلى مسألة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، وكانت : « الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله والله أكبر ، متقربا إليه ، ومعتمداً عليه ، ومتوسلاً بأكرم الخلائق لديه ، الذي صيرني إماماً منصوباً عليه ، ووهب لي أحسن الطاعة فيما فوضه إليّ من الخلافة على الأمة ، الله أكبر الله أكبر ، مُقرباً بجميع آلائه فيما أسنده إليّ من حفظ الأُم وأموالها وذرائعها ، وقمع بي الأعداء في حضرها وبواديها ، وجعلني خير مستخلف على الأرض ومن فيها ، الله أكبر الله أكبر تقرباً بنجر البدن التي جعلها من شعائره وذكرها في محكم كتابه وأتباعاً لسنة نبيه وخليله صلى الله عليه في [.]^(٢) أئينا إسماعيل وقد أسر بذبحه فاستسلم لإهراق دمه وسفحه غير جَزَع فيما نابَه ولا نَكَل عما أُسِر به ، فتقربوا إلى الله في هذا اليوم العظيم بالذَّبائح فإنها من تقوى القلوب ، الله أكبر الله أكبر ، وصلى الله على محمد خيرته من خليقته وعلى أهل بيته وعترته وعلى آبائي الخلفاء النجباء ، وأتدني بالتوفيق فيما أتولى ، وسبَدَدني من الخلافة فيما أعطى . وأنا أخوفكم معشر المسلمين غرور الدنيا فلا تركنوا إلى ما يبيد ويفنى ، ويَزول ويَبلى ، وإني أخاف عليكم يوم الوقوف بين يدي الله غداً ، وصحبكم تقرأ عليكم ، فمن أوتى كتابه بيمينه فلا يخاف ظمأ ولا هضم ، أعاذنا الله وإياكم من الردى ، واستعملنا وإيّاكم بأعمال أهل التقوى ، وأستغفر الله لي ولكم ولجميع المسلمين »^(٣)

(١) الإرشاد لياقوت ج ٢ ص ٣٤٩ . (٢) كلمة غير واضحة في الأصل .
(٣) المتظم ص ١٠٦ ب ؛ وختام الخطبة يشبه الختام في خطب ابن نباتة كما سبأني

أما الخلفاء الفاطميون فكانوا يعنون عناية كبرى بالمظهر الديني خاصة ، وكانوا يخطبون في كل جمعة من مسطور يحضر إلى الخليفة من ديوان الإنشاء^(١) . وكان الخليفة الحاكم بأمر الله مثلاً قبل بناء الجامع الحاكمي يخطب في جامع عمرو جمعة ، وفي جامع ابن طولون جمعة ، وفي الجامع الأزهر جمعة ، ويستريح جمعة ، فلما بُني الجامع الحاكمي انتقلت الخطبة إليه^(٢) .

ولم تكن خطبة الجمعة عند المسلمين عظة بالمعنى الأوروبي (Predigt) ؛ بل كانت أشبه بطقس كنسي (ليثرجيا Liturgie)^(٣) فيها للخطيب من حرية التصرف ما لا يكون له في بقية مراسم صلاة الجمعة . ولذلك كان لا ينتظر من الخطيب أن يأتي في كل جمعة بشئ جديد . على أنه يحكى عن أبي سعيد عبد الواحد بن عبد الكريم بن هوازن المتوفى عام ٤٩٤ هـ - ١١٠١ م خطيب الجامع المنيعي بنيسابور أنه لبث يخطب خمس عشرة سنة ينشئ في كل جمعة خطبة جديدة « جامعة للفوائد معدودة من الفرائد »^(٤) . وكان أشهر خطباء القرن الرابع ابن نباتة المتوفى عام ٣٧٤ هـ - ٩٨٤ م خطيب سيف الدولة بحلب ، وديوان خطبه أعظم مظهر تجلّى فيه فن الخطابة في ذلك العهد . وإذا كانت في مآثور الروايات الإسلامية أن النبي محمداً (عليه السلام) كانت خطبه قصيرة ، فأقل مزايا ذلك أنه حفظ الإسلام ، من شئ لا يُحتمل وهو أن يكون دين ثرثرة للمتشدّقين ، ويحكى عن عمار بن ياسر أنه تكلم يوماً فأوجز ، فقليل له . لو زدّتنا ؛ فقال : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بإطالة الصلاة

(١) الخطط للمقرئ ج ٢ ص ٢٧٧ ، ٢٨١ .

(٢) حسن المحاضرة للسيوطي ج ١ ص ١٣٨ طبعة مصر ١٣٢٧ هـ .

(٣) الليثرجيا عبارة عن قطعة من الكتاب المقدس تقرأ وتفسر قليلاً . (المترجم)

(٤) طبقات السبكي ج ٣ ص ٢٨٤ .

وقصر الخطبة^(١). ولذلك كانت الخطبة الكبرى عند ابن نباتة لا تزيد عن الخمس دقائق^(٢) وتبدأ الخطبة بحمد الله والصلاة على النبي في إيجاز ، وبعدها يجلس الخطيب لحظة قصيرة ، ثم يقف لإلقاء الخطبة الثانية ، وقصر البرهة بين هاتين الخطبتين مضرب المثل ، قال ابن حديس الشاعر في ذلك العصر يشكو قصر زمان لقاء الحبيب :

زارت على الخوف من رقيب كخطبية رُوِّعت بذيـب
إلى أن قال :

كان زمان اللقاء منها أقصر من جلسة الخطيب^(٣)

ويختتم ابن نباتة خطبه دائماً بآيات من القرآن ، ثم يقول في آخر كل خطبة عبارات ثابتة وهي : بارك الله لنا ولكم في القرآن العظيم ، ونفعنا وإياكم بالآيات والذكر الحكيم ، وأستغفر الله العظيم لي ولكم ولسائر المسلمين^(٤). وكانت الخطبة الثانية أقصر قليلاً مما هي عليه اليوم^(٥). وفي الخطبة الثانية كان من عادة الخطيب أن يحول وجهه إلى اليمين وإلى الشمال عند الصلاة على النبي^(٦) ، وكان هذا الجزء من الخطبة موضع احتفاء وشعور خاص . وكان للصلاة على النبي شأن كبير حتى

(١) البيان والتبيين للجاحظ ج ١ ص ١١٧ ، ويقول الجاحظ (ج ١ ص ٤٢) إنه البلاغة الإيجاز ، والإيجاز أن توجب فلا تبطي ، وأن تقول فلا تخطي .
(٢) على أني سمعت خطبة بطريزك الأرثوذكس في أحد الشعانين عام ١٩٠٢ ، فلم تزيد عن عشر دقائق .

(٣) ديوان ابن حديس طبعة رومة سنة ١٨٩٧ ص ٨ — ٩ .

(٤) ديوان خطب ابن نباتة طبع بيروت ١٣١١ هـ ص ٦ .

(٥) تجد خطبتين من الهند ومصر مترجمتين في قاموس هيوز : *ruyhes Dictionary of Islam* تحت كلمة خطبة ؛ وانظر كتاب لين Lane, Mainess, s. 73 . وتجد خطبة من خطب بلاط الموحدين في كتاب المراكشي في تاريخ الموحدين (ص ٢٩٥ وما بعدها من ترجمة فاجنان Fagnan طبعة الجزائر سنة ١٨٩٣ .

(٦) ديوان خطب ابن نباتة ص ٣٢١ — ٣٢٢ .

نجد عند ابن نباتة صوراً مختلفة للصلاة يستطيع الخطيب أن يختار منها ما شاء^(١). وفي وقت الحرب كان الخطيب يدعو للأمير بالنصر بمثل هذا الدعاء : اللهم انصر الأمير فلاناً على أعدائك الكفرة البغاة ، الفجرة الطغاة ، الذين صدّوا عن سبيلك ، وكذبوا بتنزيلك ، وآثروا خلاف رسولك ، حتى لا يدع منهم فيلقاً إلا أهلكه ، ولا سملقاً إلا سلكه ، ولا دمماً إلا سفكه ، ولا هارباً إلا أدركه ، ولا مغلقاً إلا فتحه ودكده ، ولا حريماً إلا أباحه وهتكه ، ولا عظيماً إلا أهانه وتملكه ، اللهم انصره على أعدائك ، ومكّنه من نواصيهم ، حتى يذلهم وينزلهم من صياصبيهم ، ويؤدى إليه الجزية بالصغار دانيهم وقاصيهم^(٢).

وكان قصر زمان الخطبة لا يمكن الخطيب من تثقيف سامعيه بشرح النصوص كما هو الحال عند المسيحيين فيما يسمى بال Homelie ، وكان للخطبة منذ أول الأمر موضوع واحد لم تحّد عنه ، وهو الكلام في قرب زوال هذا العالم ، وفي ترهيب الناس بالموت والقبر ، وانقضاء الدنيا بمجيء يوم القيامة ؛ وهكذا تسير الخطبة على نمط سريع مثير للعواطف . ولم يكن الخطباء يعنون بالكلام في شيء من لذات الدنيا وآلامها التافهة ، ومن كانت النار لها وراءه زفير وشهيق فإنه لا يلتفت للأزهار التي يراها في طريقه ، ويروى عن علي بن أبي طالب أنه قال في إحدى خطبه الحماسية : « الفرار الفرار ؟ النجاة النجاة ؟ العدو وراءكم جاد في طلبكم يسعى خثيثاً ليدرككم^(١) . فأما وصف نعيم الجنة وعذاب النار فكان قليلاً بالنسبة لما كان الخطباء فيه . وإنما تركزت بلاغتهم في وصف يوم الصاخة التي تهب مرّوعة ، فيزول بمجيئها هذا العالم وتنتهى الحياة الدنيا . وكان جديراً بقوم كانوا

(١) ديوان خطب ابن نباتة ص ٣٢١ — ٣٢٢ .

(٢) هبة تترجمه لـ الكلام المؤلف وهو لم يصر إلى النص العربي . (الترجم)

يعيشون في ذلك العصر أقرب إلى الحس السليم وإلى السذاجة والفهم المستقيم أن ينبّهوا إلى التفكير في نهايتهم .

جاء في خطبة من خطب ابن نباتة : « أيها الناس : قلقوا القلوب عن مراقدها ، واعدلوا بالنفوس عن موارد شهواتها ، وذلّلوا جوامحها بذكر هجوم مماتها ، وتخيّلوا فضائحتها يوم تعرف بسماتها ، وترقبوا داعياً من جو السماء تنشر به الرمم ، وتحشر له الأمم ، وتزول معه التهم ، ويطول عنده الأسقام والندم ، ياله داعياً أسمع العظام البالية ، ومنادياً جمع الأجسام المتلاشية ، من حواصل الطيور ، وبطنون السباع ، وقرار البحور ، ومتون البقاع ، حتى استقام كل عضو في موضعه ، وقام كل شلو من مصرعه ، فهضم أيها الناس لميقات الكرة ، بوجوه من هبوات الثرى مغبرة ، وألوان من هول ما ترى مصغرة ، حفاة غرارة كما بدأكم أول مرة ، يسمعكم الداعي وينفذكم البصر ، قد ألجمكم العرق وغشيكم القتر ، ومادب الأرض فهي بما عليها ترجف ، وبُست الجبال فهي بريح القيامة تنسف ، وشخصت الأبصار فما ترى عين تطرف ، وغص بأهل السماء والأرض الموقف ، فبيننا الخلائق يتوكلون حقيقة أنبيائها وقوفاً ، والملك على أرجائها صفوفاً ، إذ أحاطت بهم ظلمات ذات شعب ، وغشيه منها شواظ نحاس ولهب ، وسمعوا لها جرجرة زئير مصطخب ، يفصح عن شدة تغيظ وغضب ، فعند ذلك جثا القائمون على الركب ، وأيقن المجرمون بالعطب ، وأشفق البراء من سوء المنقلب ، وأطرق النّبأ لسلطان الرهب ، ونودي أين عبد الله وأين أمته ؟ أين المسوف نفسه بخديعته ؟ أين المختطف بالموت على حين غرته ؟ فعرف من بين الخلائق بسمته ، وأحضر لتصفح صحيفته ، والمواقفة على ما أسلف في مدته ، مطالباً بإقامة حجته ، مروّعاً بين يدي عالم خفيته ، بوقع خطاب كالصواعق ، ولذع عتاب كالقاع ، وشهادة كتاب للفضائح جامع ، وصحة حساب للمعاذير قاطع ، نخاب والله من كان على نفسه مسرفاً ، ولم يجد من خلطائه منيلاً ولا مسعفاً ، بل وجد

الحاكم له وعليه عدلا منصفًا ، « ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ، ولم يجدوا عنها مصرفًا » . عدل الله بنا وبكم إلى سبيل السلامة ، وحمل عنا وعنكم أعباء الظلّامة ، وجعل الإخلاص بتوحيده نوراً لنا في ظلمات القيامة . إن أغزر ينابيع الحكم ، وأنور مصابيح الظلم ، كلام باري التسم « فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة ، وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة ، وانشقت السماء فهي يومئذ واهية ، والملائكة على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية » ^(١) .

وقليلاً ما كان الخطباء يتعرضون للكلام في الجنة أو في موضوع كثيراً ما يتكلم فيه المسيحيون ، وهو اللقاء بعد الموت ، ولعل الخوف من يوم النشور ، ومن أهوال يوم الحساب كان أقوى من أن يسمح بالكلام في ذلك ؛ ويحكى عن إحدى شهيرات نساء العرب أنها قالت : إني أشتاق ليوم البعث لأرى وجه زوجي ؛ فكان قولها مثلاً مدهشاً يضرب لبيان قوة الحب الذي لا يرهب أشد الأهوال ^(٢) . وقد ألف ابن نباتة كل خطبه سبعاً ، كأن جعلها توقيع موسيقى . وهذا السجع في الخطب هو أيضاً من المستحدثات التي ظهرت حوالى منتصف القرن الثالث الهجرى ، وبلغت منتهى ازدهارها في القرن الرابع ^(٣) ويحكى ابن خلكان من مناقب الخطباء المتأخرين وهو شيخ الإسلام العزّين عبد السلام أنه ترك السجع في خطبه حين ولى الخطابة رجوعاً إلى طريقة السلف ^(٤) . على أنه فيما يتعلق بالخطب وضعت في القرن الرابع صورة الخطب وقوانينها ^(٥) ، وإذا كانت

(١) ابن نباتة ص ٦٩ — ٧٢ . (٢) تحفة العروس مثلاً ص ١٦٢ .

(٣) انظر باب الأدب من الجزء الأول .

(٤) مقدمة كتاب ديوان الخطب لابن نباتة ص ١٩ .

(٥) وقد حفظ لنا أبو العلاء المعرى في كتابه سيف الخطبة بقية من طريقة القدماء في

تأليف الخطب . يشتمل هذا الكتاب على خطب السنة : فيه خطب للجمع والعيد والحسوف =

« خطب المسيحيين البلاغية التي تلقى في أيام الأعياد الكبرى ليست إلا أناشيد منشورة »^(١) فهذا ينطبق أيضاً على الخطب الإسلامية في القرن الرابع تمام الانطباق ، وإن بين هذه الخطب المسجوعة التي كتبها القدماء شيئاً كبيراً جداً بحيث لا يستطيع أحد أن ينكر تأثير خطب المسيحيين في المسلمين . ويحتوي ديوان ابن نباتة من خطب الأعياد على خطب تقال في رأس السنة ، وفي يوم وفاة النبي عليه السلام ، وفي شهرى رجب ورمضان ، وفي عيد الفطر . وكانت الخطب الجهادية ثمرة من ثمرات أيام سيف الدولة بما كان فيها من حروب ، وهي لا تقل روعة عن أجود الخطب الجهادية التي أثرت عن القدماء^(٢) .

أما فيما يتعلق بملابس الخطباء فلم تكن الحكومة تُعنى إلا بتعيين اللون الذى عليهم أن يتخذوه ، فحيث كان يُخطب لبني العباس كان الخطباء يتخذون السواد الذى هو اللون الرسمى للعباسيين ؛ وحيث كان يُخطب للفاطميين كان الخطباء يتخذون اللون الأبيض . ونظراً لعدم وجود هيئة من الأكليروس وعدم وجود لباس دينى خاص فقد كان الخطباء فيما عدا ما تقدم يتبعون عرف الناحية التى هم فيها ، ففي العراق وفي خوزستان كان الخطباء يظهرُونَ باللباس الحربى فيلبسون الأقبية والمناطق^(٣) ؛ على حين أنهم في خراسان كانوا لا يتردّون ولا

= والكسوف والاستسقاء وعقد النكاح ، وهي مؤلفة على حروف من حروف المعجم ، فيها خطب عمادها الهزمة ، وخطب بنيت على الباء وعلى الدال وعلى الراء وعلى اللام والميم والنون ، وتركت الجيم والحاء وما يجرى مجراها لأن الكلام المقول في الجماعات ينبغي أن يكون سهلاً ، (الإرشاد لياقوت ج ١ ص ١٨٢) .

(١) Norden, Die Antike Kunstproza, II. s. 844.

(٢) يقول أبو المحاسن (ج ٢ ص ٣٤٩) إن ابن نباتة عمل الخطب الجهادية لما وصل الروم إلى طرسوس وكروا إلى ديار بكر ، ووصلوا مياقارقين ، وقتلوا وخرّبوا ، وذلك عام ٣٤٨ هـ .

(٣) المقدسى ص ١٢٩ ، ٤١٦ .

يقتبون ، وإنما يكتفون بلبس درّاعة^(١) . وفي عام ٤٠١ هـ — ١٠١٠ م خطب بالموصل خطيباً للحاكم بأمر الله ، فظهر وعليه قباء ديبقى أبيض — واعتبر هذا كافياً من الناحية الرسمية — وعمامة صفراء وسراويل ديباج أحمر وخفين آخرين ، وقد تقلد سيفاً^(٢) .

وفي البصرة وحدها ، وهي مدينة الصالحين ومدعى الإصلاح في العراق ، كان الخطيب الرسمي يخطب في كل صباح ؛ وقيل إن هذه كانت عادة ابن عباس ، وفيما عدا البصرة كان الخطيب الرسمي يخطب يوم الجمعة فقط ، ويترك بقية الأسبوع للخطباء التطوعين الذين كانوا منذ العصور الأولى يتزاحمون على ذلك ، وكانوا يُسمّون القصّاص . وقد كتب جولدزيهر تاريخاً لهم^(٣) وأجاد المقرئى^(٤) في جمع الكثير من أخبارهم باختصار ، وهو يقول إن القصص لم يكن في أيام الرسول ولا في زمن الخلفاء الراشدين ، وإنما حدث في زمن معاوية ، وقيل في خلافة عثمان . ويحكى المقرئى عن الليث بن سعد أن القصص قصصان : قصص العامة ، وقصص الخاصة ، فأما قصص العامة فهو الذي يجتمع إليه النفر من الناس للقصص يعظّمهم ويذكّرهم ، وذلك مكروه لمن فعله ولمن استمعه ؛ وأما قصص الخاصة فهو الذي جعله معاوية إذ ولّى رجلاً على القصص فكان إذا سلم من صلاة الصبح

(١) نفس المصدر ص ٣٢٧ .

(٢) التجوّم الزاهرة لابن تغرى بردى طبعة كلنفورنيا ص ١٠٧ .

(٣) Muham. Studien, II, 161 ff. ؛ ومن أمثلة التندر بطريقة هؤلاء القصص ما جاء في كتاب الأغاني (ج ٣ ص ٣٠) من أن بشار بن برد الشاعر الأعمى الذي عاش في عهد الخلفاء الأولين من بني العباس مر بقاص بالمدينة ، فسمعه يقول في قصصه من صام رجب وشعبان ورمضان بني الله له قصراً في الجنة صحنه ألف فرسخ في مثلها ، وعلوه ألف فرسخ ، وكل باب من أبواب بيوتها ومقاصيرها عشرة فراسخ في مثلها . (قال) : فالتفت بشار إلى قائده فقال : بئست والله الدار هذه في كانون الثاني .

(٤) الخطط ج ٢ ص ٢٥٣ .

جلس وذكر الله عز وجل وحمده وتمجده وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ودعا للخليفة ولأهل ولايته ولخشمه وجنوده ، ودعا على أهل حربه وعلى المشركين كافة^(١) . وكان القاص بعد صلاة الجمعة يقرأ القرآن ويفسره ، وكان القاضى هو الذى يتولى القصص فى أول الأمر ، ولا يُذكر وجود هذا المنصب إلا فى مصر ، ولعله كان من قبل من أنظمة الكنيسة المصرية^(٢) . على أنه ولّى قضاء مصر فى عام ٢٠٤ هـ إبراهيم بن إسحاق القارى ، وُجِع له القضاء والقصص^(٣) . وبعد ذلك بطل نظام الجمع بين المنصبين ، وارتفع شأن منصب القضاء ، وانحطَّ منصب القاص . وفى عام ٣٠١ هـ أراد أبو بكر الملقب الذى تولى القصص فى هذه السنة أن يقرأ القرآن ويقص فى كل يوم ، فمنع القاضى من ذلك ، فرجع القاص إلى القراءة فى ثلاثة أيام^(٤) . أما فى الشرق فى عصر المأمون فقد ذكر طيفور أن قصص القصاص وإيواءهم إلى جانب بناء المساجد وجمع اليتامى والإنفاق على الجهاد من أعمال البر التى اتخذها البعض على سبيل الرياء^(٥) . أما المغرب فيحدثنا المقدسى أنه كان قليل القصاص^(٦) . ويروى عن مالك بن أنس صاحب المذهب السائد فى المغرب أنه كان يكره القصص^(٧) . وفى القرن الرابع نزل القصاص إلى

(١) الخطط للمقرئى ج ٢ ص ٢٥٣ .

(٢) نفس المصدر . وفى عام ٧٠ هـ ولّى قضاء مصر عبد الرحمن بن حنبل ، وكان له إلى جانب القضاء القصص وبيت المال ، وكان رزقه من كل هذه المناصب الثلاثة مائتى دينار (الكندى ص ٣١٧) .

(٣) الكندى ص ٤٢٧ .

(٤) الخطط للمقرئى ج ٢ ص ٢٥٤ .

(٥) كتاب بغداد لطيفور طيبة كثر Celler ص ١٠٠ . ويقول الجاحظ (البيان ج ١ ص ٤١) إن من تمام آلة القصص أن يكون القاص أهمى ويكون شيخاً بعيد مدى الصوت .

(٦) المقدسى ص ٢٣٦ .

(٧) المدخل لابن الحاج ج ٢ ص ٢١ وما بعدها .

غمار العامة وصاروا يقصون لهم القصص الدينية والأساطير والنوادر في المساجد والطرق ، وينالون منهم مالا كثيراً . وكان يجتمع إليهم الرجال والنساء ، فيرفعون أصواتهم بالدعاء ويمدون أيديهم^(١) . وكان العامة يحبون القصص حبا شديداً ، ويحكى عن الطبري أنه أنكر على قاص ببغداد ، فرمى العامة باب داره بالحجارة حتى سدوه وصعب الخروج منه^(٢) . وكان القصص في أواخر القرن الرابع أكبر مثيري الفتن القديمة بين أهل السنة والشيعة^(٣) .

وحوالى ذلك. العصر فقد القصص كل ثقة من جانب أهل التقى والصلاح ، وبدأت الثقة تتحول عنهم إلى طائفة خلفتهم ، وهى طائفة المذكرين ، ويسمى مجلسهم مجلس الذكر^(٤) . وقد نشأ مجلس الذكر من تعود بعض الصالحين للتسبيح متنفلين بعد انقضاء الصلاة^(٥) . وكان الصوفية يسمون خطباءهم بهذا الاسم ، المذكرين^(٦) . ويرجع إلى عصر التنافس بين المذكرين والقصص ما قاله أبو طالب المكي من أن حضور الرجل يجالس الذكر أفضل من صلاته ، وصلاته أفضل من حضور مجالس القصص^(٧) . وقد فرق البعض بين طوائف المتكلمين

(١) قوت القلوب لأبي طالب المكي ج ١ ص ١٤٩ . ويحكى عن أحد القصص أنه كان يقص على الناس بطرسوس فأدركته روعة مما كان يصف من جلال الله وعظمته وبأسه وسطوته فخر مغشياً عليه ومات عام ٣٣٥ هـ — ٩٤٦ م (طبقات السبكي ج ٢ ص ١٠٣) .

(٢) Goldziher, Muh. Studien, II, s. 168 .

(٣) المنتظم لابن الجوزي ص ١٥٢ ب .

(٤) المقدسى ص ١٨٢ . وأقدم نص وجدته ورد فيه لفظ المذكر هو قصيدة حصار بغداد في عهد الأمين (١٩٨ هـ — ٨١٣ م) للشاعر الأعمى المعروف بعلي بن أبي طالب — مروج الذهب للمسعودي ج ٦ ص ٤٤٨ .

(٥) المقدسى ص ١٨٢ .

(٦) كشف المحجوب ص ٢٣٥ .

(٧) المدخل لابن الحاج ، ج ٢ ص ٢٣ ؛ ولم أستطع أن أجده هذه الكلمة في قوت القلوب .

فيحكي أبو طالب المكي : « وقد قسم بعض العلماء المتكلمين ثلاثة أقسام فوصفهم بأما كنهم فقال : المتكلمون ثلاثة : أصحاب الكراسي وهم القصاص ، وأصحاب الأساطين وهم المفتون ، وأصحاب الزوايا أهل المعرفة ، فجالس أهل العلم بالله تعالى وأهل التوحيد والمعرفة هي مجالس الذكر »^(١) . وقد أتعب المذكر نفسه في أن يظهر بمظهر يكسبه من التقدير ما يزيد على سلفه القاص ، وأكبر مظهر لذلك أنه كان لا يتكلم ارتجالاً ومن غير تقيد ، بل كان يقرأ من دفتر^(٢) . وفي أماننا هذه نجد القاص في بغداد يروي قصص الأبطال بأن يقرأها من كتاب صغير معه ، على حين أن الأخباري اليهودي يروي حكاياته من غير دفتر ، وكان الأول ينظر إلى الثاني نظرة الاحتقار ، وقد بين السمرقندي (المتوفى عام ٣٧٥ هـ) ما ينبغي أن يكون عليه المذكر ومن يستمع إلى حديثه ، فأول ما يحتاج إليه أن يكون صالحاً في نفسه ورعاً ، وأن يكون مثوابعاً ، ولا يكون متكبراً ولا فظاً غليظاً ، وأن يكون عالماً بتفسير القرآن والأخبار وأقاويل الفقهاء ، لا يحدث الناس إلا بما صح عنده ، وينبغي ألا يكون طماعاً ؛ ولو أهدى إليه إنسان من غير مسألة فلا بأس أن يقبل هديته . وينبغي أن يكون في مجلسه الخوف والرجاء ، ولا يجعله كله خوفاً ولا كله رجاء ، فإن كان المذكر يحتاج إلى تطويل المجلس فيستحب له أن يجعل في خلال مجلسه كلاماً يستظرفه السامعون ، ويتبسمون له ، فإن ذلك يزيدهم نشاطاً وإقبالاً على السماع ، ومن آداب المستمعين أن يقولوا للمذكر عند فصل كل حديث صدقت أو أحسنت ، حتى يكون المذكر راغباً في الحديث ؛ ويصلي عند سماع اسم محمد صلى الله عليه وسلم كلما ذكر ، وأن ينزع وسواس الشيطان

(١) قوت القلوب للمكي المتوفى عام ٣٨٦ هـ — ٩٩٦ م ج ١ ص ١٥٢ .

(٢) المقدسي ص ١٨٢ ، ٣٢٧ .

من قلوبهم ، ولا ينام في حال المجلس^(١) ، وكان المجلس ينتهي بأن يأمر المذكر سامعيه بالقيام ، فيقوموا ، وهو منعهم ، يأخذون في الدعاء^(٢) .

وكان أصحاب المجموعات الفقهية التي ألفت في القرن الثالث الهجري لا يجهلون ما كان يُقال من أنواع الذكر الذي هو عبارة عن تكرير لفظ من ألفاظ الدعاء ؛ ولكنهم لم يعلقوا على ذلك أية قيمة . ويُروى عن النبي (عليه السلام) أنه أوصى بأن يسبِّح الصلِّي بعد الصلاة ثلاثاً وثلاثين ، ويحمِّد ثلاثاً وثلاثين ، ويكبِّر ثلاثاً وثلاثين^(٣) . وفي القرن الثاني الهجري قال الأصمعي لخلف الأحر : أما ترى ما جاء به ابن داب من الحجاز والشوكري من الكوفة ؛ فأجاب بما يحيط من قدر علمهما ، بأن قال : إنما يروى لهؤلاء من يقول : قالت ستي ، ويدعو ربه من دفتر ، ويسبِّح بالخصي ، ويحلف بحياة المصحف ، ويدع حدثنا وأخبرنا ، ويقول : أكلنا وشربنا^(٤) . وقد وصف الدارمي المتوفى عام ٢٥٥ هـ - ٨٦٩ م في سننه قوماً كانوا يقعدون في المسجد على هيئة حلقات ينتظرون صلاة الصبح وفي أيديهم حصى صغير ، وكان لكل حلقة إمام يقول لهم : قولوا الله أكبر مائة مرة ، ثم سبحان الله مائة مرة ، وكانوا يعدون ذلك بالخصي الذي في أيديهم ، فمر بهم شيخ ، فقال لهم : أولى بكم أن تعدوا ذنوبكم^(٥) . وقد بقي الذكر في أثناء القرن الثالث الهجري كله يُعتبر قليل القيمة ، وينسدر أن نجد له ذكراً في كتب العلماء في ذلك القرن ، فلما جاء القرن الرابع انفصل الذكر عن الدعاء

(١) بستان العارفين على هامش تنبيه الغافلين للسمرقندي ص ٢٥ وما بعدها .

(٢) المنتظم لابن الجوزي ص ٨٩ ب . (٣) البخاري : باب الذكر .

(٤) الإرشاد لياقوت ج ٦ ص ١٠٩ .

(٥) سنن الدارمي طبعة كوينبور ١٢٩٣ هـ ص ٣٨ ، كما نقل ذلك جولدزنيهر في مجلة

تاريخ الأديان R H R عام ١٨٩٠ ص ٢٩٩ .

الذى يقال اختياراً لغرض معين ، وصار يقصد به الدعاء القصير المتكرر على هيئة ورد ، والتحية ، وما يقال عند الطعام وفي الصباح والمساء ، وما اعتاده المسلمون من كثرة ذكر الله في أثناء عملهم اليومي^(١) ؛ وجعل لهذا العمل الدينى شأن كبير ، ورؤى عن النبي عليه السلام أنه قال : « من دخل السوق فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يحيى ويميت ، وهو حي لا يموت بيده الخير ، وهو على شيء قدير ، كتب الله له ألف ألف حسنة ، ومحا عنه ألف ألف سيئة ، ورفع له ألف ألف درجة^(٢) » ، ويحكى عن أبي زرعة محمد بن عثمان الدمشقى قاضى مصر المتوفى عام ٣٠٢ هـ — ٩١٤ م أنه أهدى إلى خارويه رقيقاً ختم عليه عشر ختمات وعشرة آلاف قل هو الله أحد فقبله خارويه وتبرك به^(٣) . ويحكى عن عالم كان بزيل مكة وتوفى عام ٤٢٥ هـ — ١٠٣٤ م أنه كان يقرأ فى كل أسبوع ستة آلاف قل هو الله أحد^(٤) .

وكان أبو الحسن البوشنجى المتوفى عام ٤٦٧ هـ — ١٠٧٤ م فقيها زاهداً ورعاً صوفياً ، ويحكى أنه كانت لا تسكن شفتاه من ذكر الله عز وجل ، وجاءه مزين مرة ليقص شارب به فقال له : أيها الإمام يجب أن تسكن شفتيك ، فقال : قل للزمان حتى يسكن^(٥) . ويحكى عن أحد العلماء الصالحين أنه بعد أن مات رآه رجل فى المنام ، وهو واقف فى الحراب ، وعليه حلة ، وعلى رأسه تاج مكلل ؛ فقال له : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لى وأكرمى وتوجنى ، وأدخلنى

(١) يضع صاحب العقد الفريد — وهو يمثل آراء القرن الثالث الهجرى — أمثال هذه العادات الدينية الصغيرة فى باب الدعاء (العقد ج ١ ص ٣٢٢) ، على حين أن السمرقندى يعقد باباً خاصاً للذكر . (٢) تنبيه الغافلين للسمرقندى ص ٢٥١ ، ٢٥٥ .

(٣) ملحق السكندى ص ٥١٩ نقلاً عن ابن زولاق المتوفى عام ٣٨٦ هـ — ٩٩٦ م .

(٤) طبقات السبكى ج ٣ ص ٨٥ .

(٥) نفس المصدر ج ٣ ص ٢٢٨ .

الجنة ؛ فقال له الرجل : بماذا ؟ قال : بكثرة صلاتي على رسول الله صلى الله عليه وسلم^(١) . وذكر القشيري في رسالته^(٢) بإسناد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : لا تقوم الساعة على أحد يقول : الله الله ؛ أو أنه قال : لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله الله . وكان لعبد الله بن عباس خمسمائة أصل زيتون يصلى في كل يوم إلى كل أصل ركعتين ، فكان يدعى ذا الثغفات^(٣) ، على أنه حل محل الحصى أو مثل هذه الطريقة في إحصاء العبادات شيء جاء من المشرق وهو السبحة ؛ وأول إشارة تدل على استعمالها من حيث التاريخ ما جاء في قصيدة لأبي نواس ، وهو في السجن في عهد الخليفة الأمين (١٩٣ - ١٩٨ هـ = ٨٠٨ - ٨١٣ م) ، وفي هذه القصيدة يخاطب أبو نواس الوزير ابن الربيع بقوله :

أنت يا ابن الربيع ألزمتني النسك وعودتيه والخير عادة
فارعوى باطل وأقصر حبلى وتبدلت عفة وزهاده
المسابيح في ذراعي والمصحف في لبتى مكان القلادة^(٤)

وكان حظ السبحة من قلة التقدير من جانب العلماء والصالحين في القرن الثالث الهجري أقل من حظ الذكر نفسه ، فكانت لا ترى إلا في أيدي النساء أو مدعى الصلاح ؛ وقد رأى أحد الصوفية في يد الجنيد سيد الصوفية المتوفى عام ٢٩٧ هـ - ٩٠٩ م سبحة فقال له : أنت مع شرفك تأخذ بيدك سبحة !^(٥) ،

(١) ابن بشكوال ج ١ ص ١٣٤ . (٢) الرسالة ص ١٠١ باب الذكر .

(٣) الكامل للبهرد طبعة مصر ١٣٠٨ هـ ص ٣٦٧ من الجزء الأول .

(٤) ديوان أبي نواس طبعة مصر ١٨٩٨ م ص ١٠٨ .

(٥) رسالة القشيري ص ١٩ ، ومقال جولديهر في مجلة تاريخ الأديان ، ومجلة جمعية المستشرقين الألمان . Goldziher, R H R, 1890 s. 295 ff; Z D M G, 50, s. 488 .

ومطالع البدور للنزولي ج ٢ ص ٦٦ ؟

على أن السبحة تذكر باعتبارها من أخص أهبة النساء إصوفيات في القرن الخامس الهجرى^(١).

وكان من أشد الخطب الدينية قوة وتأثيراً بين المسلمين المواعظ التي كان يتطوع للقيام بها أهل الفصاحة واللسن ، علماء كانوا أو غير علماء ، مقبلين على ذلك إقبالا شديداً ، وكانت عادة هؤلاء أن يجلسوا لوعظ الناس في أيام الصوم من رمضان وفي أيام الجمع بعد تأدية الصلاة ، وهذه هي العادة الجارية اليوم في مصر على الأقل^(٢) . وكان من عادة الكثيرين من الكبراء أن يستدعى أحدهم واعظاً مشهوراً ويقول له : عِظْنِي أو خَوِّفْنِي^(٣) . وكثيراً ما كانوا يسمعون منهم ما لا يحبون ولا يتوقعون من غليظ القول . أما عامة المدن بما كان لهم من تذوق للفن البلاغي ، فقد كان للواعظ بينهم قدرة على جذبهم لدرجة تخرج عن مألوف العادة ، وكان للواعظ في الاحتفالات الحربية والدينية والأعياد نصيب إلى جانب المكدين والمخرّقين والشعراء في العمل على تغذية خيال العامة المتعطش . وكثيراً ما لحقتهم مفسد هذه المهمة ، فاتخذوا منها وسيلة للكسب ، وإن كان العصر الذي نتكلم عنه لم ينطبق عليه بعد ما قاله الجوبري عن الواعظ من أن صناعتهم « أعلى مرتبة بنى ساسان »^(٤) . على أنه كان في القرن الرابع من العلماء الصالحين من يكره الجلوس للعة^(٥) ، وكانوا مُحَقِّقِينَ في ذلك ؛ فإن كبار

(١) طيقات السبكي ج ٣ ص ٩١ .

(٢) حاضر المصريين لمحمد عمر طبعة القاهرة عام ١٣٢٠ ص ١٠٣ .

(٣) تيجد القارى* بعض هذه الحكايات في الجزء الأول من العقد الفريد طبعة مصر

١٣٠٢ ص ٣٥٦ . ويقول مرجليوث (في تعليقه على الترجمة الإنجليزية) إن السبحة ذكرت في بيت لبشار ، (الكامل ج ٢ ص ٨٠) .

(٤) كشف الأسرار مخطوط فينار رقم ١٥٤ ص ١٧ ب .

(٥) . بستان العارفين للسمرقندي ص ٢٢ .

الوعاظ كانوا بطبعهم أصحاب صناعة ، ولما كانوا خطباء مفوهين فقد كانوا أيضاً يحبون أبهى عادات عصرهم والظهور بأحسن مظاهره .

وكان أشهر واعظ ببغداد في القرن الرابع هو أبو الحسين بن سمعون (٣٠٠ هـ = ٩١٢ - ٩٩٧ م) ، وكان من عادته أن يلبس أحسن الثياب ويأكل أطيب الطعام ، فقال له رجل : كيف هذا وأنت تدعو الناس إلى الزهد في الدنيا والترك لها ؟ فأجابه : كل ما يصلحك لله فافعله ؛ إذا صلح حالك مع الله فالبس لئن الثياب وكل أطيب الطعام ، فلا يضرك^(١) . ويحكى صاحب بن عباد في كتاب الروزنامة أنه رآه وسمعه ببغداد ، « وقد لبس فوطة قصب وقعد على كرسى ساج بوجه حسن ولفظ عذب »^(٢) . ولما دخل عضد الدولة بغداد وكان أهلها قد هلكوا قتلاً وحرقاً وجوعاً للفتن التي ائصلت فيها بين الشيعة والسنة ، أمر بمنع القصاص من القصص لأنهم كانوا يحرضون الناس على القتال والنهب . ولكن ابن سمعون لم يخضع لهذا الأمر ، فجلس على كرسیه يوم الجمعة وتكلم في الناس ، فأمر عضد الدولة بإحضاره بين يديه ، فأحضره شكر المعتضدي ، وخشى عليه من مكروه يحل به من عضد الدولة ، وأوصاه أن يقبل التراب ويتلطّف في الجواب ، وأن يسلم بخشوع وخضوع ، ودخل ليستأذن له من عضد الدولة ، فإذا هو إلى جانبه أمام الملك ، وقد حوّل وجهه نحو دار بختيار ، واستفتح فقراً : بسم الله الرحمن الرحيم ، وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذهُ أليمٌ شديد . ثم حوّل وجهه نحو الملك ، وقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم ، ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون . وأخذ في وعظه ، فأتى بالعجب حتى

(١) حكى ابن سمعون نفسه أن جده إسماعيل سماه سمعون بكسر السين ، انظر تاريخ

بغداد مخطوط باريس ص ٨٥ / وما بعدها .

(٢) الإرشاد لياقوت ج ٢ ص ٣١٩ .

دمعت عينُ الملك على شدة تَجْبُرِهِ وسطوته ، وما رَوَى منه ذلك قط . ثم أراد الملكُ أن يمتحنه فأرسل إليه مالا وثياباً وعزم إن أخذها لِيَقْتُلَنَّهُ ، فردّها ، ولم يَرْضَ أن يأخذها حتى لأصحابه ، وقال : أصحاب السلطان أفقر إلى هذا من أصحابي . وعرف السلطان الخبر فقال : الحمد لله الذي سلّمه منا وسلمنا منه ^(١) . وكانت تقع له الكرامات ، فشفي بنتاً عرجاء بأن مشى على رجلها ، وكان يكشف له عن أحوال الجالسين ، ويحكى أن رجلاً نام وهو في مجلس الوعظ ، فأمسك ابن سمعون عن الكلام ساعة حتى استيقظ الرجل ورفع رأسه ، فقال له ابن سمعون : « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في نومك ، قال : نعم ، فقال أبو الحسين : لذلك أمسكتُ عن الكلام خوفاً أن تنزعج وتنقطع عما كنت فيه » ^(٢) . وبلغ الخليفة الطائع أن ابن سمعون ينتقص عليّ بن أبي طالب ، فأحب أن يتيقن ، وأرسل إليه ، وهو على صفة من الغضب ، وكان يُتَّقَى في تلك الحال ، لأنه كان ذا حدة ، فلما مثل ابن سمعون بين يديه كان أول ما افتتح به كلامه أن ذكر علي بن أبي طالب وروى عنه أخباراً وأحاديث ، وأعاد وبدأ في ذلك ، ولم يزل يجري في ميدان الوعظ حتى بكى الخليفة الطائع وسمع شقيقه ، وابتل بتدليل بين يديه بالدموع ، فأمسك ابن سمعون ، فلم الخليفة أن الواعظ وُقِّيَ إلى ما تزول به عنه الظنة ، وخطر له أنه يكشف بما أرسل إليه من أجله ، وأعطاه درجاً فيه طيب وغيره ^(٣) . وكان أكبر واعظ قبل ابن سمعون بنصف قرن أبا الحسن علي بن محمد الواعظ الملقب بالمضرب ، لأنه أقام بمصر مدة طويلة ، والمتوفى عام ٥٣٣٨ هـ — ٩٤٩ م ، وكان يحضر مجلس وعظه رجال ونساء ، فكان يجعل على وجهه برقعاً خوفاً أن يفتتن

(٢) نفس المصدر ص ١٤١ / (٢) ؟ وتاريخ

(٣) تاريخ بغداد ص ٨٥ ب — ٨٦ ب .

(١) المنتظم ص ١١٢ ب .

بندناف مخطوط باريس ص ٨٥ ب .

به النساء لحسن وجهه^(١) . وكان من الوعاظ أيضاً أبو عبد الله محمد بن أحمد الواعظ الشبرازي المتوفى عام ٦٤٩ هـ — ١٠٤٧ ، قدم بغداد يتكلم بلسان الوعظ والزهد ، ويلبس الرقعة ، فافتتن الناس به لما رأوا من حسن طريقته ، وعمر مسجداً كان خراباً ، فسكنه ، ومعه جماعة من الفقراء . ثم نزع الرقعة ، ولبس الثياب الناعمة الفاخرة ، بعد أن حصل له المال الكثير ، وكثر أتباعه ، فأظهر أنه يريد الغزو ، فحشد الناس إليه ، وصار له من الأتباع عسكر كثير ، وصار إلى ناحية أذربيجان ، فاجتمع له بها جمعٌ حتى ضاهى أمير تلك الناحية^(٢) . بل يذكر لنا من أخبار القرن الرابع ظهور واعظة وهي ميمونة بنت ساقولة الواعظة البغدادية المتوفاة عام ٣٦٣ هـ — ١٠٠٢ م ، « وكان لها لسان حلو في الوعظ » ، وكانت زاهدة ، ويحكى عنها أنها قالت : « هذا قميصي له اليوم سبع وأربعون سنة ألبسه وما يتخرق ، غزَلتهُ لي أمي ، الثوب إذا لم يُغصَّ الله فيه لا يتخرق »^(٣) .

ولم يكن لهؤلاء القوم في ذلك العصر أية صبغة رسمية ، فلا نجد مثلاً ذكر العلماء معترف بهم في ذلك القرن يخرجون لوعظ الناس ، ويحكى عن ابن الجوزي بعد ذلك بقرنين أنه حضر للاستماع لمجلس وعظه مائة ألف إنسان^(٤) . ولم يكن للإسلام في الواقع أية صبغة كهنوتية ، بحيث كان يُسمح لهؤلاء الخطباء المتطوعين الذين يتكسبون بالوعظ أن يرتقوا المنابر في المساجد دون أن يتعرض لهم أحد ، ولم يكن بينهم وبين خطباء الجمعة الرسميين فرق سوى أنهم كانوا لا يعطون وهم وقوف ، بل كانوا يجلسون على الكراسي ، ويحكى عن أبي زكريا

(١) المتظم ص ٨١ ، وحضر بجله أحد العلماء مستخفياً ، فلما أعجبه شهّر نفسه وقال له : أيها الشيخ ! القصص بعدك حرام .

(٢) تاريخ بغداد ج ١ ص ١١١ / بيب ١١٢ ب من مخطوطة باريس .

(٣) تاريخ أبي الجاسن طيبة كنفوريا ص ٩٢ . (٤) الزرقاوي ج ١ ص ٦٣ .

(٧).

يحيى بن معاذ الرازي الواعظ المشهور المتوفى عام ٢٥٨ هـ — ٨٧٢ م أنه جاء إلى شيراز فصعد المنبر ، واجتمع الناس فأول ما بدأ به أن قال شعراً :

مواظظ الواعظ لن تقبلا حتى يعيها قلبه أولا
يا قوم من أظلم من واعظ خالف ما قد قاله في الملا
أظهر بين الناس إحسانه وبارز الرحمن لما خلا .

ثم وقع من على الكرسي ، ولم يتكلم في ذلك اليوم^(١) . وكذلك كان من عادة القاص من قبل — في مصر على الأقل — أن يقرأ في المصحف ثم يقص وهو جالس^(٢) . ولا بد أن يكون أصل هذه العادة أيضاً راجعاً إلى ما كان عند المسيحيين الأولين لأنه حتى عصرنا هذا لا يتكلم الخطيب في أيام الصوم الكبير عند الرومان الكاثوليك من على منبر ؛ بل من على منصة في وسط الكنيسة ، ويجلس في معظم الأحيان على كرسي . ونستطيع أن نلاحظ أنه منذ القرن السادس الهجري فما بعده كانت ترسل إلى الخطيب رقاع ليحجب عنها^(٣) .

أما عند الفاطميين — بما كان للدين عندهم من صبغة إكليريكية فقد كان للخليفة مجلس يذكر فيه مكارم الأخلاق ، وله بذلك رتبة عظيمة تلي رتبة صاحب ديوان المكاتبات ، وهو يجتمع بالخليفة في أكثر الأيام ، ومعه دواة محلاة ، فرغ من المجالسة ألقى في الدواة كاغد فيه عشرة دنائير وقرطاس فيه ثلاثة مثاقيل ندى ليتبخر به عند دخوله على الخليفة ثانياً مرة^(٤) .

(١) زبدة الفكرة مخطوط باريس ص ١٩ ب — ٢٠ ا . وهذا معنى ما قاله جولد

زيمرمان في مجلة المستشرقين : الألمان : انظر Z'd'm'g, 55, S. 507 anm I.

(٢) الخطط للمقرئ ج ٢ ص ٢٥٤ .

(٣) رحلة ابن الجبير ، ص ٢٢٩ ، وعجائب المخلوقات للقزويني : ص ٢١٤ ، وكتاب

الأذكياء لابن الجوزي ، ص ٩٠ . (٤) الخطط للمقرئ ج ١ ، ص ٤٠٢ .

وكانت المساجد تظل مفتوحة ليلاً ونهاراً إلا في أحوال قليلة^(١). وهي بحكم الشرع يجوز أن تكون مأوى لمن لا يجد له مسكناً وللسافرين والمتعبدين؛ وكان في هذا ما يخفف بعض أعباء الحياة ومصاعبها، ومما يحكى أنه كان يجتمع في أحد المساجد بمصر جماعة من الرؤساء للنوم والحديث في صحنه في الليالي القمرية، فلما كانوا ليلة، وأكلوا وتحدثوا، انضم إليهم أحد الخواة، فلما ناموا انفتحت سلة الحاوى، وانطلق ما كان فيها من الأفاعى الغريسة، فأيقظ القوم، وكان معهم أطفال وصبيان، فمنهم من طلع على المنبر، ومنهم من تسلق العمدة، ثم طلوعوا المئذنة، وناموا إلى بكرة. وكانت قيم المسجد يعلم أخبار هذه الاجتماعات التي تفرق شملها بعد تلك الليلة^(٢). على أنه كان يندر أن تكون «بيت الله» خالية أثناء النهار^(٣)، وذلك في المدن على الأقل، وكانت أشبه بنوادٍ أو مجتمعات للناس. وخصوصاً المسجد الجامع، حيث كان القاضي يجلس في النهار للحكم بين الناس^(٤)، والعلماء يعقدون حلقات التدريس؛ وكان موضع العالم يعرف بالسجادة التي يصلى عليها، وكان من علامة سخط الحكومة على حلقة عالم من العلماء ومنعه من عقد مجلس علمه في المسجد أن ترمى سجادته خارج

(١) وكان المسجد الجامع في مصر على عهد الطولونيين يُغلق بعد صلاة العشاء، لأن بيت المال كان فيه (ابن رسته ص ١١٦)، وفي عام ٢٩٤ أمر وإلى مصر بإغلاق المسجد الجامع فيما بين الصلوات؛ فكان يفتح في أوقات الصلوات فقط، فضج الناس من ذلك حتى مُنح لهم (الكندى ص ٢٦٦ من كتاب الولاة)

(٢) الخطط للمقريزى ج ٢ ص ٣١٩.

(٣) المحاسن والمساوى؛ للبيهق ص ٤٨٣ (٢).

(٤) على أن حركة أهل السنة في القرن الثالث بما كان لها من رد فعل قوى؛ اعتبرت ذلك امتهاً لحرمة المسجد؛ فأمر المعتضد عام ٢٧٩ هـ ألا يجلس في الجامع قاض؛ وحلف باعة الكتب ألا يبيعوا كتب الفلاسفة والجدل ونحو ذلك — النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٨٧ طبعة ليدن؛ والأصح أن كلمة قاض هنا هي تحريف لكلمة تاس، لأن القعنص هو الذي كان مكنونهاً في المناخل؛ انظر تاريخ الطبري ج ٣ ص ٢١٣١، ٢١٦٥... (المترجم)

المسجد . وكان يبلغ النشاط في المسجد أقصاه في المساء ، وهو وقت النشاط الديني عند الشرقيين ، وحوالي هذا العصر الذي نتكلم عنه يحكى لنا المقدسى ما شاهده في القسطنطينية فيقول : « وبين العشاءين (بالقسطنطينية) جامع معتص بحلق الفقهاء وأئمة القراء وأهل الأدب والحكمة ، ودخلتها مع جماعة من المقادسية ، فرمينا جلسنا نتحدث فنسمع النداء من الوجهين : دوّروا وجوهكم إلى المجلس ، فننظر فإذا نحن بين مجلسين ، على هذا جميع المساجد ، وعددت فية مائة وعشرة مجالس »^(١) . وكان الناس بمصر يجعلون لأنفسهم كثيراً من الحرية في المساجد ، وقد اندهش ابن حوقل ، لأنه من أهل المشرق ، حينما رأى الناس يأكلون في المسجد ، وحينما رأى باعة الخبز والماء يباشرون حرقهم هناك^(٢) . ويحكى لنا المقدسى ، وهو شامى ، أن المصريين يكثرون النخع والمحاط في المساجد ، ويجعلونه تحت الحصر^(٣) . وكانت المساجد الصغيرة بالنسبة للمسلمين الذين يعيشون على مقربة منها بمثابة بيوت أخرى لهم ، وكانوا يستخدمونها في منافع كثيرة ، فكان التاجر مثلاً يودع في المسجد درابات دكانه التي يخلقه بها^(٤) . وفي فارس كان الناس يجلسون في المساجد ثلاثة أيام للتعزية^(٥) . فقد ظل المسجد محتفظاً بصبغته الأولى وهي أن يكون « بيت النداء » الذي لا بد للجماعة الإنسانية منه في العادة فكان يجلس فيه الناس للحديث^(٦) ، ويقصون في نهارهم حوادث ليهم^(٧) . وفيه كانت تقال القصائد الشعرية كما كان ملتقى أحباب المغامرات الغرامية وعشاق الغلمان^(٨) . وكان من أكبر مراكز المحتالين واللصوص كما تدل على ذلك مجموعتنا المقاتلين

(١) المقدسى ص ٢٠٥ . (٢) ابن حوقل ص ٣٤١ (٢) .

(٣) المقدسى ص ٧٠٥ .

(٤) الفرج بعد الشدة للتونجي ج ٢ ص ١١٠ ، (٥) المقدسى ص ٤٤٠ .

(٦) مقامات الهمذاني طبعة بيروت ١٨٨٩ ص ١٥٧ .

(٧) كتاب الأغاني ج ١٧ ص ١٤ .

(٨) يتيمة الدهرج ص ٢ ص ١٣٠ ، وانظر فصل الأخلاق والمخادات ، والمتنظم ص ٤٨ .

المشهورتين^(١). وقد وصلت لنا هذه الحكاية التالية عن بعض المتأخرين : « رأيت بجرّان سنة ثلاثة عشر وستمئة رجلاً من بني ساسان ، قد أخذ قرداً علمه السلام على الناس ، والتسبيح والسواك والبكاء ، ثم رأيت لهذا القرد من الناموس ما لا يقدر عليه أحد ، فإذا كان يوم الجمعة أرسل عبداً هندياً حسن الوجه نظيف اللبوس إلى الجامع ، فيسقط عند المحراب سجادة حسنة ، فإذا كان في الساعة الرابعة لبس القرد ملبوساً خاصاً من ملابس أولاد الملوك ، وجعل في وسطه حياصة لها قيمة ، ثم طيّبه بأنواع الطيب ، ثم أركبه بغلة بمركوب مذهب محلى ، ثم مشى في ركابه ثلاثة عبيد هنود بأنخر ملبوس ، الواحد يحمل الوطا ، والآخر يحمل الشرموذة ، والآخر يطرق قدامه ، وهو يسلم على الناس ، وكل من سأل عنه يقول هذا ابن الملك الفلاني من أكبر ملوك الهند ، وهو مسحور ، فلا يزال حتى يدخل الجامع فيفرش له الوطا فوق السجادة ، ويحيط له سبعة ومسواكا ، فيقلع القرد منديله من الحياصة ، ويضعه بين يديه ، ويستاك بالمسواك ، ويصلي ركعتين تحية المسجد ، ثم يأخذ السبعة ويسبح ، فإذا فعل ذلك نهض العبد الكبير على قدميه فسلم على الناس ، وقال : يا أصحابنا ؟ من أصبح مُعافى فإن الله عليه نعمة لا تحصى ، واعلموا أن هذا القرد الذي ترونه بينكم ، والله ، لم يكن في زمانه أحسن شباباً منه ، ولا أطوع لله تعالى منه . ولكن المؤمن مُلقى لقضاء الله ، وكان من القضاء المدبر أن زوجة والده ابنة الملك الفلاني ، فأقام معها مدة ، ثم قالوا لها إنه قد عشق مملوكاً له ، فأدركتها الغيرة وطلبت دستوراً لها في زيارة أهلها ، فأذن لها في ذلك وجهزها بما تحتاج إليه ، فلما حصلت عند أهلها سخرته

(١) حكى الحريري أنه أنشأ المقامة الخرامية وبني عليها سائر المقامات بعد أن شهد في مسجد البصرة أبا زيد السروجي ، وكان شيخاً شجاعاً بليفاً ومكدياً فصيحاً حسن صياغة الكلام ، وكان أبو زيد ينتقل بين المساجد ، ويفير في كل مسجد زياً وشكلاً ، ويظهر ما عنده من فنون الحيلة وبلاغة التكلام . انظر الإرشاد لياقوت ج ٦ ص ١٦٨ .

كما ترون ، فلما رأى والده ذلك قال هذا أختلف به عند الملوك ، فأمر بإخراجه من ذلك الإقليم ، فأخرج ، وقد سألناها بجميع الملوك فادعت أنها خلفت عنده أثاثاً قيمته مائة ألف دينار ، وقد تخلف عليه عشرة آلاف ، من يساعده بشيء من ذلك ؟ فارجحوا هذا الشاب الذى عدم الأهل والملك والوطن ، فأخرج من صورته إلى هذه الصورة ، فعند ذلك يجعل القرد المنديل على وجهه ويبكى ، فترقّ قلوب الناس لذلك ، ويرفده كل أحد بما يسره الله فما يخرج من الجامع إلا بشيء كثير ، وهو يدور به البلاد على هذه الصفة ^(١) .

ولا نجد فيما قبل القرن الثالث الهجرى أثر لتمدين المسجد واعداده بالأدوات اللائقة به ، ثم أصبح مجالا للعمل الفنى الجميل ، فمثلا أمر الخليفة المأمون بالكتابة إلى الآفاق فى الاستكثار من المصاييح فى المساجد ^(٢) . وقد امتازت الشام بنوع خاص بإضاءة المساجد على الدوام ، وربما كان ذلك تقليداً للمسيحيين ، وكانوا يضيئونها بالقناديل « ويعلقونها بالسلاسل مثل مكة » ^(٣) . ويظهر أنه فى أواخر القرن الرابع حدثت عادة إضاءة المساجد بمصباح كبير يشبه التنور ، ويسمى لذلك بالتنور ، وكان فيه مجال لأصحاب الفن الزخرفى لكى يظهروا روائع مبتكراتهم ، وفى عام ٣٨٧ هـ عمل فى جامع عمرو تنور يوقد كل ليلة جمعة ؛ وفى عام ٤٠٣ هـ أنزل إليه من قصر الخليفة الحاكم بأمر الله تنور كبير من فضة فيه مائة ألف درهم فضة ، وعلق بالجامع بعد أن قُلت عتباته حتى أدخل فيه ^(٤) . وقد ذكر من أثاث الجامع الأزهر ، الذى أنشئ بالقاهرة عام ٣٦١ هـ وجدده الحاكم بأمر الله ووقف عليه أوقافاً ، هذه الأشياء ، كما جاء فى كتاب الوقف :

(١) كشف الأسرار للنجوى مخطوط قينا س ٢٥ / — ب .

(٢) المحاسن والمساوى للبيهقى ص ٤٧٣ . (٣) المقدسى ص ١٨٢ .

(٤) حسن المحاضرة للسيوطى ج ٢ ص ١٣٥ . طبعة مصر ١٣٢٧ هـ .

الحصر العبادانية .
الحصر المضفورة .
عود هندي ومسك وكافور للبخور في شهر رمضان وأيام الجمع .
شمع ومشاقة لسرج القناديل وشم للبخور .
أربعة أحبل وستة دلاء آدم وعشر قفاف ومائتا مكنسة .
أزيار نخار وأجهزة حملها .
زيت للوقود .

تنوران فضة وسبعة وعشرون قنديلا فضة^(١) .

وكانت المساجد تحت إشراف القاضي ، وكانت عاداته في القاهرة على عهد
الفاطميين إذا بقي لشهر رمضان ثلاثة أيام طاف يوما على المساجد لينظر حصرها
وقناديلها وعماراتها وما تشعبت منها^(٢) ، ولم تكن صيانة المساجد كثيرة النفقات ،
فذكر مثلا أن نفقات المسجد بمصر في ذلك العهد بلغت اثني عشر درهما في الشهر ؛
وإن كان في عام ٤٠٣ هـ — ١٠١٢ م قدّر عدد المساجد التي لا دخل لها في مصر
بنحو من ثمانمائة وثلاثين مسجداً . وفي عام ٤٠٥ هـ — ١٠١٤ م وقف الخليفة
عدداً من الضياع للإفناق منها على المساجد الجامعة التي يخطب فيها وعلى قرائها
وعلمائها ومؤذنيها^(٣) ، أما فيما يتعلق بالتفصيل في تزيين بيوت الله في داخلها
فليس عندي في ذلك مع الأسف إلا معلومات قليلة : ففي البلاد الآرامية لم يمكن
القضاء على المعابد البعلية القديمة بما كان فيها من عبادة الأشجار ، وكان في طبرية
بفلسطين مسجد يسمى مسجد الياسمين لأب ساحتة كانت مملوءة بشجر
الياسمين^(٤) . وكان بجامع الزقة شجرتا كرم وشجرة توت ، وكانت عادة أهل

(١) الخطط للمقرئ ج ٢ ص ٢٧٤ ، وانظر حسن المحاضرة للسيوطي ج ٢ ص ٢٩٥ .

(٢) الخطط ج ٢ ص ٢٩٥ ، (٣) نفس المصدر ج ٢ ص ٢٩٥ .

(٤) ناصب خسرو ص ٥٦ .

مصر أنهم يضربون على جوامعهم شراعات وقت الخطبة^(١) ، وهذا شبيه بما كان يعمل الهلينيون عند عقدهم حلقات الألعاب ، على أنه يحكى مثل ذلك عن شيراز والبصرة^(٢) ، وكان في جامع دار السلطان ببغداد منبران^(٣) . وكان في جوامع خراسان قدور كبار من نحاس على كراسى يطرح فيها الجمد مع الماء يوم الجمعة^(٤) وكان في جامع ابن طولون بمصر فوارة على الصورة المألوفة حتى ذلك العهد : كان في وسط صحنه قبة مشبكة من جميع جوانبها ، وهي مذهبة على عشرة عمد من رخام ، مفروشة كلها بالرخام ، وتحت القبة قصعة رخام سعتها أربعة أذرع في وسطها فوارة تفور بالماء^(٥) ، وهذه الفوارة ذات القبة حلت محل القبة التي كانت تحمل بيت المال في المساجد الأخرى ، وبعد ذلك بمائة عام عملت أول فوارة تحت قبة بيت المال في جامع عمرو^(٦) ، ويحكى لنا ناصر خسرو بعد ذلك بمائة عام أنه رأى مثل هذه الفوارة وفيها أنبوبة من نحاس في بلدتي آمد وطرابلس الشام^(٧) ، وكذلك كانت تجمع النفقات لبناء الجوامع أو إضافة البقاع والدور إليها ؛ ففي سنة ٢٢٦ هـ — ٨٤١ م كان لأحد الذين نصبوا أنفسهم لذلك أثر كبير في توسيع جامع بأصفهان ، فكان يكلم الرجل بعد الرجل حتى اجتمعت له الجمل الكثيرة ، وكان لا يستحقر خاتماً أو قيمته أو كبة غزل أو قيمتها^(٨) .

وقد اتخذت العبادة صورة تختلف باختلاف البلاد ؛ ولم تحتفظ في أى مركز من المراكز الكبرى في بلاد الإسلام بالصيغة الإسلامية الأولى في بنائها ونقائها .

(١) المقدسى ص ٢٠٥ . (٢) المقدسى ص ٤٠٥ ، ٤٣٠ .

(٣) المتبكم لابن الجوزى ص ٦٧ ب . (٤) المقدسى ص ٣٦٧ .

(٥) حسن المجاهرة للسيوطي ج ٢ ص ١٣٧ ؛ ومما يدل على أنها شيء مستحدث ما وجه لها من النقد . وابن طولون لم يعمل الميضأة في المسجد ، بل بناها خلفه في مؤخره .

نفس المصدر : (٦) نقض المصنوع ج ٢ ص ١٣٥ من طبعة مصر ١٣٢٧ هـ .

(٧) ناصر خسرو ص ٢٨ ، ٤١ من الترجمة . (٨) ذكر أخبار أصفهان مخطوط

ليدن ص ١١ ب .

وقد دخلت على العبادة الإسلامية في كل ناحية المظاهر الدينية القديمة ؛ وأهم ما نجده في القرن الرابع ظهور التطريب في القراءة والأذان في جميع النواحي ؛ ويحكى ابن رسته أنه كان بمسجد صنعاء اثنان وعشرون مؤذناً يؤذنون جميعاً في كل صلاة ؛ أحدهم في إثر الآخر إلا في صلاة المغرب خاصة ، ثم يأخذون جميعاً في الإقامة بصوت واحد وهم يمشون من المنارة إلى الصف ، فإذا انتهوا إلى الصف يكونون قد فرغوا من الإقامة^(١) . ومن هذه العادة نشأت هيئة المؤذنين الرسمية — وفي خراسان كان للمؤذنين سرير قدام المنبر يؤذنون عليه بتطريب وألحان^(٢) . وقراءة القرآن بالتلحين — وربما كانت تقليداً لما جرى عليه النصارى في كنائسهم — أنكرها مالك رضي الله عنه ، وأجازها الشافعي ، وهي القراءة الذائعة الآن في أكثر البلاد الإسلامية^(٣) . وفي عام ٢٣٧ هـ — ٨٥١ م ولي قضاء مصر الحارث بن مسكين بعد رجوع سلطان مذهب أهل السنة ، فنبع القراء الذين يقرءون القرآن بالألحان في بعض المساجد الصغيرة ، لا في المسجد الجامع ، من القراءة بالألحان ؛ وهو أول قاض فعل ذلك^(٤) . وكان أبو بكر الآدمي القاضي (المتوفى عام ٣٤٨ هـ — ٩٥٩ م) من أحسن الناس صوتاً بالقرآن ، حتى كان يسمى صاحب الألحان ، وقد حج مرة مع بعض العلماء فلما صاروا بمدينة الرسول عليه الصلاة والسلام وجد أحد أصحابه رجلاً ضريباً قد جمع حلقة في مسجد رسول الله وقيد يقص ، ويروي الكذب من الأحاديث الموضوعة والأخبار المفتعلة ، وعرفوا أن النكير عليه لا يؤثر ، فأشار أحدهم على أبي بكر أن يستعيز ويقرأ فها هو إلا أن ابتداء حتى انحلت الحلقة من

(١) الأخلاق النفيسة لابن رسته ص ١١١ . (٢) المقدسي ص ٣٢٧ .

(٣) حاضر المصريين لمحمد عمر طبعة مصر ١٣٢٠ هـ ص ١٠٩ .

(٤) الفضاة للكندي ص ٤٦٩ .

حول الضريـر وانفـض الناس جميعاً من حوله ، وأحاطوا بأبني بكر. يسمعون قراءته ، تاركين الضريـر وحده^(١). وفي سنة ٣٩٤ هـ — ١٠٠٣ م خرج الأصيفر المنتفيق على الحاج ، وحصرهم ، وعزم على أخذهم ، وكان فيهم أبو الحسن الرفاء ، وأبو عبد الله الدجـاجي ، وكانا يقرآن القرآن بأصوات لم يُسمع مثلها ، فحضر عند الأصيفر ، وقرأ القرآن ، فترك الحاج ، وعاد وقال لهما : قد تركت لكما ألف ألف دينار^(٢). وهكذا أحرز هذان القارئان انتصاراً غريباً لم يكن يتوقع. وإن قصة أريون (Arion) ليصغر قدرها إذا قورنت بقصة هذين القارئين^(٣) ، وكان الوعاظ المتطوعون يجعلون هؤلاء القراء يجلسون على كراسي موضوعة أمام المنبر ، فيتوقون ، ويشوقون ، ويأتون بتلاحين منجبة ، وتقام مطربة^(٤). وكان من الوعاظ الماهرين قوم يرتبون القراء حتى يقرأوا ما يقع من آيات في الخطبة^(٥).

حكى ابن طيفور (المتوفى عام ٣٧٨ هـ — ٨٩١ م) عن الخليفة المأمون أنه قال : « وإن الرجل ليأتيني بالقطيعة من العود ، أو بالخشب ، أو بالشئ الذي لعل قيمته لا تكون إلا درهما أو نحوه ، فيقول إن هذا كان للنبي صلى الله عليه وسلم ، أو قد وضع يده عليه ، أو شرب فيه أو مسه ؛ وما هو عندي بثقة ، ولا دليل على صدق الرجل ، إلا أتى بفرط النية والحجة أقبل ذلك ، فأشتريه بألف دينار وأقل وأكثر ، ثم أضعه على وجهي وعيني وأتبرك بالنظر إليه وبمسه ،

(١) المنتظم لابن الجوزي ص ٨٨ ب . (٢) ابن الأثير ج ٩ ص ١٢٩ .

(٣) كان أريون شاعراً وموسيقياً يونانيا عاش في القرن السابع قبل الميلاد ، وفي الأساطير أن القرسان رموه في البحر فنجاه من الموت نوع من السمك يسمى الدوفين Dophin ، وذلك لأنه ضرب على آلهة الموسيقى فسر السمك بحسن صوتها .

(٤) رحلة ابن جبير ص ٢٢١ . وكذلك كان يسمى باسم القراء من كان يقوم بالقراءة على المذبح في الكنيسة المسيحية . يقول أبو نواس (في ملحق الديوان طبعة القاهرة ١٣١٦ هـ ص ٨٠) : بداود وما يتلون منه بترجيع يردد في الخلق

(٥) كشف الأسرار مخطوط ثيتا ص ١٧ ف .

فأستشفى به عند المرض يصيبني أو يصيب من أهتم به فأصونه كصياتي نفسي ؛
 وإنما هو عود لم يفعل هو شيئاً ولا فضيلة له تستوجب المحبة ، إلا ما ذكر من
 يسر رسول الله صلى الله عليه وسلم^(١) . وفي القرن الرابع الهجري كان تقديس
 الخلفاء عند أهل السنة مقصوراً فقط على ما خلفه النبي محمد عليه السلام ومن
 سبقه من الأنبياء ؛ وهذا دليل على أن تقديس الأولياء كان في ذلك العصر في
 دوره الأول^(٢) . ويحكى عن أبي العباس السيارى وهو شيخ من شيوخ الصوفية
 يمتوتوفى عام ٣٤٢ هـ^(٣) أنه اشترى شعرتين من شعر رسول الله بمال كثير ورثه
 عن أبيه وأوصى أن توضع في فمه عند المات^(٤) . وفي ذلك العصر تقام خطب
 التزوير ؛ ففي أوائل القرن الرابع رفع إلى أبي الحسن بن القرات أن رجلاً من
 اليهود ادعى أن معه كتاباً من رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسقاط الجزية عن
 أهل خيبر ، فأمر بإخراج الكتاب ، فلما قرأه . قال : هذا مزور ؛ لأن خيبر
 افتتحت بعد تاريخ كتابك بسبعة وستين يوماً ، ولكننا نحتمل عندك جزيتك
 إعظاماً لحق من لجأت إلى الاعتصام به^(٥) .

(١) كتاب بغداد ص ٧٦ .

(٢) وأستطيع أن أضيف إلى الآثار التي ذكرها جولديهر Goldziher Muh. Studien, II, 356. ff. ما يأتي : سرير النبي ، وقد اشتراه معاوية بواسطة أحد أصحابه ، بعد وفاة عائشة ، بمبلغ أربعة آلاف درهم (كتاب ألف با ج ١ ص ١٣١ نقل عن ابن قتيبة) ؛
 والبردة ، والعهد النبوي ، وهو مكتوب في أديم وكانا محفوظين بمدينة أذرح ، وهي مدينة
 مشطرة حجازية شامية كما يقول المقدسي (ص ١٧٨) .

(٣) رسالة القشيري ص ٢٨ ، (٤) كشف المحجوب ص ١٥٨ .

(٥) كتاب الوزراء ص ٦٧ — ٦٨ ، ويحكى أيضاً أنه في عصر الخطيب البغدادي
 أظهر بعض اليهود كتاباً ، وادعى أنه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسقاط الجزية عن
 أهل خيبر ، وفيه شهادات الصباحة ، وفيه خط على بن أبي طالب ، فعرض على أبي بكر الخطيب
 فقال له مزور ؛ لأن فيه شهادة معاوية ، ومعاوية أسلم يوم الفتح ، وخيبر كانت في سنة سبع ،
 وفيه شهادة سعد بن معاذ ؛ وكان قد مات يوم الخندق في سنة خمس ، انظر الإرشاد لياقوت

ج ١ ص ١٤٧ — ١٤٨ .

والأثر الوحيد الذى كان له حق لا نزاع فيه فى المساجد ، وشأن لا جدال فيه وخصوصاً بالنسبة لدين أساسه كتاب منزل هو مخطوطات القرآن ، ولا سيما المصاحف التى يرجع أصلها إلى عثمان ، والتى تعتبر لذلك أصح المصاحف . وكان يوجد من أمثال هذه المصاحف خمسة : المصحف الذى كان عند أسماء ، والذى كان محفوظاً بجامع عمرو بمصر ؛ وكان يُقرأ منه ثلاث مرات فى الأسبوع ؛ وكان الخليفة الفاطمى يقبله ويتبرك به ^(١) . وكذلك كان فى الجامع الكبير بدمشق ، كما حكى ابن جبير فى القرن السادس الهجرى — خزانة كبيرة ، فيها مصحف من مصاحف عثمان ، وهو المصحف الذى وجه به إلى الشام ، وتفتتح الخزانة كل يوم بعد الصلاة فيتبرك الناس بلمسه وتقبيله ويكثر الازدحام عليه ^(٢) ، وهذا هو الأثر الوحيد الذى وجدته ابن جبير . ولما ولى قضاء مصر الحارث بن مسكين عام ٢٣٧ هـ — ٨٥١ م كشف أمر المصاحف التى فى المسجد وولى عليها أميناً من قبله ، وهو أول من فعل ذلك من القضاة ^(٣) . وفى القرن الرابع زادت المصاحف التى تنسب لعثمان زيادة غريبة مما يدل على خفة الناس فى الاعتقاد بصحة نسبها . يحكى لنا المقرئى أن رجلاً من أهل العراق جاء إلى مصر ، وأحضر مصحفاً ذكر أنه مصحف عثمان رضى الله عنه ، وأنه الذى كان بين يديه يوم الدار ، وكان فيه أثر الدم ، وذكر أنه استخرج من خزانة المقتدر ، فدفع المصحف إلى القاضى ، فأخذه ، وجعله فى الجامع ، وشهره ، وجعل عليه خشباً منقوشاً ؛ وكان الإمام يقرأ فيه يوماً وفى مصحف أسماء يوماً ، ولم يزل على ذلك إلى أن رُفِعَ واقتصر على القراءة فى مصحف أسماء أيام العزيز بالله عام ٣٧٨ هـ — ٩٨٨ م ^(٤) . وفى عام ٣٦٩ هـ — ٩٧٩ م كان عند الخليفة ببغداد مصحف ينسب

(١) النجوم الزاهرة لأبى المحاسن ج ٢ ص ٤٧٢ طبعة ليدن .

(٢) رحلة ابن جبير ص ٢٧٠ (٣) القضاة للشكندى ص ٤٦٩ .

(٤) الخطط للمقرئى ج ٢ ص ٢٥٥ .

عثمان ، وضعه بين يديه وعلى كتفيه البردة ويديه القضيبي ، وذلك عند تنويع
عضد الدولة^(١) . وحكى الشريف الإدريسي أنه كان في مخزن جامع قرطبة
« مصحف يرفعه رجلان لثقله ؛ فيه أوراق من مصحف عثمان بن عفان ، وهو
المصحف الذي خطه بيمينه رضى الله عنه ، وفيه نقط من دمه ، وهذا المصحف
يخرج في صبيحة كل يوم جمعة ، ويتولى إخراجه رجلان من قومة المسجد ،
وأمامهم رجل ثالث بشمعة ، والمصحف غطاء بديع منقوش بأعرب ما يكون من
النقش وأدق وأعجب ، وله بموضع المصلى كرسى يوضع عليه ، ويتولى الإمام قراءة
نصف حزب منه ثم يُردّ إلى موضعه »^(٢) . وكانت ثم مخلفات أخرى محفوظة
للقلة شأنها في بعض الجوامع الإقليمية . ولم يكن علماء الدين يسمحون بحفظ هذه
الأشياء لما فيها من تقليد للنصارى ، فكان في مسجد هبرون نعال الرسول^(٣) .
وكان في محراب الجامع بمدينة قرطبة المشهورة بتجاريتها في جزيرة العرب عظم قالوا
هو الذي قال للنبي صلى الله عليه وسلم : لا تأكلني ، فأنا مسموم^(٤) .
وكان يقابل النزعة الدينية القوية من الجانب الآخر فئة يحترقون كل ما هو
ديني ، ويجرون على الجهر بذلك على نحو لم يسبق له نظير في عصر من العصور ،
فكان أبو العلاء المعري الشاعر بالشام (ولد عام ٣٦٣ هـ — ٩٧٤ م وتوفي عام
٤٤٩ هـ — ١٥٠٧ م) يهاجم كل ما هو ديني مستنداً في ذلك إلى وجهة نظر
عقلية ، وهو من أسيرة من القضاة الفضلاء^(٥) . وقد اعتل علة الجدرى وهو ابن
أربع سنين ، وذهب فيها بصره^(٦) . ثم درس اللغة ، وألّف في علومها بعض

(١) المنتظم ص ١١٥ ب .

(٢) وصف إفريقية والأندلس للإدريسي طبعة دوزي ودي غوي ص ٢١٠ .

(٣) Goldziher, muh. Stud. II, s. 362 . (٤) المقدسي ص ٨٤ .

(٥) الإرشاد لباقوت ج ١ ص ١٦٢ — ١٦٣ .

(٦) الفن المصدر ؛ و. J R A S, 1902, s. 296 .

التصانيف . وفي السابعة والثلاثين من عمره رجع من بغداد إلى المعرة بلدته ، وهو يقول : رحلت فلا دنيا ولا دين نلتها وما أوتيتي إلا السفاهة والخرق^(١) وأزعم على ثلاثة أشياء : « نبذة كنبذة فنيق النجوم ، وانقضاباً من العالم كاتقضاب القائبة من ألقاب ، وثباتاً في البلدان إن حال أهله من خوف الروم »^(٢) . ولما بلغ ثلاثين عاماً سأل ربه إنعاماً ورزقه صوم الدهر ، فلم يفطر في السنة ولا الشهر إلا في العيدين^(٣) ، وكان له في السنة نيف وعشرون ديناراً يصير إلى خادمه معظمها ، ويبقى له أيسرها ، ومع ذلك فقد رفض عطية أرسلها إليه الخليفة من مصر وذلك من غير غرض خفي وراء الإرسال فيما نعلم^(٤) .

وقد أدرك أبا العلاء في كبره العجز حتى كان يصلى قاعداً^(٥) . ولم يكن فيلسوفاً بالمعنى الفني لهذه الكلمة ؛ فلا نجد عنده تفكير اليونان ، كما أنه لم يكن بحاجة إلى التعمق في التفكير ، فقد كان أديباً مصلحاً ، وهو شبيه بتولوستوي ، ينادى بالرجوع إلى العقل وإلى حياة البساطة ، وهو نباتي مدقق في مبدئه ، ولم يقتصر على ترك أكل اللحم بل ترك أكل اللبن والبيض والشهد^(٦) . وهو

(١) بعض أشعار أبي العلاء نشرها كريم ، انظر مجلة جمعية المستشرقين الألمان Z D M G, s. 503 . (٢) رسائل أبي العلاء طبعة مرجليوث ص ٣٤ .

(٣) J R A S, 1902, 298 .

(٤) نفس المصدر ص ٣٠٢ ؛ وفي هذا الوقت الذي حدث فيه ذلك ، وكانت فيه ثروة أبي العلاء قليلة ، من الرحالة الفارسي ناصر خسرو بمدينة المعرة ، ولم يلبث فيها إلا يوماً واحداً ولم ير أبا العلاء ، ولكنه يقول : « هو رئيس البلدة ، وله ثروة كبيرة ، وعيند وخدم ، وأهل البلدة كلهم خدم له ، وهو قد ترهد ، فلبس بسيطاً ولزم بيته ، وقوته نصف من من خبز الشعير ، وبابه مفتوح دائماً للزائرين ، ونوابه وأصحابه يذرون أمر البلدة ، ولا يرجعون لرأيه إلا في الكليات ، وهو لا يرد طالباً نعمته ، ويصوم الدهر ويقوم الليل كله ، ولا يشغل نفسه بأمور الدنيا » . ويقول أبو العلاء نفسه (كريم ص ١٠١) ، وطبعة بمباي ص (٢٠٢) : واتهامي بالمال كلف أن ، يطلب ما يقتضي التمويل .

(٥) J R A S. 1902, 304 . (٦) نفس المصدر .

يحارب الخرافات والتنجيم ، ويحارب كل ما هو ديني بنوع خاص ، فهو يقول :^(١)
أفيقوا أفيقوا يا غُواة فإنما ديانكم مكر من القدماء
أرادوا بها جمع الحطام فأدركوا وبادوا وماتت سنة اللاؤماء
ويقول :^(٢)

يرتجى الناس أن يقوم إمام . ناطق في الكتيبة الخرساء
كذب الظن ، لا إمام سوى العقل مشيراً في صبحه والمساء
ويقول :

إنما هذه المذاهب أسبا ب لجذب الدنيا إلى الرؤساء
غرض القوم متعة لا يرقو ن لدمع الشماء والخنساء
ويقول :^(٣)

في القدس قامت ضجة ما بين أحمد والسيح
هذا بناقوس يدق وذا . بأذان يصيح
كل يشيد دينه يا ليت شعري ما الصحيح
ويقول :^(٤)

أقيمى لا أعد الحج فرضاً على عجز النساء ولا العذارى
ففي بطحاء مكة شر قوم ولينسوا بالحمة ولا الغيارى
وإن رجال شيبة سادنيها إذا راحت لكعبتها الجاراً
قيام يدفعون الوفد شفعا إلى البيت الحرام وهم سكارى
إذا أخذوا الزوائق أو تجوهم ولو كانوا اليهود أو النصارى
وقد راسل أبا العلاء أحد أهل مصر ؛ وكان قد قام في نفسه أن عند

(٢) . نفس المصدر ص ٤٣ .

(٤) Z D M G, 30, s. 45 .

(١) Kremér, Z D M G, 30, s. 40 .

(٣) Z D M G, 29, 637-638 .

أبي العلاء « من حقائق دين الله سرًّا قد أسبل عليه من التقيّة سترًا »^(١)، فسأله فلم ينظر بما أراد ، ولم يكن عند أبي العلاء ما يعلمه للناس من أصول الأخلاق سوى التسليم والرضا مع الفرح ، والدعوة إلى حياة الزهد والبساطة ، ويتجلى هذا في رسالته المسماة رسالة الغفران التي كتبها ردًّا على رسالة مشهورة بعثها له ابن القارح^(٢) ، ورسالة الغفران يتجلى فيها التهم الخفى على أئمة ، وإن كانت رديئة التأليف ؛ وفيها تكلم عن أشياء كثيرة ، وتناول الكلام عن الجنة والنار والزندقة والعقل^(٣) . ولهذا فإنّ تعاليم أبي العلاء ، رغم كثرة تلاميذه ، ذهبت كما يتبدد الدخان في الجو .

وعلى حين كان علماء الدين يتجادلون فيما إذا كان القرآن مخلوقًا أو قديمًا ، وعلى حين كان أبو بكر محمد بن الحسن بن فورك المتوفى عام ٤٠٦ هـ — ١٠١٥ م لا ينام قط في بيت فيه مصحف حتى كان إذا أراد النوم انتقل عن المكان الذي فيه إعظامًا لكتاب الله عز وجل^(٤) ، كان ابن الروندي المتوفى عام ٢٩٣ هـ — ٩٠٦ م ، وهو من أكبر مستحقي اللعنة بين الملحدين في الإسلام ، يقول : إنا نجد في كلام أكرم بن صيفي ما هو أحسن من بعض القرآن ، « وقال : إن المسلمين احتجوا لنبوة نبيهم بالقرآن الذي تحدى به النبي فلم يقدر العرب على معارضته ، فيقال لهم : لو ادعى مدّعي لمن تقدم من الفلاسفة مثل دعواكم في القرآن فقال : الدليل على صدق بطليموس أن إقليدس ادعى أن الخلق يعجزون عن أن يأتوا بمثل كتابه ، لكانت نبوته تثبت^(٥) . وحكى عن أبي الحسين بن أبي البغل أحد كبار الجاهل أن الوزير الخاقاني اتهمه بالإلحاد والاستهزاء بالقرآن وطلب من الخليفة المقتدر أن يمكنه منه ويطلق يده

(١) J R A S, 1902, n. 308 . (٢) الإرشاد لأقرب ج ٥ ص ٤٢٤ .

(٣) J R A S, 1900 ff . (٤) طبقات السبكي ج ٣ ص ٥٣ .

(٥) تاريخ أبي الفدا تحت عام ٢٩٣ هـ (ج ٢ ص ٢٩٤ — ٢٩٨) .

فيه ، ففعل^(١) . ويُرَوَّى عن أبي العلاء المعري أنه عارض القرآن بكتاب عنونه بالفصول والغايات في محاذاة السور والآيات ، وقد حفظ لنا الباخري مؤرخ الأدب قطعة من كتاب أبي العلاء هذا ، وهي جيدة ، ولكنها تشف عن سخرية ، وقد قيل لأبي العلاء : ما هذا إلا جيد إلا أنه ليس عليه طلاوة القرآن ، فقال حتى تصقله الألسن في المحاريب أربعاً مائة سنة ، وعند ذلك انظروا كيف يكون^(٢) . وكان في القرن الرابع أيضاً فريق من الأغنياء المترفين الذين يحبون الحياة الجميلة واللهو ولا يعبأون بالدين ؛ وفريق آخر من المهكمين بالدين . يقول سعيد قاضي البقر الشاعر :

يارب دعنى بلا صلاح يارب ذرنى بلا فلاح
يدى مدى الدهر فوق ردف وراحتى تحت كأس راح
ويقول أبو هريرة أحمد بن عصام أحد الشعراء المصريين في النصف الأول من القرن الرابع ، وكان من أصحاب النوادر والمجون والإدمان على شرب الخمر :
مجلس لا يرى الإله به غير مصلٍ بلا وضوء وطهر
سُجِّد للكؤوس من دون تسبيح سوى نعمة لعود وزمر^(٣)
أنا أشهو الأنام في مثل ذا المجلس لا مجلس لنهى وأمر
ويقول السلمي الشاعر :

في جوار الصبا نخل بيوتا عمرت بالفصول والأقمار
ونصلى على أذان الطنابير ونصغى لنعمة الأوتار
بين قوم إمامهم ساجد لك كأس أو راكم على المزمار^(٤)

(١) كتاب الوزراء ص ٢٧٠ . (٢) انظر مجلة جمعية المستشرقين الألمان Z D M J, 29, s. 640 . وقد طبع الجزء الأول من هذا الكتاب وليس فيه ما يدل على ذلك (المترجم) (٣) المغرب لابن سعيد ص ١٠٢ ، ١٠٣ . (٤) يتيمة الدهر ج ٢ ص ١٧١ ؛ وتوفي السلمي عام ٣٩٤ هـ .

وكان ابن الحجاج أكبر المتزندقين في خرياته ، فهو يقول في خمرية له :
يا خليلي قد عطشت وفي الخمر رة رى للحائم العطشان
فاستقياني محض التي نطق الوحدى بتحريرها من القرآن
والتي ليس للتأول فيها مذهب غير طاغة الشيطان
.....

فاستقياني بين الدنان إلى أن تزياني كبعض تلك الدنان
استقياني في المهرجان ولو كان ن خمس بقين من رمضان
استقياني فقد رأيت بعيني في قرار الجحيم أين مكاني
ومن خمرية أخرى له :

أمسلم أنت ؟ قلت : نعم ، ظاهري وباطني في الخمر نستورى
.....

واستحضر العود ووجبه به حتى نصلى بالطناير
الركعة الأولى سريجية وركعة التسليم ماخوري
ومن أخرى :

افضض الدين واسقني يانديمي اسقني من رحيقه المختوم
اسقني الخمر التي نزلت فيه لا على القوم آية التحريم
اسقني فإني أنا والقسم من جميعاً نبولها في الجحيم^(١)
أما تدفن العامة وورعهم فلا نعرف عنه للأسف إلا القليل ؛ كان لهم عقائد
بسيطة ثابتة ، وكان عند بعضهم استعداد شديد لاتباع كل خارج على الدين
وللتنازع في ذلك ؛ ففي عام ٢٨٩ هـ — ٩٠١ م قُتل ببغداد أحد القرامطة ، وهو

(١) البيهقي ج ٨ ص ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٦٣ .

المعروف بابن أبي القوس ، وعلق جسده على خشبة . يقول المسعودي : « وقد كان لأهل بغداد في قتل ابن أبي القوس هذا أراجيف كثيرة ، وذلك أنه لما قُدم لتضرب عنقه أشاعت العامة أنه قال لمن حضر قتله من العوام : هذه عمامتي تكون قبلك ، فإني أرجع بعد أربعين يوما ، فكان يجتمع في كل يوم خلائق من العوام تحت خشبته ، ويحصون الأيام ، ويقتتلون ، ويتناظرون في الطرق في ذلك ، فلما تمت الأربعون يوما ، وقد كان كثر لغطهم ؛ واجتمعوا ، فكان بعضهم يقول : هذا جسده ، ويقول آخر : قد مر ، وإنما السلطان قتل رجلا آخر وصلبه موضعه كي لا تفتن الناس ، وكثر تنازع الناس حتى نودي بتفريقهم ، فترك التنازع والخوض فيه ^(١) » .

على أننا نجد أبا محمد الفرغاني (المتوفى عام ٣٦٢ هـ — ٩٧٢ م) ، وكان مقرباً عند أمير مصر ، يعتبر هذه الحكاية التالية أهلاً لأن يذكرها في تاريخه ؛ فهو يقول نقلاً عن أبي سهل الصدي المتوفى عام ٣٣١ هـ — ٩٤٢ م ، — وهو الزاهد الورع الذي كان الأخشيدي محمد بن طنج يحبه ويتبرك بدعائه من غير أن يشاهده ؛ بل بالمراسلة — : « حدثني أبو سهل بن يونس في مسجده سنة ٣٣٠ هـ قال : قدم علينا شيخ كبير راهب ، كان بيمياقارين ، فحدثنا أنه كان مترهباً في شبابه في صومعة بيمياقارين ، وأنه أشرف في يوم كثير الضباب ، فنظر إلى طائر قد سقط بحيث يراه ، وفي فيه قطعة لحم ، فتركها ، ثم طار فأتى بأخرى ثم أخرى ، إلى أن أتى بعدة قطع ، ثم إن قطع اللحم اجتمعت حتى صارت شخص رجل ، ثم أقبل الطائر عليه ينقره ويقطعه ويأكله ، وهو يستغيث ، قال الراهب : فلما نظرت إليه صحت به وقلت له : ما قصتك يا إنسان ؟ وما الذي أرى بك ؟ قال : أنا عبد الرحمن بن ملجم قاتل علي بن أبي طالب صلوات الله عليه ، قد وكل الله بي

هذا الطائر ، يفعل بي ما ترى ، وينقلني من موضع إلى موضع ، قال الفرغاني :
قال أبوسهل : قال لنا الراهب : فلما نظرت منه ما رأيت انحدرت من الصومعة .
فأسلمت ^(١) .

وقد صرح أحد بن محمد الإفريقي الشاعر المعروف بالمتيم ، وكان في بخارى
في أواخر القرن الرابع الهجري بأن الدين إنما هو شأن الطبقة الأرستقراطية ، وهم
اليوم سادة المسلمين في كل بلاد الشرق ، وجاهر بأن الفقراء ليس عليهم أن يصلوا
حتى يغتنوا ، وأن الذي يجب عليهم أن يحافظوا على الصلاة هم الأغنياء والأمراء
وأصحاب الضياع والأموال ، فقال :

تلوم على ترك الصلاة حليتي	فقلت: أعزبي عن ناظري؛ أنت طالق
فوالله لا صليتُ الله مُقلساً	يصلى له الشيخُ الجليل وفائق
وتاش وبكتاش وكنباش بعده	ونصر بن ملك والشيخو البطارق
وصاحب جيش المشرقين الذي له	سراديبُ مالٍ حشوها متضايق
ولا عجب إن كان نوح مصلياً	لأن له قصرأ تدينُ المشرق
لماذا أصلي؟ أين باعى ومنزلى؟	وأين خيولى والخلى والمناطق؟
وأين عبيد كالبذور وجوههم؟	وأين جوارى الحسان العوانق؟
أصلى ولا فتر من الأرض يحتوى	عليه يمينى إتنى لمنافق
تركت صلاتى للذين ذكرتهم	فن عاب فعلى فهو أحق مائق
بلى إن على الله وسع لم أزل	أصلى له ما لاح في الجو بارق
فإن صلاة السيئ الحال كلها	مخارق ليست تحتهن حقائق ^(٢)

ولما خان المسلمين الحظ في حروبهم مع الروم في الغرب ابتلوا في دينهم

(١) كتاب العيون مخطوط برلين ص ٢٠٨ — ٢٠٩ .

(٢) الإرشاد لياقوت ج ٢ ص ٨١ ، وبتيمة الدهرج ج ٢ ص ٨١ . (الترجم) .

وامتحنوا في إيمانهم بمطالبات لم يُسمع بها من قبل . فلما أخذ المُستق ملطية عام ٣٢٢ هـ — ٩٣٤ م بعد أن حاصرها مدة طويلة حتى هلك أكثر أهلها بالجوع ضرب خيمتين على إحداها صليب ، وقال : من أراد النصرانية انحاز إلى خيمة الصليب ليردّ عليه أهله وماله ، ومن أراد الإسلام انحاز إلى الخيمة الأخرى ، وله الأمان على نفسه ويُبَلِّغُ مأمته ، فانحاز أكثر المسلمين إلى الخيمة التي عليها الصليب طمعا في أهلهم وأموالهم ؛ وسيّر مع الباقين بطريقا يبلغهم مأمته (١) . ولما عادت بلاد اللاذقية إلى قبضة الروم هاجر منها كثير من المسلمين ، ولكن بقي في الإقليم كثير من أهله ، ودفعوا الجزية بدورهم للروم . ويقول ابن حوقل : « وأظنهم صائرين إلى النصرانية أنفة من ذلة الجزية ، ورغبة مع حذف المؤنة في العز والراحة » (٢) . ولكن انتصارات الروم لم يكن لها إلا صدى ضعيف في داخل المملكة الإسلامية ، وقد تقبلها المسلمون بإيمان قوى ، وفسّروا أمر هذا البلاء بالتفسير المألوف ، وهو أنه دليل على صحة دين الإسلام ، وجزاء لأهله الذين أهملوا أوامرهم (٣) .

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٢١ . (٢) ابن حوقل ص ١٢٧ .
(٣) أرسل نفقور للمسلمين بعد أن فتح الثغور قصيدة ساءتهم ، فيها تثريب وتعيير وضروب من الوعيد ، وقد ردوا عليها ردودا شبة بينوا فيها الحقيقة والفرق بين المسلمين وغيرهم في الانتصار والعاملة . ولحمد بن طلي بن إسماعيل القفال المتوفى عام ٣٣٦ هـ قصيدة في ذلك منها :

ونرجو وشيكا أن يسئل ربنا دخول خوافي الريش تحت القوادم
وقلم ملكناكم بجور قضاتكم ويعهمو أحكامهم بالدرام
وفي ذاك إقرار بصحة ديننا وأنا ظلمنا قاتلينا بظالم
وتم قصيدة لابن حزم ؛ وفي هذه القصائد إقرار بأن الهزيمة ناشئة عن إهمال المسلمين لدينهم ، وعدم الاتحاد ، وكثرة الشقاق ، وضعف الخلفاء ، وانشغالهم بفتن الترك والديلم .
انظر طبقات السبكي ج ٢ ص ١٧٩ — ١٨٩ (الترجم)

تعليق

علق مترجمُ هذا الكتاب إلى الإنجليزية المرحوم الأستاذ خدابخش الهندي على الفصل المتقدم بأن ترجم ما كتبه الأستاذ جولديهر في كتابه المسمى دراسات إسلامية Goldziher, Mohammedanische Studien عن القصص في الجزء الثاني من ص ١٦١ — ١٧٠ . وهاك ما كتبه جولديهر :

القاصّ أو القصصّاص (والجمع قصصّاص) هو الرجل الذي كان يجمع الناس حوله في الطرق أو في المساجد — من غير أن تكون له صفة رسمية — فيعظّمهم حيناً بذكر الأحاديث والأخبار المأثورة، ويسليهم بالقصص والحكايات حيناً آخر . وإن الصبغة الدينية لحديثهم هي التي كانت تميزهم عن القصصاص غير الدينيين الذين كانوا يجمعون الناس إليهم في الطرق ليسلّوهم بالنوادر والمضحك^(١) ويقومون مقام الصحف الهزلية في أيامنا هذه . ومن هؤلاء المضحكين من كان مقرّباً من الخلفاء .

ولم يكن يقترب باسم القاص في عهد الإسلام الأول ما التصق به في أثناء تطور القصص من الإنكار والمذمة . وقد سمي ما جاء به النبي عليه السلام قصصاً فقال تعالى : « فاقصص القصص لعلّهم يتفكّرون » (سورة الأعراف ، آية ١٧٦) وقال جل شأنه : « نحن نَقُصُّ عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين » (سورة يوسف ، آية ٣) . ويروى عن النبي عليه السلام أنه امتدح الخطباء الصالحين الذين يسمّون القصصاص^(٢) ، وفي الأخبار ما يدل على أن القصص قديم في الإسلام ، فيحكى عن عمر بن الخطاب

(١) مروج الذهب للمسعودي ج ٨ ص ١٦١ وما بعدها ، والكامل للبرد ص ٣٥٦ وتجد من هؤلاء من هم أهل الذكاء والنوادر ، الأغاني ج ٢١ ص ٩٠ سطر ٧ .
(٢) كتاب القصص والمذكرين لابن الجوزي مخطوط ليدن رقم ٩٩٨ ص ١٩ .

أنه أجاز لقيم الداري ، أو لمُبَيِّد بن عمير في رواية أخرى ، أن « يقص على الناس ^(١) » وفي عهد معاوية نذب رجال من الصالحين لوعظ الناس ، وتقوية دينهم برواية القصص الدينية ؛ ورضى عن ذلك علماء الدين . ونجد القصص أحياناً في صفوف المقاتلين يحرضونهم على القتال ويحمسونهم كما كان الحال في الجاهلية ^(٢) وأقدم ما وصلنا من أخبار هذا الفريق أصل القصص الثلاثة الذين ساروا حوالى عام ٧٠ هـ ، في عهد مروان بن الحكم ، تحت قيادة سليمان بن صرد للانتقام لقتل الحسين رضى الله عنه ، فكان أحدهم مع اليمنة ، والثاني مع اليسرة ؛ وكان الثالث يدور الليل كله في الجند يحمسمهم بكلمات من نار ، ويقول : أبشروا عباد الله بكرامة الله ورضوانه ، « فحق والله — لمن ليس بينه وبين لقاء الأحبة ودخول الجنة والراحة من أبرام الدنيا وأذاها إلفراق هذه النفس الأمارة بالسوء — أن يكون برفاقها سخيّاً وبلقاء ربه مسروراً ^(٣) . ويحكى لنا مثل هذا النشاط في القرن الثالث الهجرى ، فيذكر أن رجلاً يسمى أبا العباس أحمد بن أبي أحمد الطبرى المعروف بالقاص سعى بذلك ؛ لأنه كان مع جيوش المسلمين في حروبهم للديلم والروم يحرضهم ويقص لهم ^(٤) .

وقد اشتهر بعض القصص أيضاً بتفسير القرآن ، ومن هؤلاء في القرن الثالث الهجرى ؛ موسى الأسوارى وعمرو بن قائد الأسوارى ، وكان أولهما من أطجيب الدنيا ، فكانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية ، وكان يجلس في مجلسه المشهور ، ويقعد العرب عن يمينه ، والفرس عن يساره ، ثم يقرأ

(١) نفس المصدر ص ١٦ — ١٧ .

(٢) انظر Goldziher, Muh. St. vol 1, 44 ؛ وقد ذكر أبو حنيفة الدينورى (ص

١٢٨) أن سعداً قبل لقاء القادسية جعل عمرو بن معديكرب وقيس بن هيرة وشرحيل بن السمط يثيرون عزائم العرب بقصائدهم ويحرضونهم على القتال .

(٣) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٥٥٩ .

(٤) العقد المذهب لابن الملقن مخطوط ليبدن رقم ٥٣٢ ص ١١١ ؛ وكتاب التهذيب

الآية من كتاب الله ، ويفسرها بالعربية للعرب ، ثم يحول وجهه إلى الفرس ، فيفسرها لهم بالفارسية ، فلا يُدري بأى اللسانين هو أئين ، يقول الجاحظ : « واللغتان إذا التقتا في اللسان الواحد أدخلت كل واحدة منهما الضيم على صاحبها إلا ما ذكروا من لسان موسى بن سيار الأسوارى ^(١) » . أما عمرو بن قنديل الأسوارى فكان يفصل في التفسير حتى إنه قض ستا وثلاثين سنة ، فابتدأ بتفسير سورة البقرة ، فما ختم القرآن حتى مات ، لأنه كان حافظاً للسير ولوجوه التأويلات ؛ فربما كان يفسر الآية الواحدة في عدة أسابيع ^(٢) .

حتى الآن نجد القصص يخدمون غاية دينية هامة كإعطاء أو قصص أخبار دينية ، ولم يتعرض لهم أحد في ذلك ، ورضى العلماء بهذه الطائفة من الوعاظ المتطوعين الذين يثقون العامة ، لأنهم سواء في خطبهم بالمساجد أو بجمعهم الناس في الطرقات كانوا ينزلون إلى مستوى العامة ويتشون فيهم روح الزهد ، وهو ما لا يشتغل به علماء الشريعة المهتمون بالأحكام . والحق أن الزهد أصاب من القصص دُعاة له وناشرين ، وقد ذكر لنا الجاحظ قطعاً من قصص هؤلاء القوم ^(٣) . ولم يُذكر لنا أن أحداً منع القصص أو تعرض لهم بمضايقة في أدائهم لهذه المهمة التي هي عنصر مكمل في الحياة الدينية الإسلامية .

ولم يكن النع موجهاً إلا للقصص الذين أساءوا استعمال القصص ، وخرجوا به عن غايته ؛ وليست الإجراءات التي ذكرها المؤرخون فيما يتعلق بالقصص إلا موجهة إلى المحتالين على الكسب منهم ، وهم الذين لم يكن قصدهم الدين ؛ بل تسلية العامة باختراع الأحاديث ونشرها بينهم ، أو الذين كانوا يشوهون القصص الدينية ويتخذونها أساطير ، وقد انصب غضب العلماء المحافظين على أصحاب هذا الصنيع وحدهم .

(١) البيان والتبيين للجاحظ طبعة القاهرة ١٣٣٢ هـ ج ١ ص ١٩٦ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) انظر كلام عبد العزيز الغزال القاس في البيان والتبيين ؛ ويشير المؤلف إلى ص

١٢٧ ب من مخطوط لهذا الكتاب .

وعندنا بعض الأخبار الخاصة بالمعصر الأول للقصاص ، وأقدم خبر هو خبر
نوف بن فضالة ، وكان يقص بالكوفة ، وقد ذكر البخاري^(١) أن سعيد بن
جبّير سأل ابن عباس فيما زعمه نوف هذا من أن موسى صاحب الخضر ليس
هو موسى صاحب بنى إسرائيل ، فقال ابن عباس : كذب عدو الله^(٢) . وبمجرد
تفطن الناس للخطر الذي استهدف له الحديث بسبب القصاص حاول العلماء أن
يطعنوا في أصلهم وينسبوه إلى الخوارج^(٣) . ولم يشتد اضطهادهم إلا بعد أن
كثروا بالعراق ؛ حتى حكى ابن عون المتوفى عام ١٥١ هـ أنه في مساجد البصرة كان
للعلماء الفقه حلقة واحدة ، على حين كان للقصاص حلقات لا تحصى حتى كانت
المساجد مملوءة بهم^(٤) . ومما يدل على خفة العامة في تصديق القصاص وعبث
هؤلاء بهم ما حكى من أن كلثوم بن عمرو العتّابي الشاعر ، الذي عاش في أيام
الرشيد والمأمون ، كان يأكل خبزاً على الطريق فيفقد فرآه عثمان الوراق ، فقال
له : ويحك ؛ أما تستحي ؟ فقال له كلثوم : أرايت لو كنا في دار فيها بقر كنت
تستحي وتحتشم أن تأكل ، وهي تراك ؟ فقال : لا ؛ قال فاصبر حتى أعلمك أنهم
بقر ؛ فقام فوعظ وقصّ حتى كثر الزحام عليه ، ثم قال للناس : روى لنا غير
واحد أن من بلغ لسانه أرنبه أنفه لم يدخل النار ، فكأنما كان ذلك إشارة منه
للناس ، فلم يبق أحد منهم إلا وأخرج لسانه يومي به نحو أرنبه أنفه ليرى إن
كان يبلغها أم لا^(٥) . وليس من العسير علينا أن ندرك أن حكايات القصاص
السهلة المسلية كانت أشد استهواء للعامة من كلام العلماء المويص ، خصوصاً

(١) البخاري ؛ كتاب التفسير ؛ سورة الكهف .

(٢) ويذكر أن الحسن رضي الله عنه مر يوماً وقاص يقصّ على باب مسجد رسول الله ؛
فقال له الحسن : ما أنت ؟ قال : أنا قاص يا ابن رسول الله ؛ قال : كذبت ، محمد القاص ،
قال الله عز وجل : فاقصص القصص ؛ قال : فأنا مذكر ؛ قال كذبت ، محمد المذكر ، قال الله
عز وجل : فذكر إنما أنت مذكر ؛ قال : فما أنا ؟ قال له الحسن : المتكلف من الرجال .
(تاريخ يعقوبي ج ٢ ص ٢٧٠) . (٣) كتاب القصاص لابن الجوزي ص ١٨ .

(٤) نفس المصدر ص ١١ . (٥) كتاب الأغاني ج ١٢ ص ٥٠ .

وأن القصاص كانوا لا يتخرجون من اتخاذ أية وسيلة لجذب العامة إليهم ، وقد ذكر الجاحظ بعض ما حكى من عبث القاص المسمى أبا كعب^(١) وسرعان ما نرى بعد ذلك إجراءات تُتخذ ضد القصاص ، ففي عام ٢٧٩ هـ أمر الخليفة بالنداء في مدينة السلام ألا يقعد على الطريق ولا في المسجد قاص ولا منجم ولا عراف ، وجُدد هذا الأمر في عام ٢٨٤ هـ^(٢) . وإن الجمع بين القاص والمنجم والعراف في أمر واحد ليدل على رأى الدوائر الرسمية في مسألة القصص . وبعد ذلك بقليل يذكر المسعودي وصفاً شيقاً للعامة في ذلك العصر فيقول : « وتفقد العامة في احتشادها وجموعها ، فلا تراهم الدهر إلا مُرقلين إلى قائد دب ، وضارب بدف على سياسة قرد ، أو متشوقين إلى اللهو واللعب ، أو مختلفين إلى متعبد متنمّس ممخرق ، أو مستمعين إلى فاص كذاب ، أو مجتمعين حول مضروب ، أو وقوفاً عند مصلوب ، يُنمّق بهم فيتبمون ، ويُصاح بهم فلا يرتدعون ، لا ينكرون منكراً ، ولا يعرفون معروفاً^(٣) ... ومما هو أكثر بياناً للأسباب التي حدثت بالحكومة إلى الالتجاء إلى هذه الإجراءات مما حكاه المسعودي وثيقة ترجع إلى القرن الرابع الهجري ، وهي من قلم أبي دُلف الخزرجي شاعر الملح والطرف ، فقد ألف قصيدة مشهورة تسمى القصيدة الساسانية ذكر فيها المُكدين ، ونُبّه على فنون حرفهم ، وأنواع رسومهم ، وهي وشرحها ذخيرة كبيرة تستقى منها معلومات كثيرة بتنوعة عن أحوال ذلك العصر الاجتماعية^(٤) . وقد عرفنا بني ساسان من المقامة الساسانية للحزيري وفيها يوصى أبو زيد السروجي ابنه

(١) يشير جولنزيهر إلى ص ١٢١ ب من نسخة خطية لكتاب الحيوان .

(٢) الطبري ج ٣ ص ٢١٣١ ، ٢١٦٥ . وتاريخ أبي الحسن ج ٢ ص ٦٧ حيث ذكرت كلمة قاص بدل كلمة قاص خطأ . وفي هذا الأمر تحلف المتعبد بأهة الكتب ألا يبيعوا كتب الفلاسفة والمجدل .

(٣) مروج الذهب ج ٥ ص ٨٦ .

(٤) كذلك أُنشئت بها الملاحم ، وألف الأحنف الكبرى المسمى شاعر المُكدين قصيدة أخرى .

بازوم حرفة بنى ساسان^(١) . وقد بين أبو دلف في قصيدته أصناف المكدين والمخرقين والمحتالين من أسوأ طراز ، ونجد القاص فيهم إلى جانب المحتالين ؛ يقول أبو دلف :

ومن قص لا إسرائيل أو شبرا على شهر

(هو الذى يروى الحديث عن الأنبياء والحكايات القصص ويقال لها الشُّبْرِيَّات) .

ومن يروى الأسانيد وحشو كل قطر

(هؤلاء قوم يروون الأحاديث على قوارع الطرق) .

ومن ضرب فى حبة على وأبى بكر

وهم قوم يحضرون الأسواق ، فيقف واحد جانبا ، ويروى فضائل على

رضى الله عنه ، ويقف الآخر جانبا ويروى فضائل أبى بكر رضى الله عنه ؛ فلا يفوتهما درهم الناسى والشيمى ؛ ثم يتقاسمان الدراهم^(٢) .

وقد استمرت هذه الحال ، وفى القرن السادس الهجرى نجد ابن الأثير يجمع

بين القصص والشعبيين فى عبارة واحدة^(٣) . وليس الجمع بينهما غريبا إذا عرفنا

ما ذكره ابن الجوزى (ص ١٠١ — ١٠٦) من حيلهم حوالى ذلك العصر ، فمنهم

من كانوا يدهنون وجوههم بما يجملها صفراء تشبها بالنسك الصائمين ؛ وكان

آخرون يتخذون ما يسيل دموعهم متى أرادوا ؛ ومنهم من كان يوقع نفسه من

على المنابر أو يضربها برجله إيهاما للناس بشدة انفعاله ، وكان فريق يخذعون

النساء باتخاذ اللباس الحسن . وعلى حين كان القصص القدماء موضع تقدير العلماء

وإعجابهم ، لما كان فى تماليمهم من روح دينية وخلقية ، نجد القصص المتأخرين

قد شوهوا الدين طلبا للتسلية العامة ، وكانوا يوهمون الناس بملهم من طريقة

(١) فيما يتعلق بأصل هذه التسمية ارجع إلى ما كتبه دى ساسى فى الجزء الأول من

٢٣ وما بعدها من نمرته لمقامات الحريرى .

(٢) يتيمة الدهر للثعالبي ج ٣ ص ١٧٩ ، ١٨٢ ، ١٨٣ .

(٣) المثل السائر ص ٣٥ .

التكلف أحياناً في بيان أصول الكلمات^(١) وكانت الإسرائيليات وما يتصل بها مادة لقصصهم ، وقد عملوا على نشرها ، وكانوا لا يترددون عن الإجابة عن كل سؤال يوجه إليهم ، لأن اعترافهم بالجهل كان من شأنه أن يزعزع ثقة العامة بهم ؛ فزعم بعضهم أنه يعرف اسم العجل الذي عبده القوم^(٢) ، وذكر آخر اسم الذئب الذي زعم أنه أكل سيدنا يوسف ، فلما قيل له إن يوسف لم يأكله الذئب ، قال هو اسم هذا الذئب الذي لم يأكله^(٣) . وكانوا يجبهون العلماء الذين يكشفون عن جهلهم وخداعهم بكل جرأة ، وكان العلماء أشد خصومهم ، وكان العامة يقدرُونَ القصص أكثر من تقدير العلماء . ويحكى عن أم أبي حنيفة أنها احتاجت مرة إلى معرفة مسألة من مسائل الشريعة ، فسألت ابنها ، فأجابها ، ولكنها لم تقتنع فذهبت معه إلى زرة القاص ، فلما أقر رأى أبي حنيفة اقتنعت الأم^(٤) .

ولكن القصاص لم يكونوا جميعاً مع العلماء في أدب زرة وتواضعه ، فكانوا في الغالب يمارضون العلماء بثبات وجرأة غريبين ، وكان العامة دائماً إلى جانبهم ، فيحكى عن الشعبي المحدث المتوفى عام ١٠٣ هـ أنه نزل تدمراً ، فوافاه يوم الجمعة ، ودخل يصلي في المسجد ؛ فإذا إلى جانبه شيخ عظيم اللحية ، قد أطاف به قوم ، فحدثهم وقال : حدثني فلان عن فلان يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى خلق صورين ، له في كل صور نفختان ، نفخة الصمق ونفخة القيامة ، قال الشعبي فلم أضبط نفسي أن خفت ضلالي ، ثم انصرفت فقلت يا شيخ ! اتق الله ولا تحدثن بالخطأ ، إن الله لم يخلق إلا صورياً واحداً ، وإنما هي نفختان : نفخة الصمق ونفخة القيامة ، فقال لي : يا فاجر ! إنما حدثني فلان عن فلان وترد عليّ ، ثم رفع نعله فضربني بها ، وتتابع القوم عليّ ضرباً معه ، فوالله ما أقبلوا

(١) سئل بعض القصاص لماذا سمي العصفور عصفوراً فقال لأنه عصى وفر (معجم البلدان لياقوت ج ١ ص ٢٩٣ .

(٢) المبرد ص ٣٥٦ ؛ والمقدح ٢ ص ١٥١ ، وقارن مروج الذهب ج ٤ ص ٢٣ ، ٢٦ .

(٣) كتاب القصاص لابن الجوزي ص ١٢٦ . (٤) نفس المصدر ص ١٢٤ .

عنى حتى حلفت لهم أن الله خلق ثلاثين صوراً في كل صور نفخة^(١) . على أن هذه القصة إن لم تكن صحيحة من الناحية التاريخية فهي تدل على الأقل على إنكار العلماء على القصص فيما يروونه من الأباطيل وقيام العامة على العلماء ، ويحكى عن أبي جرير الطبرى أنه سمع أحد القصص يفسر قوله تعالى : « عَمَى أَنْ يَبْقَى رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا » (سورة الإسراء ، آية ٧٩) بأن الله يجعل لمحمد عليه السلام مكاناً على العرش إلى جانبه ، فأنكر ذلك بأن كتب على باب داره مانزه به الله عن ذلك ، وفهم العامة قصده فرموا باب داره بالحجارة حتى سدوه^(٢) . يستطيع القارىء أن يتصور مقدار الخطر الذى كان يهدد الحديث وصحة روايته من هذه الطائفة ، ومقدار نصيبهم فى اختراع الأحاديث الموضوعة ونشرها . ويظهر أنهم كانوا فى المصور الأولى منتشرين فى العراق انتشاراً عظيماً . وبعد ذلك فى آسيا الوسطى . أما فى الحجاز فكانوا نادرين . ويحكى عن مالك بن أنس أنه منهم من دخول مسجد الرسول بالمدينة . وكانوا أيضاً قليلين فى المغرب حيث كان يغلب على الناس العناية بالحديث والأمانة فى روايته ، حتى يقول المقدسى : إن أهل المغرب لا يعرفون إلا كتاب الله وموطأ مالك^(٣) .

ويجب أن نفرق بين اختراع القصص للأحاديث وبين اختراع غيرهم لها ، ذلك أنه لم تكن لهم صفة سياسية أو مذهبية أو حزبية ، وإنما كانوا يقصون لتسلية سامعهم ، ورغبة منهم فى الكسب من العامة . ولما كان الكسب غرضهم فقد نشأ بينهم الحقد والبغضاء ، حتى صار من الأمثال الجارية أن القاص لا يحب القاص^(٤) ، وفى الأثر أن عمران بن الحصين مر على قاص يقرأ ، ثم سأل ، فاسترجع ، ثم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من قرأ القرآن

(١) نفس المصدر ص ١٠٧ ، وتحذير الخواص من أكاذيب القصص للسيوطى مخطوط
ليندن رقم ٤٧٤ ص ١٤٦ — ٤٩ ب ، وانظر الفصل التاسع من هذا المخطوط أيضاً .

(٢) نفس المصدر . (٣) المقدسى ص ٢٣٦ .

(٤) بيتية الدهر ج ٣ ص ٣ .

فليستأل الله به ، فإنه سيجيء أقوام يقرءون القرآن يسألون به الناس^(١) . والذي يقوم في مجلس القصص ليجمع الصدقة يسمى المكوّز (فعله كوّز) ، فكان القاص يأمر الحاضرين بإعطائه ، وإذا تفرق الجمع تقاسما ما اجتمع من المال^(٢) . وكان العامة يمتقدون الخير في القصص حتى كانوا يلجأون إليهم في الدعاء لهم ، ومن الملح أن رجلا أعطى قاصا يسمى أبا سليمان فلسا ، وقال : ادع الله لابني يرده علي ، فقال وأين ابنك ؟ فقال : بالصين ، قال : أيرده الله من الصين بفلس ؟ هذا مما لا يكون ، إنما لو كان بجنابة أو بسيراف كان نعم^(٣) .

بل نحن نجد هؤلاء القصاص ، غير المسؤولين في المدن الإسلامية^(٤) في هذه الأيام . ويقول شاك Schaek في روزنامته عام ١٨٧٠ م عند ما كان بدمشق : « وكان أكبر منظر شاقني منظر له دلالة شاهده في الجامع الأموي ، ذلك أن شيخا وقف إلى جانب أسطوانة في المسجد ، وخوله جع عظيم ، فالتقى درسا كان يشير فيه بإشارات مؤثرة ، وقد أخبرني دليلي أنه ليس من العلماء الرسميين ، بل هو رجل يعظ طلبا للمال » ، هذا المنظر ذكر شاك بأبي زيد السروجي بطل مقامات الحريري . والحق أن المقامة الحادية والأربعين تصف مثل هذا المنظر .

(١) صحيح الترمذي ج ٤ ص ١٥١ ؛ وكتاب القصص لابن الجوزي ص ١٤٧ — ١٤٩ .

(٢) يتيمة الدهر ج ٣ ص ١٧٨ . (٣) معجم البلدان ج ٢ ص ١٢٣ .

(٤) فيما يتعلق ببخارى مثلا انظر كتاب بيترمان (Petermann) واسمه (Geog.

Mitteilungen, 1889 s. 269)

، ويقول المرحوم خدابخش إن الهند بنوع خاص مملوءة بالقصاص ، ولهم أكبر عقبة في سبيل التقدم ، ولهم تأثير قوي في الجماهير ، أما بضاعتهم فقليل من القرآن والحديث قد حفظوه ، فهم يذكرونه في مقامه وفي غير مقامه ، وهم يخترعون الأحاديث ويقلبون الحقائق ويشوهونها ، وساموهم يصغون إليهم آيما لأصحاء ، وكلتهم كالفقانون . وقد رأيتهم يتأوهون ويتهدون ويبكون في مجالسهم . وطريقتهم هي طريقة قدماء القصاص . وكثيرا ما أدهشني جهلهم وجراحتهم ، ولكن قومي يصغون إليهم من غير مناقشة ويطيعونهم بلا تردد في توجيههم لهم وفي تفسير أحور الدين والمرح . ولا يمكن أن يتحقق إصلاح ما دام العامة تحت تأثير هؤلاء القصاص غير المسؤولين . والأمل الوحيد هو المعهود على انتشار التعليم ، والتعليم هو الذي يعيد للعقل مكانته . وإن خطباء المسلمين الظاهرين اليوم في كل مدينة وقرية بالهند هم فيما يلوح خلفاء أولئك القصاص الذين ظهروا في أواخر عهد الخلافة .

الفصل العشرون

الآخلاق والعبادات

استلزمت العادة في بيوت السادة والكبراء عند الدول الشرقية القديمة وفي الدولة الرومانية البوزنطية أن تهتأ هذه البيوت بالخصيان^(١) ؛ وقد حرّم الإسلام ذلك ؛ وشدّد القرآن وشدّدت السنة في تحريم خصاء الإنسان أو البهائم ، ووكل لوالى الحسبة أن يمنع ذلك ، ويؤدّب عليه^(٢) ، وهنا أيضاً — كما في نواح أخرى — دخل على الإسلام حوالي عام ٢٠٠ هـ — ٨١٥ م ، بسبب تقلص ظل الروح العربية ، عادات شرقية قديمة ، رغم ما جاء به النبي عليه السلام في شأنها من الإنكار والمنع الصريح . وذلك أن الخليفة الأمين ، وهو ابن هارون الرشيد ، لما ملك ، بلغ من كلفه بالخصيان أنه « طلبهم ، وابتاعهم ، وغالى بهم ، وصيّهم لخلوته في ليله ونهاره رقوام طعامه وشرايه وأمره ونهيه ، وفرض لهم فرضاً سماهم الجرادية ، وفرضاً من الحبشان سماهم الغرايبة ، ورفض النساء الحرائر والإماء حتى رُمى بهن »^(٣) وحتى قال أبو نواس ساخراً^(٤) :

احمدوا الله جميعاً يا جميع المسلمين
ثم قولوا لا تملؤا ربنا أبق الأمتنا

(١) وأصل ذلك ديني ، وقد أوجد هذا « الجنس الثالث » قدماً لإرضاء للآلهة . وقد أنكر محمد عليه السلام هذه القيمة الدينية التي ادّعت له كما أنكرها الفصل الأول من قرارات مؤتمر نيقية . انظر مقالة سخاو : f. 83 , 2 , MSOS .
(٢) الأحكام السلطانية للناوردي ص ٤٣١ من طبعة إنجر (Enger) .
(٣) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٩٥٠ . (٤) نفس المصدر ص ٩٦٥ .

صَيَّرَ الخَصِيانَ حَتَّى صَيَّرَ التَّعْنِينَ دِينًا
فَاقْتَدَى النَّاسَ جَمِيعًا بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ

وقد احتال المسلمون للإفلات من حرمة منع الخصاء بأن كانوا يشترون الخصيان ، تاركين لليهود^(١) والنصارى إثم هذا العمل الشنيع ، وقد جاء في خبر يرجع إلى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) ، أن مدينة هَذِيَّة بالحبشة النصرانية هى التى كان يُداوى بها الخصيان دون غيرها من بلاد الحبشة^(٢) . على أنه فى أوائل القرن التاسع عشر كان « فى الصعيد بمصر ديران قبطيان دخلهما الأساسى مصدره الخصاء ، وكان هذا يُعمل بنسبة كبيرة » حتى كان يكفى لتموين مصر كلها وجزء من تركيا بالخصيان^(٣) . « وكان بعض القبط بمدينة أسيوط يتجرون بشراء ضغار العبيد السود وخصائهم ، وكان كثير منهم يموت من هذا العمل ، أما الباقون فكانوا يُباعون بما يبلغ العشرين ضعفاً من ثمن شرائهم^(٤) » . ويقسم المسعودى الخدم إلى أربعة أنواع : السودان ، والصقالبة ، والروم ، والصين^(٥) . ويذكر المقدسى^(٦) ، أن الخدم البيض صنفان : (١) الصقالبة ، وبلدهم خلف خوارزم ، إلا أنهم يحملون إلى الأندلس فيُخصّون ثم يخرجون إلى مصر^(٧) . (٢) الروم ، وهم يقعون إلى الشام وأقور ، وقد انقطعوا بخراب

(١) على أنه من التزييف فى هذا الباب أن اليهود كانت شريعتهم تحرم عليهم خصاء الخيل والثيران ، حتى كانوا يضطرون إلى ابتياع الثيران الخصية من النصارى . انظر : Krauss : Talmudische Archäologie, II, s. 116.

(٢) ابن فضل الله العمري ، كما حكى ذلك ماركفارت - Marquart, Die Renfussam- Sammlung, s. CCCVI, Pückler, Aus Mehemed Alis Reich, III, s. 159. (٣)

(٤) Maltzan, Meine Wallfahrt nach Mekka, 1865, 1, 48.

(٥) مروج الذهب ج ٨ ص ١٤٨ . (٦) المقدسى ص ٢٤٢ .

(٧) ويحكى ابن حوقل أيضا (ص ٧٥) أن جميع ما يُنسى إلى خراسان من الصقالبة

خبره يبقى على حاله من غير خصاء . وكان يجلب من الأندلس إلى جانب القبايل والجواري =

الثغور . « وسألت جماعة منهم كيف يخلصون ، فتحصل لي أن الروم يسلمون أولادهم ويحرزونهم على الكنائس ، لئلا يشغلوا بالنساء ، وتؤذيهم الشهوة » وكان المسلمون إذا غزوا أغاروا على كنائسهم وأخرجوا الصبيان منها^(١) .

أما الخدم الصقالبة فكانوا يجلبون إلى مدينة خلف بجائته (هي شينا Pechina) العاصمة القديمة لإقليم البيرة (Almeria) أهلها يهود ، وكانوا يقومون بخصائهم^(٢) . وقد اختلف في الخصاء نفسه ، فقال البعض يمسح القضيب والمزودان في مرة واحدة ، وقال بعضهم . يُشَقُّ المزودان وتخرج البيضتان ، ثم تُجعل تحت القضيب خشبة ، ويقط من أصله . وسألت عريبا الخادم ، وكان من أهل العلم والصدق ، فقلت : أيها المعلم ؟ أخبرني عن أمر الخدم فإن العلماء قد اختلفوا فيهم ، وأبو حنيفة يجعل لهم فراشا ، ويلحق بهم ما تلد نساؤهم^(٣) ، وهذا علم لا يُستفاد إلا منكم ، قال : صدق أبو حنيفة رحمه الله ، وسأخبرك بحالهم : اعلم أنهم إذا

= الذين يسبون من إفريقية وجليقية الصقالبة الخصيان أيضا . ويقول الجاحظ (الحيوان ج ١ ص ٥١) إن الخصى يعرض له عند قطع ذلك العضو تغير الصوت حتى لا يخفى على من سمعه أنه خصى .

(١) لم يكن الخصيان في الكنيسة الأورثوذكسية يقومون بمهمة النماء فقط ، بل كانوا يستطيعون أن يصيروا قساوسة ، خلافا لما كان عليه الحال في الكنيسة اللاتينية . وفي أوائل القرن الرابع الهجري والعاشر الميلادي تولى بطريركان خصيان منصب بطريرك على القسطنطينية ذاتها ، أحدهما بعد الآخر (انظر تاريخ يحيى بن سعيد مخطوط باريس رقم ٢٩١ ص ١٨٢) . وكذلك حوالي عام ٣٧٠ هـ — ٩٨٠ م (انظر Barhebraeus Chron. ecclesiast., I, 414) . وعام ٤١٠ هـ — ١٠١٩ م (يحيى بن سعيد ص ١٣١) .

(٢) وكذلك كان يهود فرنسا يمارسون الخصاء ، وكان يهود فردان بنوع خاص معهودين بذلك . انظر تاريخ البربر في اسبانيا لدوزي : Dozy, Gesch. der Mauren in Spanien, II, 38.

(٣) ذكر ابن الأثير خادما يسمى صندلا ، وقال إن له زوجة — ج ٨ ص ١٩١ . ويقال إن مسائل غرامية بين جوارى خمارويه وبين الخصيان كانت سببا في قتل هذا الأمير ؟ وكان لمضد الدولة خادم يسمى شكرا تزوج جارية حبشية ، ولكن قلبها علق بغيره فأخبرت خصومه بمكانه الخ — ابن الأثير ج ٩ ص ٣٩ .

قربوا للاختصاص شُتَّت الخصيتان ، فأخرجت البيضتان ، فربما فزع الصبي ، فصعدت إحدى البيضتين ، وطلبت فلم توجد في الوقت ، ثم تنزل بعد ما النعم الشق فإن كانت اليسرى كانت له شهوة ومنى ، وإن كانت اليمنى خرجت له لحية مثل فلان وفلان ، فأبو حنيفة رحمه الله أخذ بقول النبي صلى الله عليه وسلم الولد للفراش . وجاز أن يكون من الخدم الذين بقيت بيضتهم . وذكرت قوله لأبي سعيد الجوري بنيسابور ، قال : قد يجوز هذا لأن إحدى بيضتي صغيرة ، وكانت لحيته نزرأ خفيفة . وإذا خصوهم جعلوا في منفذ البول مرور رصاص يخرجونه أوقات البول إلى أن يبرءوا كي لا يلتحم ^(١) .

وكانت هذه العملية الشنيعة تقلل عدد الخصيان وتزيد أثمانهم ، فكان ثمن الخصي في بوزنطة مثلاً في ذلك العصر يساوي أربعة أمثال الخادم العاذي ^(٢) . وحوالي عام ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م أطلق على هؤلاء التعساء أسماء أقرب إلى الاحترام فسُمي الواحد منهم بالخدام ^(٣) ، أو المعلم أو الشيخ أو الأستاذ ^(٤) ، على حين كانوا في العصور الأولى يسمون بالخصيان مع ما في ذلك من تشهير .

وكان الخصيان دائماً يلقون من العوام كثيراً من السخرية ؛ ويحكى المسعودي أن العوام كانوا يستهزئون بالخدم السودان في الشوارع ويصيحون بهم ويقولون : « يا عقيق ، صب ماء واطرح دقيق ؛ يا عاق ، يا طويل الساق » ^(٥) . وحدث في عام ٢٨٤ هـ — ٨٩٧ م أن وجه الخليفة المعتض خادماً أسود عشية الجمعة برقة إلى ابن حمدون النديم ، فلما بلغ الخادم رأس الجسر من الجانب الشرقي صاح به صائح

(١) القديسي ص ٢٤٢ — ٢٤٣ . (٢) Vogt, Basile, 1, 383 .

(٣) علي أن الجوهرى — وهو الذي دون الاصطلاح اللغوي القديم — لا يذكر لهذه الكلمة معنى الخصي ، ولكنه يقول إنهم يسمون الخدم رجالاً ونساء . أما إلياس النصيبني . (ولد عام ٣٦٤ هـ — ٩٧٤ م) فهو يترجم دائماً بكلمة شاربشا ومعناها الخصي بالسريانية .

(٤) القديسي ص ٣١٣ . (٥) مروج الذهب ج ٨ ص ١٨٠ .

من العامة : يا عقيق ، فشم الخادم الصّاحح ، فاجتمع قوم من العامة ، وضربوا الخادم ، فضاعت الرقعة التي كانت معه ، فرجع إلى الخليفة وأخبره بالقصة ، فأمر رجلا بالركوب والقبض على كل من تولّع بالخدم وضربه بالسياط^(١) . وكانت قصص الخدم موضوعاً دائماً للقصاص وأصحاب النوادر والمضحك في الطرق ، وكان تقليد أصواتهم وحركاتهم مما يجذب الناس إليهم^(٢) .

وقد اشتهر الحصيان بالصبر على طول الركوب ، حتى فاقوا في ذلك فرسان الترك^(٣) . وكذلك يعرض لهم حبّ الرمي بالنشاب^(٤) . وبالجملة ظهر من بينهم قوادشجعان ؛ وإذا كان عند الروم منهم في القرن الرابع الهجري نارسيس (Narses) وسلمون (Salomon) ، فقد كان عند المسلمين مؤنس القائد ، وكذلك فائق قائد السامانيين ، فكان أيضاً خصياً^(٥) . وكان ثمل الخادم هو القائد البحري صائب الانتصارات بطرسوس^(٦) كما كان عند الروم الأمير نيكيتاس (Niketas) الذي انتصر على صقلية ، فقد كان خصياً أيضاً . وفي الحرب البحرية التي وقعت بين أسطول الفاطميين وأسطول الخليفة عام ٣٠٧ هـ — ٩١٩ م كان الأميران اللذان توليا القيادة خصيين^(٧) . ولما وقعت الفتنة في مصر أيام الحاكم بأمر الله لميله إلى المذهب الدرزي — مما كان سبباً في استهزاء الناس به ، وتأليفهم على لسانه أشعاراً وكتباً تحجب الناس في هذا المذهب حتى غضب وفرّق عبيده السودان على المدينة يحرقونها ويسبون أهلها وينهبون أموالهم ، وتفاقم الأمر — كان الذي وجه نظر الحاكم إلى هذه الحالة المفكرة خادماً صقلبياً له : ذلك أن

(١) الطبري ج ٣ ص ٢١٦٤ . (٢) مروج الذهب ج ٨ ص ١٦٢ ، ١٦٤ .

(٣) المحاسن واليساوي لليحيى ص ٦١٠ .

(٤) كتاب الحيوان للجاحظ ج ١ ص ٦٢ . (٥) رسائل الهمداني ص ١٩ .

(٦) كتاب الميرون والحدائق ص ١٠٠ / من الجزء الرابع .

(٧) الولاة للكندي ص ٢٧٦ .

الحاكم بعثه لتهدئة الفتنة ، فلما شاهد فظاعة الأمر قتل بعض العبيد ، وعاد إلى الحاكم حنقاً مما شاهد ، وشرح له قبُح النزلة ، وكان مما قال له : لو أن باسيل ملك الروم دخل مصر لما استجاز أن يفعل بها مثل هذا ، فنقم عليه الحاكم وقتله بسبب هذه الصراحة والجرأة^(١) ولم يكن يتمتع بثقة عضد الدولة مع قلة ثقته وشدة تجبره وقسوته على رعيته إلا غلامٌ خصى أسود يسمى شكراً ، فقد كان مستولياً على جميع أموره ، ولم يكن أحد من أولاده يجرؤ على الدخول إليه في علقته مع تطاولها . وقد استشعر ابنه الأكبر شرف الدولة أن أباه قد مات ، وأن شكراً يكتم ذلك ، فهجم ودخل إلى الموضع الذي فيه أبوه ، وكان حياً ؛ فاستوحش عضد الدولة من ولده ، ونفاه إلى كرمان^(٢) . وكان الوصي على الخليفة الحاكم بأمر الله في صغره خصياً أبيض يدير شؤون الدولة الفاطمية . ولم يكن الخصيان يُمنعون إلا من الوظائف الدينية ؛ إلى أن كان العصر الأخير من الحروب الصليبية فعين أحدهم قاضياً بدمياط^(٣) . وقد عُرِفوا في الشرق بأن الواحد منهم لا يصلح ، ولم يُسمع قط بأن أحداً منهم كان مختئاً ، مع أن ذلك كان ينبغي أن يكون فيهم^(٤) . ومن صفاتهم التي يختصون بها ولوعهم بالعبث واللعب بالطير والفتح ؛ وهم أكثر من يرتاد أسواق الطيور^(٥) . والخصى من صباه يحسن صناعة الدبوق ، ويجيد دعاء الحمام الضواري^(٦) . أما خصلهم القبيحة فتبثها طويل ، فمنها خُبث العرق وصنانه ؛ وتتنُّ الرائحة ، خلافاً لما يُخصى من الحيوان ، فإنه ينقص نَفْنُهُ ، ويذهب

(١) تاريخ يحيى بن سعيد ص ١٣٠ / ب .

(٢) نفس المصدر ص ١٠٧ / وابن الأثير ج ٩ ص ٣٩ .

(٣) الأوائل للسيوطي .

(٤) البيهقي ص ٦٠٩ ، والحيوان للجاحظ ج ١ ص ٤٩ ، ٦٢ .

(٥) البيهقي ص ٦١٠ — ٦١١ ، والخطط للمقريزي ج ٢ ص ٩٦ .

(٦) الحيوان ج ١ ص ٥٣ ، والمؤلف يقرأ النص هكذا : صناعة الدبور .

صناته^(١) ؛ وطولُ العظم وعرضه ، خلافاً للحيوان ، فإنه متى خُصِي دق عظمه ، وعاد زخماً رطباً بعد أن كان عَضَلاً صلباً ؛ وطولُ القدم وأعوجاج الأصابع ، ويعرض لهم سرعة التغير والتبدل ، والانقلاب من حد الرطوبة والبضاضة وملامسة الجلد وصفاء اللون ورقته والتقبض إلى الهزال ؛ وسرعة الرضى والغضب وحب النيمة ، وضيق الصدر ، وسرعة الدمعة كالصبيان والنساء ؛ والبول في الفراش ، وحب الشراب والإفراط فيه ، والشره عند الطعام والبخل عليه^(٢) .

وقد اتهموا خاصة بحبهم لخدمة الملوك وامتلاكهم لهم بشدة استخفافهم بمن لم يكن ذا سلطان عظيم أو مال كثير أو جاه عريض^(٣) ، وكان أبو الفتوح بجوان خادماً أبيض خصياً رُبِّي في دار الخليفة العزيز بالله ، وولاه أمر القصور ، فلما حضرته الوفاة وصَّاه على ابنه الحاكم بأمر الله ، وقام بتدبير الدولة أبو محمد الحسن بن عمار الكتاني ، فدبر الأمور وبرجوان يناكده ، حتى أفسد عليه أمره بتدخله في التدبير ، وترقت أحواله حتى بلغ النهاية ، وصار هو الواسطة بين الحاكم وبين الناس . ثم قصر عن الخدمة وتشاغل بالذات وكثر استبداده حتى نقم عليه الحاكم أموراً ، منها تجرؤه عليه ومعاملته له بالإذلال . ومن ذلك أنه استدعاه يوماً وهو راكب معه ، فصار إليه وقد ثنى رجله على عنق فرسه وصار باطن قدمه قبالة وجه الحاكم . وكان آخر أمره أنه قتله أحد الخدم فضر به بسكين في عنقه وهو في بستان ، وأُتِخَنه آخرون بالخناجر^(٤) .

وقد ظهرت مع إتخاذ هؤلاء الحصيان عادة جديدة ظريفة وهي خلط زى الخدم . يحكى المسعودى أنه لما أفضى الأمر إلى الأمين قدم الخدم وآثرهم ورفع

(١) يقول المسعودى ص ١٤٩ إن آبائهم ليست ثنية .

(٢) انظر بقية خصالهم عند الجاحظ والبيهقي .

(٣) الحيوان للجاحظ ج ١ ص ٦٢ ، ٧٢ .

(٤) الخطط للمقرئى ج ٢ ص ٣ — ٤ .

منازلهم ، فلما رأت أم جعفر شدة شغفه بالخدم واشتغاله بهم اتخذت الجوارى المقدودات الحسان الوجوه وعممت رؤوسهن وألبستهن الأقبية والمناطق ، فحاست قدودهن ، وبرزت أردافهن ، وبعثت بهن إليه ، فاختلن بين يديه فاستحسنن واجتذبن قلبه إليهن ، وأبرزهن للناس من الخاصة والعامة ، فاتخذ الناس الجوارى المطمومات وألبسوهن الأقبية والمناطق ، وسموهن الغلاميات ^(١) وكانت عريب المغنية المشهورة ، وهى فى سن سبع عشرة ، وصيفة للأمين الذى « كان أحسن خلق الله ، ولم ير ذكر ولا أنثى مثله جمالا وحسنا » ، وهى تقول : « فكنت ألبس قباء ومنطقة وأقوم على رأسه ، وربما سقيته ^(٢) » . ونجد فى قصور الخلفاء بعد ذلك بقرن جوارى يلبسن ملابس الغلمان ^(٣) ، وكذلك امتدت هذه العادة أيضاً إلى ساقيات الشراب ^(٤) .

ولم يكن لهذا الولوع بالغلمان شأن طوال العصور التى كانت السيادة فيها للروح العربية ، ولم يكن ثم ما يدعو الفقهاء الأولين إلى الكلام فى ذلك . أما فى القرن الرابع فقد اختلفت آراء الفقهاء فى اللواط بالغلمان اختلافاً بينا ، فأراد البعض أن يعتبروه كالزنا ، وأن يجعلوا عقابه القتل والرجم ^(٥) . وأراد آخرون أن يفرقوا بين اللواط بالغلام المملوك وغير المملوك ، وقالوا إن الحد لا يلزم الأول بخلاف الثانى ؛ والأكثر على أنه لا حد فيه ، وهو يوجب التعزير من القاضى ^(٦) . وفى الأخبار المأثورة عند المسلمين أن هذا اللواط أتى من المشرق مع جيوش العباسيين

(١) مروج الذهب ج ٨ ص ٢٩٩ .

(٢) ككتاب الديارات للشافعى ص ٧٠ من مخطوط برلين .

(٣) مروج الذهب ج ٨ ص ٣٠٠ .

(٤) ديوان أبى نواس ص ٢٣٤ ، ٢٤٠ ؛ وحينما يتكلم هذا الشاعر (ص ٣٧٠)

عن الجارية بضمير المذكر أحيانا (هو) فهو يشير إلى هذه العادة .

(٥) كتاب الخراج لقدامة مخطوط رقم ٩٠٧ بمكتبة باريس ص ٢٩ ب .

(٦) طبقات السبكي ج ٣ ص ١٨٠ .

الذين جاءوا من خراسان^(١) . على أن بلاد الأفغان كانت مشهورة بذلك في القرن الثالث أو الرابع للهجرة^(٢) . ثم شاع واستقر في القرن الرابع ، والغزل الذي قيل في التوجع من هوى الذكران يعادل ما قيل في النساء على الأقل ؛ أما الشعراء الذين كان تشبيهم مقصوراً على الغلمان دون غيرهم ، وكانوا مجاهرين في الاستهتار بالغلمان ، فقد كانوا قليلين ، مثل مصعب^(٣) والسلامي المتوفى عام ٣٩٤ هـ — ١٠٠٣ م^(٤) . على أن الشعراء الآخرين الذين اقتصروا على التشبيب بالنساء ليسوا هم أيضاً بالكثيرين . بل نجد للشاعر أبي فراس مع شرفه ونبله واتزانة قصائده في التشبيب بالغلمان^(٥) . وحوالي عام ٣٣٠ هـ كان بالبصرة نصر بن أحمد الخبز أرمى الشاعر ، وكانت حرفته خبز الأرز في دكانه بمربد البصرة ، فكان يخبز وينشد أشعاره في الغزل ، والناس يزدحون عليه ، وكان أحداث البصرة يتنافسون في ميله إليهم وذكره لهم ، ويحفظون كلامه لسهولة وقرب مأخذه ، ومن ذلك قوله :

وددت أنى بكفه قلم أو أنتى مدة على قلمه

(١) حكى الجاحظ (المتوفى عام ٢٥٥ هـ — ٨٦٨ م) في كتاب الملعين سبب حدوث هذه الفاحشة في الخراسانيين ، وهو خروج الأجناد في البعوت مع الغلمان ، وذلك حين سنَّ أبو مسلم ألا يخرج النساء مع الجند خلافاً لبني أمية الذين كانوا يسمحون بخروج النساء مع السكر . فلما طال مكث الغلام مع صاحبه في الليل والنهار وعند اللباس والتستر — وهم جنود فحول تقع أبصارهم على خد تكد المرأة وردف كردفها وساق كساقها — تولدت هذه الفاحشة . انظر حزة الأصفهاني في ديوان أبي نواس مخطوط برلين رقم ٧٥٣٢ ص ١٩٣ ب — ١٩٤ ا — وانظر Mittwoch, MSOS, 1910, s. 138.

(٢) المضاف والمنسوب للثعالي (ZDMG, VIII, s, 56) .

(٣) كتاب الديارات ص ٨٣ ا . (٤) يتيمة الدهزج ٢ ص ١٦٣ وما بعدها .

(٥) Dvorak, s. 165 ff قال أبو فراس :

سكرت من لحظه لا من مدامته ومال بالنوم عن عيني تمائله
فما اللاف دهني بل سوائفه ولا الشبول ازدهني بل شمائله
ألوى بزمي أضداد لوني له وغالب ضبيري ما تحوى غلائله

يأخذني مرة ويلثمني إن علقت منه شعرة بفمه^(١)
 وكان الولع بالعلمان شأن العامة والخاصة ، ولكننا لم نسمع أن أحد الخلفاء
 استهتر بسلام . على أنه يحكى عن الأمير بختيار البويهى أنه أُرْسِر له فى إحدى
 المواقع غلام تركى ، فجن عليه جنونا ، وحدث له من الحزن ما لم يسمع بمثله ،
 « وزعم أن فجيعته بهذا الغلام فوق فجيعته بالملكة والانسلخ منها ومن النعمة »
 وما زال يظهر الشكوى حتى خف ميزانه عند الناس وسقط من عيونهم^(٢)
 ولكن بختيار هذا كان سيء الحكم مذموماً . بل يحكى أن سيف الدولة صاحب
 حلب المشهور بحروبه وغزواته كان له غلام يسمى باسم مؤنث وهو : ثمل ، وكان
 عزيزاً عليه^(٣) . وكان من ذوق ذلك العصر أن يكون الغلام الذى يستهتر به
 أغن الصوت ، غنّاجاً ، ألثغ السين^(٤) . على أنه كان على شاطئ دجلة مكان للهو
 فيه إلى جانب الخمار والخمر « ظي غرير » أو « ظبية غريرة » ، وقاصده لا يدفع
 لهذا كله فى الليلة إلا درهمين^(٥) . ويحكى عن الخليفة الحاكم بأمر الله بمصر أنه
 عن له فى أثناء ركوبه بالليل رأى سخياف ، فكان يأمر أحد رجاله بأن يأتى
 شيخاً خليعاً بمشهد منه ومن الجمع الحاضر ، ويضحك من هذا المنظر القبيح
 ويضطرب له^(٦) . وقد كان التولع بالعلمان سبباً فى قصص غرامية شيقة : فيحكى
 عن أبى عبد الله بن محمد فطويه المتوفى عام ٣٢٣ هـ — ٩٣٥ م ، وكان عالماً

(١) يتيمة ج ٢ ص ١٣٣ ومروج الذهب ج ٨ ص ٣٧٤ .

(٢) مسكويه ج ٦ ص ٤٦٩ ، وابن الأثير ج ٨ ص ٤٩٥ .

(٣) مسكويه ج ٦ ص ٨١ .

(٤) كتاب الديارات للشافعى ص ١٢٧ ، والإرشاد لياقوت ج ٢ ص ٣٤٠ :

وشادن قلت له ما اسمك فقال لي بالفتح عبات

فصرت من لثنته ألثنا قلت أين الكاث والطا

(٥) يتيمة الدهر ج ١ ص ٤٨٣ .

(٦) تاريخ يحيى بن سعيد ص ١٢٧ — ب من مخطوط باريس :

بالربية واللغة والحديث ، أنه كان بينه وبين محمد بن داود الأصفهاني الفقيه صاحب المذهب المسمى باسمه مودةً أكيدةً وتضاف تام ، وكان ابن داود يهوى أبا الحسين محمد بن جامع الصيدلاني^(١) هوىً أفضى به إلى التلف ، فدخل عليه رجلٌ في مرضه الذي مات فيه ، فقال له : يا سيدي ما بك ؟ فقال : حب من تعلم أورثني ما ترى ... ثم قال : حدثني سويد بن سعيد الحدثاني عن أبي يحيى الققات عن مجاهد عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : من حبّ ففء وكرم ، ثم مات ، مات شهيداً ... ثم مات من ليلته في عام ٢٩٧ هـ ؛ فيقال إن نبطويه تفجع عليه وجزع جزعاً عظيماً ، ولم يجلس للناس سنة كاملة^(٢) .

ويحكى عن أحمد بن كليب النحوي المتوفى عام ٤٢٦ هـ — ١٠٣٥ م أنه كان يحضر مجلس أحد النحاة في جماعة ، وكان معهم ولدٌ لأحد القضاة يسمى أسلم ، وكان من أجل من رأت العيون ، فاشتد كلفه بأسلم ، وصرّف فيه القول إلى أن فشت أشعاره فيه وجرت على الألسنة ، وتنوشدت في المحافل ، فلما بلغ الأمر هذا المبلغ انقطع أسلم عن جميع مجالس الطلب ، ولزم بيته والجلوس على بابه ، فكان أحمد بن كليب لا شغل له إلا المرور على باب أسلم سائراً ومقبلاً نهاره كله ، فانقطع أسلم عن الجلوس على باب داره نهاراً ، وكان إذا صلى المغرب واختلط الظلام خرج مستروحاً ، وجلس على باب داره ، فعيل صبر أحمد بن كليب ، فاحتال في بعض الليالي ، وتزيّناً بزي أهل البادية ، وأخذ بإحدى يديه دجاجةً وبالأخرى قفصاً فيه بيض ، وتحنّين جلوس أسلم عند اختلاط الظلام ، فتقدم إليه ، وقبّل يده مدّعيّاً أنه أحد أصحابه في الضياع التي يملكها يقدم له هدية ، فأمر أسلم بأخذ ذلك منه ثم جعل يسأله عن الضيعة ، فلما أجابه أنكر

(١) كان نبطويه غير مكترث بإصلاح نفسه ، وكان يتأذى الناس بكثرة ضنائه .

(٢) الإرشاد لياقوت ج ١ ص ٣٠٨ — ٣٠٩ .

الكلام ، ثم تأمله فعرّفه ، فقال له : يا أخى ، وهنا بلغت بنفسك ... أما كذاك انقطاعى عن مجالس الطلب وعن الخروج جملة ؟ ... وأقسم ألا يقعد على باب داره ليلاً ولا نهاراً ، فلما يئس أحد من رؤيته ألبته نهكته العلة وأضجعه المرض ، وزاره أحد أصحابه فوجده بأسوأ حال ، وقال له : إن دوائى نظرة من أسلم ، فلو سمعت فى أن يزورنى لأعظم الله أجرك ، وكان هو والله أيضاً يؤجر ، فذهب الصاحب إلى أسلم ، وما زال به حتى وعده بالزيارة بعد تأبٍ وتأجيل ، حكى هذا الصاحب : « فأخذ رداءه ونهض منى راجلاً إلى منزل أحمد بن كليب ، وكان يسكن فى آخر درب طويل ، فلما توسط الدرب وقف واحراً وخجل وقال لى : الساعة والله أموت ، وما أستطيع أن أنقل قدمى ، ولا أن أعرض لهذا نفسى ، فقلت : لا تفعل بعد أن بلغت المنزل أن تنصرف ؛ قال : لا سبيل والله إلى ذلك ألبته ، ورجع مسرعاً فاتبعته وأخذت بردائه فتأدى وتمزّق الرداء ، وبقيت قطعة منه فى يدى ... فرجعت ودخلت الدار على أحمد بن كليب ، وقد كان غلامه دخل إليه إذ رأنا من أول الدرب مبشراً ، فلما رأى دونه تغير لونه وقال : أين أبو الحسن (أسلم) فأخبرته بالقصة ، فاستحال من وقته ، واختلط وجعل يتكلم بكلام لا يعقل منه أكثر من التراجع ... ، فخرجت عنه فوالله ما توسطت الدرب حتى سمعت الصراخ عليه وقد فارق الدنيا » . ثم رأى أسلم فى يوم شديد المطر لا يكاد أحد يمشى فى طريق ، وهو قاعد على قبر أحمد بن كليب زائراً له ، وقد تحيّن غفلة الناس فى مثل ذلك الوقت . وكان أحمد بن كليب قد أهدى إلى أسلم فى أول أمره كتاب الفصيح وكتب عليه :

هذا كتاب الفصيح بكل لفظ مليح
وهبته لك طوعاً كما وهبتك روحى^(١)

(١) كتاب المتظم لابن الجوزى ص ١٨٩ ب — ١٩٠ ب والإرشاد لياقوت ج ٢

وتم قصة أخرى حكاها أبو بكر الصنوبري الشاعر الشامي المتوفى عام ٣٣٤ هـ — ٩٤٥ م قال : « كان بالرها ورقاق يقال له سعد ، وكان في دكانه مجلس كل أديب ، وكان حسن الأدب يعمل شعراً رقيقاً ، وما كنا نفارق دكانه أنا والمعوج الشامي الشاعر وغيرنا من شعراء الشام وديار مصر ، وكان لتاجر بالرها نصراني من كبار تجارها ابن اسمه عيسى من أحسن الناس وجهاً ، وأحلام قداً ، وأظرفهم طبعاً ومنطقاً ، وكان يجلس إلينا ويكتب عنا أشعارنا وجميعنا يحبه ويميل إليه وهو يومئذ صبي في الكتاب ، فعشقه سعد الوراق عشقاً مُبرِّحاً ، وعمل فيه الأشعار ثم شاع بعشق الغلام في الرها خبره ، فلما كبر وشارف الأشلاف أحب الرهبنة ، وخطب أباه وأمه في ذلك ، وألح عليهما حتى أجاباه ، وخرجا به إلى دير زكي بنواحي الرقة ، وهو في نهاية حسنة ، فابتاعا له قلاية ، ورفعوا إلى رأس الدير جملة من المال عنها ، فأقام الغلام فيها . وضاعت على سعد الوراق الدنيا بما رحبت ، وأغلق دكانه ، وهجر إخوانه ، ولزم الدير مع الغلام ، وسعد في خلال ذلك يعمل فيه الأشعار ثم إن الرهبان أنكروا على الغلام كثرة إلمام سعد به ، ونهوه عنه وحرموه إن أدخله ، وتوعدوه بإخراجه من الدير إن لم يفعل ، فأجابهم إلى ما سألوا من ذلك . فلما رأى سعد امتناعه منه شق عليه ، وخضع للرهبان ، ورفق بهم فلم يجيبوه ، وقالوا : في هذا علينا إثم وعار ، ونخاف السلطان . وكان إذا وافى الدير أغلقوا الباب في وجهه ، ولم يدعوا الغلام يكلمه ، فاشتد وجده وزاد عشقه حتى صار إلى الجنون ، نفرق ثيابه وانصرف إلى داره ، فضرب جميع ما فيها بالنار ، ولزم صحراء الدير ، وهو عريان يهيم ، ويعمل الأشعار ويبكي ؛ قال أبو بكر الصنوبري : ثم عبرت يوما أنا والمعوج من بستان بستان فيه ، فرأيناه جالساً في ظل الدير ، وهو عريان ، وقد طال شعره ، وتغيرت خلقته ، فسلمنا عليه ، وعذلناه وعاتبناه فقال : دَعَانِي من هذا الوسواس ، أترى أن ذلك الطائر على

هيكل ؟ وأوما بيده إلى طائر هناك ، فقلنا : نعم ، فقال : أنا وحقكما يا أخوي .
أناشده منذ الغداة أن يسقط فأجمله رسالة إلى عيسى ، ثم التفت إلى وقال :
يا صنوبرى معك ألواحك ؟ قلت : نعم . قال اكتب :

بدينك يا حمامة دير زكى	وبالإنجيل عندك والصليب
قنى وتحملنى عنى سلاماً	إلى قمر على غصن رطيب
حمامة جماعة الرهبان عنى	قلبي ما يقر من الوجيب
وقالوا : رابنا إمام سعد	ولا والله ما أنا بالمريب
وقولى سعدك المسكين يشكو	لهيب جوى أحر من اللهيب
فصله بنظرة لك من بعيد	إذا ما كنت تمنع من قريب
وإن أنا مت فاكذب حول قبرى	محب مات من هجر الحبيب
رقيب واحد تنغيص عيش	فكيف بمن له مائتا رقيب

ثم تركنا وقام يعدو إلى باب الدير وهو مخلق دونه ، وانصرفنا ، وما زال
كذلك زماناً ، ثم وُجد فى بعض الأيام ميتاً إلى جانب الدير ، وكان أمير البلد
يؤمنذ العباس بن كيغنج ، فلما اتصل ذلك به وبأهل الرها خرجوا إلى الدير ،
وقالوا : ما قتله غير الرهبان ، وقال لهم ابن كيغنج لا بد من ضرب رقبة الغلام ،
وإحراقه بالنار ، ولا بد من تعزير جميع الرهبان بالسياط ، وتصعب فى ذلك ، فافتدى
النصارى نفوسهم وذيرهم بمائة ألف درهم . فكان الغلام بعد ذلك إذا دخل الرها
لزيارة أهله صاح به الصبيان : يا قاتل سعد الوراق ، وشدوا عليه بالحجارة يرجونه ،
وزاد عليه الأمر فى ذلك حتى امتنع من دخول المدينة ، ثم انتقل إلى دير سمعان .
وما أذرى ما كان منه ^(١) . وكان بعض العلماء يمنعون الشبان غير الملتحين من .

(١) الإرشاد لياقوت ج ٢ ص ٢٣ — ٢٦ .

حضور دروسهم ، ولعل ذلك لخوفهم من مثل هذه القصص الغرامية ، وكان بعض شديدي الإقبال على التعلم من الصبيان يتخذون لحى مصطنعة ، ليتمكنوا من التسرب إلى مجالس أولئك العلماء^(١) .

أما البغاء فليس شيئاً يستعيز به العزاب عن الزواج كما يرى المفكرون الاجتماعيون ، بل هو من حيث أصله نظام في الديانات القديمة غريب شأنه شأن نظام الخصيان . وقد انتشر البغاء على الرغم من أن إباحة الزواج بأكثر من واحدة ، وأن العرف كان من شأنهما أن يجعل حال الرجل غير المتزوج أو المرأة غير المتزوجة أمراً يستلفت النظر لأنه شاذ جداً ، وعلى الرغم من أن الشريعة جعلت حد الزاني المتزوج قاسياً ، فقضت أن يُرْجَمَ حتى يموت . على أن الشارع شدد زاحطاً في إثبات تهمة الزنا إلى حد لا يمكن معه الحكم بهذه العقوبة^(٢) .

وقد وصف أحد الرحالة المسلمين حوالي عام ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م حال البغاء في الصين وتكلم عن الزواني ، وهن يُثَبَّتْنَ في ديوان خاص بهن يسمى ديوان الزواني ، وعليهن في كل سنة ضريبة يؤدّينها لبيت المال ، ثم قال : « ونحن نحمد الله على ما طهرنا به من هذه الفتن »^(٣) . ولكن لم تمض على ذلك خمسون سنة حتى بلغ من إهمال عضد الدولة المتوفى عام ٣٧٢ هـ — ٩٨٢ م للشريعة أنه فرض على الراقصات والقحاب بفارس ضريبة ، وكان يضمن هذه الضريبة . يقول البيروني بعد حكاية ما كان عليه ملوك الهند من فرض الضريبة على المغنيات والراقصات طلباً للمال : « وهكذا كان عضد الدولة ، وأضاف إليه حماية الرعية من عزاب

(١) Wüstenfeld, AGGW, 37, Nr. 88.

(٢) محاضرات الأدباء ج ١ ص ١٢٩ .

(٣) سلسلة التواريخ طبعة Reinaud ص ٧٠ ، عن أبي زيد السيرافي ؛ فاردن المسعودي

(مروج الذهب) ج ١ ص ٢٩٥ .

الجنس»^(١) . وقد أخذ القاطميون بهذا النظام ففرضوا الرسوم على بيوت الفواحش^(٢) . وفي حكاية اخترعت حوالى آخر القرن الرابع الهجرى أن عضد الدولة خطب الأميرة جميلة الحمدانية ، فامتنعت عليه ، فلما أسرها استولى على جميع أموالها ، وقيل إنه فرض عليها مالا ، وألزمها إما أن تؤديه أو تختلف إلى دار القحاب لتكتسب ما تؤديه ، حتى إذا ضاق بها الأمر اتهزت غفلة الموكلين بها ، وغرقت نفسها فى دجلة^(٣) . ومن عجائب ما كان بمدينة اللاذقية أن المحتسب كان يجمع القحاب والغرباء المؤثرين للفساد من الروم فى حلقة ، وينادى على كل واحدة منهن ، ويزيد الفسقة فيهن الليلة ، ثم يؤخذن إلى القنادق التى يسكنها الغرباء ، بعد أن تأخذ كل واحدة منهن خاتماً يسمى خاتم المطران ، ليكون حجة بيدها من تعقب الوالى لها . وإن وجد خاطئ مع خاطئة من غير خاتم المطران عوقب . على أن هذا النظام لم يذكر إلا بعد أن عادت مدينة اللاذقية إلى حكم الروم^(٤) . غير أن المقدسى يحكى لنا أنه فى مدينة السوس قصبة خوزستان ترى دور الزنا عند أبواب الجامع ظاهرة^(٥) ، هذا على حين أن ابن حوقل يقول إنه ليس فى بلدان المغرب من الفواحش الظاهرة ، وتعالى الأمور المنكرة والفسق الشنيع ؛ مثل ما فى المشرق^(٦) .

وفى عام ٣٢٣ هـ — ٩٣٤ م قام الحنابلة ، وهم مسلمون متطرفون ، لمطاردة المنكر فى بغداد ، وعظم أمرهم ، وقويت شوكتهم ، حتى صاروا يكبسون دور القواد العامة ، فإن وجدوا نبیذاً أراقوه ، وإن وجدوا مغنية ضربوها وكسروا آلة الغناء ،

(١) كتاب الهند للبيرونى ص ٢٧٩ والمقدسى ص ٤٤١ .

(٢) الخطط للمقرئى ج ١ ص ٨٩ .

(٣) انظر هامش ص ٤٣ من الجزء الأول لهذا الكتاب .

(٤) أخبار الحكماء للقفطى ص ٢٩٨ من الطبعة الأوروية .

(٥) المقدسى ص ٤٠٧ ، ٤٤١ . -- (٦) ابن حوقل ص ٧٠ .

وصاروا يعترضون في البيع والشراء ، وفي مشى الرجال مع النساء والصبيان ، فإذا رأوا ذلك سألوا الرجل عن الذي معه من هو ، فأخبرهم وإلا ضربه وحمله إلى صاحب الشرطة ، حتى أرهجوا بغداد ^(١) . على أن الماوردي يقول إن المحتسب « إذا رأى وقفة رجل مع امرأة في طريق سابل لم تظهر منهما أمارات الريب لم يعترض عليهما بزجر ولا إنكار ، فما يجد الناس بدا من هذا ؛ وإن كانت الوقفة في طريق خال نخلوا المكان ريبة ، فينكرها ولا يعجل بالتأديب عليها حذراً من أن تكون ذات محرم ، وليقل : إن كانت ذات محرم فضنها عن مواقف الريب ، وإن كانت أجنبية نخف الله تعالى من خلوة تؤديك إلى معصية الله تعالى » ^(٢) . على أن العادة المستحسنة في نظر الشرع هي أن يقر النساء في بيوتهن ، ولا تُحمد لهن كثرة الخروج . وقد عن للحاكم بأمر الله في مصر أن يغلو في مراعاة آداب الشريعة ، فمنع النساء من المشى في الطرقات ، ومنع الأساكفة من عمل خفاف لهن ، وإذا دعت الضرورة إلى حضوز غاسلة أو قابلة استؤذن في ذلك برقعة ترفع إليه فيوقع عليها إلى متولى الشرطة ليسمح بذلك ^(٣) . وبعد أن كانت عادة استقرار النساء في البيوت أدباً شرعياً صارت عادة بين الأشراف والكبراء ، حتى في اسبانيا ، « وبتأثير الأسبان كانت لا ترى امرأة قط في شوارع إيطاليا حوالى منتصف القرن السابع عشر الميلادي » ^(٤) .

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٢٩ — ٢٣٠ .

(٢) الأحكام السلطانية طبعه إنجر Enger ص ٤١٨ .

(٣) تاريخ يحيى بن سعيد ص ١٢٤ ؛ والخطيب المقرئ ج ٢ ص ٢٨٩ ؛ وملحق أخبار القضاة والولاة الكندي ص ٦٠٦ . ويقول فستلند (Wüstenfeld, Staatthalter Aegyptens, II, s. 58) إن هذا للنوع حدث في مصر عام ٢٥٣ هـ — ٨٦٧ م وقد حكى الكندي ذلك على صورة أخرى (الولاة الكندي ص ٢١٠) ، وقد توفي الكندي عام ٣٥٠ هـ — ٩٦١ م .

(٤) Stendhal, Promenades, II, s. 358 .

حكى صاحب العقد الفريد أن « أحق الناس بثلاث لطات من دُعى إلى طعام فقال لصاحب المنزل : ادعُ ربة البيت تأكل معنا »^(١). وكان يحل محل ربة البيت على موائد الدعوات ضربٌ من الخطايا كما كان الحال عند اليونان القدماء ، وكُنَّ نساءً متقنات مدرّبات على أرقى الآداب الاجتماعية ؛ حائزات كل مظاهر الجمال والثقافة والفن ، متعودات على الحديث مع الرجال من غير وجل . ويشعر الإنسان أن هذا الفصل كان فيه راحة للبيت وللجماعة . وكان أغلب هؤلاء النساء جوارى مملوكات ، ولكن كان منهن من تعمل بأجر ومعظم هؤلاء معتقات . ومما يذكر أن مغنية مشهورة كانت تشتغل في النهار بدينارين وفي الليل بدينار^(٢) . ويحكى أن غلاماً وقع في هوى جارية مغنية ، فأخذ في استعطافها بالمراسلات والمكاتبات ، والجارية بغدادية لا تعرف إلا الدينار والدينار ، وجعل يصف في رقاعه عشقه وسهره في الليالي وتقلبه على حرّ القتلى وامتناعه من الطعام والشراب ، وما يشاكل هذا من الهذيان الفارغ الذي لا طائل فيه ، فلما أعياه أمرها ، ويئس من تعطفها عليه ، كتب إليها في رقعة : وإذ قد منعتني زيارتك واستزارتك فمرى بالله خيالك أن يطرقني ويبرد حرارة قلبي ، أرشدني إلى خيالك حتى أتقاضاه موعداً لي عليه ، فقالت لرسولته : قولي لهذا الرقيق : يا مُذِير ، أنا أعمل بك ما هو خير لك من أن يطرقك خيالي ، احمل دينارين في قرطاس حتى أجيئك بنفسى^(٣) . على أنه في هذه الناحية كان عرف البلاد ظاهراً إلى جانب النظريات الشرعية .. وقد لاحظ العرب تلك الجرية الكبيرة التي تركها رجال القبط لنسائهم : وعلل بعضهم ذلك بأنه لما غرق فرعون وقومه لم يبق من الرجال إلا العبيد والأجراء ، ولم يصبر النساء عن الرجال فطلقت المرأة تعتق عبدها

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه ج ١ ص ٢٨٥ من طبعة مصرية .

(٢) الأغاني ج ١٩ ص ١٣٦ . (٣) حكاية أبي القاسم طبعة مترجمة ص ٧٣ .

وتتزوج الأخرى أجبرها ، وشرطن على الرجال ألا يفعلوا شيئاً إلا بإذنهن ، فأجابوهن إلى ذلك ، فكان أمر النساء ينفذ على الرجال . قال يزيد بن أبي حبيب إن نساء القبط على ذلك إلى اليوم اتباعاً لمن مضى منهم لا يبيع أحد منهم ولا يشتري إلا قال أستاذ زوجتي^(١) . وقد احتفظ النساء بمصر بعد الإسلام بشيء من ذلك ، فيقول المقدسي إن النساء بمصر لا يتورعن عن الفجور ، والمرأة زوجان^(٢) . وهو يقول عن أهل شيراز « وحدثت عن نسائهم بشيء قبيح » ، ويحكى أن نساء هراة « يفتلن إذا ازدهرت أشجار الغبراء كما تغتم السناير »^(٣) . ويظهر أنه في تلك العصور ظهر صوت يطالب للنساء بالحق في المهام الكبيرة حوالى عام ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م ؛ لأن ابن بسام الشاعر يقول^(٤) :

ما للنساء وللكتبا . به والعمالة والخطابه
هذا لنا ، ولهنّ منّا أن يبيتن على جنبه

وكان من النساء عالمات فاضلات يقبل الناس على دروسهن مثل ستيتة بنت القاضى أبي عبد الله الحسين بن إسماعيل الضبي الحاملي ، وكان ابنها أيضاً قاضياً ، وتكنى أم الواحد ، كانت فاضلة عالمة ، ومن أحفظ الناس للفقهاء على مذهب الشافعى ، وكانت تقى مع العلماء ، وحدثت وكتب عنها الحديث ، وتوفيت عام ٣٧٧ هـ ؛ ومثل أم الفتح بنت القاضى أبي بكر أحمد بن كامل بن خلف بن شجرة التى توفيت عام ٣٩٠ هـ ، وأخذ عنها كثير من العلماء ، وكانت موصوفة

(١) الخطط للمقرئى ج ١ ص ٣٩ .

(٢) المقدسى ص ٢٠٠ .

(٣) نفس المصدر ص ٤٢٧ ، ٤٣٦ .

(٤) صبيح الأعشى للقلشندى ص ٦٤ من الجزء الأول طبعة دار الكتب عام

بالديانة والعقل والفضل^(١). ومن الفقهاء من جَوَّز للمرأة أن تتولى القضاء ، فتقضى فيما تصح شهادتها فيه ، وهو أبو حنيفة ، وجَوَّز ابن جرير الطبري قضاءها في جميع الأحكام^(٢). وتدل جميع الأخبار والحكايات على أن أهل الطبقة الوسطى كانوا يكتفون بـ زوجة واحدة ، ففي مقامة من مقامات الهمداني مثلاً أن أحد التجار يدعو رجلاً إلى وليمة ، ويصف له نشاط زوجته ، فيقول : « يا مولاي ؟ لو رأيتها والخرقه في وسطها ، وهي تدور من التنور إلى القدور ، ومن القدور إلى التنور ، تنفث بفيها النار ، وتدق بيدها الأبرار ، ولو رأيت الدخان وقد غبّر في ذلك الوجه الجميل ، وأثر في ذلك الخلد الصقيل ، لرأيت منظرًا تحار فيه العيون ، وأنا أعشقها لأنها تعشقني ، ومن سعادة المرء أن يُرزق المساعدة من حليته ، وأن يسعد بظيعيته »^(٣). ويحكى عن الخليفة المفضل لدين الله الفاطمي أنه خاطب جماعة من شيوخ كتامة قائلاً لهم : « وأقبلوا بعد الأعمال على نساءكم ، والزموا الواحدة التي تكون لكم ، ولا تشرهوا إلى التكثر منهن ، والرغبة فيهن ، فينقص عيشكم ، وتعود المضرة عليكم ، وتنهكوا أبدانكم ، وتذهب قوتكم ، وتضعف نحائزكم ، فحسب الرجل الواحد الواحدة »^(٤). وكذلك يستحسن أبو العلاء ألا يشرك الإنسان مع المرأة سواها ويقول^(٥) :

مَنْ تَشْرَكَ مَعَ امْرَأَةٍ سِوَاهَا . فَقَدْ أَخْطَأَ فِي الرَّأْيِ التَّرِيكَ
فَلَوْ يَرْجَى مَعَ الشَّرَكَاءَ خَيْرٌ . لِمَا كَانَ الْإِلَهِ بِلَا شَرِيكَ

(١) المتنظم لآين الجوزي من ١٢٦ / ١٤٦ . وقد اشتهرت بين النساء بعلم الحديث كريمة بنت أحمد الرزوي بمكة وقد قرأ عليها الخطيب البغدادي صحيح البخاري في خمسة أيام (الإرشاد لياقوت ج ١ ص ٢٤٧) .

(٢) الأحكام السلطانية للماوردي من ١٠٧ — ١٠٨ .

(٣) مقامات الهمداني من ١٠٣ من طبعة بيروت .

(٤) الخطط للمقريزي ج ١ ص ٣٥٢ .

(٥) Kremer ZDMG, 38, s. 509 .

أما الكبراء فلم يكن عندهم تعدد الزوجات إلا من طريق اتخاذ الجوارى للاستمتاع بهن ، وخلفاء القرن الرابع كلهم أمهاتهم جوار صقلييات ، ولذلك فإنهم لم يكونوا يتزوجون غير المملوكات إلا نادراً ، ونظراً لغلبة المملوكات على الخلفاء سميت زوجة الخليفة — إن كان له زوجة — بالحرّة^(١) . وقد بين الجاحظ العلة التي من أجلها صار أكثر الإماء أحظى عند الرجال من أكثر المهورات بأن الرجل قبل أن يملك الأمة قد تأمل كل شيء فيها وعرفه ما خلا حظوة الخلوة ، فأقبل على ابتياعها بعد وقوعها في نفسه ؛ أما الحرّة فإنما يستشار في جمالها النساء ، والنساء لا يبصرن من جمال النساء وحاجات الرجال وموافقتهن قليلاً ولا كثيراً ، والرجال بالنساء أبصر ، وإنما تعرف المرأة من المرأة ظاهر الصفة ، فأما الخصائص التي تقع من نفوس الرجال فلا . . .^(٢)

أما زواج الأراامل فقد أجازته الشريعة ، ولكن العرف سخطه سخطاً شديداً ، ويحكى أنه في عهد الخليفة المعتصم في أوائل القرن الثالث الهجري ، امتحن رجل كاتباً فسأله عن صديق تزوجت أمه هل يكتب إليه تهنئة أم تعزية ، فقال هو إلى التعزية أقرب ؛ ف قيل له فكيف تعزیه ، فقال لا أجد إلى ذلك سبيلاً ، وأخيراً قال يكتب له : « إن الأقدار تجري بخلاف محاب الخلقين ، وسرّ في عافية خير من شماتة في أهلها ، والله يختار للعباد ، فخار لك الله في قبضها إليه ، فإن القبور أكرم الأكفاء »^(٣) وكذلك كتب الخوارزمي (المتوفى عام ٣٩٣ هـ — ١٠٠٣ م) إلى ابن مسكويه المؤرخ بعد أن

(١) المتنظم ص ١٢١ .

(٢) كتاب الفصول للجاحظ مخطوط رقم ٣١٣٨ بالمتحف البريطاني بلندن ص ١٦١ .

(٣) الخناسن والمساوي لليحيى ص ٤٤٩ ؛ وجهرة الإسلام للشيرازي مخطوط ليدن

رقم ٢٨٧ ص ٢٠٠ .

تزوجت أمه : « وقد كنتُ أسأل الله أن يبارك لك في حياتها ، والآن أسأله أن يعجل بوفاتها ، فإن القبر أكرم صهر ، وإن الموت أستر ستر ، ولا تذهب نفسك حشراتٍ على ما سبقك عليه الدهر ... والحمد لله الذي كان العقوق من جهتها ، ووقوع الجفاء من جنبتها ، فإنك بررتَها صغيراً ، وبلغت مرادها كبيراً ، فاجتمع لك برّان ، ووقع لك على الله أجران »^(١) .

وكان ميلاد البنت دائماً مناسبة للتهنئة الحقيقية ، وقد كتب الشريف الرضى إلى أخيه مهنئاً بمولودة :

الآن جاءت خيولُ السعدِ راكضة تجري بيوم مضى الوجه مجدود
بمولد صقل الآباء حليته فطوق المجد أعناق المواليد
مولودة تهيب الرءون بهجتها لثما وعانقتها في ثوب محسود^(٢)
على أن الخوارزمي كتب معزياً لرجل عن فقد ابنته ، وهو يحتم كتابه داعياً لأبيها أن يعرضه الله عنها « أخاً لها سوى الخلق والخلق شريف الفعل والعرق »^(٣) .
ولم يكن انفصال النساء عن الرجال في الحياة الاجتماعية هو وحده السبب فيما يلاحظ في كلام أم الجنوب من فحش ننفر منه ؛ فإننا لو قارنا قصص العرب في عصرهم الأول ونواديرهم وكلامهم وشعرهم بما في القرنين الثالث والرابع للهجرة لأدهشنا ما نجد في هذين القرنين من ميل شديد إلى الإفحاش في القول . وليس هذا أيضاً — شأنه شأن غيره — إلا من أثر سيطرة العادات الشرقية غير العربية التي كانت قبل الإسلام ، سيطرة عادت لها من جديد ؛ ولا يزال البدوى إلى اليوم أعف وأظهر من غيره^(٤) . وتسيطر على شعر المهجاء بنوع خاص الألفاظ

(١) رسائل الخوارزمي طبعة القسطنطينية من ١٧٣ .

(٢) ديوان الشريف الرضى ج ١ ص ٢٤٥ . (٣) رسائل الخوارزمي ص ٦١ .

(٤) Landberg, Proverbes arabes, XVI. وانظر الفصل الخامس بالأدب في الجزء

الأول من هذا الكتاب (عند الكلام عن الشعراء الباجين) .

البديهة الفاحشة، ولو نظرنا إلى الأشعار القديمة التي جمعها أبو تمام في ديوان الحماسة وأشعار البحترى — الذي كان يعتبر من أتباع طريقة القدماء — لوجدناها أشد عفة وطهارة . أما ابن المعتز ، وهو الأمير العباسي الشاعر ، المتوفى عام ٢٦٩هـ — ٩٠٩م فإنه أجاب على حبيب له في ظهر كتابه ، وهويين سبب ذلك فيقول : وأجبت في ظهر الكتاب إذا أتى ليلوط خطي في الكتاب بخطه^(١)

وفي القرن التالي زاد الفحش حتى يحكى عن الوزير سليمان بن الحسن حوالى عام ٣١٩هـ — ٩٣١م أنه أظهر « من سخف الكلام وضرب الأمثلة المضحكة وإظهار اللفظ القبيح بين يدي الخليفة ما يجل الوزراء عنه ، فاستنقصه الخلق ، وجهاء الشعراء ، واستعظموا الوزارة لمثله »^(٢) . ولكن في أواخر هذا القرن نجد ابن عباد الوزير الجليل المشهور بالصاحب يستعمل في شعره أفحش الأوصاف^(٣) وهويين رأيه في أحد شعراء أهل عصره في ثوب من الفحش^(٤) . ولما ورد بغداد قصد دار الوزير المهلبى ، فلم يستطع استقباله لوقتته بسبب شغل كان فيه ، فلما طال انتظار الصاحب كتب لأبى إسحاق الصابى رقعة فيها :

وأترك محجوبا على الباب كالخفى ويدخل غيرى كالأپور ويخرج^(٥)
بل نجد أن الصابى هذا ، مع أنه مفخرة النثر العربى ، إذا هجا أتى بألفاظ فاحشة مقدعة من ألفاظ المقادر والمجون^(٦) . ونستطيع أن نصور لأنفسنا بعد هذا . كيف يكون السخف والفحش في كلام النجان الحقيقيين كابن الحجاج .

(١) ديوان ابن المعتز ج ١ ص ٨٢ . (٢) عريب بن سعيد القرطبي ص ١٦١ .

(٣) يتيمة الدهر ج ٣ ص ١٠٢ وما يليها .

(٤) نفس المصدر ج ٣ ص ١٢٩ — ١٣٠ ، حيث يقول ابن عباد في أبى سعيد

الرستمى مداعبا :

أبو سعيد فتى ظريف ينذل في الظرف فوق وسعه

ينيك بالشمر كل ظي فييره في عيال طبعه

(٥) الإرشاد لياقوت ج ٢ ص ٣٣٨ . (٦) يتيمة الدهر ج ٢ ص ٦٣ — ٦٤ .

ويحكى أحد الشعراء كيف كان يغوى الضبيان في الجامع الكبير بالبصرة،
وهو يبين كيف يمكن أن يستغوى من كان منهم مستعصيا فيقول^(١) :

ألا يا جامع البصرة لا خربك الله
وسقى صحنك الغيث من المزن فرواه
فكم من عاشق فيك يرى ما يتمناه
وكم ظبي من الإنس مليح فيك مرعاه
نصبنا الفخ بالعلم له فيك فصدناه

.....

وكم من طالب للشعر بالشعر طلبناه
فما زالت يد الأيا م نحى لان متناه

.....

ولو كان من البعوض برياً حين تلاقاه
فرح بالدرهم الضرب إليه يتلاقاه
فبالدرهم يستنزل ما بالجو مأواه
وبالدرهم يستخر ج ما في القفر مشواه

ويقول الهمداني هاجيا :

لو كانت النيرات أجمصكا أو كنت ممن يساير الفلكا
ما كنت إلا مؤاجرا حلقا إذا رأى وجهه دائق بركا^(٢)

وهذا ينطبق على كثيرين من معاصريه ، ثم عادت إلى الظهور الأوضاع

(١) نفس المصدر ج ٢ ص ١٣٠ ؛ والإرشاد ج ٦ ص ٣١٧ — ٣١٨ .

(٢) ديوان الهمداني مخطوط باريس رقم ٢١٤٧ ص ٥٩ / وطبعة القاهرة سنة

١٣٢١ هـ — ١٩٠٣ م ص ٦٥ .

القديمة ، وأصبحت للمال قوة عظيمة ، حتى سحقت طاحونه الكبيرة كل قيمة أخرى ، وكل شيء عُرض من أجل المال ، وبلغت وصمة حب المال والمكر لتحصيله أعلى طبقات الشعب في الدولة . ويحكى أنه في عام ٣٢١ هـ — ٩٣٣ م أمر الخليفة القاهر بتحريم الحر والغناء وسائر الأنبذة ، وأمر ببيع الجوارى المغنيات على أنهن سواذج لا يعرفن الغناء ، ثم وضع من يشتري له كل حاذقة في صنعة الغناء ، فاشترى منبن ما أراد بأرخص الأثمان . وكان القاهر مولما بالغناء والسماع ، فجعل ذلك طريقا إلى تحصيل غرضه رخيصا^(١) . وكذلك يحكى عن أمير مصر في ذلك العهد حكايات طريفة ، فقد كان يأخذ أشياء الناس أخذ طماع لا يستحي ؛ حكى مزاحم بن رائق قال : استعمل لي فروّ ، قام على بستانة درهم ، فمن حسنه وفرحى به لبسته بدمشق ، وركبت إلى الأخشيد ، فلما رآه قلبه واستحسنه ، وقال : ما رأيت مثله قط ، فلم تسمح نفسى بأن أنزعه للوقت ، فلما انصرفت اعترضنى فأتك ، وقال لى : اجلس فإن الأخشيد يريد أن يخلع عليك ، وجاءوا برزمة وقالوا : اخلع القرو ، وطووه ، ومضوا به ، وبقيت جالسا . ثم قالوا : قد نام ، تعود إليه العشيّة ، فانصرفت إلى دارى ، وقلت : هاتوا القرو ، فقالوا أيما فرو ؟ ما جاءنا شيء . فلما كان عشيّة دخلت على الأخشيد فاذا القرو عليه ، فلما رآنى ضحك ، وقال : كيف رأيت ، ما أصفق وجهك ؛ ولكنك ابن أبيك ، وكم عرّضت لك ، وأنت لا تستحي ، فلم تفعل حتى أخذناه بلا شكر ولا منة^(٢) . ويحكى أن محمد بن على المادرائى نزّه الأخشيد في بستانه يبنى وائل ، وفرش له ، وأكثر من الطعام والفواكه والطيب والفرش ، وقام بجميع العسكر ، فأكل ثم نام ، فلما استيقظ فرش له عند البركة ونضبت بين يديه التماثيل من الذهب والفضة والكافور والعنبر ، وُجم بين يديه المغنوت من الرجال والنساء ، فطابت بذلك

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٠٤ . (٢) المغرب لابن سعيد ص ٣٤ .

نفسه ، ثم جعل بين يديه صينيتان من الفضة ، إحداهما مملوءة بالدنانير والأخرى
بالدراهم للنثار ، فأخذ صينية الدنانير وجعلها خلفه ونثر الدراهم ، فلما انصرف حمل
جميع ما كان جالسا عليه وما كان بين يديه وما شرب وما أكل فيه فأرسل
خلفه ، وحمل على فرسين بسرّج ولجام من ذهب^(١) .

وقد نشأ عن قلة شعور الإنسان بكرامة نفسه وشرفه قلة تقديره لكرامة
الغير ؛ وفي سنة ٢٦٨ هـ — ٨٨٤ م خالف العباس بن أحمد بن طولون على أبيه ،
وخرج عليه وهو بالشام ، وسار إلى برقة ، فسير إليه أبوه جيشا هزمه وقبض
عليه وعلى من كان معه ؛ وأراد أن يعاقبهم ، فنصب دكة عظيمة رفيعة السمك ،
وجلس في علويوازيها ، وشرع من ذلك العلوي إليها طريقا ، ووقف العباس بين
يدي أبيه في خفتان ملحم وعمامة وخفّ ، وبيده سيف مشهور ، وكان أعوان
العباس في الثورة ومن حسن له الخروج على أبيه جالسين على الدكة ، فكان
الواحد منهم يضرب بالسوط ثم يؤمر العباس بأن يقطع يديه ورجليه من خلاف ،
ثم يلقى من الدكة إلى الأرض^(٢) . ولما خلع الوزير حامد بن العباس لم يزل ابن
الفرات — وهو الذي خلفه على الوزارة — بالخليفة حتى سلمه إليه ، فكان يصفع
ويضرب ؛ وكان المحسن ، ابن الوزير الجديد ، يُخْرِجه إذا شرب ، « فيلبسه
جلد قرد له ذنب ويقيم من يرقصه ويصفعه ، ويشرب على ذلك ، وأجرى على
حامد أفاعيل قبيحة ليست من أفاعيل الناس ، ولا يستجيزها ذودين ولا عقل »^(٣) .

على أنه تروى عن النبي عليه السلام حكاية تصور لنا مقدار شعور العربي
بكرامته ، حكى ابن هشام أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عدل صفوف أصحابه

(١) نفس المصدر ص ٢٩ .

(٢) الإرشاد لياقوت ج ٢ ص ٤١٥ — ٤١٦ ؛ والكندى ص ٢٢٤ .

(٣) عربي ص ١١٢ .

يوم بدر ، وفي يده قدح يعدل به القوم ، فر بسواد بن غزيرة حليف بني عدى .
ابن النجم ، وهو مستنزل (مستنصل) من الصف ، فطعن في بطنه بالقدح ،
وقال : استويا سواد ، فقال : يا رسول الله أوجعتني ، وقد بعثك الله بالحق والعدل
فأقذني ، قال : فكشف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بطنه فقال : استقيد ،
فاعتقه سواد ، وقبّل بطنه^(١) . هذا مثال لشعور العربي الأول بكرامته ؛ أما في
القرن الرابع فقد كانت العقوبة البدنية لا تكاد تعتبر مزرية بالكرامة . ويحكى
عن الأمير معز الدولة أنه في سنة ٣٤١ هـ ضرب وزيره أبا محمد المهلبى بالمقارع مائة
 وخمسين مفرقة ، يراوح بينها بأن يرفع عنه الضرب حتى يوبخه ويبكته ثم يعيد
عليه الضرب ، ولكن هذا الوزير قبّل بعد أن استقل من هذا الضرب أن يرجع
إلى الوزارة^(٢) . وقد تولى الوزارة بمصر في القرن الخامس رجل كانت يده قد
قطعتا بسبب الخيانة^(٣) ، وبلغ الحال إلى ما يشبه ما عند الزوج ، حيث لا يتبولى
أحد قيادة القوافل إلا بعد أن تمتحن قدرته على احتمال الضرب بالسياط^(٤) .
وكان الثوار الذين يؤسرون وسلاهم في أيديهم يعاملون بحسب جرمهم وعلى
قدر ما أثاروه من سخط ورعب . وكان الأسرى الأجانب يعاملون بغير معاملة
الخوارج من أهل البلاد ، ويحكى أن الأعراب الذين سبقوا الحجاج إلى مواضع
الماء فنزحوها وألقوا فيها الحنظل ، حتى بلغ العطش من الحجاج مبلغا كبيرا ،
وهلك منهم خمسة عشر ألفا ، عوقبوا بأن أشهروا وحبسوا ، وأجيع منهم جماعة
وأطعموا المالح ، ثم تركوا على دجلة حتى ماتوا عطشا وحسرة ، وهم يشاهدون

(١) سيرة ابن هشام ص ٢٤٤ من طبعة جوتنجن سنة ١٨٥٨ .

(٢) مسكويه ج ٦ ص ١٩٠ .

(٣) Becker, Beiträge Zur Gesch. Aegyptens 1, 34 تقلا عن السبّحي .

(المثوفى عام ٤٢٠ هـ) .

(٤) Vierkandt, Naturvölker, s. 264 .

الماء^(١) . وفي عام ٢٨٩ هـ — ٩٠١ م قبض على ابن أبي الفوارس القرمطى ، فقلعت أضرأسه أولاً ثم خلع عذة إحدى يديه بيكرة وتعليق صخرة فى الأخرى ، وترك على هذه الحالة من نصف النهار إلى المغرب ، ثم قطعت يداه ورجلاه من غد ذلك اليوم ، وضربت عنقه ، وصُلب^(٢) . وفى عام ٢٩١ هـ — ٩٠٣ م قبض على « صاحب الشامة » وهو أحد قواد القرامطة القُساة ، وكان يذبح المسلمين كما تُذبح الأنعام ، وأدخل هو وأصحابه بغداد . وقد عزم الخليفة على أن يُشهره حتى يراه الناس جميعا ، فأمر أن يُصلب على دقل ، والدقل على ظهر فيل ، وأمر بهدم طاقات الأبواب التى يجتاز بها الفيل ، ثم استسمح ذلك فأمر بعمل كرسي ، وركبه على ظهر الفيل فى ارتفاع ذراعين ونصف ، وأقعد فيه القرمطى ، وسارين يديه الأسرى مقيدى على جمال ، وعليهم دراريع وبرانس من حرير ، وكان بينهم المطوق أحد أصحاب القرمطى ، وهو غلام لم تنبت لحيته ، وقد جعلت فى فيه خشبةً مخروطية ، وألجم بها فيه ، ثم شُدَّت إلى قفاه كاللجام ، وذلك لأنه لما دخل الرقة كان يشتم الناس إذا دعوا عليه ، ويزق فى وجوههم ، فجعل ذلك فى فيه لئلا يتكلم . ثم أمر المسكتنى ببناء دكة ارتفاعها عشرة أذرع ، وذكر عن « صاحب الشامة » أنه أخذ وهو فى حبس المسكتنى سكرجةً من المائدة التى كانت تدخل عليه ، فكسرها وقطع بشظية منها بعض عروقه فسال منه دم كثير ، فترك أياما بعد أن شُدَّت يده إلى أن رجعت إليه قوته ، ثم قُدِّم قواد القرامطة ، وقطعت أيديهم وأرجلهم ، وضربت أعناقهم واحدا بعد واحد ، وكانت ترى جثثهم وأعضاؤهم من أعلى الدكة إلى الأرض ، ثم قُدِّم « صاحب الشامة » ، فقطعت يداه ورجلاه ، وأُضرمَت نار عظيمة وأدخل فيها خشب صليب ، وكانت توضع الخشبة الموقدة فى خواصره وبطنه وهو يفتح عينيه ويغمضهما ، حتى خشى

(١) المنتظم ص ١٥٩ . (٢) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٢٢٠٦ .

عليه أن يموت ، فُضِرَت عنقه ، ورفع رأسه في خشبة ، وكبّر من كان على الدكة ، وكبر سائر الناس في أسفلها ، ثم ضُرِبَت أعناق الأسرى ، فلما كان من الغد حملت الرؤوس إلى الجسر ، وصلب بدنُ القرمطي على الجسر الأعلى ببغداد^(١) . وبعد ذلك بقرن أى في عام ٣٩٧ هـ — ١٠٠٧ م قبض الخليفة الحاكم بأمر الله على أبي ركوّة ، وهو ثائر خرج على الحاكم واستفحل أمره حتى استولى على برقة وغيرها وكسر عسكر الحاكم وزعزع دولته ، « فأركب جملاً بسنامين وألبس طرطوراً ، وجعل خلقه قروداً يصفعه معلماً بذلك ، والعساكر حوله ... ، وأمر به الحاكم أن يخرج إلى ظاهر القاهرة ، وتضرب عنقه ... فلما حمل إلى هناك أنزل فإذا به ميت »^(٢) . وقد حكى المؤرخ النصراني يحيى بن سعيد الذي كان يعيش بمصر في ذلك العهد ، بدلاً من هذه القصة الطريفة ، أن أبا ركوّة أحضر إلى مصر أسيراً ، فأشهر بها ، ثم قُتل في موضع يعرف بمسجد تهر ، وصلب فيه وأحرق بالنار^(٣) .

هذه هي أقسى وأفظع العقوبات التي كانت الحكومة تعاقب بها أشد الثوار غلظة وأشدّهم أذى ، وهم الذين كانوا يسفكون دماء الآلاف من الأبرياء ، وإذا عرفنا أن قطع اليد والرجل عقوبة قضت بها الشريعة الإسلامية من قبل ، ولا تزال إلى اليوم تستعمل مع الثوار في مراكش ، ثم نظرنا بعد هذا في قائمة العقوبات المروّعة التي كان يُلجأ إليها في مثل هذه الأحوال في أواخر العصور الوسطى الأوروبية ؛ لشعرنا بشيء من الراحة ، لأن القاهرة وبغداد لم تبلغا مبلغ أوروبا من حيث قسوة الحاكم المتسلط وغلظته بمن يقع في يده . وكان الثوار الذين

(١) عريب ص ٢ — .

(٢) ابن الأثير ج ٩ ص ١٤٤ ، وابن تغرى بردى طبعة (W. Popper) ص ٩٨

(٣) يحيى بن سعيد ص ١١٧ — .

يؤخذون في الأسرى بين المسلمين يُشهرون عادة في المدن على بغال^(١) أو أفيال^(٢) أو على جل ذي سنامين وهو الأحب^(٣) . وكان هؤلاء الخوارج يُلبسون على أشكال متنوعة ، فأحياناً يُلبسون ثياباً خشنة كما حدث للحسين بن حمدان وابنه حينما عاد بهما مؤنس إلى بغداد ، فقد ألبسا برانس طوالاً من اللبود ، وقصائناً من الشعر الأحمر^(٤) ، وأحياناً أخرى يُلبسون درّاعة ديباج وبرنس خزّ طويل^(٥) أو برنساً طويلاً بشفاشج وجلّاجل^(٦) ، أو برنساً بأذنان الثعالب^(٧) ، أو برنساً طويلاً ملوناً كما يلبس النساء^(٨) . وفي القرن الرابع كان يجمع بين الإشهار والصلب ، فكان الثائر يُشهر على جل عليه نِقْنِق وهو مصلوب^(٩) . ولما أُشهر الحسين بن حمدان ببغداد عام ٣٠٣ هـ — ٩١٥ م صيّر معلوباً على نِقْنِق وتحتة كرسي فوق جل ، ويدير النِقْنِقَ رجل^(١٠) ، فيدور الحسين من موقفه يميناً وشمالاً ، وعليه درّاعة ديباج سابغة قد غطت الرجل الذي يدير النِقْنِق حتى لا يراه أحد من الناس^(١١) ولما ضعفت سلطة الخليفة وصار يشق عصا الطاعة عليه أمراء الأقاليم كان إذا هزمهم لم يُعتبروا خارجين ، بل محاربين ، وأصبحت هذه العقوبات لا تستعمل مع الأسرى المحاربين ، ففي عام ٣٠٧ هـ — ٩١٩ م هزم يوسف بن أبي الساج ، وكان قد خرج على الخليفة وأسس لنفسه مملكة في شمال

(١) نفس المصدر ص ١٠٧ .

(٢) نفس المصدر ص ١٩٤ ، وابن الأثير ج ٨ ص ٤٩ (٢) ، ومروج الذهب ج ٨

ص ١٦٩ . (٣) عريب ص ٧٧ ، ٥٧ ، والمروج ، ج ٨ ص ١٦٩ ، ١٩٨ .

(٤) زبدة الفكرة مخطوط باريس ص ١٧٩ .

(٥) كما فُعِلَ بالقرمطي الخارج (مروج الذهب للمسعودي ج ٨ ص ١٦٩) .

وبوصف الخادم (المروج ج ٨ ص ١٩٨) ، والحسين بن حمدان (عريب ص ٥٧) .

ويوسف بن أبي الساج (عريب ص ٥٧) . (٦) عريب ص ٧٧ .

(٧) زبدة الفكرة ص ١٨٢ ، وابن الأثير ج ٨ ص ٢٠٥ — ٢٠٦ .

(٨) مسكويه ج ٦ ص ٥٠١ (٩) . (٩) مسكويه ج ٦ ص ١٧ .

(١٠) عريب ص ٥٧ .

غربي إيران ، فلما أُدخل بغداد وألبس برنسا طويلا بشفاشج وجلجل وحمل على الفالج ، ساء الناس ذلك لأنه لم تكن له فعلة ذميمة في كل من أسره أو ظفر به^(١) ، ولما خرج ياقوت لمحاربة عماد الدولة بن بويه أخذ معه برانس لبود وعليها أذنان الثعالب ، وقيوداً وأغلالاً ، وذلك ليجعلها على ابن بويه وأصحابه ويشهرهم بها في البلاد ؛ ولكن ياقوتا هُزم ، ووُجد ذلك معه ، فأشار أصحاب ابن بويه عليه أن يفعل بياقوت وأصحابه مثل ذلك فامتنع ، وقال إنه بُغِيَ ولؤم ظفر ، ولقد لقي ياقوت بُغْيَه ، ثم أحسن ابن بويه إلى الأسارى^(٢) .

أما القسوة وإلحاق الأذى من جانب القاضى الذى يحقق فى مسألة — وهذه القسوة فى تاريخنا صحائف طويلة مملوءة — فقد منعها الشريعة الإسلامية ، وذلك بأن اعتبرت الإقرار الذى يُكره عليه الإنسان بالأذى والتعذيب أو بمجرد صياح القاضى به إقراراً باطلاً غير قانونى . أما صاحب الحرس فكان له أن يسأل من يحقق أمره ويؤذيه « ويضربه بالسوط والقلوس والمقارع والدرّة على ظهره وقفاه ورأسه وأسفل من رجله وكعابه وعضله »^(٣) . وكانت المقرعة تعتبر أقل إيذاء من السوط^(٤) . وثُمَّ ضروبٌ أخرى من التعذيب كان لا يأتيها إلا الذين يتولون مسائل الإدارة والخراج ، ليكرهوا الناس على إخراج المال . وكان التعذيب الذى اختصوا به أن يعلقوا من يُبتلى بهم من يده أو رجله ، ويتركوه معلقاً حتى تنحل قوته^(٥) . وأقصى عقوبة عند القاضى المسلم هى الرجم للشخص المُحصّن إذا زنى ، وهى عقوبة كأنها لم تُقرض ؛ لأن الشريعة تحتم فى الإثبات

(١) نفس المصدر ص ٧٧ .

(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٠٥ — ٢٠٦ .

(٣) مروج الذهب للسعودى ج ٨ ص ١٥٤ . (٤) كتاب الوزراء ص ١٠٢ .

(٥) انظر الفصل الخاص بالمسائل المالية فى الجزء الأول من هذا الكتاب ، وراجع

كتاب الوزراء ص ٣٨١ ، وعريب ص ١٨٤ .

شروطا يكاد توفرها يكون مستجيلا . وكذلك جعلت عقوبة من أخذ وقطع الطريق وحارب أن تُقَطَّع يده ورجله ؛ فإن قُتِل قُتِل ^(١) . وعقاب السارق قطع اليد . ولما كان الاعتقاد أن الروح تعود للاتصال بالبدن بعد الموت فإن التثيل ببدن المعاقب كان يُعتبر ضرباً من تشديد العقوبة ، فكان يصلب في كثير من الأحيان مع مدّ الذراعين وكان يُحْرَس بالليل وتوقد أمامه النيران ^(٢) . ولم يحدث قط في ذلك العصر أن صُلب أحدٌ وهو حي إلى أن مات ، ويحكى في بعض الكتب أن الحلاج الذي قُتل عام ٣٠٩ هـ — ٩٢١ م لانتجاله مذهباً اعتبره البعض خروجاً عن الدين صُلب حياً إلى أن مات ^(٣) . ولكن الصحيح هو أنه صُلب في أول دعوته ، ثم اعتقل ، ولكن ذلك وقع قبل قتله بثمان سنين حين ضرب بالسياط ، وقد ذكر ابن المعتز ^(٤) من الفظائع المنكرة التي فعلها السودان في القتل ببغداد « الصلب قبل الموت » . وكانت أشد عقوبة هي إحراق الجثة ، وهذه الدرجة العليا في إتلاف المعاقب ظهرت أيضاً في مظهر آخر وهو أنه لا تدفع للمحروق دية ^(٥) . وفي سنة ٣١٢ هـ — ٩٢٤ م قبض على أعمى وُجد في دار الخلافة ، وظُنَّ به أنه كان يريد أن يفتك بالمقتدر ، « فضُرب وعُنف فلم يقرّ بخبره ، وعوقب حتى تلف ، ثم صُلب ، ولُفَّ »

- (١) كتاب الحراج لأبي يوسف ص ١٠٨ .
 (٢) وقع هذا لابن بقیة الوزير لما قُتل وصلب عام ٣٦٧ هـ كما تدل على ذلك قصيدة الأنباري في نديم الأديب لأحمد سعيد البغدادی نقلها عن كتاب عيون السیر للهمدانی .
 (٣) الأصمطخری ص ١٤٩ ، ٢١٠ . (٤) ذیوان ابن المعتز ج ١ ص ١٢٩ .
 (٥) هذا هو الحال اليوم ، وكذلك كان قديماً . انظر مثلاً ما اشترطه أبو بكر على وفد المرتدين لما قدّم عليه ، وهو أنه « خیرهم بين الحرب الجلیة ، أو السلم الخزیة ، فقالوا : قد عرفنا الحرب الجلیة ، فما السلم الخزیة ؟ قال : أن نزرع منكم الحلقة والكراع ، ونغم ما أصبنا منكم ، وتدفوا قتلاتنا ، ويكون قتلاكم في النار » . وكان قواد المسلمين في ذلك العصر يحرقون المرتدين حقيقة (انظر فتوح البلدان للبلاذری طبعة لیدن ١٨٦٦ ص ٩٥ ، ٩٦ . وكذلك كان إلغاء الدية عند اليونان مرتبطاً بظهور عادة إحراق الأجساد عندهم .

عليه حبل من قنب ومشاقة ، ولطّخ بالنفط ، وضرب بالنار»^(١) . وفي سنة ٣٩٦ هـ — ١٠٠١ م سُمِلَ أحدُ العمال المكروهين فمات ، فبعد أن دُفِنَ نبشه أهلُ البلد وأحرقوه لسوء معاملته لهم ، ولما قدّم من القبيح إليهم^(٢) . ولا أعلم أن أحداً من المسلمين في ذلك العصر أُحرق وهو حيّ قط^(٣) . ولا نسمع عن السلخ إلا عند الفاطميين ، بإفريقية ؛ ففي سنة ٣٤١ هـ — ٩٥٢ م أُسر أحد الثوار بعد أن كان قد أفسد المغرب وقطع في بسكرة وحدها ثلاثمائة ألف نخلة ، فسُلخ من جلده وهو حيّ وحشّي بالتبن وصلب^(٤) . وأسر أحد الثوار ، فُجرح نفسه وهو في سجنه ، فمُرّض حتى مات وكان قد أتعّب جوهراً فاتح مصر فسُلخ بعد موته وحشّي جلده تَبْنًا وصلب بين مصر والقاهرة^(٥) . ويحكى عن أبي بكر النابلسي الزاهد أنه قال في حق الفاطميين : إذا كان مع الرجل المسلم عشرة أسهم وجب عليه أن يرمى في الروم سهمًا واحدًا وفي الفاطميين تسعة ، فأحضره المعز لدين الله ، وقال له : بلغنا عنك كيت وكيت ، فقال : ما قلت هذا ، فظن المعز أنه رجع عن قوله ، وسأله عما قال ، فأجاب : قلتُ : إذا كان معه عشرة وجب أن يرمىكم بتسعة ويرمى العاشر فيكم أيضاً ؛ فإنكم غيرتم الملة وقتلتم الصالحين ، وادعيتُم نور الإلهية ، وكان المعزُ بطّاشاً : نشره وضربه بالسياط ثم أمر بسلخه ، فتولى ذلك رجلٌ يهودي ، وكان أبو بكر يقرأ القرآن ولا يتأوّه ، فداخلت اليهودي رحمةٌ له ؛ فطعنه بالسكين في فؤاده ليموت عاجلاً^(٦) . وهذه حكاية تخالف مانعرفه

(١) مسكويه ج ٥ ص ٢٠٨ . (٢) كتاب الوزراء ص ٤٧١ .

(٣) على أنه يذكر حكاية واحدة فيها أن الخليفة المعتضد حرق شيلة الكاتب حباً — الإرشاد لياقوت ج ٦ ص ٤٩٤ وما بعدها .

(٤) كتاب العيون ج ٤ ص ٢٥٣ ب — ٢٥٤ ا .

(٥) يحيى بن سعيد ص ١٠٠ ا ، والمقرئ ج ٢ ص ٤١٣ .

(٦) المنتظم لابن الجوزي ص ١١١ ا .

من خصال المعز . وكذلك يحكى المقرئى عن مصر حكاية كالسابقة لا نكاد نصدقها ، وهى أنه فى عهد الملك الناصر كان يُعَذَّب البعض بأن توضع الجعاريون على رأسه ، وتُغطَّى بقماش أحمر ، فلا تمضى ساعة حتى تحرق رأسه وتصل إلى دماغه فيموت^(١) . ويحكى عن الخليفة المجنون الحاكم بأمر الله أنه لما عن له إظهار الزهد غرق بعض حظايه وأمهات أولاده ، وذلك بأن وُضِعْنَ فى صناديق ، وسمرت عليهن ، وثُقِّلَتْ بالحجارة وأُلْقِيَتْ فى النيل^(٢) . على أن مؤرخى النصارى بنوع خاص اخترعوا كثيراً من الحكايات القاسية ونسبوها للحاكم لتقوية إيمان النصارى ، فاتهموه مثلاً بأنه عَذَّب أورستيس بطريك بيت المقدس تعذيباً شديداً وقتله ، والكنيسة تحتفل باستشهاد أورستيس فى شهر مايو ، ولكن يحيى بن سعيد المؤرخ النصرانى الذى كان معاصراً لهذا البطريك يؤكد ثلاث مرات أنه مات فى القسطنطينية^(٣) .

ولم تكن المنازعات التى تقوم عند تنصيب الخليفة تنتهى من غير ارتكاب بعض الفظائع ، وربما كان الباعث الأكبر على الفظائع دون القتل تهيب الناس بدافع الدين من إراقة دم الخليفة^(٤) . ولكن هذه الفظائع قليلة متفرقة ، هذا إلى أن خيال العامة أضاف كثيراً إلى الأخبار القديمة . وفى عام ٢٥٥ هـ — ٨٦٩ م خلع الخليفة المعتز ، ويقول المسعودى الذى ولد بعد هذا التاريخ بقليل إن أصحاب السير والتواريخ تباينوا فى مقتله ، فمنهم من ذكر أن المعتز مات فى حبسه فى خلافة

(١) الخطط للمقرئى ج ١ ص ٤٢٦ (٢) ولم أجد ما يقابل هذا الكلام (المترجم) .

(٢) يحيى بن سعيد ص ١٢٣ ب .

(٣) Schlumberger, *Epopée byzantine*, II, 208.

(٤) هذا التهيب كان سبباً فى فظائع ليس لها ضرورة فيما نرى . يحكى الرحالة ماركو بولو

(Marco Polo II 5) أن خان الأكبر لفنيان فى بساط ، وما زال يحمل فيميرى حتى مات .

المهتدى بالله حَتَفَ أَنْفَهُ ؛ ومنهم من ذكر أنه منع في حبسه من الطعام والشراب ،
فمات عند قطع مواد الغذاء عنه ، ومنهم من رأى أنه حقن بالماء الحار المغلى ،
فمن أجل ذلك وُجِدَ جوفه وارما حين أُخْرِجَ للناس ، والأشهر بين من عُنِيَ
بأخبار العباسيين أنه أُكِرِهَ على دخول حمام مُحْتَمَى وَمُنِعَ الخروج منه ، ثم تنازع
هؤلاء فمنهم من قال إنه ترك في الحمام حتى فاضت نفسه ، ومنهم من قال إنه
أُخْرِجَ بعد أن كاد يتلف ، وسُقِيَ ماء مقرورا بالثلاج فنثر كبده وأمعاءه فحمد من
فوره^(١) . أما أبو الفداء ، وهو مؤرخ متأخر فيقول إنهم أدخلوه سرداباً جصصوه
عليه فمات^(٢) . وقد اختلف أيضاً في قتل المهتدى الذي ولى الخلافة بعد المعتز :
ف قيل إنه قتل خنقاً ؛ وقيل كبس عليه بالبساط والوسائد حتى مات ؛ ومن المؤرخين
من رأى أنه جعل بين لوحين عظيمين ، وشد بالحبال إلى أن مات ؛ وقيل إنه
أُعْصِرَتْ مذاكيره إلى أن مات ؛ والأشهر عند السعوى أنه قتل بالخناجر^(٣) .
وكذلك يحكى ابن الأثير وهو مؤرخ متأخر أن ابن المعتز ، وهو الخليفة الذى قتل
عام ٢٩٦ هـ — ٩٠٩ م ، عُصِرَتْ خصيتاه حتى مات^(٤) . أما المصادر القديمة
فلا تعرف شيئاً عن قتله .

وفي القرن الرابع الهجرى ظهرت عادة سمل الخلفاء للحيولة دون تبوءهم
منصب الخلافة ، وذلك اجتذاء لعادة الروم البوزنطيين من قبل . وكان أول من
ذاق هذا العذاب بين خلفاء الإسلام الخليفة القاهر حينما أُرْسِلَ إليه القضاة
والشهود ليقرّ على نفسه بالخلع ، فأبى أن يحل الناس من بيعته ؛ وذلك في عام
٣٢٢ هـ — ٩٣٤ م^(٥) . واستدعى أحمد بن أبي الحسن الصابى فكحله بمسار

(١) مروج الذهب ج ٨ ص ٣ — ٤ .
(٢) تاريخ أبي الفداء تحت عام ٢٥٥ هـ ، ج ٢ ص ٢٢٤ من الطبعة الأوروبية .
(٣) السعوى ج ٨ ص ١١ . (٤) ابن الأثير ج ٨ ص ١٣ .
(٥) يحيى بن سنبل ج ١ ص ١٨٦ ؛ مسكويه ج ٥ ص ٤٥٥ — ٤٥٦ ، وابن الأثير

نُحْمَى دَفْعَتَيْنِ^(١) . وكان المتقى ثانياً من سمل عام ٣٣٣ هـ — ٩٤٤ م ، وذلك بأمر توزون رئيس الحرس التركي ؛ فلما صاح المتقى صاح معه النساء والخدم ، فأراد توزون أن ينفخ الصراخ ، فأمر بضرب الدبادب^(٢) . ثم صار هذا الصنيع محبوباً جداً عند البويهيين حوالى عام ٤٠٠ هـ وهو يُذكر في تاريخهم . على أن الخليفة قبض في عام ٣٥٧ — ٩٦٧ م على نائر خطر من بنى العباس فاكتفى بأن جدد أنفه . وكذلك فعل السلطان عضد الدولة بن بويه عام ٣٦٦ هـ — ٩٧٦ م بأبي الفتح بن العميد وزير أبيه^(٣) ، وهذا تعلمه المسلمون أيضاً من الرومان البوزنطيين . أما القتل شفقاً فلم يكن متبعاً ، ولا أعلم إلا مثالا واحداً يشبه ذلك ، وهو أن أحد الوزراء علّق بأن يُعمل في قلبه كلاًبين ، فلم يزل يضطرب حتى مات^(٤) . وأما القتل بالسم فلم يكن له الدور الذي ننتظره لهذه الطريقة التي استعملت مئات السنين ؛ ولم يصلنا من ذلك إلا أمثلة قليلة ، والذي يعرف ما للخيال من حظ في مثل ذلك في الشرق اليوم ، يجب عليه أن يسقط نصفه ، ومن أمثلة ذلك أن أحد مؤرخي ذلك العهد يخمن في مقتل الوزير حامد بن العباس — وكان قد جاوز الثمانين — أنه مات يبيض مسموم^(٥) ؛ ثم جاء بعض المؤرخين المتأخرين فذكر أنه سم في بيض مشوي أحدث له إسهاًلاً أمانته ، معتبراً ذلك حقيقة واقعة^(٦) ، هذا على حين أن صاحب كتاب العيون والحداثق ، وهو يعتمد على أقدم المصادر ، يقرر أنه مات من ذرب لحقه^(٧) . بل يُقال في حكايات من أقدم حكايات السم وقعت في عهد

(١) كتاب العيون ص ١٤٣ .

(٢) المسعودي ج ٨ ص ٣٥١ ، Elias Nisib. 212 نقل عن ثابت بن سنان .

(٣) ابن الأثير ج ٨ ص ٤٣١ ، ٤٩٧ ؛ والإرشاد لياقوت ج ٥ ص ٣٤٩ .

(٤) طبقات السبكي ج ٣ ص ٢٩٥ .

(٥) أمدروز (Amedroz) في كتاب الوزراء للصابي ص ١٩ .

(٦) زبدة الفكرة ص ١٩٣ ب . (٧) كتاب العيون ص ١٠٨ ب .

الخليفة الهادي (١٦٩ — ١٧٠ هـ = ٧٨٥ — ٧٨٦ م) : « وقيل غير ذلك »^(١) ، وقد ذكر المسعودي ، وهو من مؤرخي ذلك العهد ، ما قيل في وفاة المعتضد : « وقيل مات بسم إسماعيل بن بلبل قبل قتله ، فكان يسرى في جسده ، ومنهم من ذكر أن جسده تحلل في مسيره في طلب وصيف الخادم ... ومنهم من رأى أن بعض جواريه سمته في منديل أعطته إياه يتنشف به ، وقيل غير ذلك مما عنه أعرضنا »^(٢) .

على أن طريقة السم كان أكثر استعمالها في تاريخ البيوت الحاكمة ببخارى بالنسبة لغيرهم ، كما بين ذلك ميرخند ، وهو من المؤرخين المتأخرين . على أننا لو قارنا ما حكاه بما عنبدنا من الأخبار القديمة مقارنة دقيقة لتبين لنا أن مقادير السم نقصت نقصاً كبيراً .

وكان من بين الحكام القساء قليلي الرحمة في ذلك العصر المعتضد والقاهر ، ويحكى من تعذيب الأول منهما أنه كان يأخذ الرجل ، فيأمر بتكتيفه وتقييده ، ثم يأمر بأن تحشى أذناه وخيشومه وفمه بالقطن ، وتوضع المناfox في دبره ، فإذا صار كالزق المنفوخ وورم سائر أعضائه وبرزت عيناه سدّ دبره ، وضرب في عرقين فوق الحاجبين ، فعند ذلك يخرج منهما الريح والدم ، ولهما صوت وصفير حتى يئخذ ويتلف^(٣) . أما فظائع القاهر فكانت مناسبة لطبيعته السيئة ، فيُحكى عنه أنه أمر بطرح إسحاق بن إسماعيل وأبي السرايا نصر بن أحمد في بئر حيين مقيدين ، وتضرع أحدهما ، وسأله العفو ، فلم يلتفت إليه ، وتعلق بسعف نخلة كانت قريبة من البئر فأمر القاهر بضرب يديه ، ودفعه في البئر إلى جانب صاحبه . ثم أمر بطمّ البئر بالتراب حتى امتلأ ، وهو واقف^(٤) . ولما ظفر بمؤنس اعتقله هو وعلى

(١) مروج الذهب للمسعودي ج ٦ ص ٢٦٦ . (٢) نفس المصدر ج ٨ ص ٢١١ .

(٣) نفس المصدر ج ٨ ص ١١٦ ، ١٦٠ . (٤) مكويه ج ٥ ص ٤٤٦ — ٤٤٧ .

ابن يلبق وابنه ، ثم ذُبِحَ على بحضرتة ، وحُمل رأسه إلى أبيه ، ثم ذُبِحَ يلبق ، وحُمل رأسه ورأس ابنه إلى مؤنس ، فلما رآهما لعن قاتلهما ، فأمر القاهر به فحُجِرَ برجله إلى البالوعة وذُبِحَ كما تُذبح الشاة ، والقاهر يراه . ثم أخرجت الرؤوس الثلاثة في ثلاث طسات إلى الميدان حتى شاهدها الناس ، وطيف برأس علي ابن يلبق في جانبي بغداد ، ثم رُدَّ إلى دار السلطان وجعل مع سائر الرؤوس في خزانة الرؤوس^(١) . ويحكى ابن الأثير وحده أن الجند ندموا على مساعدة القاهر في هذه الفعلة الشنيعة^(٢) . وكان القاهر أيضاً هو الخليفة الوحيد الذي قتل رجلاً — وهو أمير عباسي كان يطلب الملك — بأن أمر به أن يُقام في فتح باب ويُسد عليه بالحص والآجر ، وهو حي^(٣) . وكذلك قتل السلطان عضد الدولة المتوفى عام ٣٧٢ هـ — ٩٨٢ م أحد الوزراء مع صاحب له ، لأنهما عملا ضده ؛ فأمر بطرخنهما إلى القيلة ، وأُضريت عليهما ، فقتلتهما شر قتلة^(٤) . وهذا هو المثال الوحيد من نوعه في ذلك العصر .

أما الانتحار فلم يبلغنا منه إلا مثالان في ذلك العصر ، إذا صرفنا النظر عن حاولوا قتل أنفسهم ، وهم معتقلون ينتظرون العقوبات الشنيعة . فيحكى عن أبي أحمد ابن أبي بكر الكاتب ، وكان ابن أحد وزراء بني سامان وشاعراً هجّاء ، أنه قدّذ الرياسة والمال حتى قاسى من ذلك قذاة عينه وغصة صدره ، فانتهى أمره بأن شرب السم فمات^(٥) . والثاني هو ابن غسان الطيب ، وكان قتي مليحاً ظريفاً .

(١) نفس المصدر ج ٥ ص ٤٢٣ نقلاً عن ثابت بن سنان .

(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ١٩٤ .

(٣) مسكويه ج ٥ ص ٤٢١ ، والمنتظم لابن الجوزي ص ١٤٥ ، وزبدة الفكرة ص ٢٢٥ ب ، وابن الأثير ج ٨ ص ١٩٣ .

(٤) مسكويه ج ٦ ص ٤٨١ ، ٤١٧ . وكان عضد الدولة أول من استعمل الفيل في القتال (مسكويه ج ٦ ص ٤٦٤) .

(٥) وكان يكثر من إنشاء بيتي المنصور الفقيه (يتيمة نج ٤ ص ٢ — ٧) .

حسن الأدب ، غرق نفسه في كلواذى ، لأسباب اجتمعت عليه ، منها عشق حرق قلبه على غلام الآمدى الحلاوى ، وكان نصرانياً^(١) .

ويحكى عن الخليفة عمر بن عبد العزيز أنه كتب إلى عماله حوالى عام ١٠٠ هـ — ٧٠٠ م بألا يُغلَّ مسجون^(٢) . وفي عهد هارون الرشيد رأى الفقهاء أن أهل اللعارة والفسق والتلصص إذا أخذوا في شيء من الجنايات وحبسوا ، فلا بد أن يُجرى عليهم من الصدقات أو من بيت المال ما يقوتهم ، ويُجرى على كل منهم عشرة دراهم في الشهر ، تُعطى له في يده دفعاً لظلم السجن لهم أو حرمانه إياهم من طعامهم وشرابهم ، ولا بد أن يكسوا في الشتاء قميصاً وكساء ؛ وفي الصيف قميصاً وإزاراً ومقنعة ، وذلك إغناء لهم عن الخروج في السلاسل لطلب الصدقة^(٣) . وقد جعل في ميزانية المعتضد (٢٧٩ — ٢٨٩ هـ — ٨٩٢ — ٩٠٢ م) ألف وخمسة دینار في الشهر لنفقات السجن وثمن أقوات المحبوسين ومأثمهم وسائر مؤنهم^(٤) ، وكثيراً ما نجد الأخبار بأن المسجونين كانوا يشتغلون بعمل التكتك ، وهي لا تزال إلى اليوم أجمل ما يصنع ببغداد ، يقول ابن المعتز^(٥) :

تعلمت في السجن نسج التكتك وكنت امرأ قبل حبسى ملك
وقيدت بعد ركوب الجياد وما ذاك إلا بدور القلاك

== قد قلت إذ مدحوا الحياة فأسرفوا في الموت ألف فضيلة لا تعرف
 منها أماناً لقاءه بلقاءه وفراق كل معاشر لا ينصف
وقال في معناها :

من كان يرجو أن يعيش فأبني أصبحت أرجو أن أموت فأعتقا
في الموت ألف فضيلة لو أنها عرفت لكان سبيله أت يعشقا

(١) حكاية أبي القاسم طبعة متز ص ٨٣ .

(٢) كتاب العيون والحداث ج ٣ طبعة دي غوى سنة ١٨٦٩ ص ٦٣ .

(٣) كتاب الخراج لأبي يوسف ص ٨٨ . (٤) كتاب الوزراء ص ٢١ .

(٥) المحاسن والمساوى لليهقي ص ٧١ من الطبعة الأوروبية . وهذان البيتان لبس في

ديوان ابن المعتز .

وفي أوائل القرن الرابع الهجري عين الوزير لمن في السجون أطباء أفردوا لذلك ؛ فكانوا يدخلون إليهم في كل يوم ، ويحملون معهم الأدوية والأشربة^(١) أما في مصر على عهد الفاطميين فكانت السجون تُضمّن ، وكانت أحب شيء إلى من يضمن أمور الحكومة ، وكانوا يتزايدون في ضمانها لكثرة ما يتحصل منها . وكان يؤخذ من كل من يسجن ستة دراهم بمجرد دخوله السجن ؛ ولو لم يُقم به إلا لحظة^(٢) .

أما الزكاة عند المسلمين فقد جعلت لها الشريعة حداً أدنى هو نصف العشر من الثروة لا من الدخل ، وذلك في كل سنة^(٣) . وقد نقل لنا الكثير من أخبار الزهاد وغير الزهاد التي تدل على سموهم في الشعور بالتصدقات . ويحكى عن أبي عبد الله بن أبي ذهل الضبي الهروي المتوفى عام ٣٧٨ هـ — ٩٨٨ م أنه كانت تضرب له الدنانير ، وزن الدينار منها مثقال ونصف أو أكثر ، فيتصدق بها ، ويقول : « إني لأفرح إذا تناولت فقيراً كاغداً فيتوهم أنه فضة ، فإذا فتحه ورأى صفرتة فرح ، ثم إذا وزنه فزاد على المثقال فرح أيضاً » ، وكانت لهذا الرجل غلة كثيرة لا يدخل داره إلا دون عشرين ، والباقي يفرقه على المستورين وسائر المستحقين^(٤) . ويحكى عن دعلج بن أحمد بن دعلج أبي محمد السجزي وكان تاجراً غنياً وعالماً (توفى عام ٣٥١ هـ — ٩٦٢ م) ، أنه بعث بالمسند إلى ابن عقدة لينظر فيه ، وجعل في الأجزاء بين كل ورقتين ديناراً^(٥) . ويحكى عن أحد التجار المشهورين بكثرة المال ببغداد أنه أرسل لابن سمعون الواعظ خمسمائة

(١) أخبار الحكماء للقفطي من ١٩٣ من الطبعة الأوروبية .

(٢) الخطط للمقرئ ج ١ ص ٨٩ .

(٣) كشف المحجوبة للجوهرى ص ٤٠٦ من الأصل الفارسي ، ٣١٥ من الترجمة

الإنجليزية (٤) التنظم من ١٢٨ / طبقات السبكي ج ٢ ص ١٦٥ .

(٥) طبقات السبكي ج ٢ ص ٢٢٢ .

خشكنانكة في كل منها دينار^(١) . ويحكى عن جحظة الشاعر المتوفى عام ٣٢٤ هـ — ٩٣٦ م أنه وقع في ضيق شديد حتى صار بيته أفرغ من نواد أم موسى ، فعرف حاله أحد العمال المتقاعدين فزاره ؛ وأحضر له من بيته فرشاً وقاشاً وكل ما يحتاج إليه البيت من آلات ومؤونة ، وجلس عنده طول يومه ؛ (وفي اليوم التالي أرسل إليه كيساً فيه ألفا درهم ورزمة ثياب من فاخر الثياب . ولما أراد الخروج قام جحظة ليخرج معه فقال له : إحفظ بابك فكل ما في دارك لك)^(٢) ، وكان لأحد الكتاب أمّ صالحة ، فعوّدت من ذ ولد أن يجعل تحت رأسه عند نومه في كل ليلة رغيفاً فيه رطل ، فإذا كان الصباح تصدقت به ، فظل ابنها يفعل ذلك طول حياته^(٣) . وكان في بلاد كرمان نخيل كثير ، وكان لأهلها سنة حسنة ، فكانوا « لا يرفعون من تمرهم ما أسقطته الريح ، فيأخذونه غير أربابه ، وربما كثرت الرياح فيعير إلى الضعفاء والمساكين من التمر في التقاطهم أكثر مما يصير إلى أربابه »^(٤) .

وكان العشاق يظهرون في تهاديهم بالهدايا الصغيرة كثيراً من دقة الذوق وسموّه ، فمثلاً كان لا يستحب إهداء ليمونة للحبيب لأنها طيبة في ظاهرها ولكن باطنها حامض ، وفي ذلك صفة غير محمودّة ، وفي كثير من الأحيان ترسل المحبوبة تقاحة عليها أثر عضتها لها ؛ يقول ابن المعتز :

وآثار وصل في هواك حفظتها تحيات ريحان وعضات تفاح
وكتب لطف تربتها المسك أدرجت على وصف أحزان وتعذيب أرواح
ويقول :

جاء الرسول مبشراً بزيارة من بعد طول تهجر وتغضب

(١) المنتظم ص ١٤٢ ب .

(٢) نفس المصدر ص ٥٦ ب .

(٣) كتاب الوزراء ص ٦٤ .

(٤) ابن خوقل ص ٢٢٤ .

وبكفه تفاحة قد مسكت آثار عضتها كقرني جقرت^(١)
وكان ذلك من عادات الرومان أيضاً^(٢). وكان الشاعر أحياناً يطرز منديلاً
غالي الثمن بأبيات شعرية ويرسلها لحبيبته^(٣).

ولما كان النبي عليه السلام يتيمًا ، صار المسلمون يعطفون على اليتامى عطفًا
خاصًا وإن لم يجمعوا في بيوت أعدت لهم ، ففي أصفهان مثلاً كان أحد الصالحين
يذهب باليتام يوم الجمعة إلى منزله ، ويدهن رؤوسهم^(٤).

أما بناء المستشفيات فكان مسألة دنيوية بحثة ، ولم يكن الصالحون يحبون
أن يعرفوا شيئاً عن معالجات الأطباء ، واسم دور المرضى بمارستانات ، وهو فارسي
معرب لا أصل له في لغة القرآن ، وأول من بنى داراً للمرضى في الإسلام الوليد
ابن عبد الملك^(٥) ، وهو أقل الخلفاء تدبيراً ؛ ثم جاء البرامكة ، وكانوا بعيدين عن
الإيمان كل البعد ، فأسسوا بمارستاناً أسندوا رياسته لطبيب هندي^(٦) . ويحكى
عن طاهر بن الحسين أنه كتب إلى ابنه عبد الله : « وانصب لمرضى المسلمين دوراً
توقيهم ، وقواماً يرققون بهم ؛ وأطباء يعالجون أسقامهم »^(٧) . وبني أحمد بن
طولون عام ٢٥٩ هـ — ٨٧٣ م أول مارستان كبير بمصر ؛ وكان به جامان ، أحدهما
للرجال ، والثاني للنساء ، وشرط في هذا المارستان ألا يعالج فيه جندي ولا مملوك ؛
وإذا جاء العليل أن تنزع ثيابه ونفقه ، وتوضع عند أمين المارستان ، ثم
يلبس ثياباً ، ويفرش له ، ويعالج حتى يبرأ ، فإذا أكل فزوجاً ورغيفاً أمر
بالانصراف ، وأعطى ماله وثيابه . وكان ابن طولون يركب بنفسه في كل يوم

(١) ديوان ابن المعتز ج ١ ص ٦٨ ، ٧٣ .

(٢) V. Gleichen-Russwurm, *Elegantiae*, S. 277.

(٣) كتاب الديارات ص ١١١٧ . (٤) ذكر أخبار أصفهان مخطوط ليدن ص ١١٦١ .

(٥) الخطط للمقريزي ج ٢ ص ٤٠٥ . (٦) الفهرست ص ٢٤٥ .

(٧) كتاب بغداد لطيفور ص ٥٠٠ .

بجعة ليتفقد المارستان والمرضى^(١) . وكذا جعل في المسجد خزانة شراب فيها جميع الأدوية والأشربة وطبيب يجلس يوم الجمعة للعلاج^(٢) . وكان في المارستان قسم للمجانين ، على حين أنه كان ببغداد مارستان كبير خاص بالمجانين ، وهو دير هزقل القديم الذي كان يقع على مرحلة إلى الجنوب في طريق واسط^(٣) . وكان أهم ما يلزم لمثل هذا المارستان السلاسل والسياط ، كما كان الحال عندنا منذ بضع عشرات من السنين^(٤) . وفي عهد الخليفة المعتضد (٢٧٩ — ٢٨٩ — ٨٩٢ هـ — ٩٠٢ م) ببغداد كانت نفقات البيمارستان الصاعدي وأرزاق المتطبيين والمأانين والكحاليين ، ومن يخدم المغلوبين على عقولهم ، والبوابين والخبازين وغيرهم ، وأثمان الطعام والأدوية والأشربة ؛ أربعمائة وخمسين ديناراً في الشهر^(٥) . ثم زادت المارستانات في بغداد زيادة كبيرة ، وفي سنة ٣٠٤ هـ كانت خمسة تقلدها طبيب غير مسلم وهو سنان بن ثابت^(٦) ، وبفضل هذا الطبيب الكبير وإشارته فتح ببغداد عام ٣٠٦ هـ — ٩١٨ م مارستانان آخران كبيران ، أحدهما اتخذته الخليفة نفسه ، وسمى المارستان المقتدرى ، وكان يقع في باب الشام ، والثاني بيمارستان السيدة أم المقتدر اتخذها لها سنان بسوق يحيى على نهر دجلة ورتب له انتطبيين^(٧) ، وكانت النفقة على بيمارستان الخليفة من ماله الخاص ، وبلغت مائتي دينار في كل شهر . أما نفقة مارستان السيدة فكانت ستمائة دينار في كل شهر^(٧) . وفي عام ٣١١ هـ

(١) الخطط للمقريزي ج ٢ ص ٤٠٩ وقد سخر أحد الشعراء بمارستان ابن طولون بقوله (الكندى ص ٢١٧) :

فيا ليت مارستانه نيط باسته وما فيه من عالج عتل مقلتل

(٢) الخطط ج ٢ ص ٢٦٧ (٣) جغرافية اليعقوبي ص ٣٢١ ، والعقد الفريد

ج ٣ ص ٢٤٠ (٤) كتاب الأغاني ج ١٨ ص ٣٠ (٥) كتاب الوزراء ص ٢١ .

(٦) المنتظم ص ١٤ / وهذا مصدر جيد لأنه يعتمد على تاريخ ثابت بن سنان نفسه ،

وأقدم مارستان ببغداد هو الصاعدي عند باب الحوّل (المنتظم ص ٦٦) .

(٧) أخبار الحكماء للقفطي ص ١٩٤ — ١٩٥ ، وعبون الأبناء لابن أبي أصيبعة

ج ١ ص ٢٢٠ وما بعدها ، والمنتظم ص ١٦ / ، وتاريخ أبي المحاسن ج ٢ ص ٢٠٣ .

— ٩٢٣ م أسس الوزير ابن الفرات أيضاً مارستاناً ببغداد ، وأنفق عليه من ماله مائتي دينار في كل شهر^(١) .

ولما استولى بحكم على بغداد أكرم سناناً وعظمه غاية التعظيم ، فأشار سنان عليه أن يتخذ في عام ٣٢٩ هـ — ٩٤١ م مارستاناً ثالثاً^(٢) فوق ربوة جميلة على الشاطئ الغربي لدجلة ، كانت تحمل قصر هارون الرشيد من قبل ، وظل هذا المارستان زماناً طويلاً حتى جددته عضد الدولة عام ٣٦٨ هـ — ٩٧٨ م ، وافتتحه عام ٣٧١ هـ — ٩٨١ م ، وزوده بالأطباء والمعالجين والخزائن والبوابين والوكلاء والناطورين^(٣) . وكذلك أسس معز الدولة في عام ٣٥٥ هـ — ٩٦٦ م مارستاناً آخر عند الجسر الذي على دجلة ، ووقف عليه أوقافاً وضياعاً يرتفع منها خمسة آلاف دينار^(٤) . هذا إلى أنه كان بالمدن الكبرى في الولايات مثل شيراز وأصفهان وواسط مستشفياتها الخاصة^(٥) .

ويحكى أنه في ٣١٩ هـ — ٩٣١ م اتصل بالمقتدر أن رجلاً من الأطباء غلط في معالجة رجل فمات ، فأمر مُحْتَسِبُهُ أبا بطيحة بمنع جميع الأطباء من المعالجة إلا من امتحنه سنان بن ثابت ، وكتب له رقعه بما يطلق له التصرف فيه من صناعة الطب ، وأمر سناناً بامتحان الأطباء ، وأحصى الأطباء في جانبي بغداد لامتحانهم فكانوا ثمانمائة ونيفاً وستين رجلاً سوى من استغنى عن امتحانه لاشتهاره بالتقدم في الصناعة وسوى من كان في خدمة السلطان . وكان إذا جاء الرجل إلى سنان

(١) المنتظم ص ٢٣ ب .

(٢) أخبار الحكماء للقفطي ص ١٩٢ — ١٩٣ . (٣) المنتظم ص ٦٨ ا ، وابن الأثير ج ٩ ص ١٣ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٨٥ . (٤) المنتظم ص ٩٨ ب .

(٥) المقدسي ص ٤٣٠ ، والمنتظم ص ٦٩ ا ويحكى عن بحكم أنه بنى في واسط وقت المجاعة دار ضيافة للضعفاء والمساكين (المنتظم ص ٦٨ ا ، ب ، والقفطي ص ١٩٣) ولم يصبح بمدينة واسط مستشفى حقيقي إلا في ٤١٣ هـ (المنتظم ص ١٧٠ ب) .

ليمتحنه بدأ بإجلاسه ، ثم قال له : « قد اشتهيت أن أسمع من الشيخ شيئاً أحفظه عنه وأن بذكر شيخه في الصناعة ^(١) » . ولم يصلنا قط في أخبار هذا القرن أن أحد الأطباء كان يعتبر مسئولاً عن حياة مريضه . بحيث يقتل إن مات بين يديه ، وفي عام ٣٢٤ هـ — ٩٣٥ م توفي هارون بن المقتدر أخو الخليفة المطيع لله فحزن عليه واغتم ، واكتفى بنفى الطبيب بختيشوع بن يحيى ، لأنه اتهم بتعمد الخطأ في علاجه ^(٢) .

(١) أخبار الحكماء للقفطي ص ١٩١ .
(٢) تاريخ أبي المحاسن ج ٢ ص ٢٧٧ من طبعة ليدن .

الفصل الحادى والعشرون

مستوى المعيشة

كان يكنى الرجل من عامة الناس هو وزوجته فى عصر الرشيد ثلاثمائة درهم فى السنة^(١)؛ وكانت الثروة التى تبلغ سبعمائة دينار تعتبر ثروة غير قليلة^(٢). ويحكى عن أحد أبناء العمال أنه أضعاف ثروته على بعض المغنيات، ثم مات خادماً كان مولى لأبيه وابن عم فى يوم واحد فحصل له من تركتهما أربعون ألف دينار، فعمد داراً بألف دينار، واشترى آلات وفرشاً وثياباً وجواري بسبعة آلاف دينار؛ وسلم لتاجر ألفى دينار يتجر له فيها، وأودع فى بنظير الأرض عشرة آلاف للشدائد، وابتاع بالباقي ضيعة تُغلّ فى كل سنة ما يزيد على مقدار نفقته^(٣).

وقد كشفت لنا جفائر سامراء عن طريقة بناء الدور عند أهل العراق فى القرن الثالث الهجرى، « فقد كانت الدور بسامراء تُبنى على مثال واحد : يصل بينها وبين الشارع أو الدرب دهليز مسقوف يفضى إلى صحن واسع قائم الزوايا، يبلغ عرضه ثلثي طوله فى العادة، ويتصل به من جانب العرض القاعة الكبرى وصورتها هكذا - - - ، وفى أركانها غرف صغيرة، ويحيط بالصحن أيضاً غرف متجاورات مربعة للسكنى والمرافق المنزلية، وفى معظم الدور أفنية صغيرة ثانوية تشتمل على أماكن للمرافق المنزلية أيضاً. ولا تخلو الدور قط من حمامات ومجاء تحت الأرض، وكثيراً ما يكون فيها آبار... وتشتمل أحياناً على صحن ذات أساطين tarimah's وعلى سراديب للسكنى مهيأة بوسائل التهوية، والدور كلها

(١) مصارع العشاق ص ١٥٩. (٢) نفس المصدر ص ٥.

(٣) الفرج بعد الشدة للتوشى ج ٢ ص ١٧.

من طابق واحد ، وإذا كانت الأرض المحيطة بها غير مستوية اتخذ منها أصحاب الدور مسطحات مرتفعة بمهارة لم في ذلك ، وقد يبلغ عدد الغرف في الدار الواحدة ستين غرفة ، وبها شبابيك ثقيل بألواح من الزجاج المتنوع الألوان ، ويتراوح عرض اللوح بين العشرين والخمسين سنتيمتراً^(١) .

ولا نجد فيما بين أيدينا من أخبار القرن الرابع بالعراق ما يدل على استعمال السرايب للسكنى في فصل الصيف ، ولا تشير لذلك أية حكاية من الحكايات الكثيرة التي ترجع إلى ذلك العصر^(٢) . ويرجع أصل هذه العادة — عادة اتقاء الحر الشديد بالتزول في السرايب — إلى بلاد آسيا الوسطى حيث يحكى لنا الرحالة وانج ين تي Wang. yen te في عام ٩٨١ م أن بعض أهل تلك البلاد يسكنون في الصيف غرفاً تحت الأرض^(٣) . أما في بلاد الإسلام لذلك العهد فقد كانت مدينة زرنج ، أكبر مدن سنجستان ، ومدينة أرجان بفارس أول مدينتين اتخذ أهلها في الصيف سرايب تحت الأرض يجرى فيها الماء^(٤) . وفي القرن الخامس الهجري يذكر الرحالة الفارسي ناصر خسرو أن من خصائص مدينة أرجان أن فيها من الأبنية تحت الأرض مثل ما فوقها ، وأن الماء يجرى تحت الأرض وفي السرايب ، وفي أشهر الصيف يستروح الناس فيها^(٥) .

(١) Sarre und Herzfeld, Erster vorläufiger Bericht über die Ausgrabungen

von Sāmārra, Berlin, 1912, S. 14.

(٢) كان السرداب في ذلك العصر عبارة عن مكان تحت الأرض ، فيحكي مثلاً أن

الخليفة المقتدر أمر بحفر سرداب لمؤسس ، وأن مؤسباً وقع فيه ومات (كتاب العيون ص ١١٤ ب) ؛ وكان عند رجل في داره سرداب تحت الأرض عليه باب من حديد (حريب ص ١٠) . بل يحكى أنه في عهد المنصور سير جماعة من أبناء علي إلى الكوفة « وحبسوا في سرداب تحت الأرض لا يفرقون بين ضياء النهار وسواد الليل » (مروج الذهب ج ٢ ص ٢٠٠) .

(٣) JRAS, 1898, p. 819. (٤) ابن حوقل ص ٣٠٠ .

(٥) سفرنامه ص ١٣٦ من طبعة برلين .

ويذكر المقرئ بعد ذلك بقرون أن من محاسن مصر أن أهلها لا يحتاجون في حر الصيف إلى الدخول في جوف الأرض كما يعانيه أهل بغداد^(١) . وكان أهل الترف في ذلك العصر يستعوضون عن دخول السرايب بنصب قبة الخيش أو بيت الخيش . وكانت عادة الأكاسرة أن يُطَيَّنَ سقف بيت في كل يوم صائف فتكون قيلولة الملك فيه ، وكان يؤتى بأطباق الخلاف طوالاً فتوضع حول البيت ، ويؤتى بقطع الثلج الكبار فتوضع ما بين أضعافها ، وكانت هذه عادة الأمويين أيضاً ؛ ولكن في عهد المنصور العباسي اتخذت طريقة أخرى للتبريد ، فكانوا ينصبون الخيش الغليظ ولا يزالون يبلونه بالماء فيبرد الجو^(٢) . وكان الخيش ينصب على قبة ، ثم اتخذت بعدها الشرايح فاتخذها الناس^(٣) . ويحكى المقدسي أنه رأى في دار عضد الدولة بشيراز بيوت الخيش يبلها الماء على الدوام بواسطة قنن حولها من فوق^(٤) ؛ ويظهر أن هذه الطريقة في التبريد كانت شائعة جداً في بغداد ، حتى يحكى عن أحد القواد في القرن الرابع أنه لم يرَ فرقة من الجند أتت من بغداد أهلاً للقيام بغزوة هامة لأنهم في رأيه قد ألفوا بيوت دجلة وشرب النبيذ والثلج وبيوت الخيش المبلل وسماع القيان^(٥) . وكان يستعمل في هذه البيوت الصيفية مروحة تشبه شراع السفينة ، تُعلّق في سقف البيت ويُشدّ بها حبل يديرها ، وهي تُبَلّ بالماء وترش بماء الورد ، فإذا أراد الرجل أن ينام وقت القائلة جذبها بجبلها فتذهب بطول البيت وتجيئ ويهب منها نسيم بارد طيب^(٦) . وكانت حرّاقات

(١) الخطط للمقرئ ج ١ ص ٢٨ .

(٢) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٤١٨ ، وكتاب الإرشاد لياقوت ج ٦ ص ٩٩ في أبيات لشاعر في عهد عبد الله بن طاهر . (٣) لطائف المعارف للثعالبي ص ١٤ من طبعة لندن .

(٤) المقدسي ص ٤٤٩ .

(٥) De Goeje, Carmathes, p. 218. نقل عن ابن مسكويه .

(٦) مطالع البدور للغزولي ج ١ ص ٦٥ ، ويدل على استعمالها في القرن الرابع ما ذكر عن السري .

ذجلة التي يستعملها رجال الدولة في غدوهم ورواحهم يَمَدُّ فيها الثلج ، ويعلق عليها الخيش المبلل بالماء ، وكانت ترخى على الخيش ستور الكرايس^(١) . وكان أهل بغداد ينامون في ليل الصيف على سطوح البيوت^(٢) . أما في مدينة آمل فكانت السطوح مستمة لكثرة الأمطار صيفاً وشتاءً^(٣) . أما في اليمن فكان الغالب على صنعاء البرد ، حتى كان إذا اشتدَّ بها الصيف ودخل الرجل ليقيل على فراشه لم يكن له بدٌّ من أن يتدثر ؛ لأن البيوت باردة بسبب القصة التي تسيح بها بواطن البيوت ، وربما دخل الرجل في الخدع على فراشه وأطبق عليه الباب وأسبل السترين والسجف فلا يتغير ضياء البيت لما في الجدران والسقف من الرخام ، بل إذا كان في السقف رخامة صافية نظر عوَم الطائر بظله عليها إذا حاذاها ، وتؤدي أثرخامة لمعان الشمس إلى القصة فتقبلها بجوهرها وبريقها^(٤) .

وحوالى منتصف القرن الثالث الهجرى أحدث المتوكل بناء لم يكن الناس يعرفونه ، وهو المعروف بالخبرى ، وصار متبعاً في القصور الكبيرة ؛ فصار يُبنى لها مُقَدَّم أو ثلاثة أجزاء أوسطها الباب الأكبر ، وإلى جانبيه البابان الصغيران (ويسميان عند العرب الكتّين) . وكان المتوكل يجعل دون قصوره ثلاثة أبواب عظام جليلة يدخل منها الفارس برمحه ؛ وقد اتبع الناس المتوكل اتِّباعاً بفعله حتى

(١) جهرة الإسلام للشيرازى ص ١٩٩ / من مخطوط ليدن ؛ والحاسن والساوى

للبيهقي ص ٤٤٧ .

(٢) يدل على هذا ما حكاه معظم المؤرخين من ظهور حيوان يسمى الزيزب في عام ٣٩٤ هـ كان بحسب زعم الناس يأكل الأطفال بالليل من على السطوح ؛ وما كان حيواناً بل وهما نتأ من وجود اللصوص . ويقول ابن الجوزى (المنتظم ص ١٨ / ب) . لأنه في تموز من عام ٣٠٨ هـ « برد الجو حتى نزل الناس من السطوح وتدفروا باللحف » .

(٣) الأصبخري ص ٢١١ .

(٤) كتاب صفة جزيرة العرب لأبي محمد الحسن بن أحمد الهمداني طبعه ليدن ج ١

اشتهر هذا البناء^(١) ، وهو يسمى الخيرة نسبة إلى الخيرة أى أنه هيليني الأصل .
وقد جاء في التقرير المتقدم عن حفائر سامرا أن الباب الأوسط كان يزيد على
الباين الجانبين في الارتفاع والاتساع ، فهو منقول عن طريقة الميلينيين
(المتأثرين بالحضارة اليونانية المتأخرة) في بناء أبواب الشوارع وأقواس النصر^(٢) .
وكان قصر التاج الذي بُني في بغداد بعد ذلك بأربعين سنة صورة مكبرة للطراز
الخيري ، فكان وجهه مبنيًا على خمسة عقود كل واحد منها على عشرة أساطين
والأسطوانة خمسة أذرع^(٣) . وكذلك كان وجه قصر ابن طولون بمصر ثلاثة أبواب
كأكبر ما تكون الأبواب ، وكانت متصلة بعضها ببعض ، وكانت تفتح كلها
في يوم العيد أو يوم عرض الجيش أو يوم الصدقة ، وفيما عدا ذلك لم تكن تفتح
إلا بترتيب معلوم في أوقات معروفة^(٤) . وقد نقل ابن طولون هذه الصورة في البناء
كما نقل صورة مئذنة مسجده ، عن بغداد . وكانت دار الخلافة وما يتصل بها
كأنها أكبرها مدينة قائمة بذاتها ؛ ويحكى الأصطخري أن قصور الخلافة وبساتينها
تقترب مساحة كبيرة ، وتمتد الجدران المحيطة بها فراسخ كثيرة^(٥) . وكانت دور
الكبراء تتألف من قصور كثيرة ؛ ويحكى عن الوزيزي أبي الحسن بن الفرات أنه
أنفق على الدار التي كان ينزلها في وزارته الثانية ثلاثمائة ألف دينار ، واشتهى في
وزارته هذه أن يجمع حرمة وبنات إخوته وأصاغر ولده في الدار المعروفة بدار البستان

(١) جغرافية يعقوبي ص ٢٦٦ ، ومروج الذهب للمسعودي ج ٧ ص ١٩٢ ، ١٩٣

(٢) انظر ص ٣٤ من التقرير المتقدم ؛ وانظر أول هذا الفصل ؛ وقد سميت الضاحية
الشرقية من ضواحي بغداد ، وهي التي يخرج منها طريق الجيوش نحو فارس ، بالأبواب الثلاثة
لمثل هذا النوع من البناء .

(٣) معجم البلدان لياقوت ج ١ ص ٨٠٩ من الطبعة الأوروبية .

(٤) الخطط للتقريزي ج ١ ص ٣١٤ .

(٥) الأصطخري ص ٨٣ ؛ وقد حكى رجل طائف دار الخلافة عامرها وخرابها وما يجاورها
ويتاخها خوالي آخر القرن الرابع ، فقال لها مثل مدينة شيراز (تاريخ بغداد طبعة سامون
ص ٢٤٩) .

من الدار الكبرى ، فأمر بإصلاحها وتنظيفها وإنفاق ما يحتاج إليه في إعدادها ، فبلغت النفقة خمسين ألف دينار^(١) . وكان يلي الأبواب من داخل القصر البهو^(٢) ، وهو مقدم الدار وأعلاها بناء ، ويقف شامخاً تزيّنه الشرفات . يقول ابن المعتز في وصف قصر الثريا^(٣) :

حكّلت الثريا خيرَ دار ومنزل فلا زال معموراً وبورك من قصر
وبنيان قصر قد علّت شرفاته كصف نساء قد تربعن في الأزور
وكان قصر الخلافة يشتمل على دور وبساتين ومسطحات مظلة بالأشجار ، وعلى قباب وأروقة ، وكانت تزيد في جماله البرك والأنهار الجارية . ويحكى عن الخليفة القادر أنه كان يجلس في البيت المعروف ببيت الرصاص ، وبين يديه نهر يجري فيه الماء إلى دجلة^(٤) . وكانت الأروقة تسمى بالأربعيني أو الستيني أو التسعيني بحسب الغلمان أو الحرس الذين يجتمعون فيها^(٥) ، وكان من بين القباب قبة الأترجة^(٦) ، وقبة الحمار^(٧) . وكان الأمراء إذا جاءوا إلى دار الخلافة دخلوها راكبين حتى إذا وصلوا إلى الموضع الذي ينزلون فيه ترجّأوا ودخلوا والحجاب بين

(١) كتاب الوزراء ص ١٧٩ .

(٢) انظر هذه الكلمة عند الجوهري ، ونحكاية أبي القاسم طبعة متر ص ٣٦ .

(٣) الديوان ج ١ ص ١٥ . (٤) كتاب الوزراء ص ٤٢٠ .

(٥) وكان الغلمان يسمون بذلك بحسب طيل شهر راتبهم الذي كان أحيانا أربعين

أو ستين أو تسعين .

(٦) ابن مسكويه ج ٥ ص ٣٢٤ . وتاريخ سني ملوك الأرض لحمة الأصفهاني ج ١

ص ٢٠٤ ؛ وديوان ابن المعتز ج ١ ص ١٣٨ سطر ٦ ، وهو قوله : والقبة العليا والأترجة .

(٧) المنتظم لابن الجوزي ص ١٦٠ ب ؛ وهي التي يقصدها ابن المعتز بقوله : والقبة

العليا ؛ ويقال إنها سميت بذلك لأن الخليفة كان يستطيع أن يصعد إلى أعلاها راكباً على حمار ،

ولكن هذا لم يرد إلا عند ياقوت (معجم البلدان ج ١ ص ٨٠٦ من الطبعة الأوروبية) ،

ويظهر أنها حكاية موضوعية ، وهي تشبه ما حكى عن منارة الإسكندرية من أنه كانت معلقة بها

حراة يجلس الرجل تحتها فيرى من بالقسطنطينية ، وبينهما عرض البحر ، وأن الفارس

بوالفارسين يركبان إلى أعلاها بغير درج (ابن خردادبة ص ١١٤) .

أيديهم^(١) . ويذكر الكتاب المتأخرون أنه كان هناك سراديب تصل القصور بعضها ببعض ، فيحكى ناصر خسرو أن قصور الفاطميين كانت مؤلفة من بيوت كبرى وصغرى تصل بينها سراديب تحت الأرض^(٢) . ولكننا لا نجد في الحكايات الكثيرة للفصلة التي ذكرت عن القصور ذكراً لهذه السراديب التي يدخل منها الناس أو يخرجون بحيث لا تراهم الأعين ، فأمرها لا يخلو من مبالغة . وقد رأى المقدسى قصر عضد الدولة بشيراز بعد موت هذا السلطان بقليل ، وحكى رئيس الفراشين للمقدسى أن في القصر ثلاثمائة وستين حجرة . كان السلطان يجلس كل يوم في واحدة إلى الحول^(٣) . وكان يقال إن بمنارة الإسكندرية ثلاثمائة وستة وستين بيتاً دائرة بها^(٤) . وكان بقصر Eldenburg بمدينة مارك برندنبرج Marke Brandenburg من الحجر بقدر عدد أيام السنة^(٥) .

وقرب أواخر القرن الثالث الهجري نجد ضرباً من التفنن في إعداد القصور تنتقل من بلاط إلى آخر ؛ وكأنما كان ذلك مقروناً بابتداء التكلف والصناعة في الأدب ؛ فكان في قصر الطولونيين بمصر بركة من الزئبق طولها خمسون ذراعاً وعرضها خمسون ، وكان في أركانها أساطين من الفضة الخالصة فيها زناير من حرير محكمة الصنعة في حلق من الفضة ، وعمل بخارويه فرش من آدم يحشى بالريح حتى ينتفخ فيحكم حينئذ شدّه ويلقى على تلك البركة ، وتشدّ زناير الحرير التي في حلق الفضة بالأساطين ، ثم ينام الأمير على ذلك الفرش ، وكانت هذه البركة من أعظم ما سمع به من الهمم الملوكية ، فكان يرى لها في الليالي القمرية منظر عجيب إذا تألف نور القمر بنور الزئبق^(٦) .

(١) التتظم من ١٢٦٠ .

(٢) رحلة ناصر خسرو ص ١٢٩ ، ١٥٨ ؛ وذكر ذلك المقرئى ، (الخط ج ٩ من ٤٥٧)

(٣) المقدسى ص ٤٤٩ ، (٤) ابن خردادبة ص ١٩٤ .

(٥) Fontane, Fünf Schlösser, S. 96 . (٦) الخط للمقرئى ج ١ ص ٣١٧ .

ويحكى أن الخليفة المقتدر بالله لما وفد عليه رسل ملك الروم سنة ٣٠٥ هـ
— ٩١٧ م. زُين قصره ورتب آتته فيه ثم أدخلهم إليه ، فرأى الرسل فيه
العجب ، ثم أخرجوا إلى « الجوسق المحدث » . وكان داراً بين بستانين في
وسطها بركة رصاص حولها نهر رصاص « أحسن من الفضة المجلوة » ، وطول
البركة ثلاثون ذراعاً في عشرين ذراعاً ، وكان فيها أربع طيارات لطاف مذهبة
مزينة بالذهب المطرز ، وأغشيتها ديبقى مذهب^(١) .

« وقد ظهرت بمدينة رومة في عصر أوغسطس Augustus عادة إنشاء
البساتين على الطريقة المسماة بالمصرية ، وهي في العصر القديم تشبه على وجه
التقريب ما صار يعرف فيما بعد بالبساتين الإنجليزية ، وكان في ذلك رد فعل ضد
نظام إنشاء البساتين على نحو يجعل البيوت كأنها جزء من الحدائق المحيطة بها أو
جزء من الطبيعة الخضراء بما كان في ذلك النظام من صلابة في مراعاة طريقة
العمارة »^(٢) .

ولما أسس أمير الأندلس الناصر لدين الله الأموي مدينة الزهراء التي قال
بعض المؤرخين إنه لم يُبن في الإسلام أحسن منها ، عمل فيها أيضاً بحيرة
ملاها بالزئبق^(٣) .

وقد أولع خارويه فوق ما تقدم بالأزهار ، وهذا الولوع من صفات الترك ؛
فصار خارويه بذلك كله أكبر منشئ البساتين بين أمراء الإسلام ، ذلك أنه
أقبل على بستان أبيه فزاد فيه ، وأخذ الميدان الذي كان لأبيه فجعله كله بستاناً
وزرع فيه أنواع الرياحين وأنصاف الشجر ، ونقل إليه النخل اللطيف الذي ينال

(١) تاريخ بغداد طبعة سلون ص ٥٣ .

(٢) V. Gleichen-Russwurm, *Elegantiae*, S. 387.

(٣) النجوم الزاهرة لأبي المحاسن طبعة ليدن ج ٢ ص ٢٨١ (عام ٣٢٥ هـ) .

ثمره القائم، ومنه ما يتناوله الجالس من أصناف خيار النخل، وحمل إليه كل صنف من الشجر المطعم العجيب وأنواع الورد، وزرع فيه الزعفران، وغرس فيه من الريحان المزروع على نقوش معمولة وكتابات مكتوبة؛ يتعاهدها البستاني بالمقراض حتى لا تزيد ورقة على ورقة، وزرع فيه النيلوفر الأحمر والأزرق والأصفر والجنوى العجيب، وأهدى إليه من خراسان كل أصل عجيب، وطعموا له شجر المشمش باللوز وأشباه ذلك مما يستظرف ويستحسن، وكسا أجسام النخل نحاساً مذهباً حسن الصنعة^(١)، وجعل بين النحاس وأجسام النخل مزاريب الرصاص، وأجرى فيها الماء المدبر، فكان يخرج من تضاعيف قوائم النخل عيون الماء وتنحدر إلى مساق معمولة، ويفيض منها الماء إلى مجار تسقى سائر البستان، وبني فيه برجاً من خشب الساج^(٢)، فكانت هذه القوَّارات والبرك والعيون المائية الصناعية — على طريقة المصريين القدماء في عمل البساتين — إلى جانب أبراج الخشب مما يزيد البستان جمالا. وكانت فكرة إنشاء بستان على الطريقة الإنجليزية بعيدة كما كانت بعيدة عن أهل العصر القديم، بحيث أن أحد حكام مصر — وكان من أكبر المولعين بإنشاء البساتين — جعل جميع ذهاليز بستانه مغطاة بالحصر العبادانية^(٣). وكذلك كان بالجوسق المحدث في قصر القنطرة بركة رصاص حولها بستان بمياذين فيه نخل قيل إن عدده أربعمائة نخلة، وطول كل واحدة خمسة أذرع قد لبس جميعها ساجاً منقوشاً من أصلها إلى حد الجمارة بحلق من شبه مذهبة^(٤).

وكانت لذة الخليفة القاهر من الدنيا بستانه الكبير الذي غرس فيه النارج

(١) هذا ضرب من الذوق الشرقي القديم، وكان ملوك الفرس من قبل يجلسون إلى الناس تحت أشجار قد كسيت أجسامها بالقبضة.

(٢) الخطط للمقريزي ج ١ ص ٣١٦ : (٣) نفس المصدر ج ١ ص ٤٨٧.

(٤) تاريخ بغداد طبعة سلون ص ٥٣ — ٥٤.

وحمل إليه مما حمل من أرض الهند ، قد اشتبكت أشجاره ولاحت ثماره ، وكان فيه أنواع الطيـار ، وكان الخليفة كثير الجلوس والشراب فيه وهو يقول عنه : وكان لذى من الدنيا ^(١) . وحوالى ذلك العصر كان بالشام الصنوبرى وكشاجم شاعرين من شعراء الطبيعة تغنيا فى شعرها بجمال البساتين والأشجار والأزهار ؛ ولكن الأزهار لم تكن كثيرة جدا : كانت هناك الورد والبرجس والشقيق والباقلـاء والكافور والبهار والأنقوان والسوسن والبنفسج والياسمين والخيرى والنوار ، ولم يكن الخيرى البرى قد جلب من سهول آسيا . وكانت زراعة الورد متقدمة جدا ، فقد حكى صاحب نشوار المحاضرة (المتوفى عام ٣٨٤ هـ - ٩٩٤ م) « أنه رأى زرداً أسود حالـك السواد له رائحة زكية ، وأنه رأى بالبصرة وردة نصفها أحمر قانى الحمرة ؛ ونصفها الآخر أبيض ناصع البياض ، والورقة التى وقع الخـلط فيها كأنها مقسومة بقلم ^(٢) ، وكان النخل والنروها الشجرتين اللتين تزرعان فى البساتين .

وكان ابتداء هذا الميل الشديد إلى البساتين والولوع بها فى مصر ، وفيها استمر على أقوى ما يكون طوال ذلك العصر ، فيحدثنا الرحالة الفارسى ناصر خسرو أنه رأى بمصر ناساً يتجرون بالأشجار ، وأن عندهم أشجاراً فى أصص يضعونها على سطوح بيوتهم حتى تصير السطوح كأنها حدائق ، فإذا اشترى أحد هذه الأشجار حملت إليه ثم حفر لها فى الأرض ، ونقلت من أصصها دون أن يصيبها شئ ؛ ويقول ناصر خسرو إنه لم ير مثل هذا فى مكان آخر ولم يسمع به ، ويحكى أنه كان بمصر يهودى كثير المال قد وضع على سقف داره ثلاثمائة جرة .

(١) مروج الذهب للمسعودى ج ٨ ص ٢٣٦ - ٢٣٨ .

(٢) حسن المحاضرة للسيوطى ج ٢ ص ٢٣٧ .

من الفضة ، في كل منها شجرة مزروعة ، وكل هذه الأشجار مشمرة محملة كأنها بستان^(١) .

وكان في دار الشجرة من قصر المقتدر بالله شجرة من الفضة وزنها خمسمائة ألف درهم ، وهي تقوم وسط بركة مدورة صافية الماء ، وللشجرة ثمانية عشر غصناً ، لكل غصن شاخات كثيرة عليها الطيور والعصافير من كل نوع مذهبة ومفضضة ، وأكثر قضبان الشجرة فضة وبعضها مذهب ، وهي تتمايل في أوقات لها ، وللشجرة ورق مختلف الألوان يتحرك كما تحرك الريح ورق الشجر ، وكل من هذه الطيور يصفر ويهدر ، وقد أدخل الخليفة رسل الروم إلى هذه الدار فكان تعجبهم منها أكثر من تعجبهم من جميع ما شاهدوه^(٢) . على أنه كان بقصر الإمبراطور بالقسطنطينية كثير من قطع الأثاث حول عرش الإمبراطور ، عليها طيور جائمة تغنى ، وقد رآها وسمع تغريدها الأسقف لويتبراند Luitprand رسول الملك أوتو Otto ملك ألمانيا . بل لقد كان حول عرش إمبراطور الروم كثير من السباع المذهبة تحف بالعرش . وكانت في أثناء استقباله الناس تفتح أفواهها بين حين وآخر ، وتزأ وتضرب الأرض بأذنانها ، وفوق ذلك كان العرش الإمبراطوري مصنوعاً بحيث يمكن رفعه بآلة إلى سقف المجلس^(٣) . وهذا ضرب من الذوق الفاسد البعيد عن طريقة الشرقيين . وقد ذكر ابن المعتز الشاعر الأمير هذه الشجرة في شعره^(٤) .

وكان لمعظم الدور ببغداد كواشك ورواشن في الطابق الأسفل يصطدم بها راكب الحمار إن لم يتنبه لها^(٥) . وكان يستتر بها أهل العبت والفساد حتى اشتهرت

(١) رحلة ناصر خسرو ص ٨٠ ، ٨٨ من النص الفارسي .

(٢) تاريخ بغداد طبعة سلون ص ٥٢ وما بعدها .

(٣) J. Ebersolt, Le grand palais de Constantinople, Paris, 1910, p., 68.

(٤) ديوان ابن المعتز ج ١ ص ١٣٨ . (٥) حكاية أبي القاسم ص ٣٣ .

بذلك^(١) . وكانت الشوارع بمدينة شيراز ضيقة لا تتسع لسير بهيمتين معاً ، وكان أهلها في بلاء من اصطدام رؤوسهم بالرواشن^(٢) .

وكانت أبواب الدور تصنع من الخشب المحلى بالنقوش ، وعلى الباب حلقة تدور بلولب يُطرق بها الباب^(٣) ، وبالجملة كان الخشب يستعمل كثيراً ، وكان أحب أصنافه عند السراة خشب الساج الهندي ، ولكثرة استعمال الخشب كانت الغرف من داخلها تكاد تثير الانقباض مثل دور الفلاحين عندنا ، وإذا رأى الإنسان الحجرة المحفوظة في متحف القاهرة أحدثت رؤيتها في نفسه مثل هذا الأثر .

ولم تكن العادة أن يملأ كل فراغ الحجرات بالأثاث ، فكان يبقى فيها مجال لظهور الناس ولحركاتهم ولملابسهم ، وفراغ للستور والبسط المعلقة على الحيطان تتنافس بألونها وما عليها من جميل الصور . وكانت التخوت هي الأثاث الوحيد في الغرف ، فكانت تحفظ فيها الثياب مثلاً^(٤) أما الدواليب فلم تكن معروفة ، وكانت الحيوانات لا تستعمل إلا للطعام . وكان كباراء القرن الثالث يحبون الحيوانات المصنوعة من خشب الجزع ، وكذلك بعض أدوات المائدة^(٥) ؛ ثم استخدمت خوانات قوائمها منها بلا وصل^(٦) ، وقد ورد في كتاب حكاية

(١) يتيبة الدهر للثعالي ج ٢ ص ٢٥٣ ؛ وجهرة الإسلام مخطوط ليدن رقم ٢٨٧ ص ١٧٧ . (٢) المقدسى ص ٤٢٩ .

(٣) مقامات الهمداني طبعة بيروت ص ١٠٥ .

(٤) كتاب الوزراء ص ١٧٢ ؛ ويتيبة الدهر ج ٣ ص ٢٣٧ ، والفرج بعد الشدة ج ٢ ص ٢٠ .

(٥) كتاب البغلاء للجاحظ طبعة فان فلوتن ص ٥٧ ، ومروج الذهب للمسعودي

ج ٨ ص ٢٦٩ .

(٦) مقامات الهمداني ص ١١٣ ؛ وحكاية أبي القاسم ص ٣٨ ؛ والخطط للمقريزي

ج ١ ص ٤١٩ .

أبي القاسم البغدادى وصف خوان حسن ؛ قوائمه من خلنج خراسانى بلا وصل ، ثم صار حجم هذه الحيوانات يزداد باستمرار ، حتى يحكى أنه لما طهر المقتدر بعض ولده عام ٣٠٥ هـ — ٩١٧ م ؛ أهدى إلى ابن الفرات ثلاث موائد ؛ استدارة المائدة الكبرى منها خمسون شبراً ، فضاقت الباب عن دخولها حتى قلع ووضع الموضع لإدخالها^(١) .

وكان خشب الخلنج يستعمل أيضاً فى قصور الفاطميين لصنع الطيافير^(٢) ؛ وكان هذا الخشب يُجهز بكثرة فى جرجان على بحر الخزر^(٣) . وفى القرن الثالث الهجرى بالشرق أعجب الجاحظ بأنية من الخلنج الكيمالى (التركى) إلى جانب آنية الصينى الملتع ، وكانت هذه محبوبة فى جميع البلاد^(٤) ، وكانت أدوات الطبخ تسمى الصفر^(٥) . ويحدثنا ناصر خسرو فى القرن الخامس الهجرى أنه كان بمصر امرأة تملك خمسة آلاف قدر ، وأنها كانت تؤجرها كل قدر بدرهم^(٦) .

أما الحمامات الساخنة فجند فى عناية المسلمين بها وتشبيدهم الكثير منها ميراثاً من أحسن ما أخذ عن اليونان والرومان ، ولم يكن اتخاذ الحمامات العامة من مظاهر الحياة فى العصر القديم ، حتى إنه ليحكى عن بلاش ملك الفرس (من عام ٤٨٤ م — ٤٨٨ م) أنه لما أمر بإنشاء الحمامات للناس فى مدن مملكته جلب على نفسه سخط الكهنة^(٧) ؛ لأنهم رأوا فى ذلك انتهاكاً لحرمة الدين^(٨) . ولما جاء قباد بعد ذلك واستولى على مدينة آمد ، ودخل أحد حماماتها العامة سراً به كثيراً ،

(١) كتاب الوزراء ص ٦٥ . (٢) الخطط للمقريزى ج ١ ص ٤٢٠ .

(٣) جغرافية اليعقوبى ص ٢٧٧ .

(٤) كتاب البخلاء طبعة فان فلوطن ص ٥٧ ، وانظر شعراً فى العقد ج ٣ ص ٢٩٦ .

(٥) الإرشاد لياقوت ج ١ ص ٣٩٢ .

(٦) رحلة ناصر خسرو ص ٧٥ من النص الفارسى .

(٧) Josua Stylites, ed. Wright. § 19 .

(٨) ترجمة الطبرى لنولدكه ص ١٣٤ هامش رقم ٥ .

وأمر أن يُبنى حمام مثله في كل مدينة من مدن فارس^(١) . ويذكر الطبري وهو من مؤرخي العرب المتقدمين أن الفرس لم يكن لهم قبل عهد الإسلام حمامات^(٢) . غلى أن المتشددّين من المسلمين كانوا دائماً ينظرون إلى اتخاذ الحمامات العامة نظرة الارتياب ، ويحكى عن أبي بكر السّليّ المتوفى عام ٣١١ هـ — ٩٢٣ م أنه قيل له : لو حلت شعرك في الحمام ، فقال : لم يثبت عندي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل حماماً قط^(٣) . ويحكى عن الزمخشري أنه قال : ويكره أن يعطى الرجل امرأته أجرة الحمام ، لأنه يكون معيناً لها على المكروه^(٤) . وقد ذكر الخليفة القاهر عام ٣٢٢ هـ — ٩٣٤ م عن أحد سلفه أنه بنى « حمامات رومية » للحرم ، وهذا الاسم الذي أطلقه عليها القاهر لا يخلو من دلالة^(٥) . أما زخرفة الحمامات فلم تكن إسلامية بالكلية ، ففي حمامات سامرا كانت الدرجات تُزيّن بالصور بدلا من البلاط المختلف الألوان ، وهذه عادة كانت بالشام ، وترجع إلى العصر الأخير من الحضارة البيزنطية^(٦) . وقد ذكر المسعودي أن الناس يصوّرون العنقاء في الحمامات ، والعنقاء صورة لحيوان خيالي عند الشرقيين ، وهي تمثل بطائر وجهه وجه إنسان وله منقار نسر ، وأربعة أجنحة من كل جانب ويدان ذات مخالب^(٧) ، ويؤثر عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه قال : بُسّ البيت

(١) Josua Stiglitz, § 75 وانظر Land, Anecdota, III, 210.

(٢) تاريخ اليعقوبي ج ١ ص ١٩٩ . (٣) طبقات السبكي ج ٢ ص ١٣١ .

(٤) مطالع البيور للغزولي ج ٢ ص ١٧ .

(٥) مسكويه ج ٥ ص ٤٤٩ وكان يسمى المكان الذي تخلع فيه الملابس باسم مأخوذ من السريانية . وهو كلمة شلح (القرب لابن سعيد ص ٤٣) ، وكان أهل الشام يسمون آجر الحمام بالقراميد وهو اسم مأخوذ من الرومية Keramidi . انظر المعرب للجواليقي طبعة سغوا ص ١١٦ .

(٦) Sarre und Herzfeld, Erster vorläufiger Bericht über die Ausgrabungen von Samarra, Berlin 1912, S. 24.

(٧) صروج الذهب للمسعودي ج ٣ ص ٢٩ .

الحمام ، تُكشَف فيه السورَات ، وترتفع فيه الأصوات ، ولا تُقرأ فيه آية من كتاب الله^(١) .

وكان في الجانب الشرقي من بغداد وحده في القرن الثالث الهجري خمسة آلاف حمام^(٢) ، وكان في جانبي بغداد في النصف الأول من القرن الرابع عشرة آلاف^(٣) ، وفي النصف الثاني كان بها خمسة آلاف فقط^(٤) ؛ وهذا العدد لم يزل في نقصان حتى يذكر في القرن السادس أنه كان ببغداد ألفا حمام^(٥) . وكانت الحمامات تُطلّى بالقار وتسطّح به حتى يُخيّل الناظر أنها مبنية من رخام . وكان هذا القار يُجلب من عين بين البصرة والكوفة^(٦)

أما بمصر فلم تكن العناية بإنشاء الحمامات كبيرة مثل ما كانت بالشام ، فيذكر لنا المقرئزي أنه كان بالقسطاط ألف ومائة وسبعون حماما ؛ وكانت حمامات القاهرة في عام ٦٨٥ هـ — ١٢٨٦ م ثمانين حماما فقط^(٧) وكان يقوم بخدمة الحمام خمسة نفر على الأقل : حمامي ، وقيم ، وزبال — لأن الوقود في الحمامات كان في الغالب من الزبل اليابس — ووقاد ، وسقاء^(٨) .

أمر أبو جعفر المنصور في عام ١٥٣ هـ بلبس القلائس الطوال ، والبراريع مكتوب عليها بين كتفي الرجل فيسكفيهم الله ، كما أمرهم بتعليق السيوف في أوساطهم ، فدخل عليه أبو دلامة ، وعليه قلنسوة طويلة وبقية الملابس التي أمر بها الخليفة ، فقال له : كيف أصبحت يا أبا دلامة ؟ قال : بشر ، قال المنصور :

(١) مطالع البدور ج ٢ ص ١٧ . (٢) جغرافية البغدادي ص ٢٥٤ .

(٣) تاريخ بغداد طبعة سلون ص ٧٦ وما بعدها .

(٤) نفس المصدر ص ٧٦ ، وجاء في ص ٧٤ أنه كان ببغداد ستون ألف حمام ، وهذا فيه مبالغة وتخيّل ، أما السبعة والعشرون ألفا فيجب أن تؤخذ على أنها عدد الساجد لا الحمامات .

(٥) الخطط للمقرئزي ج ٢ ص ٨٠ . ورحلة ابن جبير ص ٢٣٠ .

(٦) رحلة ابن جبير ص ٢٣٠ . (٧) الخطط ج ٢ ص ٨٠ .

(٨) تاريخ بغداد طبعة سلون ص ٧٤ .

كيف ؛ ويلك ؟ قال : ما ظنك برجل وجهه في نصفه ، وسيفه في استه ، وقد نبذ كتاب الله وراء ظهره ! فأمر المنصور بتغيير الزى ، وقال أبودلامة هذا لما أمر المنصور بما أمر به :

وكنا نرجى من إمام زيادة فزاد الإمام المصطفى في القلانس تراها علي هام الرجال كأنها دنان يهود جُلَّت بالبرانس^(١) ولما اتصل أهل أوروبا بالشرقيين أيام الحروب الصليبية نقلوا إلى بلادهم هذه القلانس الطوال ومعهما الحر وجعلوها لباس النساء في الغرب^(٢) .

ولما جاء المستعين (٢٤٨ هـ - ٢٥٢ هـ = ٨٦٢ - ٨٦٦ م) صغر القلانس ، بعد أن كانت طوالاً كأقباع القضاة^(٣) ؛ وأحدث المستعين أيضاً لباس الأكام الواسعة التي لم تكن تُعهد من قبل فجعل عرضها ثلاثة أشبار أو نحو ذلك^(٤) : وكانت هذه الأكام تقوم مقام الجيوب يحفظ فيها الإنسان كل ما يحتاج إلى حفظه مثل

(١) لب الباب في رد جوابات ذوى الألباب ؟ مخطوط رقم ٨٣١٧ بمكتبة برلين من ١٢٤٠ ، وكتاب أوليات علي دده مخطوط برلين رقم ٩٣٧٢ من ١٥٨٠ ، وكانت هذه القلانس تدعم بعيدان من داخلها (الأغاني ج ٩ ص ١٢١) ، ولما فتح عباد بن زياد الهند ووصل قندهار رأى قلانس أهلها طوالاً فصل عليها (الفتوح للبلاذري ص ٤٣٤) . وكانت القلانس والمناطق في نظر العرب الجاهليين من لباس الفرس Jacob' Oltarab. Beduinen- leben, S. 237 . وكان الرشيد لا يحب هذا التجديد الذي أحدثه المنصور ، فيحكى الملاحظ أن الماني الراجز دخل على الرشيد لينشده شعراً وعليه قلنسوة طويلة وخف ساذج ، فقال له : إياك أن تنشدي إلا وعليك عمامة عظيمة الكور وخفان ومالقات . (البيان والتبيين ج ١ ص ٤١٢) . ويحكى السعودي (المروج ، ج ٨ ص ٣٠٢) أن المعتصم أعاد لبس القلانس تشبهاً بملوك الأعاجم فلبسها الناس اقتداءً بفعله وصميت المتصميات . وكان زى أهل مصر حوالى عام ٢٣٠ وجمال شيوخهم وأهل الفقه والعدالة منهم لبس القلانس الطوال ، وكانوا يبالغون في ذلك ، فأمرهم محمد بن الليث القاضي بتركها لأنها من لباس القضاة وزيهم فلم ينتهوا حتى ضربهم (القضاة للسكندى ص ٤٦٠) .

(٢) وكان من العادات النادرة بفرنسا في القرن الثاني عشر الميلادي لبس منطقتين ، وأصلها عادة فرقية انظر Jac. Falke, Gesch. des Geschmackes im mittel alter S. 66

(٣) مروج الذهب ج ٧ ص ٤٠٢ . (٤) نفس المصدر .

الدنانير^(١) والكتب ، وكان المهندس يضع فيها ميله^(٢) ؛ والعير في يجعل فيها رقاعه^(٣) ، والخياط يحمل فيها الجلم^(٤) ، والقاضي يضع فيها الكرامة التي يقرأ فيها الخطبة يوم الجمعة^(٥) ؛ والكاتب يحفظ فيها الرقعة لعرضا^(٦) . وكان بعض العمال يحفظ المستندات في خُفّه ، ويحكى عن الحسن بن مخلد وزير المعتمد أنه لما كان كاتباً بين يدي الموفق بن المتوكل سألته يوماً كم عنده في الخزان من ثوب أعجبه ، فأخرج من خفه دستوراً فيه جُمل ما في الخزان من الأمتعة والثياب ، وأجاب الخليفة بما أراد^(٧) . وكان بعض الندماء يضعون مخازن مملوءة أدهانا في خفاف غلمانهم أو اللقات مدرجة في المناديل ، فإذا أمضهم الجوع وشحذهم الشراب تناولوا ما أعدوه من ذلك^(٨) .

وفي أوائل القرن الرابع الهجري وأواخره كان من عادة الظرفاء اجتناب لبس الثياب ذات الألوان ، لأنهم كانوا يعتبرون ذلك من شأن النساء والإماء ، وكان أقصى ما يجوز للإنسان أن يلبسه في خاصة بيتبه وفي أيام الاختجام وفي حلقات الشراب ، أما في الشوارع فليس اتخذها من شأن الظرفاء . وكان يحسن بسروات الناس لبس الثياب البيض ، وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : خلق الله الجنة بيضاء ، وخير ثيابكم البيض تلبسونها في حياتكم

(١) الإرشاد لياقوت ج ١ ص ٢٥٤ ، والمكتبة العربية الأسبانية ج ٣ ص ٤٩ . وحكي التوحيدى (رسالة في الصداقة ص ١١) عن محمد بن علي بن الحسين الباقر رضى الله عنه أنه قال لأصحابه : أيدخل أحدكم يده في كم صاحبه فيأخذ حاجته من الدراهم والدنانير ؟ قالوا : لا ، قال : فلستم إذن يا إخوان .

(٢) الإرشاد لياقوت ج ٢ ص ٤٩ . (٣) نفس المصدر ج ١ ص ٣٩٩ . (٤) مروج الذهب ج ٦ ص ٣٤٥ . (٥) الخطط ج ١ ص ٣٩٠ . (٦) الفرع بعد الشدة ج ١ ص ٦٩ ؛ وكانت الأكمام في عصر الإسلام الأول طويلة حتى كان يُقص منها ما زاد على الأصابع (بستان العارفين ص ٩٠) . (٧) الفخرى ص ٢٩٨ . (٨) أدب النديم ص ١٠٥ .

وتكفنون بها موتاكم^(١) ، ويحكى عن عطاء بن رباح في العصر الأموي أنه
 لقي ابن سريج في أحد شوارع المدينة ، وعليه ثياب مصبغة ، وفي يده جريدة
 مشدودة رجلها بخيط يطيرها ويجذبها كلما تحلقت ، فقال له عطاء : يا فتان ! ألا
 تكف عما أنت عليه ! كفى الله مؤذنتك ، فقال ابن سريج . وما على الناس من
 تلويني ثيابي ولعي بجرداتي !^(٢) ؛ ولا يميز أهل الظرف والأدب لبس شيء
 من الثياب الدنسة مع ثياب مغسولة ، ولا المغبول مع الجديد ، ولا الكتان مع
 المروي ، وهم يرون أن « أحسن الزي ما تشاكل وانطبق ، وتقارب واتفق »^(٣)
 وكان البياض من لبس الرجال ، وكان أيضاً لباس النساء المهجورات ، أما غيرهن
 فيجتنبنه إلا أن يعملن منه سراويلات . ولا يلبس الملون إلا إذا كان لونه طبيعياً ،
 لأن الألوان غير الطبيعية من لبس النساء النبطيات والإماء والمتقينات . وكان
 الأزرق في المشرق لبس الحداد^(٤) ، أما في الأندلس فكان البياض يلبس
 لذلك^(٥) . وكانت السراويلات مما يكمل به لباس الرجال ، وهي لباس غير
 عربي^(٦) ، وكانت طوائف العمال الثلاثة الكبرى تتميز بلباسها ، فكان
 الكتاب يلبسون الدراريح^(٧) ، وهو ثياب مشقوقة من الصدر ، وكان العلماء
 يلبسون الطيلسان^(٨) ، وكان القواد يلبسون الأقبية الفارسية القصيرة . وقد
 صار القباء لباساً رسمياً لرجال الدولة حوالي عام ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م حتى كان

(١) بستان العارفين ص ٩٠ . . (٢) التذكرة الحمدونية ص ١٤٨ .

(٣) الموشى ص ١٢٤ ؛ والمرواة للشمالي ص ١٢٩ ب .

(٤) الموشى ص ١٢٦ ؛ وديوان كشاجم ص ١٦٩ ؛ وكتاب العيون ص ١١٠ ا — ب .

(٥) الطراز الموشى ص ٢٠٢ .

(٦) مسكويه ج ٥ ص ٥٢٨ مثلاً ، وكتاب الوزراء ص ١٧٦ ، وجمع السراويل

سراويلات (الموشى ص ١٢٦) . (٧) مشكويه ج ٦ ص ٣٠٨ .

(٨) وكان اتخذ الطيلاس شائماً بمدينة شيراز حتى يقول المقدسي (ص ٢٤٩) :

ولا ترى بها لمصاحب طيلسان مقداراً ؛ ولقد رأيت أهل الطيلاس سكارى ؛ وهو لم يرض أن
 يقابل الوزير بطيلسان .

لا يدخل المقصورة في يوم الجمعة إلا من كان من الخواص المتميزين بالأقبية السود؛ وحضر بعضهم مرة بدرّاعة فردّ حتى مضى ولبس القباء، وكان هذا الرسم جارياً مأخوذاً به في سائر مقاصير الجوامع ثم بطل فيما بعد؛ حتى يحدثنا الخطيب البغدادي حوالي عام ٤٠٠ هـ أنه كان لا يلبس القباء والسواد سوى الخطيب والمؤذنين^(١). وكان التاجر الغني أو الغني من الناس يلبس قميصين ورداء فوق السراويلات، وهذا كله لباس الخليفة القاهر يوم أحضر للبيعة في عام ٣٢٠ هـ - ٩٣٢ م^(٢). ويحكى عن أبي بكر الفرغاني الصوفي، وكان من المجتهدين في العبادة (توفي عام ٣٣١ هـ - ٩٤٣ م) أنه لم يكن يرى أحسن منه ممن يظهر القتي في الفقر، كان يلبس قميصين ورداء وسراويل ونعلا نظيفاً وعمامة وفي يده مفتاح؛ وليس له بيت، ينطرح في المساجد ويطوى الخنس والست^(٣). ثم حل الخفتان محل الملابس العربية، فيحكى عن سعيد الشاعر المعروف بقاضي البقر أنه ركب إلى الأخشيد في ليلة شتاء باردة وعليه ملابس منها الخفتان^(٤). وكان الخفتان أيضاً من جملة ملابس أدباء الشام^(٥). ولما ركب الخليفة المقتدر عام ٣٢٠ هـ - ٩٣٢ م لقتال مؤنس، وهي ركبته التي قتل فيها، كان عليه خفتان^(٦). أما الميمون الذي يعمل من القماش المشتمع للوقاية من المطر بحيث لا يمكن أن ينفذ منه الوابل، فقد جاء من الصين؛ وقد سأل البجتي (المتوفى عام ٢٨٤ هـ - ٨٩٧ م) في قصيدة من قصائده ممدوحه أن يهب له ممطراً يتقي به المطر^(٧). وقد وصف المقدسي قلة المطر في اليمن بأن أهلها لا يزد ذكر المطر في كلامهم^(٨). أما الجوارب فكان يلبسها

(١) تاريخ بغداد مخطوط باريس ص ١١٥.

(٢) عريب ص ١٨٢. (٣) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٣٠٣ طبعة لندن.

(٤) المغرب لابن سعيد ص ٣٣.

(٥) الصنوبري في جبهة الإسلام للشيرازي مخطوط لندن ص ١١٣ ب.

(٦) عريب ص ١٧٧. (٧) ديوان البجتي ج ١ ص ١٨٥.

(٨) المقدسي ص ٩٦.

الرجال^(١) والنساء على السواء^(٢) . وكان لبس الخفاف الحر معنياً ، وإن كان قد لبسها قيصر الروم وعامة المسلمين ، وكان ولي العهد عند الروم البوزنطيين . يلبس خفاً أحمر وخفاً أسود^(٣) ، كما كان يلبس ذلك الخيلاء من المتطرفين المتخشين للجهال .

وقد جرت العادة دهرًا طويلاً بأن يلوى الغلمان والجواري شعر أصداعهم على صورة حرف النون (ن) أو على صورة العقرب ، ويقول ابن المعتز :
لوى صدغه كالنون من تحت طرّة ممسكة بزهى بمساج جبين
ويقول :

رِيم يَتِيهِ بِحَسَنِ صُورَتِهِ عَيْثُ الْفَتُورِ بِلَحْظِ مَقْلَتِهِ
وَكَانَ عَقْرَبُ صَدْغِهِ وَقَفْتُ لَمَّا دَنَتْ مِنْ نَارِ وَجْهِهِ^(٤)
وقد تغنى أبو نواس بذلك قبل ابن المعتز بمائة عام فقال :
أَصْدَاغُهُمْ بِعَقْرِبَا تِ وَالشَّوَارِبِ مِنْ عَيْبِ^(٥)

وكان القوط الشرقيون في بعض العصور يخيفون أهل أوروبا الجنوبية بأن يصبغوا شعرهم باللون الأخضر ؛ وكان أهل تراقية يصبغون شعورهم الشقراء باللون الأزرق^(٦) . وكانت عادة خضاب الشعر منتشرة في بلاد الشرق سواء في جزيرة العرب أو في إيزان ، حتى اختلف العلماء في حكم الشرع فيها ، ونجد أبا نعيم صاحب تاريخ أصفهان المتوفى عام ٢٣٠ هـ — ١٠٣٩ م حريصاً على أن يذكر في

(١) يثيمة الذمر ج ٣ ص ٤٣ ، وكانت من الإبريسم أو الخنز .

(٢) الأغاني ج ٦ ص ٨٥ .

(٣) الموشى ص ١٢٥ ، وابن خرداذبة ص ١٠٩ .

(٤) ديوان ابن المعتز ج ٢ ص ٦٦ ، ص ٧٠ .

(٥) ديوان أبي نواس ص ٨٢ — ٨٣ .

(٦) Gebhart, Italie Mystique وانظر Thomascheck, Die Thraker

ترجمة رجاله إن كانوا يخضبون شعورهم أم لا ، بل هو يحكى عن أبي إسحاق إبراهيم بن أيوب العنبري — وكان صاحب تهجد وعبادة ، لم يعرف له فراش أربعين سنة — أنه كان يخضب رأسه ولحيته^(١) . على أنه يظهر أن عادة الخضاب هذه كانت نادرة بين سروات الناس ، ولذلك نجد صاحب الفهرست في الترجمة القصيرة التي كتبها لأبي الحسن المنجم ، وكان أديباً ومن يجالس الخليفة ، يذكر في شيء من التأكيد أنه كان يخضب إلى أن مات عام ٣٢٥ هـ ، وله من العمر ست وسبعون سنة^(٢) . وقد كان من الذوق المتكلف في العصر الأخير لثياصرة الرومان أنهم كانوا يدخلون في حلقات السباق غنما مصبوغة باللون الياقوتي ، وثيراناً مصبوغة باللون الأبيض ، وسباعاً مصبوغة لونها باللون الذهبي ، ونعامات مصبغة باللون الأخضر القاني^(٣) . ولم يحدثنا عن مثل هذا أحد من مؤلفي القرن الرابع الهجري ؛ على أنني شاهدت في بغداد في أيامنا خيراً مصبوغاً نصفها باللون الأحمر ، وحماراً نظيفاً مصبوغاً باللون الوردى ؛ وربما يكون هذا من بقايا عادات قديمة .

وفي القرن الرابع الهجري ظهرت من جديد فيما يتعلق بالمقابر عادة غير إسلامية بالكلية ، وهي بناء الكبراء لأنفسهم في حياتهم ترباً ليدفنوا بها ؛ وأول من فعل ذلك أم المقتدر ، وهي أم ولد رومية ، بنت لنفسها تربة بالرضا^(٤) . وكذلك بنى الخليفة الراضى المتوفى عام ٣٢٩ هـ — ٩٤٠ م تربة بالرضا أيضاً^(٥) . ثم بنى معز الدولة المتوفى عام ٣٥٦ هـ — ٩٦٦ م تربة في مقابر قزيش^(٦) . وعمر

(١) تاريخ أصفهان مخطوط ليدن ج ١ ص ١٩٨ ، ١٠٨ ، ١٢٢ ؛ ج ٢ ص ٢٥ ب .

(٢) الفهرست ص ١٤٤ .

(٣) V. Gleichen-Russwurm, Elegentiae S. 461 .

(٤) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٠٣ طبعة ليدن .

(٥) المنتظم لابن الجوزي ص ١٠٩ . (٦) نفس المصدر ص ١٠٢ .

الطائع بعد ذلك تربة لنفسه بالرصافة^(١) . وفي هذه الناحية ظهرت عدا ذلك مجموعة عادات أخرى بعيدة كل البعد عن روح الإسلام ، ثم رسخت أصولها ، فقد نهى كثيراً عن الصباح على الجنائز ؛ ولكن النهى لم يثمر ، ففي سنة ٢٥٠ هـ - ٨٦٤ م كانت تشق الجيوب وتصنع الوجوه بالسواد ، وتقص الشعور بمصر^(٢) . وقد منع العامل من ذلك وسجن النائمات ، وكذلك في عام ٢٩٤ هـ - ٩٠٧ م^(٣) . ثم جاء الخليفة الحاكم بأمر الله فحظر عام ٣٩٤ هـ على النساء كشف وجوههن وراء الجنائز والبكاء والعويل وخروج النائمات بالطبل والزمير على الميت^(٤) ؛ ولما قُتل الحجاج ونكبوا على يد الجنابي خرج نساء بغداد إلى الطرقات مسودات الوجوه ، منشرات الشعور ، يصرخن ويلطن^(٥) . وفي عام ٣٠٥ هـ - ٩١٧ م مات غريب خال المقتدر ، فأمرت أم المقتدر بهدم القبة الخضراء التي كان قد بناها لنفسه ببغداد ، وبتحطيم طياره ومركبه على نهر دجلة^(٦) . ولما مات زيرك الخادم القاهري عام ٣٢٩ هـ - ٩٤١ م اشتد عليه حزن الراضى ، وخرج من داره مستوحشاً وانتقل إلى الشبسية - وهذه عادة معروفة عند شعوب كثيرة - وصب من دنان المطبوخ أربعمائة دنان في دجلة حزناً على زيرك^(٧) . وقد أوصى أبو الفضل الهمداني إذا جاءه الحق وتوفاه الموت ، ألا تعذب عليه مناعة ولا يلطم خد ، ولا يغمس وجهه ، ولا ينشر شعر ، ولا يمزق ثوب ، ولا يشق جيب ، ولا يهالقع ، ولا يرفع صوت ، ولا يدعى ويل ، ولا يسود باب ، ولا يحرق متاع ، ولا يقلع غرس ، ولا يهدم بناء ، وأن يكفن في ثلاثة أثواب بيض لا سرف فيها ، وخرج على من يتولى أمره أن يقرنه ثوب خيلاء من مطرز

(١) ديوان الشريف الرضى ص ٦٦٦ . (٢) الولاة للبكندى ص ٢٠٣ وما بعدها .

(٣) نفس المصدر ص ٢٩٦ . (٤) يحيى بن سعيد ص ١١٥ ب .

(٥) كتاب الوزراء ص ٤٩ . (٦) كتاب العيون والحداث ص ٩١ ب .

(٧) نفس المصدر ص ١٨١ / ب .

أو معلم أو إبريسم أو منسوج بذهب^(١). وكان يعمل في تغسيل الكبراء وتكفينهم من الترف والسرف ما هو غريب عن الإسلام ، فيحكى أنه لما مات الأمير سيف الدولة بن حمدان عام ٣٥٦ هـ — ٩٦٧ م غسل تسع مرات أولاها بالماء ثم بزيت النيلوفر ثم بالصندل ، وبعد ذلك بالضريرة ثم بالعنبر ثم بالكافور ثم بماء الورد ، وغسل بعد ذلك ثلاث مرات بالماء المقطر ، ونشف بعد غسله بديبقي ثمنه خمسون ديناراً أخذه الغاسل وهو قاضي الكوفة إل جانب أجرته ؛ ثم دهن بالزعفران والكافور ووضع على خديه ورقبته مائة مثقال من الغالية ، وفي عينيه وأذنيه ثلاثون مثقالاً من الكافور . وبلغ ثمن كفنه ألف دينار ، ثم وضع في تابوته ورش عليه الكافور^(٢) ، وفي عام ٣٧٥ هـ — ٩٨٥ م مات تميم بن العز فكفن في ستين ثوباً^(٣) . وقيل إن ابن كلثوم لما توفي عام ٣٨٠ هـ — ٩٩٠ م كفن وحفظ بما قيمته عشرة آلاف دينار^(٤) . وكان للنداء على الموتى صورة لم ينكرها رجال الشريعة ، إذ نادى الناس في جنازات العلماء بمثل ما كان جماعة ينادون بين يدي الخطيب البغدادي قائلين : هذا الذي كان يذب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هذا الذي كان ينفي الكذب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هذا الذي كان يحفظ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وبمثل ما قاله جماعة بين يدي نعش أحد العلماء : لا ينال الشفاعة إلا من أحب السنة والجماعة^(٥) . وكثيراً ما كان العلماء يُدفنون في دورهم ، ثم ينقلون بعد عدة سنين

(١) رسائل المندائي ص ٥٣٦ وما بعدها .

(٢) ابن شداد بخطوط بيروت ص ١٥١ ؛ وقد تفضل الدكتور سراسين (W. Sarasin) :

باطلاهي على هذا النص . (٣) الوفيات لابن خلكان (طبعة مستنفاة) ج ٢ ص ٢٣ .

(٤) النجوم الزاهرة طبعة كلغورنية ص ٤٦ نقلاً عن الذهبي .

(٥) طبقات السبكي ج ٣ ص ١٥٠ .

(٦) ابن بشكوال ص ٩٣٤ . ويظهر أن هذه العادة كانت منتشرة في الأندلس .

إلى المقبرة^(١) . وفي النصف الثاني ظهرت بين الشيعة عادة لا تزال باقية إلى اليوم وهي حمل موتاهم إلى النجف وكر بلاء^(٢) ، وهذه أيضاً إنما كانت جرياً على عادة قديمة ، فيحكي لنا القتي العالم الشيعي المتوفى عام ٣٨١ هـ ٩٩١ م أن اليهود والنصارى في عصره كانوا لا يزالون يدفنون موتاهم في فلسطين^(٣) .

وكانت صور الدعوات إلى المجالس تتناسب بالضرورة مع الذوق البلاغي في ذلك العصر ، وفي هذا الباب نجد كثيراً من القطع الأدبية المدهشة التي تتجلى فيها اللبابة الأدبية^(٤) ، فمن ذلك أن صاحب بن عباد كتب لأحد أصحابه : « نحن ياسيدي في مجلس غنى إلا عنك ، شاكر إلا منك ، قد تفتحت فيه عيون النرجس ، وتوردت فيه خدود البنفسج ، وفاحت مجامر الأترج ، وفتقت فارات النارج ، ونطقت أسنة العيدان ، وقام خطباء الأوتار ، واهتزت رياح الأقداح ، ونفقت سبوق الأنس ، وقام منادى الطرب ، وطلعت كواكب الندماء ، وامتدت سماء الندى ؛ فبخياني لما حضرت لنحصل بك في جنة الخلد ، وتتصل الواسطة بالعقد »^(٥) . وفي أوائل القرن الرابع الهجري كان الوزير أبو الحسن علي بن الفرات يدعو إلى طعامه في كل يوم تسعة من الكتاب الذين اختص بهم ، وكان منهم أربعة

(١) طبقات السبكي ج ٢ ص ٢٥٧ (ترجمة إمام الحرمين) ، وكذلك قاضي القضاة عبد الله بن معروف المتوفى عام ٣٨١ هـ (المنتظم لابن الجوزي ص ١٣٣ ب) ، والاسفرايني المتوفى عام ٤٠٦ هـ بغداد ، ولم ينقل إلى المقبرة إلا سنة ٤١٠ هـ (الوفيات طبعة ثستندك ج ١ ص ٣٥) ؛ والقاضي عبد الجبار المعتزلي قاضي قضاة الري (توفى عام ٤١٠ هـ من طبقات السبكي ج ٣ ص ٢٢٠) ؛ والقُدوري المتوفى عام ٤٢٠ هـ (الوفيات ج ١ ص ٣٨) .
(٢) انظر الفصل الخامس بالشيعة .

(٣) كتاب الملل مخطوط برلين رقم ٨٣٢٧ ص ١١٥ ب ؛ ولما مات علي بن الأخشيد عام ٢٥٥ هـ حل في تايوت إلى البيت المقدسي ودفن مع أخيه ووالده يباب الأسباط (السكندي ص ٢٩٦) .

(٤) قيمة الدرر ج ٣ ص ٨٠ وما بعدها .

(٥) نفس المصدر ج ٣ ص ٨١ .

نصارى ، « فكانوا يقعدون من جانبيه وبين يديه ، ويقدم إلى كل واحد منهم طبق فيه أصناف الفاكهة الموجودة في الوقت من خير شيء ، ثم يجعل في الوسط طبق كبير يشتمل على جميع الأصناف ، وكل طبق فيه سكين يقطع بها صاحبها ما يحتاج إلى قطعه من سفرجل وخوخ وكثري ؛ ومعه طست زجاج يرمى فيه الثفل ، فإذا بلغوا من ذلك حاجتهم واستوفوا كفايتهم شيلت الأطباق وقدمت الطسوت والأباريق فغسلوا أيديهم وأحضرت المائدة مغطاة بدبيق فوق مكتبة خيازر ، ومن تحتها سفرة آدم فاضلة عليها ، وحواليها مناديل الغمر فإذا وضعت رفعت المكتبة والأغشية ، وأخذ القوم في الأكل ، وأبو الحسن بن الفرات يحدثهم ويؤانسهم ويباسطهم ، فلا يزال على ذلك والألوان توضع وترفع أكثر من ساعتين ، ثم ينهضون إلى مجلس في جانب المجلس الذي كانوا فيه ، وغسلون أيديهم ، والفراشون قيام يصبون الماء عليهم ، والخدم وقوف على أيديهم المناديل الدبيقية ورطليات ماء الورد لمسح أيديهم وصبه على وجوههم^(١) . »

وإنما ذكر وضع ألوان الطعام بعضها بعد بعض لأنه كان عادة مستحدثة ؛ أما العادة الإسلامية القديمة فكانت تقضى بأن يوضع الطعام كله مرة واحدة ليأخذ كل واحد منه ما يشتهي^(٢) . وكانت هذه الطريقة أعنى وضع الطعام كله مرة واحدة هي الطريقة الفرنسية في القرن الثامن عشر ، ثم حلت محلها الطريقة الروسية وانتشرت في أوروبا كلها . وكان غسل المدعوين أيديهم معاً على المائدة قبل الطعام عادة شائعة ، ويكون غسل الأيدي من وعاء واحد ، ويبدأ رب البيت لئلا يحتشم أحد^(٣) . أما الغسل بعد الطعام فكان أشبه بتنظيف حقيقي ،

(١) كتاب الوزراء ص ٢٤٠ .

(٢) المستطرف ج ١ ص ١٤٩ ، وغير ذلك من الحكايات القديمة .

(٣) كتاب العلل للقبى المتوفى عام ٣٨١ هـ بخطوط برلين ص ١١٢ ب ، وأدب النديم

لكشاجم مخطوط باريس من ٤٨ ب .

ورب البيت يغسل بعد جميع ضيوفه ، وذلك بأن يبتدى الدور عن يساره ثم يسير حتى ينتهى إليه فيكون آخر من يغسل^(١) . أما إذا كان الغسل مع الرؤساء لامع النظراء كأث يكون الإنسان مع الوزير مثلاً فكان الأليق أن يغسل الضيوف أيديهم في ناحية خاصة ، ويقول كشاجم في أمر غسل اليد : قد اصطلاح الناس على إجلال رؤسائهم وملوكهم عن غسل أيديهم بحضرتهم ، واستجازوا ذلك مع نظرائهم ومن يسقط التحفظ بينه وبينهم ، ولو آثر الناس الاعتزال لغسل الأيدي مع كل طبقة حتى لا يرى بعضهم بعضاً لكان ذلك عندى أليق بالظريف ، لما يحتاج إليه من استقصاء الغسل والمبالغة في التنظيف وإجالة الأنامل في اللهوات والخلال في الأسنان « مما لا يشك أحد أن ستره عن عين المحب والمبغض والرفيع والمتواضع أحد من انظاره عليها ، وإن المرء ليتأذى أن يرى ذلك من نفسه فكيف من غيره ، وربما يحسن الرئيس ويجمل فيقول لنديمه : اغسل يدك مكانك ولا تنزعج فالغبي يغتم ذلك والفقطن يأباه ويغلب الأدب ويستفيد الخطوة »^(٢) . وكانت هذه العادة شائعة ، ففي العراق مثلاً كان الخاصة ينتظرون من العامة أن يقوموا عن مجلسهم ليتغسلوا أيديهم جانباً^(٣) . ويحكى أن الأفسين كان حظياً عند المعتصم ، فكان أول غضبه عليه أنه أكل عنده يوماً ، ثم دعا بالطست فغسل يديه بحيث يراه المعتصم ، فقال المعتصم : هذا التيس الطويل اللحية يدعو بالطست حيث أراه ؟^(٤) وكان أحد كبراء البربر الأكراد بمصر أيضاً يقدم الطعام إلى ضيوفه حتى إذا فرغوا منه دعاهم إلى غرفة أخرى

(١) كتاب الملل ص ١١٢ ب ؛ وأدب النديم ص ٤٨ ب ؛ وقد ذكر القبي ، وهو من أهل خراسان ، عادة أخرى ، وهي أنه إذا فرغ من الطعام يبدأ الغسل عن يمين الباب حراً كان الجالس أو عبداً . (٢) أدب النديم ص ٤٨ ا — ب ، ٤٩ ا — ب . (٣) المحاسن والمساوى لليهقي ص ٤٤٧ ؛ ومروج الذهب للمسعودي ج ٨ ص ١٠٤ . (٤) مطالع البدور للغزولي ج ٢ ص ٦٧ .

ليغسلوا أيديهم^(١) . ويظهر أن عادة الاعتزال لغسل الأيدي ظهرت في القرن الثاني الهجري كما تدل عليه الحكاية التالية : كان عيسى بن يزيد بن دأب اللبني المتوفى عام ١٧١ هـ من رواة الأخبار والأشعار ومن حفاظها ، وكان تياها ينادم الهادي ولا يتعدى معه ولا بين يديه قليل له في ذلك ، فقال : أنا لا أتعدى في مكان لا أغسل فيه يدي ، فقال له الهادي فتعد ، فكان الناس إذا تغدوا تنحوا لغسل أيديهم وابن دأب يغسل يديه بحضرة الهادي^(٢) . وتخليل الأسنان كان لا بد أن يعمل جانباً كما تقدم القول^(٣) .

يقول ابن المعتز في خليل لاتحمد صحبته :

مَنْ عَذِرِي مِنْ صَاحِبِ خَادِعِ الْوَعْدِ وَهَذَا مِنَ الْأَخْلَاءِ بَخْتِي
أَبْدَأُ مَا شِئْتُ وَيَمْسَحُ نَابِئًا بِسِوَاكَ كَضَرْبِ الْبِرْدِست^(٤)
وهو حين يذكر أن الوزير يحدث ضيوفاً على الطعام يصف أيضاً عادة زمانه ، على أن الناس قد اختلفوا في موقع الحديث على الطعام فاستحسنه قوم وكرهه آخرون ، وهو من صاحب المنزل والمائدة أحسن منه من الآكل والزائر ، كما قال بعضهم :

صادف: إِذَا دَأُوْا وَحَدِيثًا مَا اشْتَهَى إِنْ الْحَدِيثَ طَرَفٌ مِنَ الْقَرَى
واستجيد قول بعض المحدثين :

كيف احتيا لي لبسط الضيف من خجل عند الطعام فقد ضاقت به حيل
أخاف تردد قول لي فأحشمه والصمت ينزله مني على البخل^(٥)
وكان قول الإثنان : الحمد لله في وسط الطعام غير مستحسن ؛ لأنه قد يدفع

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٨٥ (٢) .

(٢) الإرشاد لياقوت ج ٦ ص ١٠٥ .

(٣) أدب النديم ص ٤٨ ب . (٤) ديوان ابن المعتز ج ٢ ص ٦ .

(٥) أدب النديم ص ٤٤ ب — ٤٥ ب .

الأضياف إلى النهوض قبل أن يشبعوا ، ومن المأثور قول بعضهم :

وحمد الله يحسن كل وقت ولكن ليس في وقت الطعام

لأنك تحشم الأضياف عنه وتأمرهم بإسراع القيام

وتؤذّنهم ، وما شبعوا ، بشبع وذلك ليس من خلق الكرام^(١)

ويستحسن الجاحظ (المتوفى عام ٢٥٥ هـ ٨٩٦ م) من النديم ألا يمشش

العظام ، ولا يبادر إلى البيض الموضوع على البقل ، ولا يأخذ لنفسه أكباد

الدجاج وصدورها أو المخ أو الكلى أو العيون — وهي لا تزال حتى اليوم أحب

ما في الشاة إلى أهل البلقان — أو صغار القراريج^(٢) . ولكن بعد الجاحظ

بقرون يذكر صاحب كتاب الموشى في باب زى ذكر الظرفاء في الطعام : اعلم أن

أول ما استعملوه تصغير اللحم ، والتجالل عن الشره والنهم ، وأكل الأوساط الرقاق ،

والبز ماورد الدقاق ؛ وليس يأكلون العصبة والعضلة ، ولا العرق والكولة ، ولا

السكرش والقبة ، ولا الطحال والرثة ، ولا يأكلون القديد ، ولا الثريد ، ولا ما في

القدر من الورق ، ولا يتحصّون الرق ، ولا يتبعون مواضع الدسم ، ولا يملأون

أيديهم بالزهم ، ولا يخللون الملح ، وهو عندهم من أكبر القبح ، ولا يكوكبون في

الخل ، ولا يمعنون في أكل البقل ، ولا يأكلون الطلع الشبيهة رائحته برائحة الماء

الداق ، ولا يمششون من العظام كراديس قصب الساق الغليظ ، وإنما مشاشهم

ما لأن وصفه لا ما غلظ وكبر ، ويأخذون ما ثقل من المشاش على ظهور الأصابع

ويطرحونه ناحية من الخوان ، ولا يزعمون ما بين أيديهم من الرغفان ، ولا

(١) أدب النديم ص ٤٥ ب ، وأحسن ما سمعت للتحالي طبعة مصر ١٣٢٤ هـ ص ١٠٣ .

(٢) عمد المنسوب للتحالي في مجلة جمعية المستشرقين الألمان ZDMG, VIII, S. 518.

وهو كتاب ثمار القلوب في المضاف والمنسوب : وكان القصابون يذبحون كثيرا يوم الجمعة

فأكل الناس اللحم يوم الجمعة ، ثم تؤكل الرؤوس يوم السبت (كتاب البغلاء للجاحظ طبعة

فان فلوتن ص ١٢١) ، ولذلك كان الناس بالأندلس حتى بسد العصر الإسلامي بزمان طويل

يأكلون رؤوس الغنم يوم السبت انظر Mendoza, Lazarillo de Tormes; Reclam, S. 31.

يتعدون مواضعهم ، ولا يلطمون أصابعهم ، ولا يملؤون باللقم أفواههم ، ولا يذسمون بكبرها شفاههم ، ولا يقطرون على أكفهم ، ولا يعجلون في مضغهم ، ولا يأكلون بجانبى الشدقين ، ولا يزاوجون بين الاثنين ، ولا يأكلون قدراً بائنة ولا قدراً مسخنة ، ولا يأكلون شيئاً من الكوريح والصحناء ، ولا الريشاء والسميكات ، ولا شيئاً من الكواميخ والمالح ، وأكل ذلك عندهم من الفضائح^(١). ولم يكن يفرد لأحد من الضيوف طبق على حدة ؛ ويحكى عن أبي رياس ، (عاش في النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى) أنه كان آية في حفظ أيام العرب وأنسابها وأشعارها ؛ ولكنه كان وسخ اللبسة قليل التنظيف شربها على الطعام ساء الأدب في المؤاكلة ، دعاه والى البصرة أبو يوسف اليزيدى إلى مائتته يوماً فلما أخذ في الأكل مدَّ يده إلى بضعة لحم فاتهشها ثم ردها إلى القصعة ، فكان بعد ذلك إذا حضر مائتته أمر بأن يهَيَّأ له طبق لياكل عليه على حدة ، ودعاه الوزير المهلبى يوماً إلى طعامه فامتخط في منديل الغمر وبرزق فيه ، ثم أخذ زيتونة من قصعة فغمزها بعنف حتى طفرت نواتها فأصاب وجه الوزير^(٢).

وقد نال فن الطبخ عناية كبيرة من جانب المؤلفين ، حتى لنجد أبا الحسن على بن هارون المعروف بالمنجم وكان ممن يجالس الخلفاء ، وإبراهيم بن المهدي وكان أميراً يحسن الغناء ، وجحظة وكان شاعراً مجيداً ؛ نجدهم جميعاً يؤلفون كتباً في الطبخ في القرن الثالث الهجرى^(٣) ؛ بل يذكر للمؤرخ الشهير ابن مسكويه (عاش حتى عام ٤٢٠ هـ) — وكان خازن كتب عضد الدولة — كتاب « في تركيب الباجات من الأطعمة » « أحكمه غاية الإحكام وأتى فيه من أصول علم الطبخ بكل غريب حسن^(٤) » . ويقول الهمداني في أهل اليمن : « ولم مع ذلك ألوان الطعام

(١) كتاب الموشى ص ١٢٩ — ١٣٠ . (٢) البنية ج ٢ ص ١٢٠ .

(٣) الفهرست ص ١٤٥ . (٤) أخبار الحكماء للقفطى ص ٣٣١ وما بعدها .

والخلاوى والشرابة التى تؤثر على غايات ألوان كتب المطابخ^(١) . ولكن يظهر أن جميع هذه الكتب قد ضاعت مع الأسف ، وكتب الطبخ التى وصلت إلينا كلها حديثة العهد ، وهى تشتمل على ضروب من الطبخ هى مزيج غريب قوامه اللحم والمسك والكافور وماء الورد^(٢) كما كان إلى ذلك يميل الإيطاليون فى عصر النهضة . أما الكتب التى بقيت من العصر الأول^(٣) فتدل على ذوق خير من ذلك ، وهى تجعل ماء الورد والعنبر والكافور لصنع الخلاوى . وكانت الخلاوى أحسن ما يصنع فى طعام الأعياد ، ويظهر أنها كانت تصنع بأكبر مهارة بلغها فن الطبخ ، فكانت تصنع أبراج من السكر وتوضع فى وسط المائدة ؛ ويحكى عن التنجى مثلاً أنه قال شعراً يشكر فيه رجلاً أهدى إليه هدية فيها سمك مصنوع من سكر ولوز فى عسل^(٤) .

وكان وقت السامرة بمعناها الصحيح يفصل عن وقت الطعام فصلاً تاماً ، وكان لا يبتدىء إلا مع أقذاح الشراب ، ولم يكن النبيذ يشرب على الطعام حتى فى أشد العصور فساداً ، وكانت المشهيات تتألف من أشياء حريفة وكانت تسمى الثقل وربما كان ذلك أخذاً عن الكلمة اليونانية Nogalmata أو الكلمة اللاتينية Nuclei ، وهما على ما تدل عليه كلمة نقل العربية . وكان أهل التطرف لا يكثر من أكل النقل ، وإنما يعبثون منه بالشئ اليسير ، ويجتنبون الهندباء والأكشوت لبردهما ، والفجل والحرف لنتنهما ، والكراث والبصل لرائحتهما ، ولا يقع الثوم أو البصل فى قدر فياً كلونه ، ولا يقربون الخيار والقثاء والهلين ، ويرغبون عن أكل الزيتون لنواه ، وكذلك عما خالطه النوى من فاكهة الصيف .

(١) وصف جزيرة العرب للهمداني ص ١٩٨ .

(٢) حكاية أبي القاسم ص ٣٩ — ٤٠ من مقدمة متر .

(٣) مروج الذهب ج ٨ ص ٣٩٢ وما بعدها . (٤) ديوان الخنسي ص ١٨ .

كالقشْب والتمر والشمش والنبق والعناب والخوخ والشاهلوج والأجاص وهو
عندهم من أكل العوام لا من أكل الخواص ، ولا ينفق عندهم الرمان والتين
والبطيخ لصوته إذا انكسر ، ولا يأكلون الحنطة المحمصة ولا السمسم المقلو
ولا الزبيب الأسود وهم يشبهونه بالبر ، ولا يأكلون الباقل والبسر المقلو والبلوط
والقريثاء والغبيراء والشاهبلوط والخرنوب الشامى ونحو ذلك ، وأكثر ما يتنقلون
به مملوح البندق ومقشر الفستق والملح النفطى والعود الهندى والطين الخراسانى
والملاح الصناعى وسفرجل ، بلخ وتفاع الشام وقصب السكر المغسول بماء الورد^(١) .
وكان الشراب منتشراً رغم نهى القرآن عنه ، ولكن مسألة الشراب كانت
تختلف باختلاف البلاد ، فبينما كان يعاقب عليه فى الحجاز حتى يحكى أنه فى عام
١٦٩ هـ — ٧٨٥ م قبض عمر بن عبد العزيز على أحد العلويين مع آخرين على
شراب فأمر بضربهم جميعاً وبأن تجعل فى أعناقهم الحبال ويضاف بهم فى المدينة ،
كان أهل العراق لا يرون بالشراب بأساً^(٢) ، وانتشرت دور الخمر كما كان عليه
الحال قبل الإسلام ، وكان الخمار والساقون والساقيات فى الغالب نصارى ، ويقول
ابن المعتز :

من كف ظي مُقرطق غننج يعشقه من عليه يعذلى
تلوح صلبانه بلبته كنور خيرية بلا غصن
يالىته من جاءه يقربه من فضل قربانه يقربنى^(٣)
وكذلك كان حال الشراب فى مصر ، فيحكى المقدسى أن المشايخ فيها
لا يتورعون عن شرب الخمر حتى ترى الشيخ منهم سكران^(٤) ، وذهبت كل
أوامر رجال الشرطة سدى ، وفى آخر عهد الفاطميين كان يكتب فى أغلاق قاعات

(١) الموشى ص ١٣٠ — ١٣٢ ؛ وحكاية أبى القاسم ص ٤٨ .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٥٥٢ . (٣) ديوان ابن المعتز ج ٢ ص ٦٤ .

(٤) المقدسى ص ٢٠٠ .

الخمارين بالقاهرة ومصر ومنع بيع الخمر في آخر جمادى من كل سنة^(١) . ويحكى عن نساء مراکش وهى بلاد كثيرة الأعناب أنهن كنّ مولعات بالشراب^(٢) . ويحدثنا أحد الرحالين المحدثين أنه فى أول جنى العنب يكون الكثير من أهل مراکش سكارى^(٣) . ويحكى عن الأزهرى اللغوى المشهور أنه ذهب إلى ابن دريد العلامة البصرى (المتوفى عام ٣٢١ هـ — ٩٣٣ م وقد جاوز التسعين) فوجده سكران فلم يعد إليه بعدها أبداً ، وكان زوّاره يدخلون عليه فيستحيون مما يروونه من العيدان المعلقة والشراب وهو فى تلك السنّ العالية^(٤) . وفى عام ٣٢١ هـ أيضاً أمر الخليفة القاهر بتحرّيم الغناء والخمر ، « وكان هو مع ذلك يشرب المطبوخ ، ولا يكاد يصحو من السكر »^(٥) ، ويذكر عن الخليفة الراضى الذى جاء بعد القاهر أنه كان أعطى الله عهداً ألا يشرب ، ولم يزل من خلافته نحو سنتين محافظاً على عهده لا يشرب ، وكان جلساؤه يشربون بين يديه فلا يشرب معهم إلا الجلاب ، ولكن أصحابه لم يزالوا به ليشرب ، فكتب رقعة بلفظ يمينه وعرضها على الفقهاء فوجدوا له رخصة ، فأعطى أستاذه ونديمه الصولى ألف دينار ليتصدق بها عنه وشرب^(٦) ، وكان الخليفة المستكنى قد ترك النبذ فلما أفضت إليه الخلافة عام ٣٣٣ هـ — ٩٤٤ م دعا به من وقته وعاد إلى شربه^(٧) ، وكان فى بيوت الكبراء إلى جانب صاحب المطبخ رجل يسمى الشرابى شأنه العناية بالشراب وآلته وبالفاكهة والروائح^(٨) . وكان الشراب عادة للكثيرين حتى كبار ذوى

(١) الخطط للقرى ج ١ ص ٤٩١ .

(٢) زناد الوادى مخطوط ليدن رقم ١٠٥٣ ص ٦٣ .

(٣) Rohlf, mein erster Aufenthalt in Marokko, S. 75 .

(٤) المنتظم لابن الجوزى ص ٤٩ ب ، والنجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٥٦ طبعة ليدن .

(٥) مكوه ج ٥ ص ٤٢٤ ، والنجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٥٤ .

(٦) الأوراق للصولى مخطوط باريس ص ٦١ — ٦٢ .

(٧) مروج الذهب ج ٨ ص ٣٩٠ .

(٨) الفرّج بعد الشدة ج ٢ ص ١١ .

المناصب الشرعية ، فيحكي أنه كان جماعة من الكبراء ينادمون الوزير المهلبى ،
ويجتمعون عنده فى الأسبوع ليلتين على أطراح الحشمة والتبسط فى القصف
والخلاعة ، منهم ثلاثة قضاة هم ابن قريعة ، وابن معزوف ، والتنوخى ، وما منهم
إلا أبيض اللحية طويلها ، فإذا تكامل الأنس ، وطاب المجلس ولذ السماع وأخذ
الطرب منهم مأخذه وضع فى يد كل منهم كأس ذهب وزنه ألف مثقال مملوء
شرايا قطر بليا أو عكبريا ، فيغمس لحيته فيه بل ينقعها فيه حتى تتشرب أكثره ،
ويرش منه بعضهم على بعض ، ويرقصون أجمعهم وعليهم المصبتات ومخائق البرم ،
فإذا أصبحوا عادوا إلى عاداتهم من التزمّت والتوقّر والتحفّظ بأبهة القضاة وحشمة
المشايخ الكبراء^(١) . وكان يحضر إلى مجلس الشراب فى منزل كاتب للخليفة
قاضٍ من قضاة بغداد توفى عام ٤٢٣ هـ — ١٠٣١ م ، وكان لا يشرب إلا قارصا ،
فأرسل صاحب المنزل غلاما وأحضر خماسية من دكان إسحاق الواسطى فيها من
الشراب الذى كان بأيديهم إلا أن على رأسها كاغداً وختما مكتوب عليه « قارص
من دكان إسحاق الواسطى » ، فشرب القاضى منه ثم سأل عن الشراب فقيل له :
قارص ، فقال : لا بل والله الخالص ، ثم ثنى وثلث ، فكان الغلام كلما أتاه القدح
سأله عنه ، فيقول تارة : مدام وتارة خندريس ، فإذا قال له خمر حرّ د واستخف
به ، فلم يشرب القاضى إلا بمقدار ستة أسماء أو سبعة من أسماء الخمر حتى تبطّح فى
المجلس وأُلف فى طيلسانه وحمل إلى داره^(٢) . ويحكى عن ابن طباطبائي نقيب
الطالبيين بمصر المتوفى عام ٣٥٢ هـ — ٩٦٣ م ، وهو يشغل منصبا دينيا من الطبقة
الأولى أنه كان له شعر فى الخمر فن ذلك قوله^(٣) :

(١) يتيمة الدهر للثعالبي ج ٢ ص ١٠٦ .

(٢) الإرشاد لياقوت ج ٥ ص ٢٦٠ وما بعدها .

(٣) المغرب لابن سعيد ص ٤٩ .

أترك الشرب والأنوار دائمة والطلّ منها على الأشجار منشور
والغصن يهتز كالنسوان من طرب والورد في العود مطوى ومنشور
لا والتي تركتني يوم فرقتها كأنما الرمل في عيني منشور
على أنه يحكى عن المتنبي الشاعر الكبير المتوفى عام ٣٥٤ هـ - ٩٦٥ م أنه
هجر الخمر ، وعزم على ألا يشرب إلا ما يشربه الكرم يعنى الماء ، من قوله :
هجرت الخمر كالذهب المصقى نخمري ماء مُزِنٍ كاللجين^(١)

ولكن هذا لم يكن من المتنبي تورعا ، فهو لم يكن له بالدين أكثر من
ويذكر عن الحاكم بأمر الله أنه لما عنّ له أن يعيد العمل بأحكام الإسلام الأولى
نهى الناس عن شرب النبيذ وتشدد في ذلك ، حتى استطبّ أبا يعقوب إسحاق
ابن إبراهيم بن أنسطاس ، فأشار عليه بشرب النبيذ وذكر له ما فيه من المنافع
فجئح إلى مشورته ليتداوى بشربه ، وأغضى عما كان قد أمر به من منع الخمر ،
بل استدعى المغنين وأصحاب الملاحى إلى مجلسه وشرب على غنائم وخلع العذار
معه ، وأحسن إليهم ، ورجع الناس في أمر النبيذ إلى ما كانوا عليه من قبل ؛
ولكن لما مات ابن أنسطاس عاد الحاكم إلى النهى عن الخمر ، ومنع منه أشد
منع حتى منع من بيع الزبيب والعسل ، وأحرق منهما وغرق في النيل شيئا
كثيرا للتجار يُقدّر بمال عظيم ، وكسر الضروف التي يوعى فيها النبيذ ومنع
من عملها^(٢) .

أما كثرة الشاربين وقتلهم فكان يُكره جلوس الاثنين للشراب ، وهو
يسمى المنشار ؛ لأن المنشار يجلس عليه رجلان ؛ وكان الثلاثة يعتبرون أتم
مجلسا ، لأن الاثنين ينهض أحدهما لبعض حاجته فيبقى الآخر وحده واجما^(٣) .

(١) ديوان المتنبي طبعة بيروت ١٢٧٦ هـ ص ٥١ ، وكان يخشى أن تضر الخمر بصحته ؛

انظر الديوان ص ٢٤٢ . (٢) يحيى بن سعيد ص ١١٨ .

(٣) أدب النديم لكشاجم ص ٣٢ .

وإذا كان القدماء قد استحسنوا الشراب مع نساء ذوات أدب ولباقة يتراوح عددهن بين ثلاثة وتسعة فإننا نجد أبا نواس يقول :

ثلاثة في مجلس طيب وصاحب الدعوة والضارب
فإن تجاوزت إلى سادس أذاك منهم شغب شاغب^(١)
وقد ارتضى المتأخرون بعد أبي نواس هذا العدد ، قال الشاعر :
فليدع منا خمسة متخيرين ولا يزد
فدوسن هذا وحشة وفوقه سوق الأحد

وقال الشاعر فيمن لا يعتد بمجالسته :

خرجنا جميعاً إلى نزهة وفيها زياد أبو صصعة
فسته رهط به خمسة وخسة رهط به أربعة^(٢)

وكانت أرض قاعة الشراب يُنثر عليها الزهر ، كما كان الحال عند القدماء وعند الروم البوزنطيين ، وكانت أكاليل الزهر تزين رؤوس الشاربين . قال السلاحي الشاعر في الدير الذي بقنطرة النوبندجان وقد شربوا هنالك ، ولبسوا أكاليل الزهر :

أقنطرة النوبندجان وديرها وهور مهى لا تألف الحور غيرها
شربنا بها والروض يخلع زهره على الشرب والأشجار تنثر طيرها^(٣)
وقال الصنوبري في رفاقه على الشراب :

على ذا تاج ورد وعلى ذا تاج نسرين^(٤)
وكان المتظرفون يحنى بعضهم بعضاً بالورد ، وكان لا يستحسن أن يدفع

(١) ديوان أبي نواس ص ٣٥٦ ، ٣٥٨ .

(٢) محاضرات الأدباء ج ١ ص ٤٢٨ ، ٤٤٩ .

(٣) يقية الدهرج ٢ ص ١٧٠ .

(٤) جهرة الإسلام مخطوط لندن رقم ٢٨٧ ص ١١٣ .

بعضهم إلى بعض وردة واحدة ، « ولا تقول متظرفة لأخرى : هذه وردتك »
فهذا عندهن من أكبر العيوب ويعتبرونه من كلام العوام^(١) . وكان الأدباء
يحیی بعضهم بعضاً بالفاكهة على الشراب ، ويقول عبدان الأصبهاني :

سقيت وفي كف الحبيبة وردة وأترجة تغرى النفوس بصوتها
مداماً فلما قابلتني بوجهها شربت فحيتني بلونى ولونها^(٢)

وكان من مستلزمات الشراب الغناء والرقص ، وكانت آلات الموسيقى في
أغلب الأحيان أربعاً^(٣) كما هو الحال اليوم ، وكان الجوارى يغنين من وراء
ستارة ، ولكن كان من المبالغة في إكرام الضيف أن تغنى المغنيات بين يدي
الستار ، ويحكى أن أبا الحسن على بن الفرات خلا للشراب في وزارته الأولى ،
وحضر جماعة من كتابه وأصحابه ، وحضر من المغنيات بين يدي الستار ومن
ورائهما ما لا يحصى كثرة^(٤) . وكان التأثير بالغناء قويا ، فكان منه ما يسر وما يبكي ،
وما يزيل العقل حتى يغشى على صاحبه ، ويذكر أنه لم يكن في الإسلام أحسن
صوتاً من مخارق ، غنى يوماً في منزله ، وقد سنحت ظباء فجاءت إعجاباً بغنائه ،
وتوسط دجلة يوماً وغنى فلم يبق أحد إلا بكى ، وكان غناؤه أحياناً يسر من جماله
كل قلب^(٥) . وغنى الأمير إبراهيم بن المهدي مرة في مجلس المأمون فأحسن ،

(١) الموشى ص ١٣١ ، وبتيمة الدهرج ٢ ص ٤٠ (٩) .

(٢) البتية ج ٣ ص ١٢٩ .

(٣) ديوان ابن المعتز ج ٢ ص ١١٨ : الجنك والعود والقانون والزمارة ، ويذكر
التنوخى (هامش المستطرف ج ٢ ص ١٤٤) أنها العود والطنبور والزمارة والجنك ؛ وانظر
فيما يتعلق بالإيقاع الموسيقى ودرجانه والرقص وأنواعه وشمائله والصفيات المحمودة من الرقص
في طباعه وخلقه وعمله مروج الذهب ج ٨ ص ١٠٠ وما بعدها . وكان الرقص يسمى بأسماء
الموسيقى من خفيف ورقل وهزج وخفيف الثقيل الأول أحياناً أو يسمى بأسماء خاصة من
نحو رقص الجمل أو رقص البكرة ونحوها أحياناً أخرى .

(٤) كتاب الوزراء ص ١٩٣ ، وكان ذلك حوالى عام ٣٠٠ هـ .

(٥) محاضرات الأدباء ج ١ ص ٤٤٣ — ٤٤٤ .

وكان في المجلس كاتب من كتاب طاهر بن الحسين يُكنى أبازيد ، وكان قد بعثه في بعض أموره ، فطرب أبوزيد ، فأخذ بطرف ثوب إبراهيم^(١) فقَبَّله ، فنظر إليه المأمون كالمنكر لما فعل ، فقال له أبوزيد : ما تنظرا أقبله والله ولو قتلت . فتبسم المأمون^(٢) . وفي أواسط القرن الثالث الهجري نزل عبيد الله بن طاهر عند المعتز فأراه أشياء عجيبية منها أنه أسمع غناء سارية وزمر رنّام الزامر ؛ وأدخله إلى شبّاك ، وأمر أن يجمع بين السبع والقبيل فرأى توائهما ، ثم سأله أي أطرف فيما رأى ، فقال : غناء سارية ، وكان عبيد الله نفسه مما يحسن الشعر^(٣) ، ويحكى أنه اشترت من بغداد جارية رائعة الحسن والغناء للأمير تميم بن المعز لدين الله بمصر (توفي تميم عام ٣٦٨ هـ — ٩٧٨ م) فغنت له ولجلسائه فأطربته ، ولم يزل غناؤها يزيد طرباً حتى أفرط جدا فقال لها : تمنّي ما شئت فلك منك ، فقالت : أتمنى عافية الأمير وبقاءه ، فأعاد عليها ، فتمنت أن تغني ما غنت ببغداد ، فلم يجد الأمير بدا من الوفاء لها وأرسلها إلى بغداد ، فلما قاربتها أفلتت ممن أرسلت معهم ، وبقى الأمير بمصر ذاكرة لها واجماً عليها^(٤) . وثمّ حكايات كثيرة من هذا القبيل . وكان يعتري البعض عند سماعه الغناء تأثر شديد ، فكان أحدهم يمزق ثيابه ، ويدق الحائط برأسه ، ومنهم من كان يتمرغ في التراب ، ويهيج ويزبد ويعض بنانه ، ويركل برجله ، ويلطم وجهه^(٥) . وكانت تذكر على الشراب وتستحسن الحكايات

(١) كان إبراهيم ممن رُشح للخلافة وخرج على المأمون فقبض عليه .

(٢) كتاب بغداد لطيفور ص ١٩٢ .

(٣) كتاب الديارات للشافعي ص ١٤٤ — ب .

(٤) المتظم لابن الجوزي ص ١١٤ — ب .

(٥) حكاية ابن القاسم ص ٧٨ وما بعدها ، يقول ستيندهال : إن الغناء الحقيقي في جال الموسيقى ؛ وهو مضحك نادر في فرنسا أو يعتبر في العادة ضرباً من الادعاء ، يشاهده الإنسان كلما خطا في إيطاليا ، فلما كنت مسكراً بمدينة بريشيا قدمت لرجل يعتبر أكثر أهل ذلك المكان تأثراً بالموسيقى ، وهو رفيق جدا وعظيم الأدب ، ولكنه كان إذا حضر حفلة =

القصيرة من النوادر الهزلية والأحاديث التي تتجلى فيها البقاة العقلية . فيحكى عن طاهر ذى اليمينين (حوالى عام ٢٠٠ هـ) أنه كان إذا تغذى مع أصحابه وخرج عن حد الجِدِّ تبسطوا فى أخبار العامة وما يحسن من الهزل^(١) . أما الحكايات الطوال التي يغنى باقتصاصها زمان المجلس ، وتتعلق بها النفوس ، وتحبس على أواخرها الكؤوس ، فكان ينبغى التنكب عنها لأنها بمجالس القصاص أولى منها بمجالس الخواص^(٢) . يقول ابن المعتز^(٣) :

وندامى فى شباب وحسن أتلفت حالهم نفوس كرام
بين أقداحهم حديث قصير هو سحر وما سواه كلام
وكان السقاة بين الندامى ألفت على سطور قيام

وكان البعض يؤثرون هذه اللذة — لذة محادثة الرجال — إثارة شديداً ، فيحكى عن قنن — وكانت جارية من آدب الجوارى فى زمانها — أنها سألت مسلماً المعروف بالمتيم : أى الأمور عنده ألد وأشهى ، محادثة الرجال أم استماع الغناء أم الخلوة بالنساء ، فقال : محادثة الرجال^(٤) . ويقول المسعودى : قالوا فى المثل : الحديث ذو شجون . يريدون بذلك تشعبه وتفرعه عن أصل واحد إلى وجوه من المعانى كثيرة إذ كان العيش كله فى المجلس الممتع^(٥) . وقال الأخشىد مرة للشاعر سعيد المعروف بقاضى البقر : حدثنى بحديث صغير صغير بطول

== موسيقية وأخذ منه الطرب إلى درجة ما ، خلع نعله من غير أن يشعر ، فاذا وصل الموسيقيون إلى قطعة بالغة الجمال لم يغفل قط عن رى نعليه وراءه على السامعين . ورأيت فى بولندة أشع النابى يرمى بماله إلى الأرض إذا بلغت منه الموسيقى مبلغها (Stendhal, vie de Rossini, p. 18)

- (١) . كتاب بغداد لطيفور ص ١٠٨ .
(٢) . أدب النديم لكشاجم ص ٤٣ ؛ ومروج الذهب للمسعودى ج ٦ ص ١٣٢ —
١٣٣ . (٣) ديوان ابن المعتز ج ٢ ص ٦٣ .
(٤) أدب النديم لكشاجم ص ٤٠ — ب .
(٥) مروج الذهب ج ٦ ص ١٣١ — ١٣٢ .

الإصبع^(١) ، فهو مشتاق للجديث كأنه طفل صغير . وكان الأدباء — من له ملكة شعرية ومن ليس له — يرتجلون القصائد القصيرة في وصف الزهر وآنية الشراب الجميلة والمغنين والمغنيات والسماة ، ويحكى أنه أحضرت في مجلس لأصحاب الشاعر الكبير أبي الطيب صورة دمية تدور حول نفسها وقد رفعت أحد ساقيها وأمسكت بيديها باقة زهر ، فكانت كلما أدارت وجهها نحو أحدهم شرب على ذلك ثم دفعتها لتدور ، وكان المتنبي كلما جاء دوره يقول فيها بعض الشعر^(٢) .

وكان شرب النبيذ مقللاً لا تنتشر المخدرات الأخرى ، قال الكلام في تناول الحشيش لم يظهر في مؤلفات الفقهاء إلا في القرن الثالث الهجري ، وقد حرّمه الشافعية وأباحه الحنفية^(٣) ؛ ولا نجد له ذكراً في الحكايات المأثورة من القرن الرابع . ويدل تاريخ الحشاشين على أن تناول الحشيش كان يعتبر شيئاً جديداً كل الجدة عند العامة ، أما الشاي الصيني فلم يكن قد استعمل للشراب في ذلك العصر ، وإن كان أحد الرحالين قد حكى في وصفه للصين في كتاب كتبه حوالى عام ٢٣٧ هـ — ٨٥١ م أن الشاي كانت تدفع عليه المكوس كغيره من الأشياء^(٤) . ولا نجد أن التدخين بأي نوع من أنواعه كان من أنواع اللذات ، ولكن كان الطين يمضغ (انظر الفصل الخاص بالخاصات) . ويحكى السعوى في أوائل القرن الرابع الهجري أنه كان يأتي من الهند ورق النابتول لمضغ ، وأنه في ذلك العصر غلب مضغه على أهل مكة وغيرهم من الحجاز واليمن بدلا من الطين^(٥) . وكان الماء الثلج أكبر لذة للناس في فصل الصيف ، ويحكى أنه لما ولي

(١) المقرب لابن سديد ص ٣٣ . (٢) ديوان المتنبي ص ١٦٠ وما بعدها .

(٣) الخلافة للعامل ص ١٨٦ . (٤) سلسلة التواريخ طبعة رينو ص ٤١ ، ولم

يكن قد استعمل في الصين قبل ذلك بزمان طويل . وأول ما فرضت عليه الرسوم كان عام

٧٩٣ م (Pfizmaier, SWA, 67, 422)

(٥) مروج الذهب ج ٢ ص ٨٤ .

ابن الفرات الوزارة ، وكان اليوم الذى خُلع عليه فيه شديد الحر ، سقى فى داره أربعون ألف رطل من الثلج فى يوم وليلة^(١) . وكان الكبراء يحملون الثلج فى حرّاتهم^(٢) . وكان الثلج يحمل من الشام إلى قصر كافور الأخشيدي بمصر ليستعمل فى تبريد المشروبات^(٣) . وكان يدخل إلى دار ابن عمار الوصى على الحاكم بأمر الله والوسيط بينه وبين الناس نصف حمل ثلجاً فى كل يوم ، وذلك فى أواخر القرن الرابع الهجرى^(٤) . أما فى مكة^(٥) والبصرة فلم يكن الثلج ميسوراً . يقول أبو إسحاق الصابى :

لهف نفسى على المقام ببغدا دوشربى من ماء كوز بثلج
نحن بالبصرة الذميمة نسقى شرسقيا من مائها الأترجى
أصفر منكر ثقيل غليظ خائر مثل حقنة القولنج
كيف نرضى بشربه وبخير منه فى كنف أرضنا نستنجى^(٦)

وقد حكى التنوخى حكاية جماعة من الكتاب كانوا قاصدين مصر للتصرف ، فلما وصلوا دمشق أقبلوا يخترقون الطرق لا يدرون أين ينزلون ، حتى اجتازوا برجل شاب حسن الوجه جالس على باب دار شاهقة وبناء فسيح ، وبين يديه غلمان ، فدعاهم إلى النزول عنده وألح عليهم ، فاستحووا من حسن ظاهره وهيئته وقبلوا الدعوة ، فأكرمهم إكراماً غريباً فى بابه ، وضيّفهم بضروب من الإضافة تذكّر لغرايتها ، فأقبل غلمان هذا الرجل وحملوا متاع الكتاب ولم يدعوا غلمانهم يخدمونهم ،

(١) مريب ص ٦١ . (٢) المحاسن والساوى للبيهقى ص ٤٤٧ .

(٣) مطالع البدور للنزولى ج ٢ ص ٧١ .

(٤) الخطط للقرنيزى ج ٢ ص ٣٦ . (٥) كتاب الفرج بعد الشدة .

(٦) يتيمة الدهر ج ٢ ص ٤٧ ، ويقول ابن الأثير (ج ٩ ص ١٦) إن السلطان عضد

الدولة منع من عمل الثلج والقرز وجعلهما متجرا للغاس ، أليس يجوز أن تقرأ النص مصححين كلمة بثلج بكلمة ملح ؟

وأحضروا لهم الطسوت والأباريق فغسلوا وجوههم ، ثم أجلسوهم في مجلس حسن مفروش بأنواع القبرش ، وإذا الدار في نهاية الحسن ، ثم عرض عليهم الحمام فدخلوه ، ودخل معهم غلمان مُرَد وصبيان في نهاية الحسن ، فخدموهم بدلا من القيم ، ثم خرجوا إلى مجلس آخر ، وقدمت إليهم مائدة حسنة عليها خير ألوان الطعام فأكلوا ، ثم دخل إليهم غلامان أمردان في نهاية الحسن فغمزوا أرجلهم ، حتى لحقهم من ذلك مع الغربة وطول العهد بالجماع عنت ، فأمرؤهم بالانصراف ، وتعففوا عن التعرض لهم لنزولهم على صاحبهم . ثم أخذوا إلى مجلس في بستان حسن ، وأحضرت الأنبذة الطيبة ، فشربوا أقداحا يسيرة ، ثم ضرب صاحب الدار بيده على ستارة ممدودة ، وإذا جوار خلفها ، فأمرهن بالغناء فغتن أحسن غناء ، فلما توسطوا الشراب قال صاحب الدار للجواري : « ما هذا الاحتشام لأضيافنا أعزهم الله ! أخرجن » ، وهتك الستارة ، فخرج عليهم جوار لم يُرَ قط أحسن ولا أملح ولا أظرف منهن ، ما بين عوادة وطنبورية وزامرة وصنّاجة ورقاصة ودقّافة بفاخر الثياب والحلى ، وأحطن بالضيوف ، فاشتدت محبتهم لهن ، ولكنهم ضبطوا أنفسهم ، فلما كادوا أن يسكروا ومضى بعض الليل أقبل عليهم صاحب الدار وقال : يا سادة ! إن تمام الضيافة وحققها الوفاء بشرطها ، وأن يقوم المضيف بحق الضيف في جميع ما يحتاج إليه من طعام وشراب وجعاع ، وقد أنفذت إليكم نصف النهار الغلمان فأخبروني بعفافكم عنهم ، فقلت : هم أصحاب نساء ، فأخرجت هؤلاء ، فرأيت من انقباضكم عن ممازحتهن ما لو خلوتن بهن كانت الصورة واحدة ، فما هذا ؟ فقالوا : يا سيدي أجللناك عن تبدل ما في دارك ، وفينا من لا يستحل الحرام ، فقال : هؤلاء مماليكى ، وهن أحرار لوجه الله تعالى ، وإن كان لابد من أن يأخذ كل واحد منكم بيد واحدة ويتمتع بها ليلة ، فمن شاء زوجته بها ومن شاء غير ذلك فهو أبصر ، لأكون قد قضيت حق الضيافة ، فلما سمعوا ذلك ،

وقد انتشوا طربا ، أخذ كل واحد منهم بيد واحدة وأجلسها إلى جانبه ، وأقبل يقبلها ويقرصها ويمازحها ، فمنهم من تزوج ومنهم من لم يفعل ، وجلس معهم ساعة ثم نهض ، فإذا بخدم قد جاءوا فأدخلوا كل واحد وصاحبه إلى بيت في نهاية الحسن مفروش بفاخر الفرش وتركوا معها ما يحتاجان إليه فباتا في أرغد عيش ، فلما جاء الصباح جاء الخدم وعرضوا عليهم الحمام ، فدخلوه ودخل معهم المردان ، فمنهم من أطلق نفسه معهم فيما كان امتنع منه بالأمس ، وخرجوا فبخروا بالنند وأعطوا الماورد والمسك والكافور ، وكذلك كان حال غلمان الضيوف كحال سادتهم ، ذلك أنهم قدمت إليهم الجوارى الروميات فوطئوهن ، وأقبل بعضهم على بعض يفص حكايته حتى حسبوا أنفسهم في منام لا في يقظة ، فأقبل عليهم صاحب الدار وسألهم عن ليلتهم فوصفوها فسألهم : أيما أحب إليكم الركوب إلى بعض البساتين للتفرج حتى ينحى وقت الطعام أو اللعب بالشطرنج والورد أو النظر في الدفاتر ؟ فاشتغل كل منهم بما أحب ، ثم أحضرت لهم مائدة كائدة الأمس ، فأكلوا ، ثم تكرر ما حدث بالأمس من أمر المردان والجوارى ، وقد زال الاحتشام ودام أصحابنا على هذه الحالة أسبوعا^(١) .

وكان الفقهاء في البداية لا يجيزون لعب الشطرنج ، ثم تساهلوا في أمره ، ويُذكر أن من رشيق فتاوى سهل بن أبي سهل مفتى نيسابور المتوفى عام ٤٠٤ هـ — ١٠١٣ م في الشطرنج : إذا سلم المال من الخسران ، والصلاة عن النسيان ، فذلك أنس بين الخلان^(٢) . وكان الصولى حوالى عام ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م

(١) ثمرات الأوراق لابن حجة الحموى على هامش البستطرف طبعة مصر ١٣٠٨ هـ

ج ٢ ص ١٦٣ — ١٦٦ .

(٢) طبقات السبكي ج ٣ ص ١٧٢ ؛ وسبيل أبو العباس شريح عن الشطرنج ، فقال :

إذا سلنت أيديهما من الطغيان ، ولسانهما من العدوان ، وصلواتهما من النسيان ، فهو مباح بين الاخوان ، غير محرم على الخلان — محاضرات الأدباء ج ١ ص ٤٤٧ .

أحسن لاعب للشطرنج ، وقد مهد له ذلك دخول دار الخلافة^(١) وكان من الشطرنج نوع يُلعب في قصر الخليفة المعتضد حوالي آخر القرن الثالث الهجري يسمى اللعب بالجوارح أو الجوارحية ؛ فيه كل حاسة من حواس الإنسان تنافس الأخرى^(٢) ، ولم يكن جلوس اللاعبين صامتين بعضهم إلى جانب بعض من عادات العرب ، وكان العربي القح يشعر بما في ذلك من غرابة عن طباعه ، ويحكى أن أهل المدينة كانوا لا يزوجون لاعب الشطرنج ، وقال العرب إنما وضع الشطرنج للعجم الذين لا علم لهم ؛ لأنهم كانوا إذا اجتمعوا تلاحظوا تلاحظ البقر فجعلوا لعب الشطرنج مشغلة^(٣) . أما العرب فكان أعظم شيء عندهم الموسيقى والإيقاع مع الغناء إلى جانب ما امتازوا به من الأمثال والنوادر اللطيفة والعبارات البليغة ، ويحكى عن الخليفة المأمون بعد قدومه من خراسان وارتقائه عرش الخلافة أنه اشتهى الشطرنج ، فاستحضر كبار أهله ، فكانوا يتوقرون بين يديه حتى ضاق بذلك وقال : إن الشطرنج لا يلعب مع الهيبة ؛ قولوا ما تقولون إذا خلوتم^(٤) . ونوادر الشطرنج التي وردت في كتاب حكاية أبي القاسم مأخوذة من مجالس الشطرنج^(٥) ، وكان الغالب في لعب الشطرنج يتطلع إلى شيء من المتاع كأن تعمل بعده أكلة طيبة^(٦) ؛ أما النرد ، وهو يلعب على رقعة بها اثنا عشر أو أربعة

(١) مروج الذهب ج ١ ص ٣١١ ؛ وكان الشطرنج يلعب على ورقة مربعة حمراء من آدم (مروج الذهب ج ٨ ص ٣١٦ ؛ وكتاب بغداد لطيفور ص ٢٩٣) ، ويذكر المسعودي في المروج (ج ٨ ص ٣١٣ وما بعدها) آلات الشطرنج على اختلاف هيئاتها ، فيذكر إلى جانب الآلة المربعة المشهورة عندنا آلة مستطيلة وآلة مدورة منسوبة إلى الروم ، وأخرى تسمى النجومية أو القليكية وأياتها اثنا عشر على عدد بروج الفلك ؛ فيها ينقل سبعة أمثلة مختلفة الألوان على عديد ألحسة الأنجم والنيرين وعلى ألوانها ، وهذا ما يقوله المسعودي عام ٣٣٢ هـ .

(٢) مروج الذهب ج ٨ ص ٣١٤ ، والفهرست ص ١٣١ .

(٣) مخاضرات الأدباء ج ١ ص ٤٤٨ . (٤) نفس المصدر ص ٤٤٩ .

(٥) حكاية أبي القاسم ص ٩٣ وما بعدها .

(٦) كتاب الديارات ص ٣٥ ب .

وعشرون منزلاً بثلاثين حجراً وفصين ، فكان لعبة تدور على الصدفة والاتفاق .
 وشبهه بعض الحكماء رقعة النرد بالأرض الممهدة لساكنها ، ومنازل الرقعة ، وهي
 أربعة وعشرون ، بساعات الليل والنهار ، وبيادتها وهي ثلاثون بعدد أيام الشهر ،
 واختلاف ألوانها باختلاف بياض النهار وسواد الليل ، ومنازلها الأربع بالطباع
 الأربع ، وهكذا ، وشبهه ما يخرج من الفصين إذا رمى بهما بالقضاء الجارى على
 العباد ؛ ولهذا ظل أهل الورع ساخطين عليه ، ويسميه أبو الليث السمرقندى
 « عمل الشيطان » هو وسباق الحير والصيد بالكلاب ومهارة الكباش والديوك .
 وكان النرد يلعب ابتغاء الكسب صراحة ، فيحكى أن رجلاً لعب آخر فغلبه ،
 فأخذ منه عشرين ديناراً . ويحكى: غن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سابق بين
 الخيل ، ويروى عنه عليه السلام في روايات كثيرة أنه قال : لا تحضر الملائكة
 من اللهو شيئاً إلا ثلاثة : هو الرجل مع امرأته ، وإجراء الخيل ، والنضال .
 غير أن الفقهاء اشترطوا في هذه الرياضة التى أباحوها وهي مسابقة الخيل ألا تلعب
 طلباً للمال ، وكان سباق الخيل كثيراً بمصر ، وبلغ من شغف الناس به وتقديرهم
 له أن السابق كان يأخذ حصان المسبوق ؛ وذلك عام ١١٩٠ هـ — ٩٠٦ م ، وتولى
 على مصر يزيد بن عبد الله التركى عام ٢٤٢ هـ — ٨٥٦ م ، وكان متشدداً فحظر
 الرهان ، وأمر ببيع الخيل التى كانت تؤخذ للسلطان^(١) ؛ وكانت هذه الخيل
 يُنفق عليها من مال الدولة على العادة الجارية قبل الإسلام ؛ ولكن الخيل جرت
 من جديد عام ٢٤٩ هـ — ٨٦٣ م^(٢) . وكانت حلببة السباق فى أيام خمارويه
 تقوم مقام الأعياد^(٣) . وفى عام ٣٢٤ هـ شرع الأخشيدي فى إجراء حلببة السباق

(١) الولاة الكندي من ٤٠٢ ، ٢٠٣ . (٢) نفس المصدر من ٤٠٢ .

(٣) الخطط للمقرئى ج ١ ص ٣١٨ .

على رسم أحمد بن طولون^(١) ، ويذكر المسعودي أن لعيسى بن هبة المصري كتاباً يسمى كتاب الجلائب والحلائب ذكر فيه كل خلقة أُخزيت في الجاهلية والإسلام^(٢).

وكان الناس مولعين بسباق الحمام رغم إنكار الفقهاء له^(٣) ، وكان منتشر في مصر ، وزاد كثيراً في القرن الخامس الهجري . ويحكى عن الخليفة المعز أنه سابق بنجمه حمام الوزير أبي الفرج يعقوب ، فسبق حمامه حمام الخليفة ، فعظم ذلك على المنز^(٤) ، وكذلك كان البعض يحارش بين الكباش والديوك والكلاب^(٥) وكان عند سبكتكين التركي قائد جيوش السلطان معز الدولة كبش قوى النطاح وقد ذكره ابن الججاج في شعره ، وتمنى لو ترك لينطح زوجاً كرية الصورة لمغنية كان متعلقاً بها^(٦) . وكان بعض الناس يلعبون بالسمان^(٧) بل نجد الناس اليوم مولعين بالمهارة بين هذا الطير في تركستان ولعاً شديداً ، حتى إن رجلاً يملك هذه الطيور صار رجلاً ذا شأن بتلك البلاد ، وقد استطاع أن يفوز بحياة رغدة بالمهارة بين طيوره^(٨) . وكان القمار أكثر ما يلعب بفصي النرد^(٩) ، وقد شغف الناس بذلك رغم تحريم القرآن للقمار . بل يحكى من أخبار عصر النبي عليه السلام أن أبا لهب قامر العاصي بن هشام فقمه حتى أخرجه من ماله ، ثم عرض عليه العاصي أن يقامره فأيهما قمر كان عبداً لصاحبه^(١٠) . ورؤى عن ابن جامع

(١) المغرب لابن سعيد ص ١٨ .

(٢) مروج الذهب ج ٤ ص ٢٥ . (٣) Goldziher, AFR, VII, p. 422.

(٤) مدخل البدور للغزولي ج ٢ ص ٢٦٠ .

(٥) كتاب بغداد لطيفور ص ١٣٨ ، والندوة المندونية مخطوط باريس رقم ٣٣٢٤

ص ٢٥ ، ومروج الذهب ج ٨ ص ٢٣٠ ، ٣٧٩ .

(٦) ديوان ابن الججاج مخطوط بغداد ص ١٤١ .

(٧) مروج الذهب ج ٨ ص ٣٧٩ . (٨) V. Schwarz, Turkestan, S. 290.

(٩) انظر مثلاً كتاب بغداد لطيفور ص ١٣٨ . (١٠) الأغاني ج ٣ ص ١٠٠

المغنى في عصر الرشيد أنه قال : « لولا أن القمار وحب الكلاب شغلاني لترك
المغنين لا يأكلون الخبز^(١) . ويحكى عن الشريف الرضى في أواخر القرن الرابع
الهجرى أنه عاقب أحد العلويين وأفرط في معاقبته لأنه كان يقامر بما يتحصل له
من حرفة ينانيتها ويترك أطفاله محتاجين^(٢) . وكانت مراقبة دور القمار ومنعها من
جملة المهام التى يقوم بها المحتسب^(٣) . وكان بمصر شيوخ يسمون المطمعين ؛ لهم
جراية من دور القمار ليحلبوا الناس إليها ويطعمونهم فى اللعب . وقد حكى ابن
سعيد : أن الأخشيد فى وقت من الأوقات أمر بهدم المواخير ودور المقامرين والقبض
عليهم فأخذوا ، وأدخل عليه جماعة منهم وعرضوا عليه وفيهم شيخ له هيئة ،
فقال : هذا الشيخ مقامر ؟ فقالوا : هذا يقال له المطمع ، فقال الأخشيد : وإيش
الطمع ؟ قالوا : هو سبب عمارة دار القمار ، وذلك أن الواحد إذا قمر ما معه ، قال
له : لعب على ردائك ، فلعلك تغلب ، فإذا ذهب رداؤه قال له : لعب على قميصك .
حتى تغلب به كل شيء ، حتى يبلغ إلى نعليه ، وربما اقترض له ، ولهذا الشيخ
جراية يأخذها على ذلك كل يوم من متقبل دار القمار ، فضحك الأخشيد وقال :
يا شيخ ! تب إلى الله وحده من هذا ؛ فتأب وأمر له الأخشيد بثوب ورداء وألف
درهم ، وقال يجري عليه فى كل شهر عشرة دنانير ، فانصرف الشيخ شاكرًا داعيًا
فقال : ردوه ، وقال : خذوا ما أعطينا وابطحوه فضر به مائتى عصا ثم قال :
خلوه ، أين هذا من تطميعك^(٤) ؟

أما الرياضة التى كان أكثر ما يشتغل بها الكبراء والوزراء فكانت اللعب
بالصوالة ، كما هو الحال عندنا اليوم ، واللعب بالصوالة هو ضرب كرة من على

(١) نفس المصدر ج ٦ ص ٧٠ . (٢) ديوان الشريف الرضى ص ٣ من المقدمة .

(٣) الأحكام السلطانية للناوردي طبعة أنجر من ٤٠٤ .

(٤) المغرب لابن سعيد ص ٣٠ .

ظهور الخيل وأصلها فارسي^(١). وكان الخلفاء يلعبون بالصوالة في ميادين خاصة في قصورهم^(٢). ويحكى أنه في سنة ٢٦٣ هـ دخل الوزير أبو الحسين عبد الله بن يحيى بن خاقان التركي ميداناً في داره يوم الجمعة ليضرب الصوالة؛ فركب ولعب فقدمه خادمه وسقط من على دابته ميتاً^(٣). وكان اللاعبون بعد الفراغ من لعبهم يدخلون الحمام الساخن ويدلكون^(٤). ومن إجادة الضرب بالصوالة؛ أن يضرب اللاعب الكرة ضربة خلسة، ويكون ضربه متشازراً مترقاً مترسلاً، وأن يتوخى الضرب للكرة تحت مخزم الدابة من قبل لها في رفق، وألا يستعين بسوط، وألا يؤثر في الأرض بالصولجان أو يكسره أو يعقر قوائم دابته، وعليه أن يحترس من إيذاء من جرى معه في الميدان، وأن يحسن الكف للدابة في شدة جريانه، متوقياً من الصرعة والصدمة في تلك الحال، وأن يجانب الغضب ويتحفظ من إلقاء كرة على ظهر بيت، وإن كان ست كرين بدرهم، وأن يتجنب طرد النظارة والجالسين على حيطان الميدان، لأن غرض الميدان إنما جعل ستين ذراعاً ثلاثاً يحال ولا يصل من جلس على حائطه^(٥). أما الديلم فكانوا شعباً جبلياً، فآثروا الرياضة البدنية البسيطة، فيحكى أن معز الدولة لما جاء إلى بغداد انتهى رؤية الصراع؛ فكان يعمل بحضرته حلقة في ميدان، فتقام شجرة وتجعل عليها ثياب الديباج والروى ونحوها، وتوضع تحتها أكياس فيها دراهم، ويقف

(١) محمد القارىء وصفنا حسن هذه اللعبة كتبه أحد مؤرخي الروم وذلك في كتاب

كاترمير. f. 11. Quatremère, Hist. des Mameloucs I,

(٢) كتاب الوزراء ص ١٣٨.

(٣) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٣٨ من طبعة ليدن، وفي عام ٣١٥ هـ — ٩٢٧ م سقط أسفار بن شبرويه والى جزجان من على دابته وهو يلعب الكرة فأت (زبدة الفكرة ص ٢٠٣ ب). (٤) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ١٣٢٧.

(٥) عيون الأخبار لابن قتيبة طبعة بروكلمان ص ١٦٦ — ١٦٧. نقلا عن كتاب

العيون والحقائق.

على سور الميدان أصحاب الطبول والزمر ، وعلى الباب أصحاب الدباب ، ثم يؤذن للعامية في دخول الميدان ، فمن غلب أخذ الثياب والشجرة والدرهم ؛ ثم دخل في ذلك أحداث بغداد حتى صار بكل موضع صراع ، فإذا برع أحدهم صارع بحضرة معز الدولة ، فإن غلب أجريت عليه الجرايات ؛ فكم من عين ذهبت بلطمة وكم من رجل اندقت . وشغف شبان معز الدولة بالسباحة فتعاطاها أهل بغداد حتى أحدثوا فيها الطرائف ، فكان الشاب يسبح قائماً وعلى يده كانون فوقه حطب يستعمل تحت قدر إلى أن ينضج ؛ ثم يأكل من القدر إلى أن يصل دار السلطان^(١) . على أنه بالرغم من كل هذه الرياضات بقي الصيد محتفظاً بكل ماله من شأن ، بل ظهرت في تمجيده قصائد خاصة^(٢) ، إلا أن معظمها يدور حول مدح كلاب الصيد ووصفها ، وكان أشهر الوحوش الضارية هو الأسد ، ولم تكن السباع في ذلك العصر نادرة بالشام ، ولا على شواطئ نهري الدجلة والفرات ؛ بل كانت أحيانا تدنو قريباً جداً من بغداد ، حتى يحكى أنه في عام ٣٣١ هـ — ٩٤٣ م خرج الخليفة المتقي إلى الشامية بجوار بغداد لصيد السباع^(٣) . ويحكى عن خمارويه صاحب مصر أنه كان لا يسمع بأسد إلا يبحث في طلبه^(٤) . وكانت قصص السباع وصيدها تحتل مكاناً كبيراً من أحاديث التسلية^(٥) . وكانت إذا اختفت آثار رجل في طريق فأول ما يتبادر إلى الذهن أن يقال أكله الأسد^(٦) . كان بقصر الخليفة

(١) المنتظم لابن الجوزي ص ٥٧٣ — ١٧٤ .

(٢) تسمى قصائد الصيد بالقصائد الطردية ، ولم تستعمل كلمة طرد في معنى الصيد إلا عند الآخرين ، ويقول (Lane) إن أول من استعملها الزنجي ، وأصلها شامي ، وكان أهل غرب الشام يستعملون كلمة طارد بدلاً من كلمة صاد . انظر كتاب : Barhebraeus, Buch der Strahlen, S. 30 (ترجمة موبرج Moberg) .

(٣) المنتظم لابن الجوزي ص ١٧١ ؛ وفيما يتعلق بالشام راجع قصائد المتنبي في الصيد .

(٤) الخطط ص ٣١٦ . (٥) الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ٧٠ وما بعدها .

(٦) رسائل أبي العلاء طبعة مرجليوث ص ٢٦ .

بسماءاً على عهد المعتصم مكان يحفظ به الحيوان ، وهو يسمى حير الوحش^(١) . ويحكى عن المعتز حوالى منتصف القرن الثالث الهجرى أنه أطلع عبید الله بن عبد الله بن طاهر ، وقد نزل ضيفاً عنده ، عراكا بين أسد وفيل ، وكان ذلك أحد العجائب التى أطلعه عليها^(٢) . ولكن حب الاطلاع على غرائب الحيوان زاد حتى صار اهتماما كبيرا به ، فيحكى عن خارويه بن أحمد بن طولون أنه بنى فى داره الكبيرة موضعا للسباع ، وعمل فيه بيوتا ، كل بيت لسبع لا يسغ غير السبع ولبؤته^(٣) . وكان فى قصر الخليفة المقتدر ببغداد حوالى عام ٣٠٠هـ - ٩١٢ م دار بها قطعان من أصناف الوحش^(٤) ، وصار يرسل إليها كل غريب من الحيوان من جميع البلاد . وكان جعفر بن الفضل بن القرات الوزير بمصر المعروف بابن خنزابة المتوفى عام ٥٣٩١ هـ يهوى النظر إلى الأفاعى والحيات والعقارب وما يجرى مجراها من الحشرات ، وكان فى داره قاعة لطيفة مرخجة فيها سلال الحيات ، ولها قيم فراش حاوٍ من الحواة ومعه مستخدمون ، وكان كل حاوٍ فى مصر وأعمالها يصيده ما يقدر عليه ، وكان الوزير يثيبهم ويبدل لهم الجزيل حتى يجتهدوا فى تحصيلها ، وذات يوم انساب إلى دار ابن المدبر الكاتب - وكان يسكن إلى جوار الوزير - الحية البتراء وذات القرنين الكبرى والعقربان الكبير وأبو صوفة ، فكتب إليه أن يأمر حاشيته وصبيته بحصون ما يوجد منها إلى أن ينفذ الحواة لأخذها ، فلما وقف ابن المدبر على ما فى الخطاب قلبه وكتب فى ذيله : أتانى أمر مولانا الوزير أدام الله نعمته وحرس مدته بما أشار به فى أمر الحشرات ، والذي يعتمد عليه فى ذلك أن الطلاق يلزمنى ثلاثا إن بت أنا أو أخذ منى أولادى فى الدار والسلام^(٥) .

(١) الأغاني ج ١٠ ص ١٣٠ . (٢) كتاب الديارات ص ٢٤ ب .

(٣) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٦٠ . (٤) تاريخ بغداد طبعة سلون ص ٥٣ .

(٥) الإرشاد لياقوت ج ٢ ص ٤٠٩ - ٤١٠ ، والخطط ص ٣١٩ .

وكان اللعب بالخيال معروفاً ، فكان لأحد طباطبي المأمون ابن يُسمى عبادة ، وكان من أطيب الناس ، وأخفهم روحاً وأحضرهم نادرة ، قال له دعبيل يوماً : والله لأهجونك ، قال : والله لئن فعلت لأخرجن أمك في الخيال ^(١) . وكذلك كان الناس بمصر يخرجون في بعض الأعياد ، ويطوفون الشوارع بالخيال والتماثيل والسماجات ^(٢) وكان ثمّ مقلدون بالمعنى الصحيح أيضاً ، وكان يسمى الحاكية ، وكان التقليد والمحاكاة يعتبران فنين جديرين بالعناية ؛ فكان ببغداد رجل يعرف بابن المغازلي يقف على الطريق ويقص على الناس أنواع الأخبار والنوادر المضحكة ، وكان في نهاية الخدق يقلد كل طوائف الناس ؛ فلا يدع حكاية أعرابي أو نجدى أو نبطي أو زطي أو زنجي أو سندی أو تركي أو خادم إلا حكاها ، وكان يخط ذلك بنوادر تضحك الشكول وتصبي الحليم ، وقد سمع المعتضد بنوادره فأعجب بها وأمر بإحضاره بين يديه ^(٣) . وفي القرن الرابع الهجري كان أبو الورد من عجائب الدنيا في المطاوعة والمحاكاة ، وكان يخدم الوزير المهلب ، ويحكى شمائل الناس وألسنتهم فيؤديها كما هي فيعجب الناظر والسامع ويضحك الشكلاّن ^(٤) . وفي القرن الخامس الهجري نجد محمد بن أحمد أبا المطهر الأزدي يؤلف كتاباً سماه حكاية أبي القاسم البغدادي جعل فيه مثل هذه المحاكاة والتمثيل موضوعاً للأدب ، وجعل ذلك وسيلة لوصف أخلاق عامة ببغداد . وكلامهم القبيح ، وكل ذلك في شخص أبي القاسم هذا ^(٥) . ويذكر لنا الرخالة فون فيردى V. Werde أنه شاهد

(١) كتاب الديارات ص ١٨١ .

(٢) الخطط ج ١ ص ٢٠٧ نقلاً عن السبكي المتوفى عام ٤٢٠ هـ — ١٠٢٩ م .

(٣) مروج الذهب ج ٨ ص ١٦١ وما بعدها ، وقد أضيفت هذه القصة في المستطرف

(ج ٢ ص ٢٠٣) إلى شخصية أكثر جاذبية هي شخصية الرشيد . وتكلم عن الحاكية الجاحظ

في البيان والتبيين (ج ١ ص ٣٦) والتمالي في عهد المنسوب ZDMG, V.

(٤) يتيمة الدهر ج ٢ ص ٤٢ ، وكتاب عهد المنسوب ZDMG, V.

(٥) نشر حكاية أبي القاسم متر Mez مؤلف هذا الكتاب .

بمضرموت حاكياً هنلياً يقلد أفعال الترك والبحريين بل الأعراب^(١) ، ويحدثنا سخاو Sachau في العصر الحديث عن رجل كهذا^(٢) : وقد نجد أحياناً ذكر ما يسمى بالسماجات ، فهي تذكر في مصر في بعض الأعياد^(٣) ، وفي بغداد في يوم النيروز ، حيث كان أصحاب السماجات يلعبون بين يدي الخليفة وكل منهم متنكر بصورة منكرة^(٤) .

(١) V. maltzan, II, S. 119 .

(٢) Esachau, Am Euphrat und Tigris, S. 655 f .

(٣) الخطط ج ١ ص ٢٠٨ نقلاً عن السبكي .

(٤) كتاب الديارات للشافعي ص ١٥ / ننتب وانظر الفصل الخامس بالأعياد .

الفصل الثاني والعشرون

أحوال المدن^(١)

لا نعرف عن القرن الرابع إلا تصنيفاً واحداً للمدن ، وهو لا يقوم على أساس سياسى ، ويفرق بين المدن على هذا النحو :

- (١) الأمصار ، وهى البلاد التى يحلها السلطان ، وتجتمع فيها الدواوين ، وتقلد منها الأعمال ، وتضاف إليها مدن الأقاليم .
(٢) القصبات ، وهى عواصم الأقاليم ، ومقامها من الأمصار مقام الحجاب من الملوك .

- (٣) المدن أو المدائن ، وهى ما يلى القصبية فى الأقاليم ، ومقامها مقام الجند .
(٤) النواحي مثل نهاوند وجزيرة ابن عمر .
(٥) القرى وهى الملحقة بالمدن ومقامها مقام الرجالة^(٢) .

والعلامة التى تُعرف بها المدينة هى أن يكون بها منبر ، وقد شدد الحنفية بنوع خاص فى أنه لا تقام الجمعة إلا فى الأمصار الجامعة التى تقام فيها الحدود ، ولما كان رأى أصحاب أبى حنيفة هو الممثل عند الأمير ببخارى فذلك كان ببلاد ما وراء النهر قرى كبار لا يعوزها من رسوم المدن وآلاتها إلا الجامع^(٣) ؛ «وكم تعب

(١) ظهر هذا الفصل بعنوان : von der Muhammedanischen Stadt im 4. Jahrhundert ، فى مجلة 74 — S. 65 (1912) ZABd. .

(٢) المقدسى ص ٣٥ ، ٤٧ ، ورويت تقسيمات للبلاد لوحظ فيها الخصال النفسية كقول الجاحظ : إن الأمصار عشرة ، الصناعة بالبصرة والفصاحة بالكوفة والخير ببغداد والغدر بالرى والحسد بهراة والجفاء بنيسابور والبخل بمر و الطرمذة بسمرقند والروءة ببلخ والتجارة بمصر .
(انظر تاريخ بغداد مخطوط باريس ص ١٥) .

(٣) المقدسى ص ٢٨٢ .

أهل بيكنند حتى وضعوا بها المنبر ! » . وقد كان بفلسطين على ضيق رقعتها نحو خمسين منبراً^(١) .

وكان من أثر تلك القيمة التي للمنبر ؛ أن الإنسان حتى في المدن الكبرى كان يلزم مسجداً جامعاً واحداً لا يجد غيره^(٢) . وكان ببغداد حوالى عام ٣٠٠ هـ نحو من سبعة وعشرين ألف مسجد^(٣) ، ولكن صلاة الجمعة كانت لا تقام إلا في المسجد الجامع ، وفي مسجد دار الخلافة — لهذا المعتضد حوالى عام ٢٨٠ هـ — وكان هذان المسجدان بطبيعة الحال يضيقان بمن يسعى إليهما من جموع المصلين ، حتى كانت الصفوف تمتد من المسجد في الشوارع حتى تنتهي إلى دجلة ؛ وكان المتباطئون في السعي إلى الجمعة يدركون المصلين ، وقد ضاق الوقت والمكان ، فيصعدون من سميرياتهم ويفرشون بعض ما عليها ، وإذا قامت الصلاة تقل المكبرون التكبير للناس عند الركوع والسجود والنهوض والقعود^(٤) . وكان بالقسطنطينية أيضاً مسجدان للجمعة : المسجد الذي بناه عمرو بن العاص والمسجد الذي بناه أحمد بن طولون^(٥) . أما البصرة فكان فيها في القرن الثالث الهجري سبعة آلاف مسجد ، وكان بها في القرن الرابع ثلاثة جوامع^(٦) . وهذا يبعث على الدهشة وذلك لتغير المعنى الإسلامي القديم للمدينة ، وتتلخص أهمية ذلك العصر في أن الرسوم الإسلامية الأولى رقت وتضاءلت في جميع مظاهر الحياة ،

(١) الأصبغري ص ٥٨ .

(٢) كان الشافعية بنوع خاص متشددين في ذلك ؛ انظر حسن المحاضرة للسيوطي ج ٢

ص ١٥٥ .

(٣) تاريخ بغداد طبعة سلون ص ٧٦ حيث ذكر عدد الحمامات بدلاً من عدد المساجد ، ويذكر اليعقوبي (كتاب الجغرافيا ص ٢٥٠ ، ٢٥٤) أنه كان بالجانب الشرقي من بغداد خمسة عشر ألف مسجد ، وبالجانب الغربي ثلاثون ألفاً .

(٤) تاريخ بغداد مخطوط باريس ص ١١٥ . (٥) الأصبغري ص ٤٩ .

(٦) جغرافية اليعقوبي ص ٣٦١ ، والقدس ص ١١٧ .

كما أنها تتلخص في ظهور الرسوم الشرقية القديمة من جديد وبقائها بالإجمال على الصورة التي اتخذتها في ذلك العهد . ففي القرن الرابع بدأ أولو الأمر في جعل عدد المساجد ذات المنابر متمشياً مع حاجات الناس ومطالبهم ، فيذكر المقدسي أنه كان إلى جانب مسجد عمرو بن العاص ستة جوامع تقام فيها صلاة الجمعة ، وأن الزحام كان يشتد في جامع عمرو حتى تمتد الصفوف في الأسواق على أكثر من ألف ذراع من الجامع ، وحتى تكون القياسير والمساجد الصغيرة والدكاكين جولة من كل جانب مملوءة بالمصلين ^(١) . وقد أحصى ناصر خسرو في عام ٤٤٠ هـ غير هذه المساجد السبعة أربعة أخرى في القاهرة ^(٢) . أما في بغداد فكان ازدياد عدد المساجد أبطأ سيراً ؛ فكانت الصلاة لا تقام في أول الأمر إلا في مسجدى المدينة والرصافة إلى وقت خلافة المعتضد ، فإنه في عام ٢٨٠ هـ جعل الناس يصلون في دار الخلافة بقصر الحسنى على دجلة ، ولما جاء المكتفى أقام في هذا المكان منسجداً جامعاً ؛ فاستقرت الصلاة في المساجد الثلاثة حتى عام ٣٢٩ هـ ؛ وذلك أنه كان بالموضع المعروف ببراثة مسجد يجتمع فيه قوم من الشيعة رُفِعَ للمقتدر أنهم يجتمعون على سب الصحابة والخروج على الطاعة فأمر بكبسه وأخذ من فيه ، ثم هُدم حتى سُوى بالأرض ، فأمر بحكم بإعادة بنائه وإحكامه وتوسيعه ، وكتب في صدره اسم الخليفة الراضى بالله ، ثم جُمع فيه وصار أحد مساجد الحضرة . وفي سنة ٣٧٩ هـ وسع منسجد صغير بقطيعة أم جعفر في الجانب الغربى بعد أن رأت امرأة في المنام أنها ماتت وأن النبي عليه السلام صلى عليها فيه ووضع كفه في حائط القبلة ، واستأذن أبو أحمد الموسوى الخليفة الطائع في أن يجعله مسجداً يصلى فيه أيام الجمعة ، واحتج بأنه من وراء خندق يقطع بينه

(١) المقدسى ص ١٩٨ - ١٩٩ .
(٢) رحلة ناصر خسرو طبعة شيفر ص ٢٤٥ .

وبين المدينة ، ويصير به ذلك الصقع بلداً آخر ، فأذن الخليفة في ذلك . وفي سنة ٣٨٣ هـ ، جمع في مسجد بناء أحد الهاشميين بالحربية ؛ وذلك بعد إباء من الخليفة المطيع وإذن من الخليفة القادر بعد استفتاء الفقهاء^(١) . وفي القرن السادس الهجري وجد ابن جبير أن المساجد التي يجمع فيها ببغداد أحد عشر مسجداً ، هذا مع أنها فقدت كثيراً مما كانت عليه حتى أصبحت — على حد تعبير ابن جبير — داخلة تحت قول حبيب : لا أنت أنت ولا الديار ديار^(٢) .

ولم يكن في الدواوين سجلات إحصائية للناس سوى التي يحصى فيها من يلزمهم دفع الجزية ، ويظهر أنه في عام ٣٠٦ هـ أجصى المغنون والمغنيات^(٣) ، كما يذكر أيضاً إحصاء للفقراء^(٤) ، وقد عني جغرافيو القرنين الثالث والرابع بذكر كثير من الأرقام مثل أعداد الأبواب في المدن وأعداد المساجد والحمامات ونحوها ، ولكنهم لم يهتموا قط بذكر عدد السكان . وأخيراً ظهرت طريقة ساذجة في الإحصاء ؛ فقد ذكر ابن حوقل مرة واحدة أن بمدينة بَلَرَم قسبة صقلية ما يزيد على مائة وخمسين حانوتا للقصابين ؛ وأراد أن يتخذ من ذلك دليلاً على كثرة عدد أهلها^(٥) . وكذلك أراد بعض من روى للخطيب البغدادي أن يقدر عدد سكان بغداد في القرن الثالث مستدلاً بما ذكر له من عدد الحمامات مع ما كان فيه من مبالغة ؛ فقد ذكر له أنه كان ببغداد ستون ألف حمام ، فقدّر أن بإزاء كل حمام خمسة مساجد فيكون ببغداد ثلاثمائة ألف مسجد ، وأقل ما يكون في المسجد خمسة أنفس فيكون أهلها ألف ألف وخمسمائة ألف إنسان^(٦) . أما في القرن الخامس فقد تغير ذلك ، فنجد الرحالة الفارسي ناصر خسرو يقدر أن

(١) تاريخ بغداد طبعة سلوون ص ٦١ وما بعدها .

(٢) رحلة ابن جبير ص ٢٣٠ - ٢٣١ . (٣) حكاية أبي القاسم ص ٨٧ .

(٤) التحفة البهية طبعة القسطنطينية عام ١٣٠٦ هـ ص ٤٧ .

(٥) ابن حوقل ص ٨٣ . (٦) تاريخ بغداد طبعة سلوون ص ٧٤ .

من أهل أرجان ما يزيد على عشرين ألفاً من الذكور ، ومن أهل جدة ما يقارب خمسة آلاف ، على حين أنه يقدر أهل مكة بألفين ، ويقول إن الباقين فروا من الجماعات ، وهو يقدر أيضاً أهل كل من مدينتي بيت المقدس وطرابلس الشام بعشرين ألفاً من الذكور — ويظهر أن العشرين عنده رقم محبوب^(١) . وأوضح من ذلك كله ما قيل في قرطبة حوالي عام ٣٥٠ هـ من أن عدد الدور التي بها للرعية دون دور الوزراء وأكابر أهل الخدمة مائة ألف دار وثلاثة عشر ألف دار ، وأن مساجدها ثلاثة آلاف^(٢) .

وكان في المملكة الإسلامية أربعة أنواع من المدن : مدن على الطراز الهليني المعروف في حوض البحر الأبيض المتوسط ؛ والمدن التي على طراز جنوب جزيرة العرب مثل مدينة صنعاء ، ومن هذا الطراز مكة والفسطاط ؛ والمدن التي كانت تُشيد على الطراز البابلي ؛ والمدن التي كانت على الطراز المعروف في شرق المملكة الإسلامية . وتختص المدن العربية بضيق الدور وارتفاعها ؛ وكان بالفسطاط دور من طبقات كثيرة تبلغ الثمان حتى كأنها المنابر ، وأسفل الدور غير مسكون ، وربما سكن الدار الواحدة المائتان من الناس^(٣) ، بل يقول ناصر خسرو : « وتُرى مصر من بعيد كأنها جبل ، وبها بيوت من أربع عشرة طبقة ، وبيوت من سبع طبقات . . . وبها أسواق وشوارع توقد فيها القناديل ؛ لأن ضوء الشمس لا يصل إلى أرضها »^(٤) . أما المدن الإيرانية فكانت تتألف من قلعة (قوهندز) ومن المدينة الرسمية (ولها في العادة أربعة أبواب) ومن تسم تجاري يشتمل على

(١) نفس المصدر ص ٦٥ ؛ ٦٧ .

(٢) البيان الغرب في أخبار المغرب لابن عذاري المراكشي طبعة ليدن عام ١٨٤٩ م

ج ٢ ص ٤٧ .

(٣) الأسطخري ص ٤٩ ، وابن حوقل ص ٩٦ ، والمقدسي ص ١٩٨ .

(٤) رحلة ناصر خسرو ص ٧٠ — ٧١ من النص الفارسي .

الأسواق ؛ وكان كل قسم من هذه الأقسام محصناً بسوره الخاص ؛ وكان بين المدينة الرسمية والأحياء الخارجة عنها شغب دائم .

وقد ظهر منذ منتصف القرن الثالث الهجري طراز آخر خامس ، وذلك أن الملوك صاروا يبنون لأنفسهم إلى جانب العاصمة مدناً خاصة يتخذونها مقراً لهم مثل مدينة سامراً والجعفرية على نهر دجلة إلى جانب بغداد ، وركادة التي اتخذها بنو الأغلب بجوار القيروان ، والقطائع التي اتخذها الطولونيون إلى جوار مصر ، وفي القرن الرابع بُنيت المدن التي اتخذها خلفاء الفوالم مقراً لهم مثل المهدية والمنصورية والحمدية والقاهرة ؛ فكانت أعظم المدن نجاحاً في القرن الرابع بل في تاريخ الإسلام . أما في الأندلس فقد بنى عبد الرحمن بن محمد في غرب قرطبة مدينة سماها الزهراء ؛ وخط فيها الأسواق والقصور والحمامات ، وأمر مناديه بالنداء : ألا من أراد أن يبتنى داراً أو يتخذ مسكناً بجوار السلطان فله أربعمائة درهم ، فتسابق الناس إلى العماره وتكاثفت الأبنية حتى كادت تتصل بين قرطبة والزهراء ^(١) . وكذلك ابنتى السلطان عضد الدولة المتوفى عام ٣٧٢ هـ مدينة فناخسرو (وهو اسم عضد الدولة) اختطها على مسافة نصف فرسخ من مدينة شيراز ، وشق إليها نهراً كبيراً . أجراه من مرحلة ، وجعل إلى جنبه بستاناً سعته فرسخ ، ونقل إليها الصوافين وصناع الخز ، واتخذ بها القواد دوراً حسنة وعقارات جليلة ، وجعل لها عيداً في كل سنة يجتمع فيه القوم للفسوق واللهو ، ولكن بعد أن مات عضد الدولة خفت وأشرفت على الخراب وبطل سوقها ^(٢) .

وكانت هذه المدن تمتاز بالإنساع ، حتى نجد اليعقوبى في كلامه عن سامراً لا يمل من وصف إنساعها ، فيقول : إن المتوكل جعل عرض الشارع الأعظم فيها

(١) ابن حوقل ص ٧٧ (٢) المقدسى ص ٤٣٠ - ٤٣١ . ومعجم باقوت ؛

وانظر : Schwary, Iran, s. 50 .

مائتي ذراع ، وقدّر أن يحفر في جنبي الشارع نهريْن يجري فيهما الماء من النهر الكبير^(١) . وكانت القاهرة في أول وضعها تكاد تكون مدينة حداثق ، فيذكر ناصر خسرو (ص ٤٥) أن كل الدور منفصل بعضها عن بعض حتى إن أشجار إحداها لا تبلغ حائط الأخرى^(٢) .

وقد نالت مياه الشرب في المملكة الإسلامية عناية كبيرة ، ولكن مجاريها — رغم هذه العناية — لم تبلغ من الكبر ما بلغت مجارى الماء عند القدماء ؛ وذلك لأن المسلمين كانوا يتفقدون من الإسراف في العناية بالأبدان إشفاق أهل العصور الوسطى في الغرب ، وكانوا أكثر تعجباً من أشياء أخرى بناها القدماء ؛ فنجد في كتاب الموالى للكندى (المتوفى عام ٣٥٠ هـ) هذا السؤال : ما هو أعجب شيء في الدنيا ؟ والجواب : منارة الإسكندرية ومجارى مياه قرطاجنة^(٣) ، وقد أطرى ياقوت (ج ٤ ص) عقود هذه المجارى وأعمدتها التي تشبه المنابر .

وكانت طريقة إمداد الناس بالماء في قسبة القطر المصرى طريقة لا أثر فيها للرقى قط ، فكان أهل مصر يشربون ماء النيل ، يحمله الخالوف في الروايا ويصعدون الدور كل طبقة بنصف دانق^(٤) . ويحكى ناصر خسرو (ص ٢٤٤) في عام ٤٤٠ هـ أنه كان بمصر والقاهرة اثنان وخمسون ألف رجل لحمل قِرب ماء الشرب في هاتين المدينتين . وفي سنة ٣٨٢ هـ نودى بالسقائين في مصر أن يغطوا الروايا التي تحملها الجمال والبغال مملوءة بالماء لئلا يصب الماء الذي يتساقط منها ثياب الناس^(٥) .

(١) جغرافية اليعقوبى ص ٢٦٦ .

(٢) وقد أصاب القاهرة فيما بعد ما أصاب غيرها من المدن ، حتى نجد ابن سعيد في القرن السابع يشكو ضيق دروبها وكثرة التراب والأزبال فيها ، وارتفاع مبانيها حتى ضيقت مسلك الهواء والضوء (الخطط للمقريزى ج ١ ص ٣٦٦) .

(٣) الخطط للمقريزى ج ٢ ص ١٦١ (١) .

(٤) المقدسى ص ٢٠٧ . (٥) الخطط للمقريزى ج ٢ ص ٢٠٨ نقلا عن المسبحى .

وكان أكثر شرب أهل بغداد من ماء دجلة ؛ وكان السقاؤون يأخذونه إما من النهر مباشرة ويحملونه إلى الدور أو من مواضع تقوم مقام الخزانات وتغذيها نهيرات صغيرة ، بل كان هناك قناتان يجري فيهما الماء إلى المدينة ، وكلاهما مغطاة ومحكمة العقد ، وإحداها القناة التي كانت تأخذ من نهر كرخايا الآخذ من الفرات ؛ وكانت هاتان القناتان أقل إحكاماً من القنات والمجارى الحجرية التي كانت معروفة عند الرومان ، فكانت إحداها معقودة وفي أسفلها محكمة بالصاروج والآجر من أعلاها^(١) .

ولما كانت عين الماء بمكة مربة حتى كان لا يستطيع الإنسان أن يشرب منها ، فسرعان ما أصبح إمداد هذه المدينة المقدسة بالماء باباً من أكبر أبواب البر . وكانت القناة المعقودة تحت الأرض والتي أمرت بإنشائها السيدة زبيدة كثيراً ما تنهدم ، ففي سنة ٢٤٥ هـ غار الماء بمكة حتى بلغ ثمن القربة ثمانين درهماً ، فبعثت أم المتوكل أميرة بإصلاح القناة والإنفاق عليها^(٢) . وحوالي عام ٣٠٠ هـ كان أصحاب السلطان يستخرون جمال الناس وحيزهم لنقل الماء من جدة إلى مكة ، وكان الوزير علي بن عيسى في ذلك الوقت بمكة مغضوباً عليه من السلطان ببغداد ، ورأى ضيق الماء على أهل مكة ورأى تلك السخرة ، فابتاع كثيراً من الجمال والحير ووقفها على حمل الماء ، وأقام لها العلوفة الزاتية ومنع السخرة وحظرها ، وحفر بئراً عظيمة في الحنطين فخرجت عذبة شروباً وسماها الجراحية ، وابتاع عيناً غزيرة بألف دينار ووسّعها حتى أكثر ماؤها واتسع الماء بمكة^(٣) .

وكانت عناية أهل البر بماء الشرب في سمرقند أعظم مما تقدم ، فيحكى لنا ابن حوقل : « وقل ما رأيت خائفاً أو ظرف سكة أو مخلة أو يجمع ثامن إلى حائط .

(١) جغرافية اليعقوبي من ٢٥٠ . (٢) الطبري ج ٣ من ١٤٤ . (٣) كتاب الزواء من ٢٨٦ .

بسمرقند يخلو من ماء جمد مستل ، وذكر لي من يرجع إلى خبره أن بسمرقند في المدينة وحيطانها فيما يشتمل عليه السور الخارج زيادة على ألفي مكان يسقى فيه ماء الجمد مستللاً عليه الوقوف من بين سقاية مبنية وجباب نحاس منصوبة وقلال خرف في الحيطان مبنية ^(١) . ولهذه المدينة مياه جارية تدخل في نهر كان أصله خندقاً قديماً ، وقد بنيت له في بعض المواضع مستاة عالية عن الأرض يجري عليها الماء ، ووجه هذا النهر رصاص كله ، وهو نهر قديم جاهلي يشق سمرقند ، وهو من أعمر المواضع بها ، وله حاشية غلات موقوفة لمرمته ومصالحه ، وعليه حفظة من الجوس شتاء وصيفاً في شرط عليهم بذلك ، ولا تؤخذ منهم الجزية لبيت المال لهذا السبب ^(٢) . أما مجارى الماء المبنية تحت الأرض فكانت توجد في مدن إيران الشمالية بنوع خاص مثل قم ونيسابور ، وكانت أكبر مدن المشرق في ذلك العصر ^(٣) . ويحكى ناصر خسرو أنه كان بنيسابور كثير من مجارى الماء المتخاطة بعضها يظهر في خارج المدينة ويروى البساتين ؛ وبعضها الآخر يندد الدور بالماء ، وكانت هذه على أعماق متفاوتة تفاوتاً كبيراً ، حتى يضطر الإنسان أن ينزل إليها مائة درجة ، ولذلك قال أحد أصحاب النوادر : ما كان أبهى مدينة نيسابور لو أن مجارى الماء فيها أصبحت ظاهرة ، ودخل أهلها تحت الأرض ^(٤) . وكان على هذه المجارى والأودية قوَّام وحفظة ^(٥) ، وكانت مدينة الدينور مدينة جبلية

(١) الأضطخري ص ٢٩٠ ؛ وابن حوقل ص ٣٣٩ .

(٢) الأضطخري ص ٣١٦ ؛ وابن حوقل ص ٣٦٦ .

(٣) جغرافية اليعقوبي ص ٢٧٤ — ٢٧٥ .

(٤) رحلة ناصر خسرو ص ٢٧٨ .

(٥) الأضطخري ص ٢٥٥ ، وابن حوقل ص ٣١٢ ، ومعجم البلدان لياقوت ج ٤ ص ٨٥٧ ، وفيه يعلق بالسرادين المائية في الأجزاء التي ليس بها نظام للصرف بفارس اليوم انظر كتابي : Grathe. Wanderungen in Persien, 1910, s. 103 ; Hedin, Zu Land : nach Indien I, s. 184 .

تتفجر عيوننا ، ولم يرَ أنظف من مائها ، وقد بلغ من رقي أهلها أنهم جعلوا على أفواه العيون سزملات وأنطونيات يخرج منها الماء^(١) .

أما مسألة تصريف الإفرازات الإنسانية ، وهي من المسائل العسيرة ، فيظهر أنها كانت تُحلّ حلاً سهلاً بالبصرة المشهورة بتجارتها ، ولعله كان بها تجار لهذه المهمة . وكان ذلك موضوعاً لأصحاب النوادر ، فيُحكى أن رجلاً من أهل المدينة دخل البصرة ثم انصرف ، فقال له أصحابه : كيف رأيت البصرة ؟ قال خير بلاد الله للجائع والعزب والمفلس : أما الجائع فيأكل خبز الأرز والصحناء وأما المحتاج فلا عيلة عليه استه يخرأ ويبيع^(٢) .

وكان اكتراء الحخير منذ القرن الثالث الهجري وسيلة قريبة للانتقال تستعملها الطبقة الوسطى من أهل المدن ، وكان أكبر محل يقف فيه الحمارون بحميرهم ببغداد عند باب الكرخ ، وهو مدخل القسم التجاري^(٣) . وكان بالقسطة موضع لاكتراء الحخير بالقرب من دار الحرم ، وكان كراء الحمار قيراطين^(٤) . أما في المدن التي تقوم على الأنهار كبغداد والبصرة فقد كان الانتقال بالقوارب أيضاً . وقد أحصيت السُميريات المبرانيات بدجلة في أيام الخليفة الموفق (من سنة ٢٥٦هـ - ٢٧٩هـ) فكانت ثمانين ألفاً يُقدَّر كسب ملاحها في كل يوم بتسعين ألف درهم^(٥) .

أما إدارة المدينة فكان الحظ الأوفر منها في يد عمال الدولة ، وكان من هؤلاء العمال في كل بلد من خراسان مثلاً أربعة وهم : القاضي ، وصاحب البريد ، والبندار ، وصاحب المعونة^(٦) . أما بغداد فكان جزؤها الشرقي تحت إدارة الخليفة مباشرة ،

(١) المقدسي ص ٣٩٤ .

(٢) معجم البلدان لياقوت ج ١ ص ٦٤٨ ، وعيون الأخبار طبعة بروكلمان ص ٢٦٥ .

(٣) البيان والتبيين للجاحظ ج ١ ص ٣١ . (٤) ابن بتعيد ص ٣٣ ، ويقول

ناصر خسرو عام ٤٤٠هـ أنه كان بمصر خمسون ألف حمار للكراء (ص ٥٣ من الرحلة) .

(٥) تاريخ بغداد طبعة سلون ص ٧٣ . (٦) ابن خوقل ص ٣٠٩ .

والجزء الغربي كله كان يدخل ضمن عمالة بادوريا ، ولذلك كان لا يتقلد هذا الإقليم إلا أجل العمال ، وذلك لكثرة معاملاته واختلافها وكونها مع الكبراء ، ومن ضبط ذلك كله صلح للأموال الكبيرة^(١) . وحوالي عام ٣٢٥ هـ كان أبو الحسين ابن سعد الكاتب يشتغل بتقدير أصبهان ، وولت إليه فوق ذلك جباية الخراج ، فكان صاحب البلد^(٢) . وكان إلى جانب التنظيم الرسمي تنظيم خاص ، فمثلا لما أسست بغداد قسمت الأرباض إلى أرباع ، وقلد كل ربع لرجل من الحاشية ليديره ، وكان في كل ربع زيادة على ذلك رئيس وقائد^(٣) . وكان الذي يعنى بالأمن في مقر الأمير أو الوالي صاحب الشرطة ، أما في المدن الأخرى فكان يتولى ذلك صاحب المعونة ، وكان يقوم إلى جانبها المحتسب ، باعتباره المثل الأكبر للمجتمع الذي يعتبر أن له الكلمة العليا ، والذي يشرف على الأفراد ويزعمهم إلى اتباع الحق ، وقد كان منصب المحتسب حوالي عام ٣٠٠ هـ من المناصب الوطيدة ، وكان محتسب بغداد في جملة أصحاب الخطاطبات المعروفة للكتاب ، وكان يجري مجرى الطبقة الأولى من العمال^(٤) ، وأول من بين الواجبات المتعددة التي يقوم بها الماوردي^(٥) وابن الطوير^(٦) ، وفي كثير من الأحيان كان يعهد إليه تولى مهام ، مثل الإشراف على سوق الرقيق ودار الضرب والطرز ، وقد صدر منشور إلى الولاية من بغداد حوالي عام ٣٦٦ هـ جاء فيه فيما يختص بأسواق الرقيق أن يأمر الوالي من تسند إليهم أسرها بالتحفظ فيمن يطلقون بيعه ويمضون أسره ، وبالتحرز من وقوع تجاوز فيه وإهمال له ، إذ كان ذلك عائداً بتحصيل الفروج

(١) كتاب الوزراء ص ٧٦ . (٢) الإرشاد لياقوت ج ١ ص ١٢٩ - ١٣٠

(٣) جغرافية البغدادي ص ٢٤٠ وما بعدها ، وكان رستاق الكرخ اثني عشرة قرية

(كتاب الوزراء ص ٢٥٨) .

(٤) كتاب الوزراء ص ١٥٨ . (٥) الأحكام السلطانية ص ٤٠٤ وما بعدها

(٦) المخطوط للمقرئ ج ١ ص ٤٦٣ .

وتطهير الأنساب ، وبأن يبعدوا عنه أهل الريبة ويقروا. أهل العفة ، وبألا يعضوا
بيعاً على شبهة ، ولا عقداً على تهمة ؛ وفيما يتعلق بدور الضرب أمر صاحبها
بتخليص عين الدرهم والدينار ليكونا مضروبين على البراءة من الغش ، وبإثبات
اسم أمير المؤمنين على ما يضرب ذهباً وفضة ، وإجراء ذلك على الرسم المعروف
ببغداد ، وأمر المشرف على دور الطرز بأن يراعى أن يكون النسج جيداً صحيحاً
متيناً ، وأن ينقش اسم الخليفة على ما يعمل من الثياب والفرش والأعلام ونحوها^(١) .
وكان المحتسبون يختارون في الغالب من بين القضاة ، ففي سنة ٣١٩ هـ خلع على
محمد بن ياقوت وقد مع الشرطة الحسنية ، فعظم ذلك على مؤنس ، وسأل المقتدر
حرف محمد بن ياقوت عن الحسبة ، وقال : هذا عمل لا يجوز أن يتولاه غير
القضاة والعدول^(٢) .

وكان أصحاب الشرطة يحملون آلة من السلاح تسمى الطبرزين ، وهي عبارة
عن سكين طويل يحملونها معلقة^(٣) . وكانوا يقومون بالطوف أو العسس طول
الليل إلى صلاة الفجر^(٤) .

ولم يكن في القرن الثاني الهجري بالمشرق نظام لضبط أسماء الأغراب قبل
دخولهم من أبواب المدن^(٥) . وقد تكلم أحد الرحالة المسلمين في القرن الثالث

(١) رسائل الصابي طبعة بعبدا. ص ١١٣ .

(٢) عريب ص ١٤٧ ؛ وابن الأثير ج ٨ ص ١٦٥ .

(٣) مقامات الهمداني طبعة بيروت ص ١٦٢ .

(٤) الفرّج بعد الشدة للتنوخي ج ١ ص ١٩ .

(٥) الأتاني ج ١٩ ص ١٤٧ ، حيث أوقف الرشيد ببغداد قائداً على جسر التهروان
ليتصفح الناس الذين يدخلون بغداد ويتعرف رجلاً كان الخليفة يطلبه ، وهذه طريقة كان عنها
غنى لو وجدت ثم سجلات . (المترجم)

المجربى عن نظام جواز المرور المعروف بالصين كلام من يعتبر ذلك شيئاً جديداً لا عهد له به^(١) ، وقد أحدث السلطان عند الدولة في القرن الرابع الهجرى لأول مرة نظام مراقبة الأبواب في مدينة شيراز عاصمة بلاده ، حتى قال المقدسى في حتمها « ومنع الخارج منها إلا بجواز ، وحبس الداخل والمجتاز »^(٢) .

(١) سلسلة التواريخ طبعة رينو ص ٤٢ . وقد كان بمصر منذ أول العصر الإسلامى نظام جوازات دقيق فيما يختص بالانتقال الداخلى Reinh — C. H. Becker, Papyri Sehatt I, 40 وكذلك لم يكن يجوز للرجل أن يخرج من مصر على عهد الطولونيين إلا بجواز (المغرب فى جلى المغرب لابن سعيد طبعة فولز بيرلين ص ٥٢ عام ١٨٩٤) .

(٢) المقدسى ص ٤٢٩ .

الفصل الثالث والعشرون

الأعياد .

تدل الأعياد عند المسلمين على مقدار رقة المظهر الإسلامى الذى يحيط بالحياة العامة ، فقد كان المسلمون يحتفلون بجميع الأعياد النصرانية ؛ وكان معظم هذه الأعياد النصرانية صورة جديدة لمراسم قديمة للبلاد . وكثير من المواضع التى كان يحج إليها المسيحيون فى مصر وفى العراق إنما كانت مواضع مقدسة عند الوثنيين من قبل ، ولم تكن أعياد القديسين التى كانت تعمل فى الأديرة الناشئة هناك إلا صورة جديدة لأعياد الآلهة القدماء ، ولم يَرْض الذين دخلوا فى الإسلام من أهل تلك البلاد بأن يُحرّموا من الاحتفال بهذه الأيام التى كانت تزدهى بها حياة آبائهم الوثنيين من قبل ، ولكن المسلمين خلافاً للكنيسة المسيحية ، أنفوا فى الغالب من وضع الأساطير ، وقد تركوا النصارى يتصرفون فى أمورهم الدينية من غير تدخل فى ذلك ، واشتركوا فى الجانب الاجتماعى المسلم من تلك الأعياد كما فعل آباؤهم من قبل ؛ فمثلاً كانت أعياد أهل بغداد تكاد تكون نصرانية من كل وجه ، وكانت أعياد القديسين فى مختلف الأديرة أكثر الأعياد نصيباً من احتفال الناس ؛ ولكن هذه الأديرة كانت لا تخلو حتى فى غير الأعياد من الزوار الذين لا تربطهم بالدين صلة^(١) . وكانت الأديرة يبساتينها الفسيحة ، وقاعات شربها الباردة ؛ يجتمع أهل البطالات ومقصد طلاب اللذات من البغداديين ، وكثيراً ما يقترون ذكر الأديرة بذكر الشراب فى كلام الشعراء ، قال ابن المعتز:

بدير المطيرة تقرى المبدأ م لدى القس لما أتينا زوراً

(١) . كتاب الديارات للشافعى ص ٨٠ .

وكان شراب القربان مشهوراً بنوع خاص ، ويقول ابن المعتز :

كم أردت التقى فما تركتني خندريس يديرها طاووس
من شراب القربان يوصى الشمة اس خزان يتها والقسوس

ولم يكن الحال في مصر يختلف كثيراً عما تقدم ، فقد أحصى إبراهيم بن القاسم الكاتب حوالى أواخر القرن الرابع معاهد اللهو بالقاهرة ، وذلك في قصيدة له قالها يحن فيها إلى مصر ويذكر معاهد لهوها ، كمصايد الغزلان بجانب الأهرام ، ومواخير الجيزة وجسرهما ، وبستان القس وملعب دير مرحتا ، وأحسنها كلها دير القصير ، وكان على جبل المقطم ، وكان له منظر جميل ، وهو يقول فيه :

وكم بت في دير القصير مواصلاً نهاري بليلي لا أفيق من السكر^(٢)
وقد أمر أبو الجيش خاروية الطولوني أن تُبنى له في أعلى دير القصير طبقة لها أربع طاقات على الجهات الأربع^(٣).

وكان يوم أحد الشعانين يوم عيد كبير للعامة ؛ ولا بد أنه كان عيداً قديماً من أعياد الأشجار وخصوصاً أشجار الزيتون^(٤) ، وكان في مصر يسمى عيد

(١) ابن المعتز (ديوان) ج ٢ ص ٤٦ ، ٥٠ . ويحكي شلتبرجر Schiltberger أنه وجد قساوسة الروم في المملكة الإسلامية يشتغلون بخارين (انظر : Bibl des Literar Vereins s. 50 وكذلك كان الرهبان النصارى في قرى الشام يحضرون لنا النبيذ تحت ثيابهم .

(٢) الإرشاد لياقوت ج ١ ص ٢٩١ .

(٣) تاريخ الشيخ أبي صالح الأرمني ص ١٤٩ .

(٤) وفي القرن الرابع الميلادي كانت عادة الأطفال في هذا اليوم بيت المقدس أن يدوروا حول جبل الزيتون وبأيديهم سعف النخل وأغصان الزيتون (انظر : Silvia pergrinatio s 91) ولا يزال الموارنة إلى اليوم يذهبون في يوم أحد الشعانين إلى الكنيسة بشجرة كبيرة من الزيتون ، ويباركونها ويعطونها لمن يدفع فيها ثمناً أوفر ، فيجعل مقتنيها ابنه أو صبياً يحبه فوقها ، ويطوفون بها في الكنيسة بين أصوات الفرح ، ثم يهجم القوم عليها ويأخذ كل منهم حصناً يحفظه للبركة . أما الأقباط فكانت عاداتهم أن يقطعوا قلوب النخل وسعفها وأغصانها =

الزيتونة فقط^(١) ، وكانت الوصائف في يوم أحد الشعانين يظهرون في قُصر الخلافة ببغداد متزينات في ثياب جميلة غالية وفي أعناقهن صلبان من الذهب وبأيديهن قلوب النخل وأغصان الزيتون^(٢) . وفي القرن الهجري كان رسم النصارى بيت المقدس في هذا العيد أن يحملوا شجرة من شجر الزيتون من الكنيسة التي بالعاصرية إلى كنيسة القيامة وبينهما مسافة بعيدة ويشقوا بها شوارع المدينة بالقراءة والصلوات ، حاملين الصليب مشهوراً ، ويركب والى البلد في جميع موكبه معهم ويذب عنهم^(٣) . وكان الرسم بمصر وسائر البلاد أيضاً أن تُزَيَّن الكنائس في هذا العيد بأغصان الزيتون وقلوب النخل ويُفرَّق منها على الناس على سبيل التبرُّك ؛ فمنع الحاكم بأمر الله ذلك في بيت المقدس وفي سائر أعمال مملكته ، وأمر ألا تُحمل ورقة من ورق الزيتون ولا من سعف النخل في كنيسة من الكنائس ، وألا يرى من ذلك شيء في يد مسلم ولا نصراني^(٤) . وكان الخسيس المقدس يسمى في مصر خسيس العدس ، لأن عامة النصارى كانوا يأكلون العدس في هذا اليوم ؛ وكان العدس يعتبر طعام الحداد ، وكان نصاري مصر يأكلونه في كل يوم جمعة^(٥) . وفي يوم خسيس العدس كانت تضرب خرايت تفرق على أهل الدولة^(٦) . وكان أهل

الزيتون يوم سبت العازر ويضفرونها زيتونة كبيرة بالصلبان ويكلونها بالشموع ويرفعونها إلى محل إقامة البطريرك ، ثم توضع يوم الأحد أمام الهيكل ويبتدى البابا في القداس ، وتحمل الشجرة إلى كل ركن من أركان الكنيسة الأربعة ويقرأ أمامها في كل ركن من أحد الأناجيل الأربعة ، ثم يأخذ الناس منها على سبيل البركة ، وكان بعض يدورون بالزيتونة في الأديرة والطواحين والأفران (مجلة المشرق ج ٨ (عام ١٩٠٥ م) ص ٣٤٢) .

(١) الخطط للبقريري ج ١ ص ٢٦٤ .

(٢) الأغاني ج ١٩ ص ١٣٨ . (٣) يحيى بن سعيد الخطوطي باريس ص ١١٨ ب١ .

(٤) نفس المصدر ، وكان من العادات الخاصة بالنصارى في هذا العيد لبس الثياب البيض

(ديوان الشريف الرضى ص ٩١٧) .

(٥) الزاوي ترجمة شتيفنسندر في Virchow's Archiv S: 574 .

(٦) الخطط للبقريري ج ١ ص ٤٥٩ .

الإسكندرية في يوم خميس العدس يخرجون إلى المنارة بما كلهم ، فمنهم من يذكر الله ومنهم من يصلي ومنهم من يلهو ، ولا يزالون هناك إلى نصف النهار^(١) . وفي الشام كان هذا اليوم يسمى الخميس الأزرق أو خميس البيض ، وكان يباع فيه بأسواق القاهرة بيض مصبوغ عدة ألوان « فيقامر به العبيد والصبيان والغوغاء ، وينتدب من جهة المحتسب من يرد عنهم »^(٢) . وفي يوم عيد الفصح ببغداد كان المسلمون والنصارى يقصدون دير سمالو شرق بغداد بباب الشامية على نهر المهدى ، ولا يبقى أحد من أهل الطرب واللهو إلا حضره ، وهناك يدور الشراب ، وفي ذلك قال أجد الشعراء :

فتلاعبت بعقولنا نسيوانه . وتوقدت بخدودنا نيرانه
حتى حسبت لنا البساط سفينة . والدير ترقص حولنا حيطانه^(٣)
وكان عيد دير الثغالب في آخر سبت من أيلول ، وهذا الدير يقع في الجانب الغربي من بغداد عند الموضع المعروف بباب الحديد ، وكان لا يتخلف عن عيده أحد من النصارى والمسلمين ، لأنه في أعمر موضع ببغداد لما فيه من البساتين والنخل والرياض ولتوسطه في البلد^(٤) ، وكان في اليوم الثالث من تشرين الأول عيد القديسة أشمونى ، وكان يعمل بدير أشمونى بقطر بل غربى دجلة ، وكان من الأعياد العظيمة ببغداد ؛ يجتمع أهلها إليه كاجتماعهم إلى بعض أعيادهم ، ولا يبقى أحد من أهل الطرب واللهو إلا خرج إليه ، كل منهم على حسب قدرته ، فمنهم من يأتى في الزبازب ، ومنهم من يركب الطيارات أو السميريات ، ويتنافسون فيما يظهرون به هناك من زيتهم ، ويباهون بما يعدونه لقصفهم ، ويفخرون ديره .

(١) نفس المصدر ج ١ ص ١٥٧ .

(٢) نفس المصدر ج ١ ص ٢٦٦ ، والمدخل ج ١ ص ٣٠٥ .

(٣) كتاب الديارات للشافعى ج ٤ أ ب ب .

(٤) نفس المصدر ص ١٨ ، وكتاب الآثار الباقية لليرونى ص ٣١٠ .

وأكنافه وحاناته ، ويضرب الذوى البسطة منهم الخيام والفساطيط ، وتعزف عليهم القيان ، فيظل كل إنسان منهم مشغولاً بأمره ، ومكباً على لهوه ، فهو أعجب منظر وأنزهه ، وأطيب مشهد وأحسنه^(١). وكان الغريب الذى يهبط بغداد ويسأل عن أعجب وأبهى ما يستحق أن يرى فيها يسرّ ويتسلى بأن ينتظر شهراً لرؤية عيد أشمونى . وكان عيد بربرة يُعمل فى أول الشتاء (الرابع من كانون أول) ، وكان المسلمون يعرفونه ، فيقول المقدسى إنه من أعياد النصارى التى يتعارفها المسلمون ويقدرّون بها الفصول ، وبه يعرف وقت الأمطار « ومن أمثال الناس : إذا جاء عيد بربرة فليتخذ البناء زمارة ؛ يعنى فليجلس فى البيت »^(٢) ، والمقدسى يفتخر بأنه رأى عيد بربرة^(٣) . وفى ليلة عيد الميلاد (٢٥ ديسمبر) وعيد الشمس كان يُحتفل بها بإيقاد النيران ، وقد تكلم ابن بابويه القمى الشيعى الفارسى المتوفى عام ٣٨١ هـ - ٩٩١ م^(٤) عن العلة التى من أجلها يوقد النصارى ليلة عيد الميلاد ويلعبون بالجوز ، وروى عن وهب بن منبه أنه لما أُلجأ الخاضع مريم عليها السلام إلى جذع النخلة اشتد عليها البرد فعمد يوسف النجار إلى حطب فجعله حولها كالحظيرة ، ثم أشعل فيها النار ، فأصابتها سخونة الوقود من كل ناحية حتى دثت ، وكسر لها سبع جوزات وجدّهن فى خرجه فأطعمها ، ومن أجل ذلك يوقد النصارى النيران ليلة عيد الميلاد ويلعبون بالجوز ، ولكن المسلمين كانوا يحتفلون أيضاً بليلة الوقود التى تُعرف بالسّدق^(٥) والتى تكون بحسب قانون

(١) كتاب الديارات من ١٨ ب ، والبيرونى فى الآثار من ٢٩١ .

(٢) المقدسى من ١٨٢ .

(٣) نفس المصدر من ٤٥ .

(٤) كتاب العلل بخطوط برلين رقم ٨٣٢٧ من ٣٢ ب .

(٥) مسكويه ج ٥ من ٤٧٩ وما بعدها .

مسعود لعشرة تمضي من بهمن ماه^(١) ، وتكون بحسب ما ذكره ابن الأثير وأبو الفدا في ليلة عيد الميلاد^(٢) .

ويحكى ابن الجوزي في عام ٤٢٩ هـ — ١٠٣٨ م عن قوم من أهل جكبرا أنهم « اجتمعوا في ليلة عيد الميلاد لإشعال النار على عاداتهم »^(٣) ، وجرت العادة في القرن الرابع الهجري بالتبخير ليلة الوقود لدفع المضرة ، وصار في رسوم الملوك في ليلته إيقاد النيران وتأجيجهما ، وإرسال الوحوش فيها ، وتطير الطيور في لهبها ، والشرب والتلهي حولها ، ويقول البيروني بعد حكايته لذلك « انتقم الله من كل متلذذ بإيلام غيره من الحاسين غير المضرين »^(٤) . وكانت أشهر ليلة وقود في القرن الرابع في عام ٣٢٣ هـ — ٩٣٥ م ، ففي هذا العام أمر القائد سرداويج أمير بلاد الجبل في غرب إيران قبل ليلة الوقود بمدة طويلة ، أن تجمع الأحطاب من الجبال والنواحي البعيدة ، وأن تنقل في الوادي المعروف بزرين رود قرب أصفهان ، وأمر بجمع النفط والنفاطين والزواقات ومن يحسن معالجتها واللعب بها ، وتقدم بإعداد الشموع العظام ، ولم يبق جبل مشرف ولا تل ظاهر إلا وضعت عليه الأحطاب والشوك ، وصيدت له الغربان والحُدا وعلّق بمناقرها وأرجلها الجوز المحشو مشاقة ونفطا ، وعمل بمجلسه الخاص تماثيل من الشمع وأساطين عظام لم يُرَ مثلها ليكون الوقود في ساعة واحدة على الجبال ورءوس اليفاعات وفي الصحراء وعلى الطيور التي تطلق ، ثم عمل له سماط عظيم في الصحراء التي يبرز إليها من داره ، وجمع فيه من الحيوانات والبقر والغنم آلاف كثيرة ، وزُيّن بما لم تجر العادة بمثله ، فلما فرغ من جميع ذلك وحضر الوقت الذي ينبغي أن يجلس فيه مع الناس للطعام ثم للشراب خرج من

(١) الآثار الباقية للبيروني ص ٢٢٧ .
(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٢٢ ، وأبو الفدا تحت عام ٣٢٣ هـ (ج ٢ ص ٣٨٨) .
(٣) المنتظم ص ١٩٢ . (٤) الآثار للبيروني ص ٢٢٦ .

منزله ثم طاف على كل ذلك فاستحققره واستصغر شأنه ، قال وذلك لأجل سعة الصحراء ، ولأن البصر إذا امتد في فضاء واسع ثم انقلب عنه إلى هذه الأشياء المصنوعة استحققرها وإن كانت عظيمة ، واغتاط ودخل إلى خيمته ، واضطجع محوَّلاً وجهه إلى خلاف الباب والتف بكسائه لئلا يكلمه أحد^(١) ، وفي أيام الدولة الفاطمية بمصر كان يفرَّق على أرباب الرسوم ورجال الدولة جامات الجلاوة القاهرية وقربات الجلاب وطيافير الزلاوية وماء الورد والسبك البورى ، وكانت توفد الخوانيت والشوارع بالفوانيس ، ويعطى للفقراء فوانيس يحملونها في أيديهم ولهم على ذلك درهم^(٢) . وكان يحتفل بعيد الغطاس بمصر احتفالاً كبيراً وهو يسمى عيد الغطاس لأن كثيراً من النصارى كان يغتسل فيه في النيل ، وفي هذا اليوم نفسه لا تزال الكنيسة الرومية في عصرنا تحتفل بعيد الماء المقدس ، وكان من الرسوم القديمة بمصر أن يركب متولى الشرطة السفلانية ليلة الغطاس في موكب كبير وتوقد بين يديه الشموع الموكبية والمشاعل ؛ فيطوف الشوارع وينادى في الناس ألا يختلط المسلمون بالنصارى في تلك الليلة ، وألا ينكذبوا عليهم عيدهم ، وذلك أن النصارى كانوا في سحر تلك الليلة يخرجون إلى شاطئ النيل ويغتسلون فيه ، وكان رسم الملكية خاصة أن يخرجوا من كنيسة ميكايل التي بقصر الشمع إلى شاطئ النيل في تجمع وفي القراءة الملحنة والصلبان المشهورة ويصلوا ويخطب الأسقف الرأس عليهم باللغة العربية ويدعو للسلطان « وكان لأهل مصر وأهل الملل والمذاهب بها في هذا العيد من الطيبة والفرح مالا يكون لهم في غيره من أيام السنة وأعيادها »^(٣) . ويقول المسعودى في ليلة الغطاس : « وليلة الغطاس بمصر شأن

(١) ابن مسكويه ج ٥ ص ٤٧٩ وما بعدها ، وابن الأثير ج ٨ ص ٢٢٢ وما بعدها . وأبو الفدا تحت عام ٥٣٢٣ هـ ، وهو يقول لأنه كان في ذلك السباط ألف فرس وألف رأس بقر .

(٢) المخطوط للقرنيزي ج ١ ص ٢٦٥ .

(٣) يحيى بن سعيد مخطوط باريس ص ١١٩ ب .

عظيم عند أهلها ، لا ينام الناس فيها ، وهي ليلة عشر تمضي من كانون الثاني ، ولقد حضرت سنة ثلاثين وثلاثمائة ليلة الغطاس في مصر والأخشيد محمد بن طنج في داره المعروفة بالمختارة في الجزيرة الراكبة للنيل والنيل مطيف بها ، وقد أمر فأسرج من جانب الجزيرة وجانب القسطاط ألف مشعل غير ما أسرج أهل مصر من المشاعل والشمع ، وقد حضر النيل في تلك الليلة مئو الألوف من الناس من المسلمين والنصارى ، منهم في الزوارق ، ومنهم في الدور الدانية للنيل ، ومنهم على الشطوط ، لا يتناكرون الحضور ويظهرون كل ما يمكنهم إظهاره من الماء كل والمشارب والملابس وآلات الذهب والفضة والجواهر والملاهي والعزف والقصف ، وهي أحسن ليلة تكون بمصر وأشملها سروراً ، ولا تغلق بها الدروب وينطس أكثرهم في النيل ، ويزعمون أنه أمان من المرض ونشرة من الداء ^(١) . وكانت العادة أن يضاء سوق الشماعين بإضاءة كبيرة ، وكانت حوائيته لا تزال مفتحة إلى نصف الليل يقصده كثير من الناس ، وكان يجلس فيه في الليل بغايا يقال لهن زعيرات الشماعين لهن سيما يعرفن بها ، وهي لبس الملات الطرح وفي أرجلهن سراويل من أديم أحمر ، وكُنَّ يعانين الدعارة ^(٢) . وفي عام ٤١٥ هـ — ١٠٢٥ م نزل أمير المؤمنين الظاهر لنظر الغطاس ومعه الحرم ، وضرب بدر الدولة متولى الشرطتين نخية للخليفة وحرمه ، وأمر الخليفة بأن توقد النار والمشاعل في الليل وكان يقوداً كثيراً ^(٣) . وكان عيد الأحد من الصوم المسيحي عيداً من أعياد اللاهوت عند المسلمين ، وكان يعمل في دير الخوات بكنيسة المشهورة بنبيذها ، ويبلغ اللاهوت أقصاه في ليلة الماشوش « وهي ليلة تختلط النساء فيها بالرجال ، فلا يرد أحد يده عن شيء ، ولا يرد أحد أحداً عن شيء ، وهو معادن الشراب ومنازل القصف

(١) مروج الذهب للسعودي ج ٢ ص ٣٦٤ — ٣٦٥ .

(٢) الخطط للقريري ج ٢ ص ٩٦ . (٣) نفس المصدر نقلاً عن النبطي .

ومواطن الله»^(١) . وقد تكلم ابن خلدون ، مع أنه من المتأخرين ، عن شيء يسمى الكرج ، وهو تمثيل خيل مسرجة من الخشب معلقة بأطراف أقبية يلبسها النسوان ويحكين بها امتطاء الخيل ، فيكرون ويفرون ويشاققون^(٢) . وكان في يوم الأحد الرابع من الصوم عيد دير دُزمالس ، وكان يجتمع إليه نصارى بغداد ولا يبقى أحد ممن يحب اللهو والخلاعة إلا تبعهم ، وكان الناس يقيمون فيه الأيام^(٣) .

وكان من الأعياد الكبرى عند النصارى بمصر عيد سرعان ما اتخذهُ المسلمون وهو عيد الخروج لسجن يوسف بالجيزة ، وكانت عادة العامة والسوقة أن يطوفوا قبل الخروج للسجن أسواق البلد بالطبول والبوقات ليجمعوا من التجار ما ينفقونه في خروجهم ، ولكن حدث في عام ٤١٥ هـ - ١٠٢٥ م أن اشتد الغلاء فامتنع التجار من الدفع ، فأمر الخليفة الظاهر التجار بأن يدفعوا ما جرت به العادة ، وأن يُطلق المحتفلين ضعف ما أطلق لهم في السنة الماضية ، فخرجوا إلى السجن بالجيزة ومعهم التماثيل والمضاحك والخيال والحكايات والسماجات ، وخرج الخليفة إلى الجيزة وأقام يومين حتى رأى الجماعة فضحك منهم واستظرفهم^(٤) . وكان للناس عند خليج الخور مجتمع يكتر فيه لهوهم ولعبهم . وفي سنة ٤١٥ هـ كان ثالث الفتح فاجتمع عند كنيسة المقدس خلق كثير من النصارى والمسلمين في الخيام للأكل والشرب واللهو ، وشوهد من سكر النساء وتهتكهن وحلهن في قفاف الحمالين سكارى واجتماعهن مع الرجال ما يقبح ذكره^(٥) . وبما كان يعمل بمصر عيد الشهيد في الثامن من مايو ، وكان النصارى يلقون في النيل

(١) كتاب الديارات ص ٣٧ ب . (٢) مجلة المشرق ج ٩ (عام ١٩٠٦) ص ٢٠١ .

(٣) كتاب الديارات ص ٢١ . (٤) القرنيزي ج ١ ص ٢٠٧ نقلا عن المسبحي .

(٥) نفس المصدر ج ٢ ص ٩٦ .

في هذا العيد تابوتا من خشب فيه إصبع من أصابع أسلافهم الموتي ، ويزعمون أن النيل لا يزيد في كل سنة إلا بهذا . وكان اجتماع الناس لهذا العيد بناحية شبرا ، وكان يرحل إليه عالم عظيم للفجور واللهو والفسق ، وفيه يصرفون أموالا لا تحصى ، وكان يباع فيه من الحنتر خاصة بما يزيد على مائة ألف درهم فضة ، وأبطله السلطان الناصر محمد بن قلاوون في القرن الثامن^(١) .

وكانت أعياد رأس السنة ثلاثة :

- ١ — عيد رأس السنة الفارسية والشامية وهو أول الربيع .
 - ٢ — » » » القبطية ؛ مصر ، وهو في آخر أغسطس .
 - ٣ — » » » الهجرية ، وهو منتقل في أثناء السنة الميلادية .
- وكان إلى جانب هذه الأعياد آثار رأس السنة الفارسية القديمة ، وهو في وقت الانقلاب الصيفي .
- وكانت العادة بالإجمال أن يحتفل بعيد النيزوز — وهو مبدأ السنة الشمسية — بتبادل الهدايا ، فكانت الخليفة في بغداد يفرق على الناس أشياء منها تماثيل مصنوعة من عنبر ، منها ورد أحمر مثلا^(٢) . وكان رسم ملوك السامانيين ببخارى ، أن يخلعوا فيه على قوادهم الخلع الربيعية والصيفية^(٣) . وكان خلفاء الفاطميين يهدون للناس فيه الكسوات والطعام^(٤) . وفي هذا اليوم كان أصحاب السماجات يظهرون بين يدي الخليفة فينثر عليهم الدراهم ، وكانوا يقتربون منه للقطها ، حتى يحكى أنه دخل إسحاق على المتوكل في يوم نوروز وأصحاب السماجات بين يديه وقد قربوا منه حتى جذبوا رداءه ؛ فغضب إسحاق وخرج فأمر المتوكل برده وسأله

(١) . نفس المصدر ج ١ ص ٦٨ — ٦٩ .

(٢) كتاب الديارات ص ٢٢ ب . (٣) الآثار الباقية للبيروني ص ٢١٧ .

(٤) الخطط للمقرئ ج ١ ص ٢٦٨ .

فقال له : أتجلس في مجلس يبتذل فيه هؤلاء الكلاب حتى يجذبوا ذيلك ، وكل واحد منهم متفكر بصورة منكرة فما يؤمن أن يكون فيهم عدو فيثب بك ، فتي كان يُستقال هذا ولو أخليت الأرض منهم ؛ فقال المتوكل : يا أبا الحسين ، والله لا تراني على مثلها أبداً^(١) . وكانت العادة في رأس السنة الفارسية والقبطية أن يرش الناس بعضهم بعضاً بالماء ، وقد منع ذلك في المشرق عام ٢٨٢ هـ — ٨٩٥ م^(٢) . على أن البيروني يتكلم عن الرش ووجوده عام ٤٠٠ هـ^(٣) . ويحكى لنا الرحالة الصيني وانج ين تي (Wang-Yan-te) الذي طاف بالشرق بين عامي ٩٨١ م ، ٩٨٣ م عن أهل مدينة طرفان (كانتشانج) أنهم يعملون أنابيب من الفضة والنحاس ويملئونها بالماء ويرش بعضهم بعضاً ، وقد يمزجون أحياناً فيرشون الماء بأيديهم ، وهم يزعمون أنهم بذلك يضعفون حرارة المزاج ويدفعون الأمراض^(٤) . وكان العامة بمصر في النيروز ينتخبون رجلاً يسمونه أمير النيروز ، فيطلى وجهه بالدقيق أو الجير ويركب في الشوارع على حمار وعليه ثوب أحمر أو أصفر ، ويسير معه جمع كبير فيتسلط على الناس في طلب رسم رتبة وفي يده دفتر مثل دفتر المحتسب ، فمن لم يدفع الرسم يُرش بالماء ممزوجاً بالأقذار ، وكان الناس يضرب بعضهم بعضاً بالجلود والأنطاع ؛ الفقراء في الشوارع والأغنياء في دورهم ، ورجال الشرطة لا يعترضون على ذلك ، وإن غلط مستور وخرج من بيته لقينه من يرشه ويفسد ثيابه ويستخف بجرمته ، فإما أن يفتدي نفسه وإما أن يفضح ، كان يرش الناس الماء في الحارات ، ويحيى المنكر في الدور أهل الخسارات . وكان التلاميذ في مكاتبهم يهجمون على معلمهم ، وكثيراً ما يرمونه في البئر حتى يفتدي نفسه بالمال ، وفي عام ٣٣٥ هـ — ٩٤٥ م منع السلطان من رش الماء ، وفي عام ٣٦٣ هـ

(١) كتاب الديارات ص ١١٥ — ب .

(٢) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٢١٤٤ . (٣) الآثار الباقية ص ٢١٥ ، ٢١٨ .

(٤) JA, 1847, I. P. 58.

— ٩٧٤م أبطل الخليفة هذا العيد ولكنه عمل في العام الثاني على أكبر صورة ، وقد استمر يؤدب الناس ثلاثة أيام فلم ينفع التأديب^(١) . وظل جارياً في كل عام حتى أبطله السلطان برقوق في أواخر القرن الثامن الهجري^(٢) . ونستطيع أن نتيين في العادة الجارية بمصر أنها تشبه عيد الكرقال شهباً واحماً ، لأن أيام الكبس التي تنتهي بها السنة القديمة عند الجميع يكون الأمر فيها لأمر من الغوغاء ، وهي تسير مع النيروز ، وتمشي مع القمر متنقلة في التقويم^(٣) . وقد بقي من آثار الاحتفال برأس السنة الفارسية رش الماء حتى عام ١٤٠٠ هـ^(٤) ، ولا يزال الرش بالماء يعمل إلى اليوم عند النصارى في عيد الصعود ، ويسمى (خميس الرشاش) إلى اليوم^(٥) ، وقد رأيت الرشاش بنفسى في بغداد . وثمَّ عيد يسمى عيد الكوسج وهو يشبه عيد الكرقال ، ويومه يكون مع الأيام الخمسة التي تكبس بها السنة الفارسية ، وكان الاحتفال به في وقت من الأوقات يكون في آخر فبراير ؛ ولكنه وقع في أول نوفمبر بسبب الكبس في السنة الفارسية . وكان الكوسج يركب على بغل ويطوف الشوارع بالمدن الفارسية والعراقية ويطلب الناس ، فمن تأخر في دفع ما عليه رشوا عليه ما يفسد ثيابه ، ويزعم البعض أن الله في هذا اليوم يقدّر حظوظ الناس من سعادة أو شقاء كما كان الناس يعتقدون ذلك في أول السنة قديماً ، وكانت هذه الأيام أيام اللهو والطرب وإظهار السرور عند الفرس^(٦) .

(١) الولاة للكندي ص ٢٩٤ ؛ والقرنيزي في الخطط ج ١ ص ٢٦٧ ، والنيروز بمصر في أغسطس حيث يوقد الناس النار ويرشون الماء ، انظر زيج قرطبة لسنة ٩٦١ م طبعة دوزي ص ٥٨ . (٢) الخطط ج ١ ص ٢٦٩ ، ٤٩٣ . (٣) وكذلك في أوروبا في الأيام التي بين ليلة الميلاد وليلة الفطاس ، ففي بعض أجزاء ألمانيا يضرب الأطفال آباءهم وأقاربهم في عيد الميلاد ، وكذلك في بلغاريا يضرب الخدم ساداتهم في رأس السنة . (٤) الآثار الباقية للبيروني ص ٢٦٦ . (٥) مجلة المشرق مجلد ٣ ص ٦٦٨ . (٦) مروج الذهب ج ٣ ص ٤١٣ ، والآثار الباقية ص ٢٢٥ ، والقزويني على هامش السيرى ج ١ ص ١٢٧ ، والثعالبي في مجلة ZDMG, VI, s. 389 .

وكان بعد عيد النيروز بمائة وأربعة وتسعين يوماً عيد المهرجان ، وكان يُعتبر أول أيام الشتاء ، وظل إلى جانب النيروز أكبر الأعياد ؛ وكان الناس يتهادون كما يتهادون في النيروز ؛ وكان القواد ورجال دار الخلافة تُخلع عليهم فيه ملابس الشتاء^(١) ، وكان العامة يغيرون فيه الفرش والآلات وكثيراً من الملابس^(٢) ، وكان هذا العيد يمتاز خاصة بأن الرعية يهدون فيه إلى السلطان . وقد جاء المهرجان مرة وأبو إسحاق الصابي في الحبس بأمر عضد الدولة ، فكتب إليه قصيدة وبعثها إليه مع درهم خسر واني وجزء من كتاب ، فكان مما قاله :

أنتك الهدايا فيه بين موفر على قدر المهدي وبين زهيد
فكان احتفالي في الهدية درهما يطير مع الأنفاس يوم ركود
وجزءاً لطيفاً ذرعه ذرع محبسى وتقييده بالشكل مثل قيودي^(٣)
أما رأس السنة الهجرية فإنه لما كان متنقلاً دائماً ليس له موعد ثابت لم يصير عيداً من الأعياد الشعبية ، بل ظل عيداً في قصر الخلافة لا يحيط به ما كان يحيط بغيره من الفخامة ، وكان الناس يتهادون فيه أيضاً^(٤) .

وكان من العادات بقصور العباسيين نثر الزهور ، وهي عادة أصلها يرجع إلى الأعياد الطبيعية ، ويحكى عن الخليفة المتوكل — وكان محباً للأبهة — أنه أمر أن تُضرب لذلك خمسة آلاف درهم وتُلَوَّن بالحمرة والصفرة والسواد وغيرها لتُنثر على أصحاب الرتب بقصر الخلافة^(٥) . وكان يعنع للخليفة بمصر قصر من الورد بقرية من قرى قليوب كان بها جنان وورود كثيرة ، وكان الخليفة يخرج في يوم

(١) يتيمة الدهرج ٤ ص ٦٥ ، والآثار البيروني ص ٢٢٣ ، وديوان كشاجم في كثير من المواضع . (٢) مروج الذهب ج ٣ ص ٤٠٤ ، وسكردان على هامش المجلاة ص ١٦٣ . (٣) يتيمة الدهرج ٢ ص ٥٨ . (٤) فيما يتعلق بشمال فارس انظر ابن الأثير ج ٩ ص ٤١ ، وفيما يختص بمصر راجع القريري ج ١ ص ٤٩٠ ، ٤٩٣ . (٥) كتاب الديارات ص ٦٨ ب .

يسمى يوم قصر الورد إلى تلك القرية متنزهاً ، ويخدم هناك بضيافة عظيمة^(١) .
 أما العידان الدينيان عند المسلمين فهما عيد الأضحى وعيد الفطر ، وكانا إلى
 جانب النيروز الفارسي أكبر الأعياد عند أهل بغداد^(٢) ، وكان أهل البصرة
 يستننون الأضحى سنة وأكثر ، ثم تباع لعيد النحر الواحدة منها بعشرة دنانير^(٣) .
 ويحكى أنه في آخر يوم من رمضان سنة ٣٨٠ هـ حمل يانس الصقلي صاحب الشرطة
 السفلى السماط وقصور السكر والتماثيل وأطباقاً فيها تماثيل من الحلوى ، وحمل
 أيضاً على بن سعد المحتسب القصور وتماثيل السكر وطافا بها في شوارع القاهرة .
 وكانت تعمل أسمطة أخرى في القصر يحضرها الخليفة بنفسه في يوم عيد الفطر
 وعيد النحر ، ففي عيد الفطر كان يعمل سماط طوله ثلاثمائة ذراع في سبعة أذرع
 من الخشكنان والفانيد والبسند ؛ فإذا صلى الخليفة الفجر جلس ومكّن الناس
 من ذلك السماط (مائدة طويلة) الممدود فيهمجون عليه وينهبونه ويحملونه^(٤) .
 وكان هذان العيدان هما العيدان الوحيدان الكبيران اللذان كانا يحتفل بهما
 بالأبهة الإسلامية احتفالاً رسمياً ، وكان لذلك يبلغان منتهى الروعة والأبهة في
 البلاد التي يكون الشعور الإسلامي فيها على أقواء مثل طرطوس^(٥) ؛ حيث كان
 يأتي غزاة المسلمين من كل أنحاء المملكة الإسلامية حتى كان عيдаها يعتبران
 من محاسن الإسلام . ولما ضاعت من المسلمين طرطوس بقيت صقلية مشهورة
 بحسن عيديها^(٦) ، وكان يُذبح في عيد النحر حيوانات كثيرة^(٦) .

(١) الخطط للمقريزي ج ١ ص ٤٨٨ .

(٢) تاريخ الطبري ج ٣ ص ١١٧٠ (٤) . (٣) الأغانى ج ٣ ص ٦٢ .

(٤) المقريزي ج ١ ص ٣٨٧ ، وأبو المحاسن ج ٢ ص ٤٧٣ وما بعدها ، ورحلة ناصر

خسرو ص ١٥٨ من ترجمة شيفر ، وما حكى عن المسبحى في كتاب بكتّر Becker, Beitr-
 age zur Geschichte Degyptens I. s. 71 ff.

(٥) تاريخ بغداد مخطوط باريس ص ١٤ ب . وأبو المحاسن ج ٢ ص ٦٧ .

(٦) المقدسى ص ١٨٣ .

وكان شهر رمضان هو الشهر الذي يتجلى فيه منتهى الكرم عند المسلمين ، ويحكى عن الوزير ابن عباد أن داره كانت لا تخلو في كل ليلة من ليالى رمضان من ألف نفس تفر فيها ، وأن صدقاته وقرباته في هذا الشهر كانت تبلغ مبلغ ما يطلق منها في جميع شهور السنة^(١) . وكان ازدياد التكريم للنبي عليه السلام بين أهل الصلاح والورع سبباً في أن صار يحتفل بمولده حوالى عام ٣٠٠ هـ ، وكان ذلك بدعة في نظر المتمسكين بالعادات الإسلامية الأولى ، ويحكى عن الكرجي المتوفى عام ٣٤٣ هـ — ٩٥٤ م ، وكان من الزهاد المتعبدين أنه كان لا يفطر إلا في العيدين وفي يوم مولد النبي عليه السلام^(٢) وفي القرن السادس الهجرى أبطل الأفضل بن أمير الجيوش أسر الموالد الأربعة ، النبوى والعلوى والفاطمى ومولد الإمام الحاضر^(٣) . على أن أول من احتفل بمولد النبي عليه السلام احتفالا عظيما هو — كما يقال — الأمير أبو سعيد مظفر الدين الأربلى المتوفى عام ٦٣٠ هـ — ١٢٣٣ م ، وفي ذلك العيد كانت العادة جارية بقراءة السيرة النبوية مع إيراد الكلام في قصة المعراج ؛ فكان ذلك عوناً كبيراً على تكوين السيرة النبوية^(٤) .

وكان أهم الأعياد العائلية عيد الختان ، ولم يكن قد صار بعد عيداً « خاصاً »

(١) يتيمة الدهرج ٣ ص ٣٦ .

(٢) A G O W. 37 Nr. 129 . (٣) الخطط للقريزى ج ١ ص ٤٣٢ .

(٤) الزرقاوى ج ١ ص ١٦٤ ، وكان يفد إلى هذا العيد الذى يقيمه الأمير طوائف الناس من بغداد والموصل والجزيرة وسنجار ونصيبين بل من فارس ، منهم العلماء والمتصرفون والوعاظ ، والقراء والشعراء ، وهناك يقضون في أربلا من الحرم إلى أوائل ربيع الأول ، وكان الأمير يقيم في الشارع الأعظم مناظرة عظيمة من الخشب ، ذات طبقات كثيرة بعضها فوق بعض ، تبلغ الأربع والخمس ، ويزينها ويجلس عليها المغنون والموسيقيون ولأعبو الخيال حتى أعلاها ، ولم يكن للناس شغل إلا التمتع أمام تلك المناظرة والتمتع بما يقدم لهم : وكان الأمير في ليلة المولد نفسها يركب في الشارع وبين يديه الشموع العظيمة كل منها مربوط في بقل : وكان العيد يذهب بموكب ووليمة (ابن خلكان طبعة فستقلاذ ، ١٩١٠) .

لأنه كان لا يزال محتفظاً بالكثير من خصائص أعياد بلوغ الشباب عند القدماء ، وكان الرجل يكره أن يختن لابنه منفرداً ؛ ولذلك يحكى عن الخليفة المقتدر أنه فى سنة ٣٣٢ هـ ختن خمسة من أولاده وختن قبل ذلك جماعة من الأيتام ، ونثر فى هذا الختان خمسة آلاف دينار عيناً ومائة ألف درهم ورقاً ، وقرت فيه دراهم وكسوة ، ويقال إنه بلغت النفقة فيه ستمائة ألف دينار^(١) . وحكى أبو جعفر الجزار عن عام ٣٤٠ هـ — ٩٥١ م أنه فى هذه السنة « أمر إسماعيل بن القائم (الفاطمى) أن يكتب له أولاد القواد ووجوه رجاله من كتامة ، والعبيد والجند وضعفاء الناس من أهل القيروان وغيرها ، ليختنوا ويحسن إليهم بالكسب والصلات ، فبلغوا أكثر من عشرة آلاف ، فابتدأ فى ختانهم ، وعمل ولأثم وأطعم خاصة الناس وعامتهم ، وأعطى الصبيان على قدر مراتبهم من مائة دينار لكل واحد إلى مائة درهم وأقل من ذلك ، فكان يختن فى كل يوم من خمسمائة إلى ألف وثلاثمائة ، فأقام على هذا سبعة عشر يوماً ، قال أبو جعفر الجزار : فسمعت من يقول من أهل الخدمة إنه أحصى ما أنفق فى هذا الختان فكان مائتى ألف دينار ، وحدث فى البلد عند ذلك من الإنفاق والله ما لم يُرَ مثله »^(٢) ، وكان أكبر عيد بقصر الخلافة فى القرن الثالث الهجرى عيد ختان عبد الله المعتز بن المتوكل ، ويقال إن المتوكل أنفق فى ذلك ستة وثمانين ألف ألف درهم^(٣) ، وهو مقدار يشبه ما يقال فى القصص الخيالية ؛ ولكن مصرف الأقدار شاء أن يقتل هذا الولد الذى بلغ من محبة أبيه له وسروره به هذا المبلغ بعد حكم قصير وأن يقضى ابنه آخر أيام حياته فى فقر وآلام ، وأن يكون أميراً مغضوباً عليه .

وكانت حفلات الزواج أشهر أعياد قصور الخلافة من قبل إلى جانب حفلات

(١) المتنظم لابن الجوزى ص ١٠ ب . (٢) كتاب العيون والحدائق مخطوط
برلين ص ٢٥٢ ب — ١٢٥٣ . (٣) كتاب الذيارات ص ٦٦ أ وما بعدها .

الختان ، فيقال إن نفقات زفاف هارون الرشيد بلغت خمسين ألف ألف درهم ،
وإن نفقات زفاف المأمون بلغت سبعين ألف ألف درهم^(١) . وفي سنة ٣١٠ هـ —
٩٢٢ م قبض المقتدر على أم موسى القهرمانة ؛ لأنها تزوجت ابنة أختها من أمير كان
مرشحاً للخلافة وأكثر من النثار والدعوات حتى خسرت الأموال الجليلة^(٢) .
وكان العامة يحاولون في هذه المناسبات أن يظهروا من الغنى أكثر مما عندهم ، وكان
يمكن لهم أن يستأجروا الزينة والآلات والفرش^(٣) .
وأخيراً كان من الأعياد يوم الاحتجام ، وفيه يهدي أصحاب المحتجم له الهدايا
ويُعمل له أجود الطعام^(٤) ، وكان النى يقوم بهذه العملية المزيّن ، وكان يعطى
على ذلك حوالى عام ٤٠٠ هـ — ٩١٢ م ديناراً^(٥) .

(١) نفس المصدر ص ٦٦ ب .

(٢) زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ص ١٩٢ / من مخطوط باريس .

(٣) كتاب الأغاني ج ٥ ص ١١٩ ، وانظر الفصل الخاص بالتجارة . وكان أول
ما يؤكل في حفلات الزواج بحسب عادة أهل بغداد طعام الهريسة (ديوان ابن الحاج ١٠
ص ٧٩) ، وكان النثار أيضاً من العادات التي تعمل في الزواج (يتيمة الدهر ج ٢ ص ٢٠) .

(٤) الإرشاد لياقوت ج ٢ ص ١٤١ .

(٥) نفس المصدر ج ١ ص ٣٧٠ وكان بعض السكباء يتخذ لنفسه مزيناً خاصاً به
(مسكويه ج ٦ ص ٢٤٧) .

الفصل الرابع والعشرون

الحاصلات

كان أهل المملكة الإسلامية كلهم تقريباً يتغذون بالخبز، خلافاً للهنود
ولسكان بلاد آسيا الشرقية ممن غذاؤهم الأرز، وكانوا يتميزون عن هؤلاء
الأخيرين بنوع خاص بأنهم جميعاً يشربون اللبن، وكان هذان الغذاءان هما
الأساسيان في أوروبا؛ إلا أن الخبز في الشرق كان يُعمل أرغفة رقيقة مستديرة،
وهي الصورة التي كان يُعمل عليها في أوروبا في بعض القرى، هذا إلى أن أنواع
القمح في أوروبا هي من جنس أنواعه في البلاد الإسلامية سواء بسواء.

وكان أهم حادث في الاقتصاد الزراعي الأوروبي في العصور الوسطى هو
إحلال الحنطة محل الذرة والشعير؛ أما في الشرق فكانت الحنطة قد استوطنت
واستقرت منذ زمان طويل، وكانت تزرع في كافة البلاد التي يكون الماء فيها
موفوراً؛ أما الذرة فأتتها بقيت مقصورة على الأجزاء الجافة في جنوب المملكة
الإسلامية، مثل جنوب جزيرة العرب وبلاد النوبة وكرمان، وذلك لأن الذرة
تنتج بالماء القليل كالسمنم والهرطمان^(١)، «وكانت تؤكل كما يؤكل الأرز»^(٢).
وكانت البراق بلاداً أكثر ما يزرع فيها الحنطة، وكان ارتفاع أسعارها يُذكر
دليلاً من دلائل غلاء المعيشة، وكان الأرز يأتي في المرتبة بعد الشعير، وقد

(١) مجلة المشرق عام ١٩٠٨ (مجلد ١١) ص ٦١٤.

(٢) كتاب الحراج ليجي بن آدم ص ٨٧.

استلفت ذلك نظر الصينيين ؛ فيحدثنا الرحالة لنجوايتا Ling-wai-tai-ta عن بغداد قائلاً إن الناس جميعاً فيها يأكلون الخبز واللحم والسولو 'su-lo ؟ ولكنهم قل أن يأكلوا السمك والبقول والأرز ؛ ركتب صيني آخر عن مصر حوالى عام ١٣٠٠م : أن الناس يعيشون على اللحم والخبز ، ولا يأكلون أرزاً قط^(١) . وكذلك كانت الحنطة في المكان الأول ببلاد خوزستان ، ولكنهم كانوا يعملون من الأرز خبزاً ، وكان الأرز قوتاً للشعب^(٢) . ولم يكن خبز الأرز غالباً إلا في طعام أهل مازندران بإقليم طبرستان ، ومازندران بلد تحيط به المستنقعات^(٣) ، وكان يزرع بفلسطين ومصر نبات يشبه البطاطس عندنا ويسمى القلقاس^(٤) ، وهو بقل نجد الدلائل على زراعته قديماً في جزر اليونان وآسيا الصغرى ومصر ، وهو عبارة عن جذر مدور كبير الحجم عليه قشر ، وكان النبات الأساسى الذى يتغذى به أهل بولنيزيا قبل مجيء الأوروبين ، ويصفه المقدسى^(٥) بأنه «شئ على قدر الفجل المدور ، عليه قشر ، وفيه حدة ، يقلى بالزيت ، ويطرح فى الكسباج» ، وهو يقشر ويطبخ ويرمى للماء الذى يطبخ فيه ، وبعد ذلك يقلى بالزيت^(٦) ، وهو

(١) انظر كتاب Chau-Ju-Kua ترجمة هيرث Hirth من ١٣٧ ، ١٤٤ ، وكذلك يذكر سترابو Strabo XV I زراعة الأرز فى العراق ، ولكن لا بد أنها كانت قليلة ، فلا نجد لها أثراً فى التلويح ، ولا نجد له ذكراً بالكلية فى كتاب كراوس Krauss talmindische Archaologie ، وذات الحنطة التى تزرع فى الشام قبل الحنطة العراقية تسمى القمح ، وهى تذكر فى العهد القديم إلى جانب الحنطة العراقية ، وهى التى نقلت لمصر بهذا الاسم (انظر : Kremer S w A 1889 . وفى العصر العربى كانت الحنطة لغة كوفية والقمح لغة شامية ، وفى الجزيرة العربية يسمى البر (البان والتبين ج ١ ص ٩) ، وربما كان الأخير من جنس الذرة (وكلمة dxata باليونانية معناها الخبز ، والدرقا durvā نوع من الذرة) وكلمة القمح لا تزال حتى اليوم هى الكلمة التى نسميها فى الشام كله ولا نسمع غيرها حتى إذا وصلنا تدمر سمعنا بكثرة الكلمة العراقية-حنطة :

- (٢) ابن خوقل من ١٧٣ . (٣) نفس المصدر من ٢٧٢ .
 (٤) المقدسى من ٢٠٣ ، وقد رآه عبد اللطيف فى دمشق حيث كان قليلاً (رحلة عبد اللطيف البغدادي ترجمة دى ساسى من ٢٣) ، (٥) المقدسى من ٢٠٤ .
 (٦) رحلة عبد اللطيف من ٢٣ .

على نوعين : رؤوس وأصابع ، والأصابع أحسنه وأطيبه وأعلى من الرؤوس^(١) « وهو من مأكولات فصل الشتاء ، وهو ألد ما يؤكل في هذا الفصل إذا أُكل باللحم الضأن »^(٢) . وكان البكرم أكثر ما يزرع من الفواكه ؛ وقد ذكر الماوردي^(٣) أن الكرم (شجر العنب ، وإن كانت كلمة الكرم كانت تطلق في العراق قديماً على الحقل المزروع بالجملة) حتى في العراق كان له المقام الأول بين الفواكه ، وكان كثير الأصناف والضروب حتى يقول ابن الفقيه : « ولو أن رجلاً خرج من بيته مسافراً في عنقوان شبيبته وحدائه سنه ، واستقرى البلدان صقماً فصقماً يتبع الكروم مصرافصراً ، ختى بهرم ، وصغيراً حتى يبدن ، لتعرف أجناسه وإحاطة العلم بأنواعه ، بل إقليمياً واحداً من الأقاليم وناحية من أقطار الأرض ، لأعوزه وغلبه ، وغربه وبهره ، إذ كانت كثرة فنونه واختلاف أنواعه لا تدرك »^(٤) ، وكانت عنقيد العنب أكبر ما تكون في اليمن ، ويحكى أن بعض عمال الرشيد حمل إليه وهو يؤدي فريضة الحج مرة عنقودين من العنب في محملين على بعير ، وربما كان يحمل من جبال أرمينية وأذر بيجان أخونة عظيمة جداً يكون دور بعضها عشرين شبراً من خشب الكرمة^(٥) ، وكانت الأسماء الكثيرة التي تسمى بها أصناف العنب أسماء شعبية إلى حد ما ، مثل عين البقرة ، والسكر ، وأنملة القزم ، والقوارير ونحوها ؛ ولكنه كان ينسب في الغالب إلى البقعة التي يجلب منها كالصقلي والبجري والمكشي ، وقد انتشر العنب — الذي قال سترابو (في XV) إن المقدونيين كانوا أول من نقله إلى العراق^(٦) وفارث — في جميع المملكة الإسلامية ، ثم جاء

(١) المدخل لابن الحاج ج ٣ ص ١٤٣ .

(٢) هز القحوف في شرح قصيدة أبي شادوف للشريفي طبعة إسكندرية ١٢٨٩ هـ .

ص ٢١٢ .

(٣) الأحكام السلطانية طبعة انجر ص ٣٠٤ . (٤) ابن الفقيه ص ١٢٥ .

(٥) نفس المصدر . (٦) رسائل الخوارزمي ص ٤٩ .

الفتح العربي فجلب إلى المشرق أنواعاً أخرى؛ فمثلاً نقل العنب الطائفي الذي ينسب إلى مدينة الطائف المجاورة لمسكة إلى العراق، كما نقل إلى قرب هراة ببلاد أفغانستان وصار يزرع فيها^(١)، وذكر ابن حوقل عن أهل مدينة زُغُر وهي مدينة قريبة من البحر الميت أنهم يلقحون كرومهم وكروم فلسطين كما يلقح النخيل بالطلع الذكر، وكما يلقح أهل المغرب تينهم^(٢)، وقد أضاف القرن الثالث الهجري إلى الفواكه التي كانت موجودة في المملكة الإسلامية فاكهتين: وهما الأترج والنارنج، وكلاهما كان يقدم إلى الناس في الاحتفال بمختار المعتز بن المتوكل حوالي منتصف القرن الثالث الهجري، وذلك إلى جانب ما عثر من الفواكه الغالية. وقد نوه حاكي هذا الخبر في القرن الرابع بأن هاتين الفاكهتين كانتا قليلتين في ذلك الوقت^(٣)، وذكرها ابن المعتز في شعره حيث يقول^(٤):

كأنما النارنج لما بدت صفوته في حمرة كاللهيب
وجنة معشوق رأى عاشقاً فاصفر ثم احمر خوف الرقيب
ويقول أيضاً:

يا حبذا ليمونة تحدث للنفس الطرب
كأنها ككافورة لها غشاء من ذهب

ولكن يظهر أنهما بقيتا مقصورتين على طائفة قليلة من الناس.

ويقول المسعودي حوالي عام ٣٣٢ هـ — ٩٤٤ م «وكذلك شجر النارنج والأترج المدور جلب من أرض الهند بعد الثلاثمائة فزرع بعمان ثم نقل إلى البصرة والعراق والشام حتى كثر في دور الناس بطرسوس وغيرها من الثغر الشامي

(١) الأصبغري ص ٢٦٦ . (٢) ابن حوقل ص ١٢٤ .

(٣) كتاب الديارات للشافعي ص ٦٥ — ب .

(٤) ديوان ابن المعتز ج ٢ ص ١٠٦ .

وأنطاكية وساحل الشام وفلسطين ومصر، وما كان يعهد ولا يعرف فعدمت منه
الروائح الطيبة واللون الحسن الذى يوجد فيه بأرض الهند لعدم ذلك الهواء
والترربة والماء وخاصة البلد»^(١). وكان للخليفة القاهر فى بعض الصحون بقصره
بستان نحو من جريب قد غرس فيه النارج وحل إليه من البصرة وعمان مما
حمل من أرض الهند، قد اشتبكت أشجاره ولاحت ثماره، وكان القاهر كثير
الشرب عليه والجلوس فيه^(٢). وفى عصر المقدسى كان الأترج والنارج يزرعان
بفلسطين؛ وهو يقول إنهما فى فلسطين أحسن منهما فى غيرها^(٣). وفى القرن
الرابع الهجرى وصف ابن حوقل الأترجة لقائه فهو يقول: «وهى (المنصورة
بالسند) مدينة حارة بها نخيل، وليس لهم عنب ولا تفاح ولا جوز ولا كمثرى، ولهم
قصب سكر، وبأرضهم ثمرة على قدر التفاح تسمى الليمونة، حامضة شديدة
الحوضة»^(٤)، وكذلك يقول المقدسى عند الكلام على السند: «وخصائصهم ليمونة
وهى ثمرة مثل الشمس حامضة جدا، وأخرى مثل الخوخ يسمونها الأنبيج»^(٥).
وظل الأترج طول القرن الرابع من القواكه المستوردة^(٦)، حتى حملت فيما بعد إلى
البصرة وعمان ثم جلبت إلى العراق^(٧). «وكان من جملة أصناف الليمون
بمصر فى العصور المتأخرة ليمون يقال له التفاحى، يؤكل بغير سكر لقله حموضته ولذته
طعمه»^(٨)؛ وكذلك ما يسمى بالليمون الشتوى والليمون السائل^(٩). ولم يكن

(١) صروج الذهب ج ٢ ص ٤٢٨ — ٤٣٩، والخطط للمقريزى ج ١ ص ٢٨.
(٢) صروج الذهب ج ٨ ص ٣٣٦ — ٣٣٧. وكان القاهر يقول: «إن هذا البستان
لذته من الدنيا». (٣) المقدسى ص ١٨١.
(٤) ابن حوقل ص ٢٢٨. (٥) المقدسى ص ٢٢٨.
(٦) بتيمة الدهرج ٣ ص ٨٢. (٧) القزوينى على هامش الديمرى ج ٢ ص ٣٠.
وما بعدها، ولا نجد فى إحصاء الفاكهة بالأندلس، وهو الذى جاء فى زيغ قرطبة لسنة ٩٦٩ م.
ذكر الأترج ولا للأترج. (٨) المقريزى ج ١ ص ٢٧٣.
(٩) عجرات الأوراق ج ٢ ص ٢٤٤.

الناس يستعملون هذا الثمر في تحضير شراب الليمون ، بل كانت عادة الكبراء .
بيغداد في القرن الرابع شرب الماء المثلج ، يقول الصابي ^(١) :

لهف نفسي على المقام يتعبداً د وشربي من كوز ماء بثلج
نحن بالبصرة التميمية نسقي شر سقيا من ملها الأترجي
أصفر منكر ثقيل غليظ . خاثر مثل حقنة القولنج
كيف نرضي بشره ونخير منه في كنف أرضنا نستنجي

وكان أكثر ما يباع من الثمار في الأسواق البطيخ ، ولذلك كان سوق بيع
الفاكهة يسمى دار البطيخ ^(٢) وكان شمال فارس بنوع خاص مشهوراً بصحة
الفاكهة . وجودة البطيخ ، وكان يبلغ من صحة البطيخ أنه كان يتقدد ويحمل إلى
العراق ، ولم يعلم أن هذا ممكن في غير تلك البلاد ^(٣) . ويؤيد الرحال ماركو پولو
ذلك بقوله : « إن بطيخ مدينة شبرقان (بين مرو وبلخ) كان يقطع حلقات
رفيقة كما يفعل الأوروبيون بقاوون الشهد ، وبعد أن تقدد وتجفف في الشمس
ترسل كيات كبيرة لتباع في البلاد المجاورة » ^(٤) . وكان بطيخ مرو يرسل إلى
الخلفاء بيغداد طازجاً ، فكان يحمل إلى اللأمون أولاً ثم إلى الواثق في قواليب
الرصاص معبأة بالثلج ، وكانت تقوم الواحدة منه إذا سلمت ووصلت بسبعمائة
درهم ^(٥) ، وفي ذلك الزمان كان للزمان من الشأن في المطابخ ما للطماطم الأمريكية

(١) يتيمة الدهر ج ٢ ص ٤٧ . . .

(٢) المضارب والمنسوب للثعالفي في مجلة Z D M G, VIII, 524 . ويحكي أن ابن الرومي
مدح الوزير إسماعيل بن بلبل بقصيدة أكثر فيها من ذكر الفواكه ، فساها طامة بغداد دار
البطيخ تشبهاً لها بالموضع الذي تباع فيه الفواكه على اختلافها ، وهو يسمى دار البطيخ (الفخري
طبعة آفارت ص ٢٩٩) ؛ و يتيمة الدهر (ج ٢ ص ١٢٢) حيث يقول ابن النكك :

« كدار بطيخ تحوي كل فاكهة » . (٣) الأصبخري ص ٢٦٢ . (٤) Marco Polo I, 24 .
(٥) لطائف المعارف للثعالفي ص ١٢٩ ، ومعظم إقليم مرو في عصرنا صغراوي ، ولكن
بخاري وهي شبيهة بمزو في موقعها مشهورة ببطيخها . ويذكر أنه يتولى أمور الزراعة في =

في مطابخ أوروبا الجنوبية في أيامنا هذه ، وقد ذكر لنا أن سفناً كثيرة كانت تسير في الفرات قاصدة بغداد محملة بقراير الرمان إلى جانب أطواف الزيت والخشب^(١) .

وكان أحسن التفاح في ذلك العصر تفاح الشام ، حتى كان مضرب المثل في الحسن^(٢) . وقد جلب إلى مصر^(٣) وكان يُحمل إلى الخلفاء في كل سنة منه ثلاثون ألف تفاحة^(٤) . وهو لا يعيش في المشرق « لأنه لا يقوى على احتمال هواء الصحراء الحار اليابس »^(٥) .

وكانت تجارة التمر سببا في تصدير مقادير كبيرة منه ، وكانت العراق^(٦) وكرمان وشمال إفريقية أكبر مراكز إنتاج التمر ، وكان التمر العراقي أجود الأنواع ، وقد ذكرت منه أنواع كثيرة ، وكانت قسطنطينية وقابس كثيرة التمور حتى كان في بعض السنين يباع وقر الجبل بدرهمين^(٧) وكانت كرمان كثيرة التمور حتى كان أهلها لا يرفعون ما وقع من النخل ، وربما يبيع في بعض بلادها مائة من بدرهم . وكان رسم الجمالين أنهم يحملون التمر إلى خراسان مناصفة ، ويقصدها في كل سنة مائة ألف جبل يدخلونها على غفلة ؛ ويكثر الزنا والفساد في هذه القوافل^(٨) . وكذلك

== واشتجبت استوردوا من البطيخ البخاري إلى الولايات المتحدة أنواعاً وزرعوها فكانت أحسن بطيخ في الولايات المتحدة، انظر Busse Bewässerungs Wirtschaft in Turan, s. 241 .

(١) كتاب الوزراء من ٢٥٧ . (٢) مروج الذهب للمسعودي ج ٧ ص ٢٧٠ ولطائف المعارف للثعالبي ص ٩٥ .

(٣) حسن المحاضرة للسيوطي ج ٢ ص ٢٢٩ . (٤) لطائف المعارف للثعالبي ص ٩٥ .

(٥) W. Busse, Bewässerungs Wirtschaft in Turan, s. 316 .

(٦) وعلى أتنا نجد اليوم أن حدود الإقليم الذي يزرع فيه شجر النخل تنتهي بمدينة هامة على الفرات وتكرت على دجلة ، فقد كانت سنجار في ذلك العصر مدينة من مدن التمر : (ابن حوقل ص ١٤٩ ، والمقدسي ص ١٤٢) .

(٧) المقدسي ص ٢٣٠ ، وفي وادي دراعة يكون التمر رخيصاً جداً ، حتى ربما يبيع في

بعض السنين الجيدة حل الجبل بنصف دينار . انظر : Philfs Mein erster Aufemthalt in Marôcô, s. 44 .

(٨) المقدسي ص ٤٦٩ ؛

كانت القوافل التي تسير من شمال إفريقية إلى بلاد السودان مجتازة الصحراء تحمل التمر في الغالب ، وكانوا يعبدون بسبي العبيد والذهب ، وكان أكبر مركز لتجارة التمر هذه مدينة سبلماسة في جنوب مراکش^(١) .

أما شجر الزيتون فهو من نباتات إقليم البحر الأبيض المتوسط ، وكانت الشام وإفريقية الشمالية تمدان المملكة الإسلامية كلها بالزيت ، وكان أحسنه ما يأتي من الشام^(٢) حيث كانت مدينة نابلس خاصة كثيرة الزيتون^(٣) . وكان الزيت يُحرز في جباب كبيرة بمدينة حلب ، ولما بلغ الروم إلى هذه المدينة عام ٣٥١ هـ — ٩٦٢ م عمدوا إلى هذه الجباب فصبوا فيها الماء حتى فاض الزيت على وجه الأرض^(٤) . وكانت تونس من قبل تغذي روما بالزيت ، وكان بمدينة سفاقس في القرن الرابع من الزيت الكثير والزيتون مالميس بغيرها ، حتى ربما كان يباع ستون وسبعون قفيزا بدينار^(٥) . ولا تزال شجرة الزيتون تلقى من العناية في هذا الإقليم مالا تلقاه في أي بلد من بلدان البحر الأبيض المتوسط^(٦) . وكان الناس في مصر يستخرجون زيت المصابيح من بذور البنجر واللفت ، ويسمونه الزيت الحار^(٧) . أما في العراق وأفغانستان فكان عندهم زيت السمسم^(٨) . وقد غرست

(١) جغرافية الإدريسي طبعة دوزي ص ٤ ، ٦ ، ٢١ .

(٢) يقول الزعزعي في تفسير قوله تعالى : « لا شرقية ولا غربية » أي منبتها الشام ، وأجود الزيتون زيتون الشام . (سورة النور آية ٣٥) .

(٣) المقدسي ص ١٧٤ . (٤) مسكويه ج ٦ ص ٢٥٥ .

(٥) ابن حوقل ص ٤٧ .

(٦) The Fischer, Mittelmoarbilder Bd. I, s 432 .

(٧) رحلة ناصر خسرو ص ٧٦ من النص الفارسي ، وكان شجر الزيتون يزرع في نواحي الإسكندرية (المقدسي ص ١٩٧) . ويقول القلقشندي (Wüstenfeld, s. 34) ترجمة صبح الأعشى ج ٣ ص ٣١٢) إن الزيتون قليل بمصر ولا يستخرج منه الزيت بل كان يؤكل مملحاً .

(٨) Krruss, Talmudisch Archäologie, s. 226 وانظر كتاب Marco Polo

27 ١ . وقد جاء في التلمود أنه كان في العراق بعض شجر الزيتون Krauss, s. 215 .

في فارس أشجار الزيتون من جديد .

ونظرا لأن السكر كان غالى الثمن فقد كان قصب السكر يزرع في جميع البلاد التي تمكن زراعته بها ؛ حتى لقد زرع في كابل وصور^(١) . ولم يتكلم أحد من الجغرافيين في القرن الرابع عن زراعته في مصر ، وإن كان يدل على زراعته بها أوراق البردي التي يرجع تاريخها إلى القرن الثاني الهجري^(٢) ، ولكن يظهر أنه أصبح ذا شأن في القرن الخامس الهجري — وربما كان ذلك لانفصال مصر عن المغرب سياسيا ، ويقول ناصر خسرو حوالى عام ٤٤٠ هـ — ١٠٤٨ م : « وتنتج مصر غسلا كثيرا وسكرا »^(٣) . وكان أكبر مركز لصناعة السكر إقليم خوزستان وخصوصا مدينة جنديسابور ، حتى كان يقال إن عامة سكر خراسان والجليل منها^(٤) . وكان الإقليم المحيط بالبصرة أشهر مكان بصناعة السكر في العراق^(٥) . وكذلك عني المسلمون في الأندلس بالسكر وجعلوه من الحاصلات المستوطنة في بلادهم^(٦) . وكان لأهل اليمن تفنن في صناعة معقدات الفاكهة من أترج وجزر وقرع وخوخ ونحوها مما إذا شرع فيه الجاهل قضم على طيبه بعض أنامله ، ولهم الشهد الجامد الذي يقطع بالسكاكين ويهذى إلى العراق ومكة وسائر البلدان ، وهو يعمل بطريقة خاصة ؛ وذلك أنه يُحرّ في الشمس ويوضع في قصب اليراع ، ثم يوضع القصب أياما في مكان بارد حتى يعود إلى جموده ، ثم تُختم أفواه القصب بالقصة

-
- (١) المقدسي ص ١٦٢ ، ١٨٠ ، وكان لأهل مدينة البندقية أيام الحروب الصليبية مزرعة قصب في مدينة صور Tafel und Thomas Urkunpen, s. 368 .
 (٢) دليل أوراق البردي (مجموعة رينر) Führer dwch die Aufstellung der . Popyrus Rainer s. 183 .
 (٣) رحلة ناصر خسرو ص ٧٤ من النص الفارسي . (٤) المقدسي ص ٤٠٨ .
 (٥) المحاسن والمساوي لليهيقي ص ٦٢٣ .
 (٦) فيما يتعلق بالقرن الرابع أنظر زيج قرطبة طبعة دوزي ص ٢٥ ، ٤١ ، ٩١ ، وانظر Cron, Moro · Rasis في مجلة Mem Acad Madrid VIII, 37, 38, 56 .

وتصدّر ، فإذا أريد وصعه على الموائد ضربت القصبه بالأرض فانفلقت عن قصبه
عسل تقطع بالسكاكين على طيفورية أو رغيف^(١) .

وكان يخرج من بحيرة وان سمك صغير يعرف بالطريح (تقابله الكلمة اليونانية
thrissa يقوم مقام سمك البقلة المجفف عندنا ، فكان يملح ويحمل إلى الجزيرة
والموصل وحلب وسائر الثغور^(٢) ، أما في المغرب فكان يقوم مقامه السمك المسمى
بالتن (وباليونانية thynnos) ، ومنها كان يجفف ويباع ، وكان يصاد بزماح في
أستنها أجنحة بارزة تنشب فيه ولا تخرج^(٣) . وكان العامة يزعمون أنه يهاجر في
كل سنة إلى البحر الأبيض المتوسط ليحجج إلى صخرة معروفة فيه^(٤) .

وكان من الأطعمة المحبوبة الطين الذي يؤكل في آخر الطعام ، وأحسنه ما كان
يجلب من ناحية كران ، وهو أخضر كالسلق وأشرق منه ، ولا نظيره^(٥) .
وكذلك ورد ذكر الطين الأبيض العادي في كلام الشعراء^(٦) . وكان الأخضر
يجلب بكثرة من بلاد قوهستان^(٧) . وكان يجلب من نيسابور طين يسمى بالنقل ،
يحمل إلى أداني البلاد وأقاصيها ، ويتحف به الملوك والسادة ، وكان الرطل منه ربما
يباع في مصر وبلاد المغرب بدينار^(٨) . وكذلك كان الطين يصدر من المغرب

-
- (١) وصف جزيرة العرب للهمداني طبعة مولر ص ١٩٨ — ١٩٩ .
(٢) ابن حوقل ص ٣٤٨ ، ومعجم البلدان لياقوت ج ٢ ص ٤٥٧ ، وجغرافية أبي
الفدا طبعة رينو ص ٥٣ ، وبحيرة وان بحيرة ملحة Le Strange, Musfawli, P. 51 .
(٣) الإدريسي طبعة دوزي ص ١٦٨ .
(٤) جغرافية أبي الفدا طبعة رينو ج ٢ ص ٢١٥ .
(٥) ابن حوقل ص ٢١٣ ، لا الذي يشبه طعمه طعم البنجر Le Strange, the
Lands of the eastern Caliphate, 258 ، وكثيراً ما نشبه الأشياء الخضراء بالسلق .
(٦) قيمة الدرر ج ٤ ص ١٠٧ .
(٧) ذلك الذي يحسب في شكله . قطاع كافور عليها عجير .
(٨) الأصطخر ص ٣٧٤ . (٨) لطائف الجارح ص ١٤١ .

إلى المشرق من طليطلة فيحمل إلى مصر والشام والعراق وبلاد الترك^(١) . على أن كثيراً من الفقهاء حرموا أكل هذا الطين^(٢) .

« وكان يرتفع من مفازة سنجستان فيما بينها وبين مكران غلة عظيمة من الحلتيت؛ حتى إنه قد جلب على طعامهم ويجعلونه في عامة أطعمتهم »^(٣) ، ولا يزال هذا الطعام الكريه الرائحة من أكبر صادرات البنجاب في أيامنا ، ومنها يحمل إلى كوتاثم إلى أفغانستان^(٤) ، وكان في العصور الوسطى يُحمل من هناك إلى الصين^(٥) . وكان التجار البحريون المسلمون يحملون الكافور من جزيرتي بورنيو وسومطرة إلى الغرب وإلى الصين^(٦) ، وكان العنبر من أحسن البهارات المرغوبة ، أما البخور الذي كان أكبر صادرات اليمن في العصور الأولى فقد بطل استعماله في المملكة الإسلامية ، وأصبح من العادات القديمة ، وهو لا يزال يذكر في بعض الأحيان^(٧) ، ولكن حل محله العنبر ، وكان أحسن أنواعه ما يُجلب من جنوب جزيرة العرب^(٨) .

وكانت كثرة تنوع الملابس في مملكة الإسلام ناشئة من أن كل إقليم كان يستعمل من اللباس ما جرى عليه منذ البداية ، فكان البدوي يلبس ملابس تتخذ من صوف الضأن الأبيض وصوف الماعز الأسود ، وكان أهل برقة يلبسون ملابس محمّرة ، حتى كانوا في القرن الرابع بالقسطنطين يعرفون من بين جميع أهل المغرب بحمزة ثيابهم^(٩) ؛ وإنما كانوا يتخذون الملابس الحمراء لأن مدينتهم في

(١) الإدريسي ص ١٨٨ . (٢) كنز العمال على هاشم المسند لابن حنبل ج ٢

ص ١٩١ . وكتاب البلب ص ٢٠٧ . (٣) الأسطخري ص ٢٤٤ .

(٤) Revue du monde Musulman. V, P. 137 .

(٥) Chau Ju Kua, trans. Hirth 224 .

(٦) نفس المصدر ص ٢٩٣ . وانظر سلسلة التواريخ طبعة رينوس ص ٣٦ .

(٧) الأسطخري ص ٢٥ والهمداني ص ٢٠٠ . (٨) جغرافية البقوي ص ٣٦٦ .

(٩) ابن جوقل ص ٤٣ .

صحراء حمراء التربة والمباني ؛ فكانت تَحْمَرُ لذلك ثياب ساكنيها والمتصرفين فيها^(١). ولكن التجارة كان لها بالإجمال أثر في توحيد لون الملابس ، وسرعان ما انتشرت في جميع أنحاء مملكة الإسلام المادتان الأساسيتان في الصباغة وهما : النيل للتلوين باللون الأزرق ، والقرمس للتلوين باللون الأحمر (ومن كلمة قرمس أخذت الكلمة الأوروبية crimson أو Karmoisin ، وكان يباع في مدينة كابل وما حولها في كل سنة من النيل بما يبلغ ألفي ألف دينار^(٢) ، ولذلك فإن شجر النيل كان بسبب غلاء ثمنه يزرع في كل البلاد التي تصلح لزراعته ، كما كان شأن السكر ، فكان يزرع في مصر بالصعيد — وكان أهم ما يزرع في الواحات^(٣) — وبلدتي زُعر وبيسان بفلسطين^(٤) وفي كرمان وبالقرب من البحر الميت ، حيث كان للنيل تجارة كبيرة ، وكان يقرب من نيل كابل في الجودة^(٥) . وكان شجر النيل بمصر يُحصد في كل مائة يوم وهو يبقى في الأرض الجيدة ثلاث سنين ، وفي السنة الأولى يسقى في كل عشرة أيام دفعتين ، وفي السنة الثانية ثلاث دفعات ، وفي الثالثة أربع دفعات^(٦) ، فتلاحظ أن زراعة النيل كان منشؤها البلاد التي تتبع نظام الري على قاعدة العشرة الأيام .

أما القرمز فكان أكبر مصدر له بلاد أرمينية . وخصوصاً إقليم أَرارات^(٧) ومنها كان يُحمل إلى الهند وسائر المواضع^(٨) .

-
- (١) كتاب البدء والتاريخ للطاهر المقدسي ج ٤ ص ٧٢ ، وجغرافية البكري طبعة Slane ص ٥ . (٢) ابن حوقل ص ٣٢٨ ، ومنذ القرن السادس أو أوائل السابع كان النيل معروفاً عند أهل الصعيد بأنه من حاصلات بلاد فارس (انظر كتاب Chau Ju Kua ترجمة Hirth ص ٢١٧) . (٣) جغرافية الإدريسي طبعة دووي ص ٤٤ ، وكان النيل المصري يعتبر أقل جودة من الهندي (رحلة عبد اللطيف ص ٣٦) . (٤) المقدسي ص ١٨٠ . (٥) ابن حوقل ص ١٢٤ ، والمقدسي ص ١٧٤ ، والإدريسي طبعة براندل ص ٥ . (٦) القرينزي في الخطط ج ١ ص ٢٧٢ وقد تكلم ماركوبولو (ج ٣ ص ٢٥) عن صناعة النيل بالهند . (٧) الأسطخري ص ١٨٨ . (٨) نفس المصدر ص ١٩٠ .

وكان يستعمل للتلوين باللون الأصفر الزعفران النقي والعصفر والزعفران العربي المسمى الورس وهو نبت يشبه السمسم ويكون في اليمن^(١)، وكانت جمال اليمن التي تحمل الزعفران إلى الشمال تصفر ألوانها بتأثير لون أحماها الغالية، وكان يندر أن يكون للورس شأن واعتبار إلى جانب صاحبيه. على أن الإيطاليين سموا خشب البرازيل بلفظ verzin أخذوا من كلمة ورس العربية. وكان للزعفران نصيب عظيم من التقدير، ويحكى أن الخليفة المتوكل لما أرسل رسوله إلى ملك الروم في أمر الفداء عام ٢٤٦ هـ — ٨٦٠ م بعث في جملة هداياه القيمة مقداراً كبيراً من الزعفران^(٢). وكان الزعفران لعظم قيمته يزرع في كثير من البلاد كالشام وجنوب فارس، ولكن ميديا القديمة كانت أكبر موطن له^(٣). أما في المغرب فكانت تحمل منه مقادير كبيرة من ظليطة^(٤).

أما البورق فلم يكن يوجد إلا في بحيرة وان بشمال فارس، وكان يصدر للخبازين في بلاد العراق وما بين النهرين، وكان يسمى بورق الخبز، وكان يستعمل في تلميع الخبز^(٥)، وكان يوجد إلى جانبه بورق الصاغة، وكان يحمل من بحيرة أرمية إلى العراق والشام ومصر فيريح فيه الريح العظيم^(٦). وكان الشب أهم ما يستخرج حول بحيرة شاد بالسودان، وكان رأس مال أهل هذه البلاد، فكانوا يتجولون به في جهة المشرق حتى ينتهوا إلى مصر، وينصرفون في جهة المغرب حتى يصلوا بلاد المغرب الأقصى^(٧). وكان الملح الذي

(١) الجوهرى تحت كلمة ورس، وفقه اللغة للثعالبي طبعة القاهرة من ١١٣؛ والهمداني.

ص ٢٠٠؛ ومجائب الخلوقات للقزويني ج ٢ ص ٧٦. (٢) تاريخ الطبرى ج ٣ ص.

١٤٤٩—١٤٥٠. (٣) Karabacek, die persische Nadelmalerei s. 52 ff. (٤) Morò Rasis, p. 50 وانظر.

(٥) عن رسالة في الكيمياء العربية في كتاب Berthelot, La chimie au moyen âge, II, p. 68, 145, note 4.

(٦) ابن حوقل ص ٢٤٨. (٧) الإدريسى طبعة دوزي ص ٣٩ — ٤٠.

يستخرج من مناجم الصحراء يشتغل بحمله آلاف من الجمال والحمالين ، كما كان الملح الذي يستخلص من المحيط الأطلسي يُحمل إلى أعماق السودان^(١) . وكان ملح النوشادر ، وهو من أهم الأملاح الكيماوية في ذلك العهد ، يوجد في نقطتين متقابلتين بأقصى المملكة الإسلامية ، وهما صقلية وبلاد ما وراء النهر^(٢) ، وكانت الثانية أهم من الأولى بكثير ، ولذلك سمي ملح النوشادر في أوروبا — منذ العصور القديمة — بالملح التتري Tatarisches Salz نسبة لموقع بلاده^(٣) . ويقول الجغرافيون إنه كان بجبال البتم معدن النوشادر ، وهو جبل فيه مثل الغار بني عليه بيت قد استوثق من أبوابه وكواه ، فيرتفع من الغار بخار يشبه بالنهار الدخان ، وبالليل النار ، فإذا تلبّد هذا البخار أخذ وهو النوشادر ، وداخل هذا البيت يكون شديد الحر لا يتهيأ لأحد أن يدخله إلا احترق ؛ إلا أن يلبس لبوداً يرطبها بالماء ، ويدخل كالمختلس فيأخذ ما يقدر عليه من النوشادر ، وهذا البخار ينتقل من مكان إلى مكان ، فيُحفر عليه حتى يظهر ، فإن خفي في مكان حُفر عليه في آخر ، وإذا لم يكن على هذا البخار بناء يمنعه من التفرق لم يضر من قاربه ، فإذا كان عليه بيت يجتمع أحرق من يدخله من شدة الحر^(٤) ، وقد وصف المسعودي حوالى عام ٣٢٢ هـ — ٩٤٤ م جبال النوشادر التي بالصين وصفاً جديراً بالذكر فقال : « وللصين أنهار كبار مثل الدجلة والفرات تجري من بلاد الترك والتبت والصغد بين بخارى وسمرقند ، وهناك جبال النوشادر ، فإذا كان في الصيف رأيت في الليل نيراناً ترتفع من تلك الجبال من نحو مائة فرسخ ، وبالنهار يظهر منها الدخان

(١) J. Marquart, Die Beninsammlung, Inhaltverzeichnis (unter Salz)

(٢) ابن حوقل ص ٣٢٧ ؛ ويقول ناصر خسرو (ص ٥ من النص الفارسي) إن بقعة جبل دماوند بئراً يخرج منها النوشادر والكبريت ، ويصعد على الجبل رجال يحملون جلود البقر فيملأونها بالنوشادر ثم يدحرجونها من قمة الجبل .

(٣) V. Richthofen, China, I, s. 560. (٤) الأصبهاني ص ٢٣٧ —

٢٣٨ ، وابن حوقل ص ٣٨٢ — ٣٨٣ .

تغلبة شعاع الشمس وضوئها وضوء النهار ، ومن هنالك يُحمل النوشادر ، فإذا كان في الصيف ، فمن أراد من بلاد خراسان أن يسلك إلى بلاد الصين صار إلى هنالك ، وهنالك واد بين تلك الجبال طوله أربعون ميلاً أو خمسون ، فيأتي إلى أناس هنالك على قم الوادي فيرغبهم في الأجرة النفيسة ، فيحملون ما معه على أكتافهم وبأيديهم العصي يضربون جنبه خوفاً أن يبلج ويقف فيموت من كرب الوادي ، وهو يحضر أمامهم حتى يخوضوا إلى ذلك الرأس من الوادي . وهنالك غابات ومستنقعات ، فيطرحون أنفسهم في ذلك الماء لما نالهم من شدة الكرب وحرّ النوشادر ، ولا يسلك ذلك الوادي داعٍ ولا مجيب ، فإذا كان الشتاء وكثرت الثلوج والأنداء وقع على ذلك الموضع فاطفاً حرّ النوشادر ولهيبه ، فيسلك الناس حينئذ ذلك الوادي ، والبهائم لا صبر لها على ما ذكرنا من حرّه ، وكذلك من ورد من بلاد الصين فُعل به من الضرب ما فعل بالآخر»^(١) . وفي عام ٩٨٢ م زار الرحالة الصيني وانج ين تي (Wang-yen-te) جبال النوشادر وهو يقول : « يستخرج النوشادر من جبل يقع شمال بيتنج ، ومنه تتصاعد أعمدة النار من غير انقطاع ، وفي أثناء الليل تُرى لهب كالتى تتصاعد من المشاعل حتى يستطيع الإنسان أن يرى الطيور والفيران ملونة كلها باللون الأحمر ، ويلبس المشتغلون بجمع النوشادر أحذية نعلها من الخشب لأن الجليد يحترق»^(٢) ، ويقول الصينيون إن المكان الذي يؤخذ منه النوشادر يقع في شرق جبال تيان شان على مسافة مائتي «لى» شمال كوت . وقد جاء في أحد المراجع الصينية الذي يترجع إلى عام ١٧٧٢ م : « يُجلب النوشادر من جبل النوشادر في شمال مدينة كوشا ، وهو

(١) مروج الذهب ج ١ ص ٢٤٦ — ٢٤٧ .

(٢) JA, 1847, I, p. 63 .

جبل كثير الشقوق والأغوار ، وهذه الشقوق تمتلئ بالنار في الربيع والصيف والخريف ، حتى يظهر الجبل بالليل كأنه مضاء بآلاف المصابيح ، وفي ذلك الوقت لا يستطيع أحد أن يقترب منه ، وفي الشتاء فقط يشتغل أهل ذلك المكان بجمع النوشادر ، وذلك عندما تسقط الثلوج والأنداء فتطفي حراً النوشادر ولهيبه^(١) . وكذلك يحدثنا الجغوي الأفعاني في القرن الحادي عشر الميلادي في كتابه كشف المحجوب ، وهو كتاب في التصوف والمتصوفين ، أنه رأى على حدود بلاد الإسلام في بلد من بلاد الترك جبلاً ملتهباً يخرج منه بخار النوشادر ، وأنه كان في ذلك اللهيب فأراد أن يهرب من الحرفات^(٢) . وكان لهذا النوشادر قيمة كبيرة بالصين نفسها حتى كان أهل جبال النوشادر يدفعون الخراج الذي عليهم للإمبراطور منه^(٣) . وقد ذهبت بعثة لارتياد هذا الجبل منذ ثلاثين عاماً ، وفي هذا الشأن تقول مجلة التركستان الرسمية : « إن جبل ييشان ليس بركناً ، كما قررت ذلك بعثة روسية أرسلت بقصد البحث عن ذلك ، فإن الدخان الذي يتصاعد منه ناشئ من احتراق طبقات من الفحم ، وسفوح جبل ييشان مغطاة بشقوق يخرج منها الدخان وغاز الكبريت بصوت مروع » ، وهذا ما نجده في فريد ريشن Friedrichen ، فهو يزيد على ما تقدم قائلًا : « وهذا يتفق مع ما حكاه ريجل Regel^(٤) عن بستاني يسمى فيتيسوف Fetisow أرسل لعمل أبحاث نباتية في تلك المنطقة ، فهو يقول إن جبل ييشان جبل مخروطي الشكل ، وليس له فوهة في أعلاه ، بل له فتحات جانبية » ؛ فكان فريدريشن يعتبر الجبل كتلة من الفحم تحترق^(٥) .

(١) v. Richthofen, China, I, 560.

(٢) كشف المحجوب ص ٤٠٧ من ترجمة نيكسون . (٣) انظر مقال فريدريش

Friedrichen, Zeitsch. Gesell. Erdkunde, Berlin, 1899, s. 246 نقلًا من كتاب

Klaproth, tableaux histor., p. 110 . (٤) Gartenflora, 28 Jahrg. 1879, s. 40

(٥) نفس المصدر ص ٢٤٧ .

أما المعدنان النفيسان فقد كانت أجزاء المملكة الإسلامية يكمل بعضها بعضاً منهما على نحو جميل ، فكان المشرق يهيئ الفضة والمغرب يأتي بالذهب ، أما معادن التبر في ذلك العهد فكانت تقع في الصحراء الحارة التي تقع إلى شرق النيل في الصعيد بين أسوان وعيذاب ؛ وكانت أكبر مدينة لمنجمي الذهب هي العلاقي التي تقع على مسيرة خمس عشرة مرحلة من أسوان^(١) . فكانوا يتجولون في الليالي التي يضعف فيها ضوء القمر ، ويعلمون على المواضع التي يرون فيها شيئاً مضيئاً^(٢) علامة يعرفونها ويبيتون هناك ، فإذا أصبحوا حملوا أكوام الرمل التي علموا عليها ومضوا بها إلى آبار هناك فغسلوها بالماء واستخرجوا التبر ثم يؤلفونه بالزئبق ويسبكونه^(٣) . وقد توافد طلاب الغنى إلى ذلك الموضع منذ منتصف القرن الثالث الهجري ، وذلك بعد أن أرسلت عام ٢٤١ هـ — ٨٥٥ م حملة قوية صغيرة العدد ممتازة الجند لتأديب البجة الذين كانت لا تهدأ ثورتهم على الدولة حتى ردتهم إلى الصواب ، ومن ذلك التاريخ اندمج البجة في القبائل العربية^(٤) . وفي سنة ٣٣٢ هـ — ٩٤٤ م كان سيد قبيلة ربيعة ملك بلاد الذهب^(٥) ، ويحكى أن الخليفة المستنصر صاحب مصر بذل لأبي العلاء المعري (المتوفى عام ٤٤٩ هـ — ١٠٥٧ م) ما يبيت المال بالمعرة فلم يقبل منه شيئاً وقال:

كأنما غاية لي من غنى فعدّ عن معدن أسوان

(١) تجد هذا مفصلاً أوسع تفصيل في جغرافية اليعقوبي ص ٣٣٤ وما بعدها .

(٢) كانوا يعلمون على المواضع بالرماد أو الطباشير ، انظر بتاحيا (Petachja) في JA, VIII, p. 384 ، ويظهر أن هذه الطريقة في البحث عن الذهب كانت مألوفة في جميع بلاد الشرق الأدنى فحدثنا تشانج تي (Chang-te) الرحالة الصيني الذي رحل إلى الغرب عام ١٢٥٩ م أن الذهب يوجد بأرض مصر ، وبالليل ترى أشياء مضيئة في بعض المواضع فيعلم الناس عليها بالريش والفحم ، فإذا حضروها بالنهار عثروا على قطع كبيرة من الذهب .

Bretschneider, mediaeval Researches, I. P. 142 .

(٣) الإدريسي طبعة دوزي ص ٢٦ . (٤) الأخطري ص ٢٨٨ (٥) .

(٥) الخطط للمقرئ ج ١ ص ١٩٦ — ١٩٧ .

سرت برغمى عن زمان الصبي . يعجلنى . وقتى . وأ. كوانى

صدّ أبى الطيب لما غدا . . . متصرفاً عن شعب يونان^(١)

وكان المعدن الثانى للذهب فى السودان ، ويقول الإدريسى إن السودان

بلاد التبر ، وإنه أكبر غلة عند السودان ، وإنهم عليها يعولون صغيرهم وكبيرهم^(٢)

وكانت كل القوافل التى تسير فى الصحراء الكبرى آتية من الجنوب تحمل

الذهب والعبيد ، وكان الحمّالون يحملون الملح ويعودون بالذهب ، وكانوا يحملونه

على رؤوسهم حتى أصبحت صلعاء لا أثر فيها للشعر^(٣) .

وقد كشف فى عام ٣٩٠ هـ — ١٠٠٠ م معدن للذهب فى نواح يُقال لها

خشبايى^(٤) من بلاد سنجستان ، وقد ذكر هذا ، وليكنّا لم نسمع عن هذا

المعدن شيئاً بعد ذلك .

وكان أكبر معدن للفضة فى المملكة الإسلامية يقع فى مشرقها فى بلاد

هندكوش فى مدينة بنجوير ، وحكى بعض الجغرافيين أن هذه المدينة كانت

تشتغل على عشرة آلاف رجل ، « ويغلب على أهلها العبث والفساد »^(٥) ويقول

ياتوت : « بنجوير مدينة بنواحي بلخ فيها جبل الفضة ... والدرهم بها واسعة .

كثيرة لا يكاد أحدهم يشتري شيئاً ولو جزرة بقل بأقل من درهم صحيح ، والفضة

فى أعلى جبل مشرف على البلدة ، والسوق والجبل كالغربال من كثرة الحفر ،

وإنما يتبعون عروقاً يجدونها تدلم على الجواهر ، وهم إذا وجدوا عرقاً حفروا أبداً

إلى أن يصيروا إلى الفضة فيثبتي أن للرجل منهم فى الحفر ثلاثمائة ألف درهم زائداً

(١) الإرشاد لياتوت ج ١ ص ١٧٨ . (٢) الإدريسى طبعة دوزى من ٨ .

(٣) J. Marquart Die Beninsammlung, s. CII. نقلاً عن أحمد المراجع البرتغالية ،

ويجد القازى عند ماركفارت . فى قائمة محتويات الكتاب تحت كلمة (Gold) . كل ما به قيمة من

المعلومات عن استخراج الذهب وتجارته فى الجنوب . (٤) البدء والتاريخ ج ٤ ص ٧٨ .

وابن الجوزى فى المنتظم من ١٤٤٤ ، وابن الأثير ج ٩ ص ١٩٦ .

(٥) ابن خوقل ص ٣٢٧ .

أو ناقصاً ، وربما صادف ما يستغنى به هو وعقبه ، وربما حصل له مقدار نفقته ، وربما أكدي واقتصر لغلبة الماء وغير ذلك ، وربما يتبع الرجل عرقاً ويتبع آخر شعبة أخرى منه بعينه فيأخذان جميعاً في الحفر ، والعادة عندهم أن من سبق فاعترض على صاحبه فقد استحق ذلك العرق وما يفضى إليه ، فهم يعملون عند هذه المسابقة عملاً لا تعلمه الشياطين ، فإذا سبق أجبد الرجلين ذهبت نفقة الآخر ذهراً وإن استويا اشتركا ، وهم يحفرون ما حيت السرج واتقدت المصابيح ، فإذا صاروا في الحفر إلى موضع لا يحى السراج فيه لم يتقدموا ، ومن تقدم مات في أسرع وقت ، والرجل منهم يصبح غنيا ويمسى فقيراً أو يصبح فقيراً ويمسى غنيا^(١) . أما معادن الفضة التي كانت بأصفهان فكانت في القرن الثالث الهجري قد هُجرت منذ زمان طويل^(٢) . وكذلك تعطل العمل في معادن الفضة التي كانت بمنطقة باذغيس من بلاد أفغانستان وذلك بسبب فناء الخطب^(٣) . وكان بأصفهان معدن للنحاس الأصفر عليه للسلطان خراج قدره عشرة آلاف درهم^(٤) . وكان يُجلب من بخارى النحاس الأصفر الذي يستعمل في طلاء أعلى المنائر . وكانت فارس أكبر إقليم لاستخراج الحديد لصناعته^(٥) . وكان بالقرب من بيروت^(٦) وبكرمان^(٧) وكابل^(٨) مناجم حديد أيضاً . وكان بفرغانة مناجم حديد ، وقد برع أهلها في صناعته ، وتفتت لهم الخواطر بغرائب اتخذوها منه ، وكان بمدينة مرخمدة بخراسان مجمع وسوق في رأس كل شهر ينتابه الناس من

(١) معجم البلدان ج ١ ص ٧٤٣ وما بعدها . (٢) ابن رسته ص ١٥٦ .

(٣) الأصبهاني ص ٢٦٨ - ٢٦٩ . (٤) ابن رسته ص ١٦٦ .

(٥) المقدسي ص ٣٢٤ . (٦) ابن حوقل ص ٢١٤ ، وابن القتيبي ص ٢٥٤ .

(٧) المقدسي ص ١٨٤ ، والإدريسي طبعته براتزل ص ٢٢ ، وقد كتب زيتون

(Seetzen) - في عام ١٨٠٤ ما هو أوفى من ذلك فيما يتعلق باستخراج الحديد في لبنان

U. J. Seetzen's Reisen, I, 189 . (٨) المقدسي ص ٤٧١ .

(٩) ابن حوقل ص ٣٢٨ .

الأماكن البعيدة^(١) . وكان الحديد يوجد في المغرب بصقلية^(٢) . وكان لا يزال يحمل من إفريقية وهي الموطن الأول للحديد ، وكان يؤخذ إلى الهند فتصنع منه أغلى آلات الحديد^(٣) . أما في آسيا الغربية فكان الحديد على الدوام نادراً ، ويحكى أنه في عام ٣٥٥ هـ — ٩٦٤ م استهدى القرامطة في حجر (بجزيرة العرب) من سيف الدولة حديداً فأمر بقلع أبواب الرقة ، وكان من حديد ، وسدّ مكانها ، وأخذ حديداً بديار مضر ، حتى أخذ سبخت الباعة والبقالين ، ثم حمل هذا الحديد في الفرات إلى هيت ومن هيت إلى القرامطة في البرية^(٤) . أما الزئبق فكان أكبر وأعظم معدن له في المملكة الإسلامية بالأندلس ، على مقربة من قرطبة . يقول الإدريسي : « وبشمال قرطبة الحصن الذي به معدن الزئبق ، ومنه يتجهز بالزئبق والزنجفر إلى جميع أقطار الأرض ، وذلك أن هذا المعدن يخدمه أزيد من ألف رجل ، فقوم للنزول فيه وقطع الحجر وقوم لنقل الحطب لحرق المعدن ، وقوم لعمل أواني سبك الزئبق وتصعيده ، وقوم لشأن الأفران والحرق ، قال المؤلف وقد رأيت هذا المعدن فأخبرت أن من وجه الأرض إلى أسفل أكثر من مائتي قمة وخمسين قمة »^(٥) . وكان يوجد الفحم الحجري بفرغانة وبخارى ، وقد وصفه الجغرافيون الرحالون بأنه « حجارة تَحترق كالفحم »^(٦) ، ولكنهم اعتبروه من غرائب الطبيعة ، وكان بمدينة دخشان بخراسان حجر الفتيلة ، وقد سمي بهذا الاسم لأنه كان يستعمل في ذلك العهد كما في أيامنا فتيلة للمصابيح ،

(١) نفس المصدر ص ٣٨٤ . (٢) المقدسي ص ٢٣٩ .

(٣) الإدريسي ترجمة جوير Jaubert ج ١ ص ٦٥ .

(٤) مسكويه ج ٦ ص ٢٦٣ — ٢٦٤ ، والمنتظم لابن الجوزي ص ٩٤ ب .

(٥) الإدريسي طبعة دوزي ص ٢١٢ — ٢١٣ ، ومحاسن التجارة للدمشقي طبعة

التاهرة ١٣١٨ هـ ص ٢٩ ، ويقول الديمشقي إن أحسن الزئبق ما جلب من المعدن الذي بقرب

جالبطة . (٦) ابن حوقل ص ٣٦٢ ، ٣٩٧ .

وكان ينسج منه غطاء الموائد ، فإذا اتسخ وأرادوا غسله طرحوه في التنور فيعود نظيفاً^(١) .

أما الأحجار النفيسة فكان تقدير نفاستها في ذلك العصر يختلف عنه في أيامنا ، وقد بين أحد كتاب القرن الرابع نفائس الجواهر فهي عنده : فيروزج نيسابور ، وياقوت سرنديب ، ولؤلؤ عمان ، وزبرجد مصر ، وعقيق اليمن ، وبجاذى بلخ^(٢) . وكذلك أحصى البيروني حوالى عام ٤٠٠ هـ — ١٠٠٩ م الجواهر ، وهي عنده : الياقوت والزمرد واللؤلؤ^(٣) . وإذن فلم يكن للألماس في ذلك العصر هذا المركز العظيم الذى يفوق به جميع الأحجار الكريمة ، بل كان الناس يقدمون عليه الأحجار الملونة ذات البريق اليسير ، ولم يكن يستعمل إلا في القطع أو فى السمّ بخراسان والعراق^(٤) ، وكان الملوك والكبراء يستعملون القصص الكبار منه فى قتل أنفسهم ، فإذا وقعوا فى قبضة عدو وأيقنوا أنه يعذبهم ويهينهم قبل القتل ابتلع أحدهم القصص فمات^(٥) . وكان الفيروزج الأزرق لا يوجد إلا فى نيسابور^(٦) . وفى عام ١٨٢١ م زار فريرز Fraser التل الذى يقع على مسافة ستين كيلومتراً إلى شمال غربى هذه المدينة ، وكان الفيروزج يستخرج

(١) المقدسى ص ٣٠٣ ؛ وانظر Marco Polo , I, 40 .

(٢) لطائف المعارف للثعالبي ص ١١٦ .

(٣) كتاب الجواهر للبيروني ترجمة فدمان Wiedemann, Der Islam, II, 347 .

(٤) نفس المصدر ص ٣٥٢ . (٥) محاسن التجارة للدمشقي ص ١٦ وانظر

Benvenuto Cellini, II, 13 . فكانوا يخلطون الألماس المجروش بالطعام ، وهو ليس سما

بذاته ، ولكنه بسبب صلابته الشديدة وزواياه الحادة لا يستدير كغيره من الأحجار إذا ابتلعها

الإنسان ، بل إذا دخل مع الطعام فى الجسم فإنه يلتصق أثناء الهضم بمجدران المعدة والأمعاء ، فإذا

ضغطة الطعام خرق الموضع الذى التصق به ومات الإنسان من فوره ؛ وليس من بين الأحجار

الأخرى حتى الزجاج ما يلتصق بالتصاق الألماس ، بل هى تمر مع الطعام .

(٦) لطائف المعارف ص ١١٥ ؛ وينذكر ماركو بولو Marco Polo, Lemke p. ٩3 .

أن الفيروزج يوجد بكرمان أيضاً .

بطريقة لا أثر فيها للرقى الفنى وذلك باستعمال القؤوس فى حفر صغيرة ، ولكن يستطيع الناظر أن يلاحظ أن العمل فى هذا الشأن كان واسع النطاق فى الزمن الماضى ^(١) . ولكن بعد القرن الرابع بقرنين تغير ذوق الناس وصار الملوك لا يكادون يرغبون فى لبس الفيروزج ، لأن العامة أكثرها من التخم به . ولبس الفصوص المشبهة بالجيد منه ^(٢) . وكذلك نزلت فى القرن الرابع الهجرى قيمة العقيق ، وذلك أنه هان عند الملوك لاقتدار العامة عليه ، وصاروا لا يتخذون منه إلا ما كان حجراً كبيراً قد عملت منه آلة مليحة كالمدخن أو القدح أو ما جرى هذا الجرى ^(٣) . وكان أحسنه ما يستخرج بصنعاء ، فكان من أراد العقيق اشترى قطعة أرض بصنعاء ثم حفز ، « فربما خرج له شبه صخرة وأقل ؛ وربما لم يخرج شئ » ^(٤) . وكذلك كان العقيق الجيد يستخرج من جبال أفغانستان ، وكان هذا العقيق يحفر عليه فى مناخم كمناجم الذهب والفضة ^(٥) وكان الجبل الوحيد الذى به معدن الزمرد فى المملكة الإسلامية يوجد بمصر فى برية منقطعة عن العمار على مسيرة سبعة أيام من صعيد مصر ، وهم يحفرون عليه فى الجبل ويقتلعونه من عمق بعيد ^(٦) ، وقد ذكر سترابو هذا الجبل من قبل ، وكان صاحب المعدن فى عام ٣٣٢ هـ - ٩٤٣ م أبا مروان بشر بن إسحاق ، وهو من ربيعة ، وكان أيضاً صاحب معادن الذهب ^(٧) .

(١) Froser, Journey into khorasan, London 1852 p. 407 ff . وقد وصف

بريكتو Brictoux (فى كتابه المسمى 55 - 251 P. Au payr du lion et du soleil نقلا عن جروته 19 Grothe Persien العمليات التى تجرى اليوم لاستخراج الفيروزج بنيسابور .

(٢) محاسن التجارة ص ١٦ . ولعل هذا نقل عن أحوال القرن السادس الهجرى .

(٣) نفس المصدر ص ١٧ . (٤) المقدسى ص ١٠١ .

(٥) ابن حوقل فى كلامه عن بنخشان ؛ وانظر Marco polo, I, Op., 27 .

(٦) المقرئى ج ١ ص ١٩٣ نقلا عن الجاحظ ، ومروج الذهب ج ٣ ص ٤٣ وما بعدها .

وكان يوجد بالهند مثل هذا الزمرد . (٧) مروج الذهب ج ٣ ص ٣٣ .

وكان الجزع الملون المخطط محبوباً بنوع خاص في صنع بعض الآلات ، وكان يجلب من اليمن ، ويعمل ألواحاً وصفائح وقوائم سيوف ونصب سكاكين ومداخن ونحو ذلك^(١) ، وكان لتنوع لونه وجمال وشبهه ولمعانه تصنع منه أدوات المائدة للسادة والكبراء .

أما المرجان فكان يصاد في ذلك العصر — كما يصاد اليوم — من شمال إفريقيا ، من سبتة ومرسى الخرز وما إليهما^(٢) . وكان يعمل في مرسى الخرز في أكثر الأوقات خمسون قارباً وأكثر من ذلك ، وفي كل قارب نحو من عشرين رجلاً^(٣) . وكان يخرج الصيادون إلى جمعه في قوارب ومعهم صلبان من خشب قد لُفَّ عليها من الكتان المحلول ورُبط في كل صليب حبلان يمسكهما رجلان ، ثم يرميان بالصليب ويدير النواتي القارب فتلف خيوط الكتان على ما قاربها من نبات المرجان ، ثم تجذب الصلبان فيخرج معها ما يساوي العشرة دراهم إلى العشرة آلاف درهم^(٤) . وكان أكثر ما يحمل إلى بلاد غانة وبلاد السودان^(٥) . وكان نساء الهند يحبونه بنوع خاص^(٦) . وفي عصر ماركو بولو كان يصدر إلى أوروبا من كشمير^(٧) . وفي عصرنا هذا يصدر المرجان الإيطالي إلى روسيا ؛ ولكن نظراً للضرائب الثقيلة على حدود روسيا في الغرب فإنه يحمل إلى مسافة كبيرة مازا بالهند وتركستان الشرقية حتى يصل إلى روسيا^(٨) .

وكان اللؤلؤ الذي يستخرج من الخليج الفارسي في شرق جزيرة العرب

(١) الهداني ص ٢٠٣ .

(٢) المروج ، ج ٤ ص ٩٧ ، والمقدسي ص ٢٢٦ ، وكتاب الجماهير (مجلة Der Islam

II) ويقول الرحالة الصيني تشاو يو كوا Cheu - Ju - Kua عام ١٣٠٠ م أن المرجان يوجد في غرب البحر الأبيض المتوسط (انظر ترجمة Hirth ص ١٥٤ ، ٢٢٦) .

(٣) ابن حوقل ص ٥١ . (٤) المقدسي والإدريسي - طبعة دوزي ص ١١٦ .

(٥) الإدريسي طبعة دوزي ص ١٦٨ . (٦) البيروني كتاب الجماهير .

(٧) Marco Polo, I, 29 (٨) M, Hartmann, Chinesisch Turkestan, s. 63 .

يعتبر أفضل أنواع اللؤلؤ عند أهل الصين^(١) وكان الغواصون يغوصون عليه في بحر فارس من أول نيسان إلى آخر أيلول ، وما عدا ذلك من شهور السنة فلا غوص فيها^(٢) . وكان استخراج اللؤلؤ يعمل على قاعدة النظام الرأسمالي ، فكان أحد المقاولين يؤجر الغواصين شهرين ويدفع لهم أجرهم بانتظام ، وكان يحصل من وراء غوصهم في بعض الأحيان على ربح جسيم لا يصيبهم منه شيء^(٣) . وفي عصر بنيامين التوديلي (حوالي عام ١١٧٠م) كان هذا العمل يقوم به أحد اليهود^(٤) ؛ أما في أيامنا فإن الربح يعود على القبيلة أو القبائل التي تملك القوارب المستعملة في مساعدة الغواصين ، والقسمة بين القوارب على السوية ، أما ربح ذلك فهو يؤول إلى تجار الهند الذين يشترون أصنافه بأبخس الأثمان^(٥) . وكانت مهمة الغوص شاقة جداً ؛ وقد وصف الأعشى الشاعر الجاهلي هذا الغواص وصفاً بين فيه ضعف حاله والخطر الذي يتجشمه ، وأنه ينزل في البحر الذي ربما قد مات فيه أبوه من قبل ، وهو مع ذلك لا يجد من المبتاعين رقماً^(٦) .

وفي أوائل القرن الرابع الهجري يحدثنا السعودي أن الناصة لا يكادون يتناولون شيئاً من اللحم إلا السمك ، ويأكلون التمر ونحوه من الأقوات ، وتُشَقَّ

(١) Chsu-Ju-Kua, s. 229 . (٢) مروج الذهب ج ١ ص ٣٢٨ ، والإدرسي طبعة جوير Jaubert ج ١ ص ٣٧٣ وما بعدها ؛ وانظر ما ذكره بالجراف Palgrave في كتاب Zehme Arabien, s. 208 وقد غلط بنيامين Benjamin, 59 حين حدد أول الغوص بأنه في أكتوبر .

(٣) عجائب الهند ص ١٣٥ . والإدرسي طبعة جوير ج ١ ص ٣٧٣ .

(٤) رحلة بنيامين طبعة أشعر Ascher ص ٩٠ .

(٥) انظر كتاب Zehme, Arabien s. 208 ، ويذكر جروته Grothe, Persien, s. 19 بحثاً صغيراً للفرنسي بيريز Perez عنوانه Six Semaines de dragages sur les bancs perliers du Golfe Persique (Orléans, 1908) .

(٦) خزانة الأدب ج ١ ص ٥٤٤ ، وترجم شعر الأعشى ليال Lyall في مجلة J R A S 1902 p. 146 f.

أصول آذانهم ليخرج منها النفس بدلا من المنخرين ، لأنهم يجعلون على المنخرين شيئا من ظهور السلاحف البحرية التي تتخذ منها الأمشاط أو من القرن يضمها كالشقاص لا من الخشب ، ويجعل في آذانهم القطن ، وفيه شيء من الدهن فيعصر من ذلك الدهن اليسير في قعر الماء فيضئ لهم بذلك ضياء نيرا ، وتطلى أقدامهم وسيقانهم بالسواد خوفا من أن تبلعهم دواب البحر لأنها تنفر من السواد . وهم في قعر البحر يصيحون كالكلاب حتى يسمع بعضهم صياح بعض^(١) . وفي القرن الرابع قل شأن الغوص على اللؤلؤ بجزيرة سرنديب حتى كاد الإنسان لا يرى أصدافه هناك ، وحتى جيب البعض أن اللؤلؤ ترك جزيرة سرنديب وذهب إلى إفريقيا^(٢) ، ولهذا السبب لم يتكلم الرحالون والجغرافيون في ذلك العهد عن الغوص على المرجان هناك ، ولكن الأصداف عادت إلى الظهور فيما بعد ؛ حتى حدثنا كتاب القرن السادس الهجري عن اللؤلؤ والغوص عليه أحاديث مفصلة ، وذلك أنه كان يخرج من المدينة أكثر من مائتي سفينة معا تحمل كل منها خمسة تجاز إلى ستة ، كل منهم في مكان خاص به ومعه غواصه ومساعدوه ، ويقود هذا الأسطول قائد في مركب يسير به أمام الجميع ، فيقف في مكان ما ويغوص ، فإذا وجد شيئا ألقى مراسي سفينته وألقى الآخرون مراسي سفنهم حوله ، ثم يسد الغواصون أنوفهم بالشمع المذاب في زيت السمسم يأخذ كل منهم سكينًا ومخلالة ، ويقعد على حجر مربوط في حبل يمسكه المساعد به وينزله إلى قعر البحر ، ويستمر هذا الغوص ساعتين من النهار ، ثم يُقاس هذا اللؤلؤ ويبيع في يوم يحدده بإشراف الحكومة ، ويُفرز اللؤلؤ بثلاثة غرابيل متفاوتة اتساع الخروق بعضها فوق بعض^(٣) .

(١) مروج الذهب للشعودي ج ١ ص ٣٢٩ وما بعدها .

(٢) كتاب الهند لليروني ترجمة سخاوي ج ١ ص ٢١١ .

(٣) الإدريسي طبعة جوييه ج ١ ص ٣٧٣ وما بعدها .

ويقول بنيامين (ص ٨٩) إن الغواص يستطيع أن يبقى تحت الماء من دقيقة إلى دقيقة ونصف .

وحكى كاتب صيني من أهل ذلك العصر فقال : يُستعمل في استخراج اللؤلؤ ثلاثون أو أربعون قاربا ، على كل منها نحو من اثني عشر بحارا ، ثم يأتي الغواصون وقد شُدت الحبال على أجسامهم وسُدت أنوفهم وآذانهم بالشمع الأصفر ، ويُنزلون البحر على عمق مائتين أو ثلاثمائة قدم أو أزيد من ذلك ، وتكون الحبال مثبتة إلى القارب ، فإذا أشار أحد الغواصين بتحريك حبله جذبه إلى السطح ، ويكون قد سُخن له غطاء لثين في الماء المغلي فيلقى عليه بمجرد خروجه من الماء لئلا تصيبه النوبات فيموت . والغواصون عرضة لأن تهجم عليهم الأسماك الكبيرة ووحوش البحر فتمزق أجسامهم أو تكسر أعضائهم ، وفي كثير من الأحيان يحرك الغواص حبله فيجذبه الرجل الذي على ظهر المركب فلا يستطيع ، وعند ذلك يأتي البحارة جميعاً ويجذبونه بكل قوتهم فيخرجونه وقد عض ساقه وحش من وحوش البحر . وتعتبر اللؤلؤة بالإجمال ذات قيمة إذا كانت مستديرة تمام الاستدارة ، ودليل ذلك أن تظل متدحرجة نهارا كاملا على سطح مستو توضع عليه . ومن عادة التجار الأجانب الذين يقصدون الصين أن يخبثوا اللؤلؤ في بطائن ملابسهم أو مقابض مظلاتهم هربا من دفع المكوس^(١) . ويحكي لنا الرحالة الصيني جانج في الذي سافر في ١٢٥٩ م من الصين نحو الغرب ، وهو رحال قد جمع معلومات جيدة عن استخراج اللؤلؤ ما يأتي : يدخل القاصة على اللؤلؤ في أكياس من الجلد بحيث لا تظهر إلا أيديهم ، وتربط الحبال حول أوساطهم ، ثم ينزلونهم وهم على هذه :

(٤) . Chau Ju-Kua trans. Hirth p. 229 نقلا عن الرحالة لينج واى تاى تا Ling-

wai-tai-ta الذى كتب حوالى عام ١١٧٤ م .

الحال إلى قعر البحر فيجمعون اللؤلؤ وما يحيط به من رمل ويضعونه في الخلاة ، وكثيراً ما تهجم عليهم وحوش البحر تحت الماء فيقذفون عليها الخلل ليخيفوها ، فإذا ملؤوا مخاليهم بأصداف اللؤلؤ أشاروا لمن على ظهر المراكب بتحريك الحبال فعند ذلك يجذبونهم إلى السطح ، وكثيراً ما يحدث أن يهلك هؤلاء الغاصة وهم في أعماق البحر^(١) .

وكان تجار العرب يشترون العاج من بلاد الزنج (إفريقية الشرقية) ويحملونه إلى الصين^(٢) . وكان يدفع لأجله أكثر من العاج الذي يجلب من بلاد أنام أو من تنج كنج ، وكان يؤخذ من أنياب صغيرة محمّرة اللون^(٣) ، ويؤكد المسعودي أنه لولا تصدير العاج إلى عمان والهند والصين لكان كثيراً في بلاد الإسلام^(٤) .

وكان يجلب من بلاد الزنج أيضاً الذبل وهو ظهور السلاحف ، ومنه كانت تصنع أحسن الأمشاط ، فأما العادية منها فكانت تصنع من القرون . والزنج فوق ذلك هم أصحاب جلود النمر الحمر ، وهي أكبر ما يكون من جلود النمر ، ومن أحسنها يتخذ غطاء السروج^(٥) . وكان الزنوج بالجملة هم الذين يمدون غرب آسيا كله بالجلود ، وظهر أن أهل مصر واليمن تعلموا من الزنوج ما نبغوا فيه من حسن صناعة الأديم^(٦) . وقد كان المقدسي باليمن في عدن ، وكان قد تعلم تجليد الكتب على طريقة أهل الشام ، وكان أهل اليمن يعجبهم التجليد الحسن ويبذلون فيه الأجرة الوافرة ؛ فكانوا يعطون الكتب للمقدسي ليجلدها ، وهو

(١) . Bretschneider, mediaeval Researches I, 145

(٢) مروج الذهب للمسعودي ج ٣ ص ٨ .

(٣) . Chau-Ju-Kua p. 232 (٤) مروج الذهب ج ٣ ص ٨٠ .

(٥) نفس المصدر ج ٣ ص ٢ . (٦) المقدسي ص ١٨٠ ، ٢٠٣ ؛ وانظر :

Benjamin ed. Ascher p. 30 ، والأصطخري ص ٢٤ ، ٢٥ .

يفتخر بآته ربما كان يُعطى على تجليد المصحف دينارين^(١) . ومن الطريف أن نلاحظ أن الطريقة التي تُجلَّد بها كتبنا اليوم والتي حلت محل الأدراج المطوية القديمة إنما كان منشؤها في القارة السوداء ، وفي القرن الثالث الهجري كان عند أهل الإسلام أشياء مثل هذا أُخذت عن السود ، فقد ذكر الجاحظ في رسالة نحر السودان على البيض قولهم : « وثلاثة أشياء جاءتكم من قبلنا منها الغالية ، وهي أطيب الطيب وأنفخه وأكرمه ، ومنها النعش وهو أستر للنساء ، وأصون للحرم ، ومنها المصحف وهو أوفى لما فيه وأحصن له وأبهى »^(٢) .

أما غابات الخشب فكانت قد حُفَّت في غرب المملكة الإسلامية منذ القدم ، ولم يكن بالشرق غابات إلا في الأجزاء المتطرفة البعيدة المنال ، وقد ذكرنا فيما تقدم عند الكلام عن الفضة أن العمل في معدنها بجهة باذغيش (الأفغان) ، قد تعطل لفناء الحطب . ويحكى الأصطخري أن « أراضى بخارى كلها قريبة إلى الماء لأنها مغيض ماء السغد ، ولذلك لا تنبت الأشجار العالية فيها مثل الجوز والدُّلب والحوَّار وما أشبهه ، فإذا كان من شجر فهو قصير غير نام »^(٣) . أما حشيش هذه البلاد فهو عجيب في طوله بحيث تغيب فيه الدواب^(٤) ، وقد عوّض ذلك على أهل هذه البلاد تجارة عظيمة في الخشب ، وكان خشب بوشنج ، وخصوصاً خشب العرعر لا يوجد مثله في بلد من البلدان بخراسان ، وكان يحمل منها إلى سائر النواحي^(٥) . أما خشب بناء السفن فكان يجلب من مدينة البندقية ومن صعيد مصر^(٦) . وكان خشب الساج الهندي يعتبر أحسن ما يستعمل في بناء البيوت ببغداد وبالمشرق كله ، وكانت تصنع منه الأدوات

(١) المقدسي ص ١٠٠ . (٢) رسائل الجاحظ ص ٧١ طبعة فان فلوطن .

(٣) الأصطخري ص ١٣٢ . (٤) المقدسي ص ٢٨٣ .

(٥) الأصطخري ص ٢٦٨ . (٦) انظر الفضل الجاني بالملاحة البحرية .

لبيوت السبادة والكبراء ، وكان خشب الصنوبر يقوم هذا المقام في أقاليم حوض البحر الأبيض المتوسط . وكان حصن التينيات على مقربة من الإسكندرية مجمع خشب الصنوبر الذي كان ينقل إلى الشامات وإلى مصر وصقلية والثغور^(١) . وكانت غابة الصنوبر التي بجبال سرقسطة أشهر غاباته بالأندلس ، وهو خشب «أحمر صافي البشرة رسمه لا يتغير سريعاً ولا يفعل فيه السوس ، وكان خشب المسجد الجامع بقرطبة من عيدان الصنوبر الطرطوشي»^(٢) . وكانت غابات إقليم مازندران التي لا يزال بعضها باقياً إلى اليوم تؤتي خشب الخللج ، وكانت العادة أن يُصنع منه أثاث المنازل في القرن الرابع الهجري ، وهو خشب أبيض مائل إلى الحمرة^(٣) . وكان سكان الجبال بطبرستان يصنعون آنية وأطباقاً من خشب شديد الصلابة عندهم^(٤) ، وكانت تصدر من مدينة قم الكراسي الجيدة ، وكان أهل السيرجان قصبة كرمان يقلدون هذه الكراسي فلا يأتون بحبسها^(٥) ، وكان أهل الري يصنعون الأطباق المدهنة^(٦) .

أما بلاد الإسلام التي كانت مسائل الري فيها ذات مشاكل عسيرة تحتاج إلى الحل فقد كانت مصر واليمن والعراق وشمال شرق فارس وأفغانستان وما وراء النهر ؛ وكان التشريع الخاص بتنظيم الري متشعباً يشتمل على مجموعة قوانين دقيقة معقدة ، ولكنها جميعاً تتفق في قاعدة شرعية واحدة وهي أن الماء لا يجوز أن يشتري أو يباع ، وعلى هذا فلم يكن يجوز للدولة ولا للأفراد أن يجعلوا مسألة الري وحدها سبيلاً للكسب أو التجارة^(٧) . وأن الجزء الأكبر من التشريع الأوروبي

(١) الأصبخري ص ٦٣ . (٢) الإدريسي طبعة دوزي ص ١٩٠ ، ٢٠٩ .

(٣) ابن حوقل ص ٢٧٢ . (٤) الأصبخري ص ٢١٢ .

(٥) المقدسي ص ٤٧٠ . (٦) ابن الفقيه ص ٢٥٣ .

(٧) فيما يتعلق بالتركستان انظر كتاب Busse ص ٥٥ .

الخاص بالماء مقتبس من التشريع الشرقى . ولقد كانت طرق الرى ووسائله متنوعة بتنوع البلاد ، ولكننا للأسف لا نعرف إلا القليل من المعلومات الصحيحة فيما يتعلق بذلك ، فلا نستطيع أن نبين علاقاتها بعضها ببعض ؛ كما لا نستطيع أن نقرر ما إذا كانت كلها متفرعة من أصل واحد أخذت منه .

أما فى العراق فكان من واجبات الدولة أن تسهر على صيانة السدود والمستنات والبثوق^(١) . وكان ثم لهذا الغرض طائفة قائمة بذاتها من العمال يسمون المهندسين . وكانت المحافظة على السدود أمراً شاقاً لأنها كانت تبني من قصب وتراب وتقام فى وجوه المياه الجارية ، وربما كان سبب انبثاق الماء منها ثقب فارة ثم يوسعه الماء حتى ينتهى إلى حيث لا حيلة فى سده ، وكان «يكفى أن تقع ثلثة يسيرة فى إحدى نواحي السد حتى يتولى الماء الهدم والتخريب ، وربما أفسد فى ساعة تعب سنة أو نحوها»^(٢) وكان السلطان معز الدولة بن بويه حاكماً قديراً فاعتنى بأمر السدود عناية كبيرة ؛ حتى إنه لما انبثق أحد السدود خرج للعمل فيه بنفسه وضرب لعسكره المثل بنفسه ، وذلك بأن حمل التراب فى طرف ثوبه وحذا حذوه الجميع وانسد البثوق^(٣) .

وكانت القوانين المتعلقة بتنظيم الماء فى شرق فارس متشعبة كل التشعب ، فكان فى مرو ديوان يسمى ديوان الماء^(٤) ، وكان صاحبه يرأس عشرة آلاف عامل ، وكان منصبه أرقى من منصب صاحب المعونة فى تلك المدينة^(٥) . وكان الماء يقاس بقياس مضطجح عليه يسمى البست ؛ وهو مخرج للماء من ثقب طوله

(١) كتاب الخراج لأبى يوسف ص ٦٣ .

(٢) معكويه ج ٦ ص ٣٧٦ . (٣) نفس المصدر ج ٢١٩٢ .

(٤) مفاتيح العلوم للخوارزمى طبعة فان فلوطن ص ٦٨ .

(٥) الأستخرى ص ٢٦١ وما بعدها ؛ والقدسى ص ٣٣٠ .

شعيرة وعرضه شعيرة ، وكان شرب اليوم والليلة ينقسم إلى ستين جزءاً ، الواحد منها يسمى السرفقة^(١) . وكان مقياس ارتفاع النهر يقع على مسافة فرسخ من المدينة ، وكان عبارة عن لوح مقام على النهر مشقوق شقا طوليا تتحرك عليه شعيرة ، فربما علا الماء حتى بلغ ارتفاعه ستين شعيرة ، فتكون السنة سنة خصبة ، ويستبشر الناس بذلك ويُرَاد مقدار ما يفرق عليهم ، وإذا بلغ الارتفاع ست شعيرات فقط كانت سنة قحط . والمتولى للسد يلاحظ ارتفاع الماء وينفذ سعاته بذلك إلى ديوان النهر ، فينفذ صاحبه الرسل إلى جميع من يتولون شعب الأنهار فيقسمون الماء بحسب ارتفاعه ، « وكان على السد الذي أُقيم جنوب مرو أربع مائة غواص يراعونه في ليلهم ونهارهم ، وربما احتاجوا دخول الماء في البرد الشديد فيطلون أنفسهم بالشمع ، وعلى كل رجل منهم قطع الخشب وجمع الشوك بشيء معلوم في كل يوم يستعدونه لوقت الحاجة »^(٢) . وكانت الأقاليم الواقعة شرقي فارس البعيدة عن مجارى المياه الكبرى تروى بطريقة متقنة الصنع : لم يكن في هذه الأقاليم إلا نهيرات وجداول صغيرة تنحدر من المرتفعات بعد سقوط الأمطار ، فلم يكن بد من جمع هذا الماء والماء المستخرج من الأرض إلى آخر نقطة ، ثم يستعمل النظام المعروف اليوم بنظام كاريس Kariss ، وذلك بأن تعمل في جوف الأرض قنوات معقودة عليها قناطر ، وقد يبلغ طول إحدى هذه القنوات اليوم خمسين كيلو متراً ، وكان بمدينة قم قنطرة من هذا النوع ، وكانت نيسابور خاصة مشهورة بقنواتها التي تجري تحت الأرض ، حتى ينزل الإنسان إليها على مراق ربما يبلغ عددها السبعين ، وهي تسقى ضياع البلد ، وتدور في بحلاتها وتمد أهلها بماء للشرب نظيف بارد في فصل الصيف^(٣)

(١) مفاتيح العلوم ص ٦٨ وما بعدها . (٢) المقدسي ص ٣٣١ .

(٣) جغرافية يعقوبي ص ٢٧٤ ، والمقدسي ص ٣٢٩ ؛ وما ذكره شيرازي في رحلة —

وكان هذا التنظيم يحتاج إلى مهارة كبيرة ، فكان لابد للقائمين به من أن يعالجوا الطبقات الأرضية التي يجري عليها الماء في الموضع التي يجدون فيها أرضاً لا يخترقها الماء ، كما كان لابد لهم من أن يجعلوا لهذه الطبقات ميلاً يساعد الماء على سرعة الجريان عند ازدياده ^(١) . وكان يستعمل من الآلات المائية الدولاب والدالية والغرافة والزرنوق والناعورة والمنجنون ^(٢) . وكان الزرنوق عبارة عن آلة بسيطة مركبة على بئر ؛ وفي المدينة مثلاً كانت تجرها النواضح ^(٣) . أما الدالية فكانت آلة ترفع الماء وتديرها البقر ؛ والناعورة كانت تُركب على الأنهار ويديرها الماء ^(٤) . وأما الدولاب فهو الاسم الفارسي للآلة المسماة عند اليونان منجنون ، ويظهر أن الناعورة لم تكن مستعملة في غرب العراق .

وكانت جميع السدود التي تقام على الأنهار تنقصها الصلابة ، لأنها كانت تصنع من الخشب حتى سدّ بخارى المشهور . أما البلاد الواقعة إلى الجنوب من منطقة التحضر الإيراني أعني خوزستان وفارس فقد كانت تمتاز ببناء السدود الحجرية . وكان يقع إلى جنوب تُسْتَر الشاذوران المشهور الذي يبلغ عرضه بحسب تقدير العرب ألف ذراع ؛ وبحسب تقدير الأوروبيين ستمائة خطوة ، والذي جاء في الروايات أن سابور الأول ملك الفرس أمر أسيره الإمبراطور الروماني فاليريانوس Valerianus ببنائه ^(٥) ؛ وكانت مهمة هذا الشاذوران أن يفصل بين نهر دجيل وبين نهر مشرقان . وفي القرن الرابع الهجري بنى عضد الدولة سكرّاً عظيماً يعتبر

١- ناصر خسرو ص ٢٧٨ ؛ وانظر الفصل الخامس بالمدينة (١) فيما يتعلق بنظام الكارس انظر: W. Busse, Bewässerung in Turan, s. 321 ff. Suen Hedln. Zu Land nach: Indien, I, 184, Grothe, Wanderungen in Persien 1910, s. 105 .

(١) مفاتيح العلوم ص ٧١ . (٣) جغرافية يعقوبى ص ٢١٣ .

(٤) الجوهري تحت كلمة دلو . (٥) المقدسي ص ٤١١ ، ٤٤٤ .

(٦) تاريخ الطبري ج ١٠ ص ٨٢٧ ، وانظر ترجمة الجزء الخامس بفارس من تاريخ

الطبري لتولده ص ٣٣ .

من عجائب بلاد الفرس ، وذلك على نهر النكر بين شيراز واصطخر ، وكان السكر عبارة عن حائط عظيم أساسه من الرصاص ، بناء في عرض النهر فتبخر الماء خلفه وارتفع ، فجعل عليه من الجانبين عشرة دواليب وتحت كل دولا ب رحي ، وأجرى عضد الدولة الماء في قنوات فسقى ثلاثمائة قرية^(١) ؛ « وكان لهذا الشاذوران أبواب تفتح إذا كثر الماء ولولا ذلك لفرقت الأهواز ، ويسمع للماء المنحدر صوت يمنع من النوم أكثر السنة ، وزيادته تكون في الشتاء لأنه من الأمطار لا من الثلوج »^(٢).

أما في اليمن حيث كان لابد من جمع الماء الجارى للاستعمال فكانوا يبنون المصانع ؛ وهي عبارة عن غُدُر مرصوفة من جوانبها بالصفاء^(٣) ، ويبنون سدوداً لها فتحات في أسفلها ، يجري منها الماء ويوزع في قنوات صغيرة ، وذلك في المناطق الجبلية مثل صنعاء . وكانت هذه الطريقة مما اختصت به اليمن ؛ حتى إن ابن رسته أراد أن يزيد في البيان لقارئه فوصفها وصفاً كافياً^(٤) .

وأما بلاد ما وراء النهر فكان بها أفضل مادة لعمل القنوات ، وهي نوع من الطين إذا نُدِّي بالماء صار ليناً كالطين الذى تصنع منه أوانى الفخار ؛ وإذا جفف في الشمس عاد صلباً كالحجر ، وهو الطين الأصفر الذى كان يستعمله مهرة الأكره الصينيين . وقد أفصح الكتاب عن عجبهم من جودة القنوات التى استطاع الأكره أن يعملوها بمجرد استعمال قووسهم ومن غير استعانة بآلة يقيسون بها استواء الأرض ، « ولا إخصائيتهم المسمين بالأستاذين دربة عجيبة تمكنهم من التفطن للتمييز بين أقل درجات الميل مما لا يفتن له الناظر العادى قط »^(٥) . ومما هو

(١) المقدسى ص ٤٤٤ . (٢) نفس المصدر ص ٤١١ ومعجم البلدان لياقوت

ج ١ ص ٤١١ — ٤١٢ نقلا عن أبى دلف . (٣) الهمدانى ص ١٣٨ .

(٤) ابن رسته ص ١١٢ . (٥) W. Būse, Bewässerung S. III.

جدير بالملاحظة في إنشاء هذه القنوات أن الأرض هنا ليست سهلة كأرض مصر والعراق بل هي أرض جبلية ، وهذا يجعل العمل شاقا جدا ، وتقع هذه القنوات على ارتفاعات متفاوتة كبيرة ، ويقطع بعضها بعضا في كثير من الأحيان ، وفي هذه الحالة ينحدر الأعلى منها للأسفل في قنوات خشبية محمولة ، ولم يكن نظام الأهوسة معروفا^(١) . وكان للماء في هذه البلاد تشريع قديم لم يتعرض له المسلمون بل تركوه جاريا ، وأراد الروس أن يزلزله فكان الغرم عليهم . وكان الموضع القديم لهذا النظام هو وادي فرغانة ، وهو يقع على خطوط العرض التي تقع عليها إيطاليا الجنوبية ، ولكنه في وسط القارة فكانت حرارته تقارب حرارة الأقاليم الاستوائية . وعرض هذا الوادي يقرب من مائة كيلومترا في أعرض أجزائه ، وهو بين جبال يتراوح ارتفاعها بين أربعة آلاف وسبعة آلاف متر ، وتنحدر من ثلوجها في الصيف تداول تروى البلاد ، والمراعى هناك تستمد وتكون الحقول مغطاة بالماء والوحل . وكثيرا ما تظهر المعادن منشورة عليها ، وكان عمال ديوان الماء ينتخبهم الأكره أنفسهم ، وكان لهم نصيب من الربح ، وكانت طريقة الري هي تحويل ماء الأنهار بإنشاء سدود حتى لا تصل مياه الأنهار إلى الوادي ، بل تفيض على ما حولها ، ويعتمد في هذه السدود — كما هو الحال في سدود أفغانستان — ألا تكون قوية راسخة حتى يكتسحها الماء إن زاد فتنبجو البلاد من الفرق ، ويراعى في هذه القنوات أن يكون انحدارها يسيرا في أعاليها ، ويجعل انحدارها كبيرا عند اقترابها من الوادي لكي تستعمل قوة جريان مائها في إدارة الطواحين^(٢) ، وفي القرن الرابع الهجري كان ببلاد ما وراء النهر كروم وضياح قد أزيل عنها الخراج وجعل على أهلها مكانه إصلاح سكور الأنهار^(٣) .

(١) v. Schwarz. Turkestan. s. 341 ff, Busse, s. 32.

(٢) v. Middendorf, Mem. Acad. St. Petersburg, VIII, Bd. 29

(٣) ابن حوقل ص ٢٢١ .

والجزء المنزرع في أفغانستان لا يتعدى دلتا نهر هندوند ، وهذا النهر — كنهر الأردن — وهو كجميع أنهار فارس — ماعدا واحدا — لا ينتهي إلى بحر يصب فيه ، بل يتلاشى في مستنقعات واسعة . وهذا النهر كغيره من الأنهار التي تسير في أراض رملية في الصحراء قد غيّر مجراه مرات كثيرة ، فنشأت عن ذلك مشاكل خاصة يواجهها القائمون بأمور الري ، وقد ذكر الميجر سيكرز أنه وجد هذا النهر في أوائل أبريل يبلغ عرضُه عرض نهر التاميز عند لندن^(١) . ويتفرع من نهر هندوند نهيرات كثيرة ، وقد بنى في آخره سكر ليمنع الماء من أن يجري إلى بحيرة زَرَه ، فإذا ذابت الثلوج وجاء المدّ اخترق السكر ووقع فضل ماء هذا النهر إلى البحيرة^(٢) ؛ فلم يكن هذا السد متيناً ، ولعله كان قد بنى كما بنى اليوم السد الكبير في بُنديستين^(٣) قد قام بينائه نحو من ألف عامل ، وجيء بأعمدة من شجر اللبخ فرُصت بعضها إلى جانب بعض ؛ ونسجت فيما بينها غصون نبات متشابك ، ثم غطى ذلك بالحصر الخشنة وطلبت الفتحات بالحص^(٣) .

وكان على نهر النيل في جزئه الأدنى سدّان في القرن الرابع ، أحدهما بعين شمس وكان سداً مبنياً بالحلفاء والتراب ، وكان يقام قبل زيادة النيل ؛ فإذا أقبل الماء رَدّه السد وعلا الماء فسقى ما وراء السدّ من الضياع ، وكان هذا السد يسمى سد خليج أمير المؤمنين « فإذا كان يوم عيد الصليب وقت انتهاء حلاوة العنب وخرج السلطان إلى عين شمس فأمر بفتح هذه التربة وقد سدّ الناس أفواه أنهارهم حتى لا يخرج الماء منها . وجعلوا عليها الحراس فينحدر الماء بعد فتح السد إلى بقية أرض الدلتا » . أما السد الآخر فكان أعظم بناء وهو يقع

(١) Sykes, A travers la Perse orientale, Paris, Hachette, 1907, p. 193

(٢) الأصطخرى ص ٢٤٤ .

(٣) Sykes, a. a. O. S. Hedin, Zu land nach Indien, II, 331.

بسر دوس أسفل عين شمس ويبين بفتح النقصان في النيل . وكان مقياس ارتفاع ماء النيل منذ أقدم العصور عموداً طويلاً عليه علامات الأذرع والأصابع ، وهو يقوم وسط بركة يجري فيها الماء ، وكان أهم مقاييس مضر المقياس الذي في جزيرة الروضة بمصر القديمة ، وكان عليه عامل يرفع للسلطان في كل يوم مقدار الزيادة . فإذا بلغت الزيادة اثني عشر ذراعاً نادى المنادى : « زاد الله اليوم في النيل المبارك كذا وكذا ، وكانت زيادته عام أول في هذا اليوم كذا وكذا ، وعلى الله التمام » أما قبل بلوغ الزيادة اثني عشر ذراعاً فلا ينادى المنادى ويكتفى بما يرفع للسلطان^(١) . ولما أمر المتوكل عام ٢٤٧ هـ — ٨٦١ م بابتناء المقياس الهاشمي وب عزل النصارى عن مقياسه . كانت علامة وفاء النيل ستة عشر ذراعاً أن يُسبل الستر الخلفي الأسود على شبابيك المقياس ، فإذا شاهده الناس استبشروا بسنة خصب وإقبال^(٢) . وفي أيام زيادة النيل تنبخر مصر حتى لا يمكن الذهاب من ضيعة إلى أخرى في بعض المواضع إلا في الزواريق^(٣) . وكان الناس يجيزون حاجاتهم الضرورية مدة الشهور الأربعة التي تكون البلاد فيها مغمورة بالماء ، وكانوا يخبزون من الخبز ما يكفيهم مدة الفيضان ويخففونه حتى لا يتعفن .

وكان يستعمل في قسمة الماء بجميع البلاد الجهاز المائي الذي يسمى بالفارسية الطرجهارة ، وكان بمدينة بيار (بشمال إيران) طرجهارة نحاسية « كذلك بأرجان بفارس^(٤) وبشمال إفريقية ، وكان « شرب مدينة توزد (بإحدى واحات الصحراء الكبرى الإفريقية) من ثلاثة أنهار تنقسم بعد اجتماع مياه تلك الرمال بموضع يسمى وادي الجبال ... ثم ينقسم كل نهر منها إلى ستة جداول ، وتتشتب

(١) المقدسي ٢٠٦ . (٢) الخطط للمقريزي ج ٢ ص ١٨٥ .

(٣) المقدسي ص ٢٠٦ . (٤) رحلة ناصر خسرو ص ٥٦ من النص الفارسي .

و ص ١١٨ من ترجمة شيفر . (٥) المذهب ص ٣٥٧ .

من تلك الجداول سواق لا تحصى كثرة ، تجري في قنوات مبنية بالحجر على قسمة عدل لا يزيد بعضها عن بعض شيئاً ؛ كل ساقية سعة شبرين في ارتفاع متر يلزم من سقي منها أربعة أقداس^(١) مثقال في العام وبحساب ذلك في الأكثر والأقل ؛ وهو أن يعمد الذي تكون له دولة السقي إلى قدس في أسفله نقبة بمقدار ما يسدها وترقوس النذاف فيملئوه بالماء ويعلقه ، ويسقي حائطه أو بستانه من تلك الجداول حتى ينفذ ماء القدس ، ثم يملئوه ثانياً ، وهم قد علموا أن سقي اليوم الكامل هو مائة واثنان وتسعون قدساً^(٢) .

ولم تكن محاربة طغيان الرمال إلا في أفغانستان ، وكان لأهل هذه البلاد علم خاص بكيفية مقاومة فيضان الرمال ، فقد كانت أرض تلك البلاد سبخة ورمالا ، ورياحهم تشتد وتدمر ، حتى إنهم نصبوا عليها أرحاء يسIRONها بها ، ورمال بلادهم تنتقل من مكان إلى مكان ، فلولا أنهم يحتالون عليها لطمت القرى والمدن بها . وكانوا إذا أحبوا نقل الرمل من مكان إلى مكان جعلوا مثل الحائط من خشب وشوك وغيرها حتى يعلو على ذلك الرمل ، وفتحوا في أسفله باباً ، فيدخله الريح ويطير الرمل على أغلاه مثل الزوبعة على مد البصر حتى لا يضرهم . وفي سنة ٣٥٩ هـ — ٩٧٠ م تواترت الرياح عليهم بما لم يعمدوا مثله ، وأكبت الرياح على الجامع فملأته بالرمل ، وتزايد البلاء على البلد ، وكان بها قوم موسومون بعلم بهذه الصنعة قد أعجزهم هذا الرمل حتى ابتدر حداث وطلب عشرين ألف درهم لدفعه ، فأعطوها له بعد تردد وبعد أن خشوا من الهلاك ، وأعمل هذا الحدث الخليل

(١) ويقابل هذه الكلمة كلمة Cadus اللاتينية . (٢) البكري (المغرب) طبعة سلين ص ٤٨ ، واليوم يحسب الوقت الذي تروى فيه كل عائلة من العائلات بمدينة سوس بأن يوضع إناء مخروق في حوض كبير به ماء ، فإذا امتلأ الإناء ماء ووصل إلى قرار الحوض انتهى وقت السقي (انظر M. Zeys, Une Française au maroc, p. 79) .

حتى حول مجرى الريح بسدود أقامها فنسب الريح الرمل بأجمعه^(١) .
وقد كانت الزراعة في المملكة الإسلامية متنوعة العصور ، حتى كاد كل واد أو قرية يكون منفرداً بشيء ابتدعه ، ففي إقليم أردبيل (بين تبريز وبحر الخزر)
— مثلاً — كانوا يحرقون الأرض على ثمان من البقر لكل اثنتين منها سائق ، ولم يكن ذلك لصلاية في الأرض بل لأنها كانت متجمدة . أما بمدينة أبرقوة بفارس فكان أهلها لا يزرعون على البقر مع كثرتها في بلادهم^(٢) . وكان يُعنى بتسميد الأرض عناية كبيرة في جميع البلاد وكانوا يستعملون في ذلك ما يخرج من روث البقر والغنم وما يخرج من فضلات الإنسان أيضاً ، وكان الأول يباع في العراق بالسابل . وكان للفضلات الإنسانية قيمة في البصرة كما تقدم القول^(٣) . وكان الناس في ناحية سيراف أعنى في مدينتي كُران وأراهستان يزرعون النخل في حفر عميقة حتى لا يظهر من النخلة على وجه الأرض إلا أعلاها ، وكان ماء الشتاء يتجمع في هذه الحفر ويروي النخل ؛ وكذلك كان إذا سئل أحد : أين ينبت النخل في الآبار ؟ أجاب : بأراهستان^(٤) .

ولم تكن تعرف بالملكة الإسلامية كلها الأشباح التي يطرد بها الطير عن المزارع ، وهي ليست معروفة اليوم أيضاً . فكان الأطفال بالعراق أيام القرامطة هم الذين يطردون الطير من الحقول ، وكانوا يُعطون على ذلك أجراً ، فكانوا يدفعونه لجماعتهم^(٥) . أما في التركستان لهذا العصر « فإن أهل البلاد يعملون على حماية مزارعهم وبساتينهم من الطيور بأن يقيموا ربة من الطين ارتقاها نحو من

(١) ابن حوقل ص ٢٩٩ . (٢) معجم البلدان لياقوت ج ١ ص ٨٦ ، ورحلة عبد اللطيف البغدادي ص ٣ (٣) الإرشاد لياقوت ج ٥ ص ٣٠٦ ، وانظر الفصل الخامس بالمدن (٤) ابن البلخي في مجلة JRAS. 1902, p. 329 (كتب ابن البلخي حوالى عام ٥٠٠ هـ — ١١٠٧ م) (٥) De Goeje, mém sur les Carmathes p 29

مترين في وسط كل حقل ، وعلى هذه الربوة صبيان عُرَاة أو أنصاف عُرَاة عملهم طول النهار وفي الشمس المحرقة طرد الطيور بأن يصيحوا عليها أو يقذفوها بأكر من الطين ، أو بأن يضربوا طبلا أو لوح درع قديم ؛ وفي الصيف عندما ينتشر هؤلاء الصبيان اثنان أو ثلاثة في كل حقل ، وكل منهم يحاول أن يتفوق على الآخر ، عند ذلك تسود المزارع من الصباح إلى المساء ضوضاء مزعجة يكاد الإنسان منها يُجَنُّ^(١) ، وفيما يتعلق بمراكش يستطيع القارئ أن يراجع وصف بوكسر لذلك^(٢) . . .

وكانت العراق في القرن الرابع الهجري لا تزال بلاداً تربي البقر ، وكان الأنباط المقيمون هناك يُعرفون بأنهم فرسان البقر ، ولم يتغلب الجاموس في هذه البلاد إلا لما زادت البطائح والمستنقعات ، وقد تجلب العرب الجاموس من الهند وهي موطنه الأصلي ، ثم نقل في عهد بني أمية إلى بطائح العراق ؛ بل يذكر أن الحكومة وضعت أربعة آلاف من الجاموس على حدود الشام من الشمال لأن الناس شكوا من كثرة هجوم السباع عليهم ، وكان الجاموس يعتبر أكبر عدو للأسود . على أن السنوودي يحدثنا في أوائل القرن الرابع الهجري أن طريقة استخدام الجاموس للعمل بأنطاكية هي طريقة أهل الهند^(٣) ، ثم إن عرب الشام نقلوا هذا الحيوان الذي يحب المستنقعات إلى إيطاليا والأندلس . وكان الناس في القرن الثاني الهجري يأكلون لحم البقر ثم تركوا ذلك^(٤) ، وكانوا يربون البقر لأجل

(١) V. Schwarz, Turkestan, s. 65

(٢) F. Buchser, Marokkanische Bildern, Berlin 1861, s. 66.

(٣) De Goeje. Mémoires ... p. 22f ، وفي حوادث عام ٢٧٠ هـ — ٨٨٣ م أن

أحمد بن طولون صاحب مصر والشام أكثر من لبن جاموس قدم له فأصابته تفة ومات . تاريخ أبي الفداء ج ٢ ص ٢٦٠ ، وكذلك كان من الأشياء التي أحصاها المقدسي بفلسطين

ابن الجاموس (المقدس ص ١٨١) (٤) المقدسي ص ١١٦ ، ويحكى ابن خرداذبة

(١٥) أن الحجاج منع من ذبح البقر لتكثير الحراثة والزراعة .

لبنها^(١)، أما لحما فكان يعتبر ضاراً^(٢)، بل كان الأطباء يعتبرونه ساماً . وكان أبو بكر محمد بن زكريا الرازي الطبيب لا يوصي إلا بلبن الغنم ولحم الضأن^(٣) . وقد حكى ابن رسته مظهراً لدهشته من أن أهل اليمن يفضلون لحم البقر على لحم الضأن السمين^(٤) . وحمل اليمن إلى اليوم يعتبرون أن من التحقير تقديم لحم البقر حتى للخدم^(٥) .

ولم يذكر استيراد الحيوانات للذبح إلا بمصر ، فكانت تجلب السائمة من برقة ، وكانت برقة هذه ذات مزارع تصلح عليها السائمة ، وكان أكثر ذبائح مصر منها^(٦) .

وكانت جزيرة العرب خير متب للجمال ذات السنام الواحد ، ويدل ما ذكره علماء اللغة في معاجهم عن الجمل على مقدار مبالغة العرب وشدة دهائهم في الاستفادة من أضغر غنيرة أو حركة لهذا الحيوان أو تغييرها أو اقتلاعها ، وذلك لمصلحة الإنسان . وقد كان الجمل موضوعاً نمت عليه دقة العقل العربي نمواً كبيراً . وكانت بلخ مشهورة بالجمال ذات السنامين ، وهي المسماة بالجمال البخت ، وهي أفضل من كل ما عداها^(٧) . وكان يجلب من السند الفالج الذي يؤتد البختاني وله سنامان ؛ وهو أعظم من البخت لا يستعمل ولا يملكه إلا الملوك^(٨) . والبختاني

(١) ابن حوقل ص ٢٠٨ . (٢) حكاية أبي القاسم طبعة متر ، وكذلك كانت قبائل القرغيز متأثرة بالعرب فهم لا يأكلون لحم البقر ، ولا يأكله الفقراء إلا مكرهين ، وهم يزعمون أنه عسير الهضم ، فهو أضر شيء بالصحة ، وأنه يحدث آلام المعدة والرأس . (٣) كتاب طب الفقراء للرازي مخطوط ميونخ (Radloff, Sibirien, II, s. 439) رقم ٨٠٧ ص ٦٨ — ب ، على أن الرازي يذكر لبن الحليب ولحم الفرائج ويدخل حليب البقر في الأغذية (المترجم) (٤) ابن رسته ص ١١٢ .

(٥) نقلاً عن Glaser في كتاب Jacob, Altarab. Beduinenleben s. 94 .

(٦) المغرب للبكري طبعة سلين ص ٥ . (٧) الأصبخري ص ٢٨٠ .

(٨) المقدسي ص ٤٨٢ . وانظر كلمة فالج عند الجوهري .

والجمازات السريعة الجرى تولد من المزاوجة بين هذه الفواجل البلخية وبين النوق العربية ، ولكن هذه البخاتي والجمازات لا تتزاوج بل تظل عقيمة^(١) . وكانت الخيل تربي في بلاد كثيرة ، وكان لسكل من العرب والفرس في أمر الخيل تقاليد خاصة ، وضرب خاص حفظ أنساب الخيل ، وكانت الخيل الأصيلة الكريمة تجلب إلى بغداد من جزيرة العرب . أما الخيل العادية فكانت تأتي من الموصل^(٢) وتجارة الخيل التي لها شأن عظيم في أيامنا بين الهند وجزيرة العرب أول من ذكرها فيما أعلم الرحالة ماركو بولو ، وكانت بحق أهم علاقة تجارية بين البلدين . وهو يذكر أن الحصان كان يشتري بمائة مارك فضة ، وكان يُجلب إلى الهند من الخيل في كل عام ثلاثة آلاف لا يبقى منها بعد الحول إلا ثلاثمائة أحياء ، وهو يعلل ذلك بأن هواء بلاد الهند لا يلائم الخيل ؛ ولذلك فإنها لا تربي هناك وتصاب بالمحافظة عليها من الهلاك ، وهم يطعمونها الأرز مع اللحم المطبوخ ، وإذا وقع حصان جميل على فرس كبير ببلاد الهند لا يار إلا فلواً قبيح الصورة معوج الأرجل لا يصلح للركوب^(٣) .

وفي بعض جهات شمال إفريقية ، وهي سجلماسة وقفصة وقسطيلية كان الناس لا يزالون يحتفظون بعادة قديمة جداً وهي أنهم يسمنون الكلاب ويأكلونها^(٤) . وكانت مصر من قديم مشهورة بتربية الدجاج تربية صناعية ، وخصوصاً بطريقة الترقيد الصناعي التي برعوا فيها ، ويظهر أن هذه الطريقة لم تنتقل إلى

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ٥٠٤ وفيما يتعلق بما كانت تقطعه الجمازات وتقوم به . انظر الفصل الخاص بالمواصلات .

(٢) المقدسي ص ١٤٥ .

(٣) Marco Polo, p. 91 و 454 .

(٤) البكري (المغرب) ص ١٤٨ ، وانظر Marquart, Die Benînsammlung

s. CLXVII وهو يقول إن اسم جزر قناريا مشتق من ذلك .

غير مصر من البلاد ، حتي نجد عبد اللطيف البغدادي يصفها عام ١٢٠٠ م بأنها
من الأشياء التي اختصت بها مصر^(١) .

وكان الحمام يحفظ في أبراج تُبنى له وقاية من الأفاعى وغيرها من الحيوانات
الضارة^(٢) ، وكان لا يؤكل ، وذلك لأن ذبله كان له قيمة كبيرة في التسميد .
أما فيما يتعلق بتربية الأسماك فليس عندي إلا ملاحظة واحدة ؛ وهي أنه كان
ببحيرة طبرية أنواع من السمك منه البنى الذي حمل إليها من واسط^(٣) .

—————

(١) رحلة عبد اللطيف البغدادي ترجمة دي ساسي ص ١٣٥ وما بعدها ، وفي هامش
رقم ٣ جمع دي ساسي النصوص القديمة .

(٢) Geoponica, 13, 6. (٣) المقدسى ص ١٦٢ .

الفصل الخامس والعشرون

الصناعات

كان اللباس عند أهل الشرق الأدنى أهم المطالب الثلاثة الأساسية التي يحتاج إليها جسم الإنسان ، وهي : الطعام واللباس والسكن ، وكانت صناعة الملابس أرقى الصناعات ، وكانت زينة البيوت من الداخل عبارة عن ستائر ملونة تعلّق على حيطانها . وكان أهم ما يعتبر ترفاً هو أن يكون الإنسان حسن اللباس عندهم ، وكان جمال السكن يتلخص في أن تكون حيطانه معلقاً عليها الستائر الجميلة ، وأن تكون أرضه مفروشة بالبُسْط ، ويحكى عن الطوسي الزاهد (المتوفى عام ٣٤٤ هـ - ٩٥٥ م) . أنه لم يكن له فراش^(١) ، وإنما ذكر ذلك ليكون دليلاً خاصاً على زهده . ولهذا كانت صناعة البسط والسجاجيد منتشرة في جميع البلاد ، وكانت النماذج الصناعية لكل بلد أشبه بجزء من اللباس القومي الذي تختص به . وكان السائر في أنحاء المملكة الإسلامية يستطيع أن يعرف في أي بلد هو ، وذلك بالنظر إلى ما على حيطان الغرف من أنواع الستائر ، وكانت السجاجيد في ذلك العصر ثلاثة أقسام : أولها الستائر المعلقة على الحيطان . وثانيها البسط والأنماخ التي تفرش بها أرض الغرف والصحون . والمرات . وثالثها الأنماط وهي تفرش على الأرض للنظر دون الدوس^(٢) . ويضاف إلى ذلك أنواع أخرى صغيرة ، منها سجاجيد الصلاة والأغطية والحاذ والنمارق والمقاعد ونحوها من أنواع الوسائل^(٣) .

(١) تاريخ الشافعية : Wüstenfeld, AGOW 37, Nr. 129

(٢) تاريخ بغداد طبعة سلون ص ٥٢ . (٣) حكاية أبي القاسم صفحة ٣٦ .

وبالرغم من أن القطن كان يزرع بمصر العليا منذ زمان طويل^(١)، فإنه لم يذكر بين حاضلات مصر في القرن الرابع الهجري، ويظهر أنه لم يكن له شأن في هذه البلاد التي تنبت اليوم أحسن أنواع القطن^(٢).

وكان الكتان هو القماش الذي اختصت به مصر، وكانت الفيوم أكبر مكان لزراعته، وكان يصدر إلى النواحي حتى ربما بلغ فارس^(٣). وكانت الأجساد المحنطة تلف دائماً بقماش الكتان، وكانت صناعة النسيج من الرقي بحيث أمكن أيضاً صنع بعض الأقمشة الصوفية أيضاً^(٤)، فكانت تصنع بمدينة طحا إحدى قرى الصعيد ثياب الصوف الرفيعة^(٥). وكان المركزان الكبيران لصناعة نسيج الكتان هما الفيوم، وبحيرة تنيس بنواحيها وهي: مدينة تنيس ودمياط وشطا ودبيق، وكانت هذه المدينة الأخيرة في أول الأمر أكبر المدن التي تصنع النسيج، لأنه كان ينسب إليها أجود أنواع الأقمشة وهو المسمى بالدبيق. أما في القرن الرابع فقد أصبحت تنيس ودمياط أكبر مركزين لصناعة النسيج. وكان القماش الذي يصنع بمصر هو قماش الكتان الأبيض الذي لا تلوين فيه، وهو القماش الذي يعتبر قماشاً مصرياً حقيقة؛ حتى كان يقال في العصر الأموي إن الأقمشة المصرية كالغشاء على البيض، أما اليمنية فهي كأزهار الربيع^(٦). وكان من ثياب الإسكندرية ما يباع الكتان منه—إذا عمل ثياباً يقال لها الشرب—كل زنة درهم بدرهم فضة^(٧). وكان القماش المسمى بالدبيق الثقيل جيّد النسيج إذا انشق كان

(١) Plinius, Hist. nat, 19, 14. (٢) وحتى أواخر القرن الثامن عشر كانت

مصر تصدر الكتان إلى الشام وتستورد منها القطن (Brown, Travels in Africa, London, 1799 P. 354).

(٣) المقدسي ص ٢٠٣، وفي عام ٢٧٣ هـ ارتفع سعر القمح بمصر حتى مات الناس من الجوع والجهد وكانوا يأكلون بذور الكتان (يحيى بن سعيد ص ١٧٨).

(٤) المقدسي ص ٤٤٢. (٥) نفس المصدر ص ٢٠٢.

(٦) القند الفريد ج ١ ص ٤٦ (٢). (٧) الخطط ج ١ ص ١٦٣.

له صوت عال شبه بعض الحجان به الضراط العالى^(١)، وكان هذا القماش يستعمل في رسم الخرائط عليه بالأصباغ المشبعة^(٢). وربما بلغ ثمن الثوب من هذا الديبقي مائة دينار، فإذا كان به ذهب بلغ المائتين^(٣). وكان الثوب الفخم الذى نبغ في صناعته أهل تنيس يسمى البدنة، وكان يصنع للخليفة ولا يدخل فيه من الغزل — سدى ولحمة — غير أوقيتين؛ وينسج باقيه بالذهب بصناعة محكمة لا تحوج إلى تفصيل ولا خياطة، وتبلغ قيمته ألف دينار^(٤). وكان يصنع بالقيوم الستور الثمينة، يبلغ طول الستر ثلاثين ذراعاً أو أكثر أو أقل، وقيمة الزوج منها ثلاثمائة دينار^(٥). ولم يكن يستحسن للظرفاء من الرجال في القرن الرابع الهجرى لبس الثياب الشنعة الألوان المصبوغة بالطيب والزعفران، وكان أول ما يحسن لهم اتخاذه من اللباس الكتان الناعم النقى اللون مثل الديبقي^(٦)، وحتى عام ٣٦٠ هـ — ٩٧١ م كانت تنيس تصدر للعراق وحدها من الأقمشة ما تبلغ قيمته من عشرين ألف دينار إلى ثلاثين^(٧)، ولكن لما انتقلت مصر إلى أيدي الفاطميين منعوا الإصدار^(٨)، ولذلك شاعت بمصر العائىم الديبقية الطويلة التى يبلغ طول الواحدة منها مائة ذراع، وظلت منذ عام ٣٦٥ إلى ٣٨٥ هـ (٩٧٦ — ٩٩٥ م)^(٩). وكان يوجد إلى جانب هذه الثياب الجيدة ثياب رقيقة «مهلهلة النسج كأنها المنخل»^(١٠)، وهى

(١) حكاية أبى القاسم ص ٩٣، ١٠٩. (٢) التهورست ص ٢٨٥.
(٣) ابن حوقل ص ١٠١. (٤) الخطط للمقريزى ج ١ ص ١٧٧، وابن دقاق ج ٢ ص ٧٩. (٥) ابن حوقل ص ١٠٥. (٦) الموشى للنشاء طبعة برونو ص ١٢٤، وكتاب الرواة للشمالي مخطوط برلين رقم Pet. 59 ص ١٢٩ ب، وحكاية أبى القاسم ص ٣٥. (٧) الخطط ج ١ ص ١٣٧. (٨) ابن دقاق ج ٢ ص ٧٩.
(٩) الخطط للمقريزى ج ١ ص ٢٢٩ (٩) وذكر ياقوت (معجم البلدان) فى مصر المتأخر بلداً بالعراق سمى دبقية لم أر لها قط ذكراً فى القرن الرابع، وهذا لا يدل على انتقال صناعة الكتان المصرية إلى هناك، فربما يكون هذا الموضع سمى بذلك نسبة للقماش الديبقي المشهور، كما سمى موضع قرب بغداد باسم سوسنجر (انظر Carabacek Die persische Nadelmalerei, s, 117 (١٠) معجم البلدان لياقوت ج ١ ص ٨٩٠.

المسماة بالقصب ، وكان هذا القصب يلوّن ، وكان الملوّن منه يُنسج بتنيس ، ولم يُنسج في أى مكان آخر قصب ملوّن مثله ، وكان يُعمل منه عمام للرجال ، ووقايات وملابس للنساء ، أما الأبيض فكان يُنسج بدمياط^(١) . وفي القرن الخامس الهجرى ظهر نوع جديد من القماش وهو المسمى أبا قلمون ، وهو قماش يظهر للرأى في ألوان متقلبة . وكان يصنع في مدينة تنيس وحدها^(٢) .

وكانت صناعة النسيج في الدلتا المصرية صناعة منزلية ، فكان النساء يغزلن الكتان والرجال ينسجون ، وكان تجار القماش يدفعون لهم أجرهم كل يوم ، ولم يكونوا يستطيعون أن يبيعوا إلا للسماسة الذين تعينهم الحكومة ، وكانت أجرة النسيج في أوائل القرن الثالث الهجرى نصف درهم كل يوم « وكان ذلك لا يفي بضمن الخبز الذى يأكله » ، ويشبه هذا ما قاله أهل تنيس شاكين للبطريك ديونيسيوس التلحيدى^(٣) لما مر ببلدهم في ذلك العصر ، وكان ثمن قطعة القماش يرتفع ارتفاعاً باهظاً بسبب المكوس والضرائب المتنوعة^(٤) .

وكان للمشرق أيضاً مراكزه الخاصة لنسيج الكتان ، وذلك بفارس ، وكانت أكبر مدينة بفارس لصنع ثياب الكتان مدينة كازرون ؛ حتى كانت تسمى « دمياط الأعاجم »^(٥) ، وكانت أنواع الأقمشة بفارس هي الأنواع

(١) رحلة ناصر خسرو ص ٥١ من النص الفارسي ، وحكاية أبي القاسم ص ٥٣ —

٥٤ مثلاً . (٢) رحلة ناصر خسرو ص ٣٧ من ترجمة شيفر ، وحكاية أبي القاسم ص ١٣٦ ، على أن مؤلفي القرن الرابع لم يصنفوا أبا قلمون هذا ، فهو عند المقدسى (ص ٢٤٠ — ٢٤١) من عجائب المغرب ، ويصفه بأنه دابة تحتك بحجارة على شط البحر ، وهو في لون الخز لون الذهب ، وهو عزيز الوجود فيجمع وتنسج منه ثياب تتلون في اليوم ألواناً ، وربما بلغ الثوب منه عشرة آلاف دينار ، وفي القرن الخامس الهجرى وجدت مرتبة قلمون في خزائن الفرش والأمتعة التي للفاطمين (الخطط جزء ١ ص ٤١٦) .

(٣) Michal Syrus ed. Chabat, 516 . (٤) انظر الفصيل الخامس بالمنازل

المنالية . (٥) المقدسى ص ٤٣٣ — ٤٣٤

المصرية من الديبقي والشرب والقصب ؛ مما يدل على صلة بين الصناعتين بمصر وقارس ، ويقول المقدسي (ص ٤٤٢) إنه تصنع بمدينة سينيز (إحدى المدن الساحلية بفارس) ثياب تشاكل القصب ، وإنه ربما حل إليهم الكتان من مصر ، أما في عصر المقدسي فهو يقول إن أكثر ما يعمل بسينيز من الذي يزرع عندهم ، وفي كلام المقدسي هذا دليل على أن صناعة نسج الكتان نقلت إلى فارس من مصر ، وكان الكتان ينقل بطريق البحر ، وكان في أول الأمر يصنع بالمدن الساحلية مثل سينيز وجنابة وتوز ، ولم تنتقل صناعته إلى داخل بلاد فارس إلا فيما بعد عند ما استقلت فارس بكتانها عن مصر ، ويسمى أحسن الكتان الفارسي بالتوزي نسبة إلى توز وإن كان أكثره يعمل بكازرون^(١) .

وهاك ما ذكره ابن البلخي في وصفه لمملكة فارس حوالي عام ٥٥٠ هـ — ١١٠٦ م عن كيفية صناعة الثياب التوزية بمدينة كازرون : يُبَل الكتان في البرك ثم يفصل بعضه عن بعض ويغزل ؛ ثم تغسل خيوطه في ماء نهر الزهبان ، وماء هذا النهر وإن كان قليلاً شحيحاً فإن له خاصية تبييض خيوط الكتان مع أنها لا تبييض في غيره من الماء ، وهذا النهر ملك لخزانة السلطان ، ودخله يرد إلى بيت الأمير ، ولذلك لا يُصرح بالغسل فيه إلا للنساجين المكلفين بذلك ، ويتولى الإشراف عليه ناظره ، وثم سماسة يعينون الثمن المعادل للأقمشة ويختمون اللقائف المخزونة قبل تسليمها للتجار الأجانب ، وكان هؤلاء يثقون بالسماسة ويشترون اللقائف من غير أن يفكوا حبائلها ؛ بل يأخذونها كما هي ، وكانت إذا وصلت اللقائف إلى أي بلد اشتراها التجار من غير أن يفتحوها ، واكتفوا بمجرد السؤال عن شهادة السمسار بكازرون ، فكثيراً ما كان يحدث أن ينتقل الحل من لقائف كازرون حتى تتداوله عشر أيدي من غير أن يُفك وثاقه ، ولكن في هذه الأيام

(١) المقدسي ص ٤٣٥ .

الأخيرة ظهر الغش ، وصار الناس خونة ، وانعدمت الثقة كلها ، وكثيراً ما وجدت البضائع المختومة بختم السلطان من نوع ردىء ، ولذلك انصرف التجار عن بضائع كازرون^(١) .

وإذا صرفنا النظر عما تقدم وجدنا أن مركز القطن في المشرق من مملكة الإسلام . كمركز السكتان في مغربها^(٢) ، بل كان القصب الذي يصنع بمدينة كازرون يعمل من القطن في كثير من الأحيان ، وقد حمل القطن من الهند إلى الشمال مباشرة قبل أن ينقل غرباً أو شرقاً بزمان طويل ، ولم يكن القطن معروفاً في الصين في القرن الثالث عشر الميلادي ، وقد ذكره الرحالة الصيني تشانشنج Chanchung حوالي عام ١٢٢١ م في وصفه لوادي إيلي وهو يقول : « وهناك نوع من القماش يسمى لولوما يقول إنه يصنع من صوف نبات ، وهذا الصوف يشبه زهر الكاتكن الذي نراه في مراعيينا ، وهو نقي ناعم لين ، ومنه يصنعون الخيوط والحبال والقماش والأغطية^(٣) ، وفي القرن الرابع الهجري كان يصدر من مدينة كابل ثياب من قطن مشهورة بحسنها يعمل منها ما يسمى السبنييات التي كانت تحمل إلى الصين وخراسان^(٤) . ولم يكن القطن يزرع بالعراق وإنما نقل إليها من شمال فارس ومما بين النهرين^(٥) ، — ولا تزال بلاد ما وراء النهر تنتج من القطن ما تبلغ قيمته أربع مائة مليون مارك — وقد نشره فيما بين النهرين أمراء الحمدانيين ، على الرغم مما عرفت عنهم من الجور على الزراع وعدم الاكتراث بالأشجار^(٦) . وكذلك انتشر القطن في القرن الرابع شمال إفريقيا^(٧) ،

(١) J R A S 1902, s: 337 .

(٢) يقول الثعالي : وقد علم الناس أن القطن لخراسان ، وأن السكتان لصخر (لطائف

العارف ص ٩٧) . (٣) Bretschneider, Mediaeval researches I, s. 70, 31 .

(٤) ابن جوقل ص ٣٢٨ .

(٥) W. Busse, Bewässerungswirt. in Turan, s. 72 .

(٦) انظر الفصل الخامس بالمالية . (٧) البكري طبعة سلين ص ٥٩ ، ٦٤ .

والأندلس^(١). أما المراكز الكبرى لصناعة القطن فكانت تقع في شرق فارس وهي مرو ونيسابور وبهم^(٢) (بشرقي كرمان). وقد اشتهرت هذه المدينة الأخيرة بثياب القطن الفاخرة، وكان من طرائف ما يعمل فيها الطيالة المقورة التي تنسج برفارف، يبلغ الطيلسان منها والشرب الرفيع ثلاثين ديناراً، وكانت تحمل إلى أقطار الأرض، وتباع بخراسان والعراق ومصر^(٣). وكان يصنع في مرو القطن الذي يبلغ الغاية في اللين^(٤)، وهو لا يمكن أن يلبس لثقله وغلظه، ولذلك يسميه المتنبي لباس القروء^(٥). ويقول أبو القاسم لقوم يستعجبهم «على أبدانكم ثياب بفت خشن مروى غليظ من غزل البيت طاقة وضرطة وغزول مطابقة منها قمصانكم ومنها عمامكم»^(٦). ولكنه كانت تتخذ منه العمام^(٧). وكان يحمل من الإقليم الذي يزرع فيه القطن بالتركستان الثياب القطنية^(٨)، على حين أن الكتان كان من أندر الأشياء ببلاد ما وراء النهر، ويحكى عن إسماعيل الساماني أنه أهدى لكل قائد في جيشه ثوباً من الكتان كهدية قيمة^(٩).

أما صناعة الحرير فقد صارت على عكس صناعة القطن، منتشرة من بوزنطة شرقاً، ويقول المسعودي إنه منذ أن غزا سابور ملك فارس بلاد الجزيرة وآمد وغيرها من بلاد الروم، ونقل من أهلها خلقاً كثيراً أسكنهم مدناً من فارس؛ صار الديباج يعمل بتستر والخز بالسوس حتى عصر المسعودي^(١٠). وكان استيراد الديباج والبزبون والثياب والأكسية الرومية لا يزال مستمرا في القرن الرابع، وكان ذلك أهم ما يمر بمدينة أطرابزنده^(١١)، وكانت دبابيج الروم مشهورة معروفة

(١). Moro Rasis, s. 56. (٢) ابن حوقل ص ٢٢٣. (٣) المقدسي ص ٣٢٣، ابن حوقل ص ٣١٦، وابن الفقيه ص ٣٢٠، ولطائف المعارف ص ٥١١٩. (٤) ديوان المتنبي طبعة بيروت ص ١٧. (٥) حكاية أبي القاسم ص ٣٧. (٦) بيتية الدهرج ٢ ص ٦٢. (٧) ابن حوقل ص ٣٦٢. (٨) Vambéry, Geschichte Bacharas, s. 63. (٩) مروج الذهب ج ٢ ص ١٨٥. (١٠) ابن حوقل ص ٢٤٦.

بمجودتها في القرن الرابع^(١) . وكانت أكبر مصانع نسج الحرير في ذلك العصر توجد بإقليم خوزستان ، حيث نقل الساسانيون هذه الصناعة من بلاد الروم ، وكانت أنواع الحرير من ديباج وخز وستور تصنع هناك . أما صناعة الأبريسم فكانت متركزة في الشمال على طريق الصين القديم ، فكانت تصنع بمدينة مرو بإقليم طبرستان (الأراضي الجبلية الواقعة جنوب بحر الخزر) ثياب الأبريسم التي كانت تصدر إلى جميع الآفاق^(٢) ، وكان أهل أرمينية يصنعون من هذا الأبريسم التلك الأرمينية المشهورة التي كانت تباع الواحدة منها يدينار إلى عشرة دنانير^(٣) ، والثياب الحرير الثقيلة التي كانت تصدرها طبرستان تدل على صلة قريبة بين صناعة الحرير بطبرستان وصناعته بالصين ، لأنها ثقيلة ؛ أما الصانع الفرس فكانوا يؤثرون الأقمشة الرفيعة الرقيقة .

أما الفرش الصوفية فكان الناس يميزون فيها بنوع خاص بين الفارسية والأرمينية والبخارية ، وكانت البسط الفارسية الحقيقية (المسماة بالبسط السنية) تعمل بفارس ، وكان أحسنها ما يصنع على طريقة أهل سوسنجر^(٤) ، وكان الناس في القرن الرابع يقدمون البسط الأرمينية على ما عداها من البسط^(٥) ، وعن هذه البسط أخذت صناعة البسط الأرمينية المشهورة عندنا ، وقد وصف أحد الخلفاء حتى في العصر الأموي وهو الوليد بن يزيد بأنه كان يجالس في بيت منجد بالأرمني أرضه وحيطانه^(٦) ، وكانت الخيزران أم الهادي والرشيد تجلس

(١) لطائف المعارف للثعالبى ص ١٣١ ، بل كان الديباج يجلب إلى بلاد البتانيين من فرسا (ابن الفقيه ص ٢٧٠) . (٢) الأصبغرى ص ٢١٢ ، وابن حوقل ص ٢٧٤ . (٣) ابن حوقل ص ٢٤٦ ، وهذه الصناعة هي أغلى الصناعات ببلاد الروم ، وكان المعروف أن أصل القز بجرجان وطبرستان جاء من مرو (ابن حوقل ص ٣٢٦) ، وفي القرن الرابع كان يزر الأبريسم يؤخذ كل سنة من جرجان إلى طبرستان . (ابن حوقل ص ٢٧٣) . (٤) Karabacek, Die persische Nadelmalerei Sûsangird, Leipzig 1881 . (٥) لطائف المعارف للثعالبى ص ١١١ ، ٢٣٢ ، وحكاية أبي القاسم ص ٣٦ . (٦) الأغاني ج ٥ ص ١٧٣ .

في دارها على بساط أرمني^(١) وعندها أمهات أولاد الخلقاء وغيرهن من بنات هاشم على نمارق أرمنية^(٢). ولما مات الحسين بن أحمد المعروف بابن الجصاص وكان صاحب مال وجوهر وأثاث وكان أوسع أهل بغداد ثروة حوالى عام ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م كان من أهم ما ذكر في جملة ما احتوت عليه داره الفرش الأرمينية^(٣). وذكرت الفرش الأرمينية أيضاً من جملة ما كان في خزان أم المقتدر^(٤)، ويحكى أن بعض عمال الخليفة أهدى إليه سبعة بسط أرمنية في جملة ما أهداه إليه^(٥)، وكان يفضل من البسط الفارسية ما هو أشبه بالأرمنية في صناعته^(٦)، وكانت توصف البسط الفارسية التي تعمل بأصفهان والتي كان حسنهما مشهور في الآفاق بأنها إن استعملت مع الأرمينية الفاخر من الفرش حسنت معه وإن بسطت وحدها اجتزئ بها^(٧)، وقد قال ماركو بولو (ج ١ ص ٣) إن الفرش الأرمينية أجمل الفرش وأحسنها صناعة، وربما كان سبب ذلك التقدير للبسط الأرمينية جودة الصوف الأرميني الذي يعتبره الثعالبى أجود الصوف بعد صوف مصر^(٨) وكان أحسنه الصوف الأرميني الأحمر، ويقول المسعودى حوالى عام ٣٣٢ هـ — ٩٤٣ م إن الأحمر استعماله في حالة الزينة والطرب وأوقات السرور واستعمال النساء والصبيان، وإن حس البصر مشا كل للون الحمرة، إذ كان من شأنه أنه إذا أدركها انبسط نور البصر في إدراكها؛ ولكنه إذا وقع على اللون الأسود اجتمع نوره ولم ينبسط في إدراكه انبساطه في إدراك الحمرة، وذلك للنسبة الواقعة بين

(١) مروج الذهب ج ٦ ص ٢٣٤.

(٢) عريب ص ٤٨. (٣) مسكويه ج ٥ ص ٣٨٩.

(٤) Elias Nisib. s. 202. (٥) الأصبغرى ص ١٥٣.

(٦) ابن رسته ص ١٥٣.

(٧) لطائف المعارف ص ١٢٨. ويل ذلك صوف تكريت ثم صوف فارس، ويرجم

أصل هذا النص الذي ذكره الثعالبى إلى كتاب التجارة للبحاظ (انظر مجلة Z D M G, VIII 529)

نور البصر وبين لونِ الحمرة^(١)، وكان من أهم ما ذكر ضمن خزائن الفرش والأمتعة بالقاهرة في بعض العصور الحمراء المذهبة^(٢)، وقيل في الفرش القرمزية التي كانت تعمل بمدينة أسيوط بصعيد مصر أنها تشبه الأرمني^(٣). أما الفرش المسماة بالطنافس فهي تدل من اسمها على أثر الفن الرومي كلمة tapetes الرومية تقابل كلمة طنافس العربية)، ولا بد أنها كانت في أول الأمر تصنع بالعراق في مدينة الحيرة، وهي مدينة نصرانية قريبة من حدود الروم، وذلك لأن الطنافس التي كانت تصنع فيما بعد في مدينة النعمانية كانت تسمى الطنافس الحيرية^(٤)، وهذه النسبة لا تخلو من دلالة، وكانت الصور التي ترسم عليها هي دائماً: الزخارف والفيلة والخيل والجمال والسباع والطيور^(٥).

وكانت الحضر تصنع في جميع أنحاء المملكة الإسلامية من الخلفاء، وكان أشهرها ما يصنع بعبّادان، وهي مدينة في جزيرة بين دجلة والعراق ونهر خوزستان ليس وراءها إلا البحر^(٦). وكانت حصرها تُقلد في مصر وفارس^(٧). وكانت البلاد المشهورة تنقش على ما يصنع فيها عبارة: عمل مدينة كذا أو كذا، ليكون ذلك دليلاً على أصلها، وهذا لم يمنع الغش بالطبع، فمثلاً كانت بعض المدن التي لا شهرة لها تعمل ستوراً تشبه الستور التي كانت تصنع بمدينة بطنى وتكتب عليها اسم بطنى لتدلّسها في الستور الجيدة، كما كانت بعض الثياب تعمل في بعض البلاد ويكتب عليها اسم بغداد على سبيل التدليس^(٨).

(١) مروج الذهب للمسعودي ج ٢ ص ١٠٢.

(٢) الخطب للمقرئ ج ١ ص ٤١٦ — ٤١٧.

(٣) جغرافية اليعقوبي ص ٣٣١. (٤) ابن رسته ص ١٨٦.

(٥) تاريخ بغداد طبعة سلون ص ٥٢، والمقرئ ج ١ ص ٤١٧، وانظر Kremer.

Kulturgeschichte, II 289. (٦) المقدسي ص ١١٨.

(٧) نفس المصدر ص ٢٠٣، ٤٤٢. (٨) الأصبغري ص ٩٣.

وقد ازدهرت بإقليم سابور من أعمال فارس صناعة خاصة تشبه الصناعة التي اقتصت بها الرقييراء الفرنسية وهي صناعة الروائح العطرية ، وكانت الزيوت العطرية في ذلك العصر تتخذ من البنفسج والنيلوفر والرجس والكارده والسوسن والزنبق والمرسين والرزنجوش والبادرنك والنارنج^(١) ، وقد حاول البعض أن يقوم بهذه الصناعة الغالية في العراق ، فاستحدثت الكوفة دهان الخيري ، وكانت في الخيري والبنفسج تفوق سابور^(٢) ، وكانت بمدينة جور (تقع جنوب فارس) صناعة تشبه الصناعة المتقدمة ، ولكنها تفصل عنها تمام الانفصال ، فكان بمدينة جور يحضر ماء الورد ، وذلك من زهور غير الزهور الأولى ؛ مثل الورد والطلع والقيسوم والزعفران والخلاف ، وكان ينقل ماء الورد من جور إلى سائر البلدان ، فيُحمل إلى المغرب والأندلس ومصر واليمن وبلاد الهند والصين^(٣) . وهاتان الصناعتان اللتان لم يحدثنا الأقدمون بشيء عن أصلهما لا بد أنهما نشأتا في العصر الإسلامي .

وقد أصبحنا في القرن الرابع الهجري لا نسمع شيئاً عن الطاحون التي تدار باليد وتحدث جمجمة ، لا عند أهل المدن ولا عند أهل القرى ، بل كان على الأنهار أرحاء في سفن^(٤) . وكان على نهيرات الصغيرة أرحاء مائية تدور^(٥) ، وكان على نهر الشيطان وحده — وهو بجيروف — خمسون رحي^(٦) ، وقد عالج أهل البصرة مشكلة من أحدث مشا كل استعمال حركة الماء ، وذلك أنه كان عديم الجزر والمد ، وكان الماء يزورهم في كل يوم وليلة مرتين ، ففي أثناء المد يدخل الماء الأنهار ، وفي أثناء الجزر ينحسر راجعاً ، فعمدوا إلى أرحية أقاموها

(١) المقدسي ص ٤٤٣ . (٢) الأصبخري ص ٢٥٣ ، وابن حوقل ص ٢١٣ .

(٣) ابن حوقل ص ٢١٣ . (٤) المقدسي ص ٤٠٨ مثلاً ، ومقاتيخ العلوم

للخوارزمي ص ٧١ . (٥) المقدسي ص ٤٠١ ، ٤٦٦ .

(٦) ابن حوقل ص ٢٢٢ .

على أفواه الأنهار ليديرها الماء في أثناء حركته خارجاً وداخلاً^(١)، ولم يكن الناس يستعملون الدواب في إدارة الطواحين إلا في الجهات التي ليس بها أنهار^(٢)، وكان أهل مدينة إيجلى يبرأ كش يتهيبون من تسخير الماء تورعاً « فكان يغري مدينتهم نهر كبير عليه بساتين كثيرة، ولم يتخذوا قط عليه رحي، فإذا سئلوا عن المانع لهم من ذلك قالوا: كيف يسخر مثل هذا العذب في إدارة الأرحاء! »^(٣)، وكانت أكبر الأرحاء العائمة تقوم على نهر دجلة، لا على الفرات، وذلك في تكريت والحديثة وعكبرا والبردان وبغداد، وكان بعض الأرحاء المشهورة بالموصل وبمدينة بلد أيضاً، وكانت طواحين مدينة بلد هذه (تقع فوق الموصل على نهر دجلة) لها فصل تدور فيه وهو المدة التي تحمل فيها الحنطة في السفن إلى العراق، وقد انتهى إلينا وصف مطاحن الموصل، فكانت تسمى الواحدة منها عربة، وهي مصنوعة من الخشب والحديد الذي لا يمازجه شيء من الحجر والجص، وهي تقوم في وسط الماء بسلاسل حديد، كل عربة فيها حيران، يطحن كل خبز منها خمسين وقرأ في كل يوم^(٤)، وكان أكبر رحي ببغداد رحي يقال لها رحي البطريق، فقد كانت مائة حجر تغل في كل تسعة مائة ألف ألف درهم^(٥). ولم يحدثنا أحد بين المؤلفين عن أرحاء بشر الخشب.

ويحكى عن أبي لؤلؤة بن فيروز، قاتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه،

(١) المقدسي ص ٢٢٥.

(٢) الأضطرى ص ٢٧٣ بخراسان، ويظهر أن إدارة الطواحين على الدواب لم تكن عادة أهل فارس لكثرة أنهارها، ويذكر عن أهل مدينة خوار، التي كانت تعد فارس كلها بخجاجة الطواحين، أنهم كانوا يطحنون غلالهم في القرية المجاورة لهم، لأنه لم يكن في بلدهم رحي مائية (ابن البلخي في 335، JRAS, 1902).

(٣) البكري طبعة سيلين ص ١٦٢، (٤) ابن حوقل ص ١٤٧—١٤٨.

(٥) جغرافية العقوبى ص ٢٤٣.

وكان فارسيا من نهاوند ، أنه قال لو شئت أن أصنع رحي تطحن بالريح لفعلت^(١) . وكانت الرياح تشتد بإقليم سجستان وكرمان ويدوم هبوبها دواماً غير مألوف ، (وكانت تسمى باد ساد أوبيست روز لأنها تهب مائة وعشرين يوماً) ، وكان أهل هذه البلاد ينتفعون بهذه الرياح ، فنصبوا عليها أرحاء يسيرونها بها^(٢) . ولا تزال هذه الطواحين إلى اليوم ، فيقول الرحالة سفين هيدن : « يبدأ هبوب الرياح الشمالية حوالى منتصف يونية ويستمر شهرين ، وتنصب الطواحين لأجلها خاصة ، وللرحى ثمانية أجنحة ، وتكون بين أسطوانتين بينهما الهواء كالسهم ، والأجنحة تدور عمودية على قدم عمودية أيضاً ، طرفها الأسفل يحرك حجراً فيدور هذا الحجر على حجر آخر^(٣) ، فهذه الرحي طاحونة هوائية على الحقيقة . وقد خكى الغزولى فى أمر هذه الطواحين ما يبين أن من الممكن تنظيم سرعتها بواسطة منافس تعلق وتفتح فيها كما تفعل نحن اليوم بالعجلات المائية ، وهو يقول : « حدثنى من دخل سجستان وكرمان أن جميع أرحائهم ودواليبهم تدور بريح الشمال ، قد جعلت منصوبة لتلقاها ، وأن هذه الرياح تجرى عندهم على الدوام صيفاً وشتاء ، وهى فى الصيف أكثر وأدوم ، وربما سكنت فى اليوم والليلة مرة أو مرات ، فيسكن كل رحي دولاب بذلك الإقليم ، ثم يتحرك فيتحرك ، وذكر أن هذه الدواليب المنصوبة بها اثنا عشر ألفاً وتنقطع بانقطاعها ، قال والخشب والبقحط فى بلادهم معتبر بكثرة جريان ريح الشمال ، ولكنه قال : ولهم فى الأرحاء منافس تعلق وتفتح لبتقل شدة دورانها وتكثر ، وذلك أنها إذا كانت بقوة أحرق الدقيق فخرج أسود ، وربما حنى الرحاء فانفلق ، فهم يحتاطون لذلك بما ذكرناه^(٤) » .

(١) مروج الذهب للمسعودي ج ٤ ص ٢٢٧ .

(٢) ابن حوقل ص ٢٩٩ ، والمقدسى ص ٣٣٣ .

(٣) Sven. Hedin, Zu Land nach Indien, Bd., II, s., 147 .

(٤) مطالع البدور للغزولى طبعة مصر ١٣٠٠ هـ ج ١ ص ١٠ . أما الطواحين الفارسية =

وكذلك أحدث القرنان الثالث والرابع انقلاباً عظيماً في صناعة الورق ، فخررا مادة الكتابة من احتكار بلد من البلاد له واستشارها به ، وصيراه رخيصاً جداً ، وكان الناس — طول استعمالهم للبردى — يعتمدون على مصر^(١) . أما في القرن الرابع فيحدثنا الثعالبي أن كواغيد سمرقند عطلت قراطيس مصر والجلود التي كان الأوائل يكتبون عليها ، لأنها أحسن وأنعم وأرفق وأوفق ، ولا تكون إلا بسمرقند وبالصين^(٢) . ولم يتكلم اليعقوبي في أواخر القرن الثالث الهجري إلا عن مدينتين اثنتين فقط تصنع بهما القراطيس في مصر السفلى^(٣) . ويحدثنا ابن حوقل أن بعقلية بقاعاً قد غلب عليها البردى ، ولكن لا يعمل منه الورق إلا للسلطان على قدر كفايته^(٤) ، وأكثره يقتل حبلاً للراكب^(٥) ، كما كان الحال في العصر الهومري من قبل^(٦) . ويقول كرايبيك : « يمكننا أن نقول مع كثير من الترجيح إن صناعة تجهيز ورق البردى بمصر للكتابة قد أصبحت منتهية بالإجمال حوالى منتصف القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري) ، فنجد أن الورق البردى المؤرخ ينتهى في عام ٣٢٣ هـ — ٩٣٥ م انتهاء تاماً ، على حين أن الوثائق المكتوبة على الكاغد يبدأ تاريخها منذ عام ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م »^(٧) . وكان أجود الورق في ذلك العصر

== التي ذكرها البكري (طبعة سلين ص ٢٦) بهمال إفريقية ، وذكرها أبو صالح الأرمي في تاريخه (ص ٦٣) ، فلا نجد لها ذكراً في المعاجم ، ولكنها كانت تستعمل في تقطيع قصب السكر (Lippmann, Gesch. des Zuckers, s. 110) . (١) وكان يصنع من البردى القراطيس أو الطوامير ، ويكون طول الواحد ثلاثين ذراعاً وأكثر في عرض شبر (حسن المحاضرة للسيوطي ج ٢ ص ١٩١) ، ولا أدري معنى قول عمر بن أبي ربيعة « وقرطاسة قُورِهِيَّة » (ديوان عمر طبعة سفارتز قصيدة رقم ٣٢ بيت ٣ ص ٣٠) ، وربما يكون الصواب قُورِهِيَّة (يعني مخلون الحمر) . (٢) لطائف المعارف ص ١٢٦ .

(٣) جغرافية اليعقوبي ص ٣٣٨ ، (٤) ابن حوقل ص ٨٦ .

(٥) Hehn, Kulturpflanzen, 8 Auf., s. 312 .

(٦) Karabacek, Mitteilungen aus den Papyrus Rainer, IV III s. 98 .

(٧) نفس المصدر ص ١١٤ وما يليها .

بمملكة الإسلام هو الكاغد الذي نقلت صناعته من الصين وناله على أيدي المسلمين التغيير الهام الذي يعتبر حادثاً في تاريخ العالم ، فإن المسلمين نقوه مما كان يستعمل في صناعته من ورق التوت ومن الغاب الهندي ، وكان في القرن الثالث يصنع ببلاد ما وراء النهر فقط^(١) . أما في القرن الرابع فكانت توجد مصانع الورق بدمشق وطبرية بفلسطين^(٢) وبطرابلس الشام^(٣) . ولكن سمرقند ظلت أكبر مركز لصناعته دائماً ، وقد داعب الخوارزمي أحد أصحابه لأنه لم يكتب إليه فتساءل

(١) الأستخري ص ٢٨٨ . (٢) المقدسي ص ١٨٠ .

(٣) رحلة ناصر خسرو ص ١٢ ، ويذكر الإدريسي في القرن السادس أنه يعمل بمدينة شاطبة بالأندلس من الكاغد ما لا يوجد له نظير بعمور الأرض ، وأنه يعم المشرق والمغرب (الإدريسي طبعة دوزي ص ١٩٢) . ويقول كراباتشك Karabaëck, s. 121 إنه أنشئ مصنع لعمل الورق السمرقندي ببغداد منذ القرن الثاني الهجري ، وهذا يعارض ما صرح به الأستخري والثعالبي ، ويظهر أن الثعالبي نقل عن مصدر قديم لعله كتاب التجارة للجاحظ . هذا إلى عدم ذكر خبر هذا المصنع بالمرّة في كتب المؤلفين القدماء ، مع أن منهم من كتب عن بغداد ووصفها وصفاً دقيقاً . والمصدر الوحيد الذي اعتمد عليه كراباتشك هو ابن خلدون ولكنه متأخر جداً ، ولم يذكر صاحب الخطط وصاحب ديوان الإنشاء — وهما مؤرخان ومن مؤرخي غرب المملكة المصرية — أكثر من استعمال الورق في ديوان هارون الرشيد . ويذكر ياقوت (معجم البلدان ج ٢ ص ٥٢٢) أنه في عصره كان الكاغد يعمل بدار القز ببغداد . وقد أراد كراباتشك متابعا لكريم أن يتخذ مما قاله صاحب القهرست (ص ١٠) أنه عثر على وثائق مكتوبة على ورق تهاى دليلاً على وجود موضع ثالث لعمل الورق على الشاطئ الجنوبي الغربي لجزيرة العرب ، وهذا غير محتمل قط وهو يعارض ما ذكره الأستخري ، وسكوت الهمداني وجميع المؤلفين المتأخرين ، على أنه إذا كان الثعالبي Z D M G, VIII, 526 يثنى على قراطيس مصر بأنها أحسن وأنعم وأرفق ، فليس بواضح من ترجمة فون هاسر إن كان الثعالبي يقصد البردي أم الورق ، ويجوز أن الثعالبي كان يتكلم مع ذلك عن عصور أقدم ، وهذا يصبح مؤكداً إذا عرفنا ما حكاه ياقوت (الإرشاد ج ٢ ص ٤١٢) . من أن الوزير أبا الفضل ابن الفرات كان يستعمل له الكاغد بسمرقند ويحمل إليه بمصر في كل سنة (وتوفي ابن الفرات هذا عام ٣٩١ هـ — ١٠٠١ م) وأن أحد العلماء وقعت له جملة من كتب هذا الوزير ؛ فكان إذا رأى ورقة يفضاء في أحدها انتزعها حتى عمل من ذلك كتباً كتب فيها ، وهذا يدل على أن الكاغد لم يكن يعمل بمصر . على أنه يؤخذ من النص الذي ذكره الثعالبي في اللطائف أن المقصود بالمدح هو كواغيد سمرقند لا قراطيس مصر (انظر لطائف المعارف ص ١٢٦) .

(الترجم)

هل سمرقند بعدت عليه ، والكاغد عز^(١) عليه ، وكان صاحب خزانة كتب السلطان بهاء الدولة بشيراز يجمع إليها كل ظريف عجيب من الكاغد السمرقندى والصينى^(٢) .

وكانت مدينة حرّان آخر مأوى له بادة الكواكب ، وقد نشأ عن هذا المركز الدينى الخاص أن كان يُصنع بهذه المدينة آلات القياس مثل الأسطرلابات وغيرها من الآلات الرياضية الدقيقة^(٣) ، وكانت صحة موازين أهل حران مضرب الأمثال^(٤) .

وكان يصنع بمدينة القدس فى ذلك العصر الشّبح^(٥) بكثرة من كان يزور الحرم الشريف ، ولا تزال هذه الصناعة رائجة مزدهرة إلى اليوم .

(١) رسائل الخوارزمى ص ٢٥ . (٢) الإرشاد لياقوت ج ٥ ص ٤٤٧
(٣) الهندافى ص ١٣٢ . (٤) المقدسى ص ١٤١ .
(٥) نفس المصدر ص ١٨١ .

الفصل السادس والعشرون

التجارة

لقد كان الشرق الأدنى في طول العصور التي نعرفها من تاريخه بعيداً جداً عن مبدأ تقسيم العمل ، وهو المبدأ الذي تقضى به الطبيعة ، والذي يجعل إنتاج الثروة من شأن الرجل ، والحفاظ على ثروتها من شأن المرأة . ولم يستلقت نظر هيرودوت اشتغال النساء بالتجارة إلا بمصر حيث كُنَّ يَقُمْنَ بالبيع والشراء^(١) . ويحكى المقدسي في كلامه عن مدينة بيار بشمال إيران أن « السوق في الدور والبيعة نسوان »^(٢) . وقد لاحظ الرحالة ماركو بولو أن نساء التتر « يُعالجن كل أنواع التجارة »^(٣) . ونلاحظ أن الشعوب الحربية المتعاقبة كانت دائماً تنظر إلى التجارة نظرة الاحتقار . ويحكى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه — وكان أحسن من يعبر عن الروح الأولى للإسلام — أنه ذُكر أمامه حديث الاستئذان وكان قد نسيه ، وطلب البيئة عليه ، فلما جاءه به أبو سعيد الخدري قال عمر : أخفى عليّ من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ! ألهاني الصنف بالأسواق ، يعني الخروج للتجارة^(٤) . وكان الأمويون أيضاً لا ينظرون للتاجر بعين التقدير ، ولم يكن هذا ناشئاً عن إشفاقهم مما أشار إليه عمر ، بل لأنهم كانوا جيلاً من المحاربين الفرسان وأمراء القطائع ، حتى لا نجد للتجار شأنًا في تاريخهم . وقد أحدث القرن الثالث في هذا الباب انقلاباً كبيراً ، فلما جاء القرن الرابع أصبح

(١) انظر الفصل الخامس بالأخلاق والعادات .

(٢) المقدسي ص ٣٥٦ . (٣) Marco Polo, I, 4 .

(٤) صحيح البخاري : كتاب البيوع . -

التاجر الفنى هو ممثل الحضارة الإسلامية التى صارت من الناحية المادية مظهراً من مظاهر البذخ والأبهة ، وباعثاً على الاستطالة فى ذلك ، فى أواخر القرن الثالث لم يترفع بدر بن حسنويه — وكان فى منصب من المناصب الجليلة فى الدولة — عن أن يبتاع خاناً بمدينة همدان ، ويفرده باسمه ، ويقيم فيه من يبيع ما يرد من الأمتعة المختارة فى أعماله ، وقدّر أن ينال من وراء ذلك نحواً من ألف ألف ومائتى ألف درهم ، ولكن ذلك شق على أبى سعيد بن الفضل ، وكان ينظر فى أعمال همدان والماهين وسهرورد من قبل مجد الدولة ، وتصور أنه طريق لخروج ارتفاع البلد عن يده فوضع قوماً من الديلم على أن يقصدوا الرسول الذى أرسله بدر لعقد ضمان الخان على من يرغب فيه ويوقعوا به ، فقصدوه وكبسوا داره ، وأخذوا ما كان معه من المال^(١) . وفى ذلك العصر انكمش بعض النشاط التجارى فى الأسواق ودور الصرافين ، ولكن كان فيها الكثير من الأساليب الخلابية والقدرة على استهواء الناس . ولما كان كل تاجر رجلاً رجلاً فإن ائتمان البضائع وأسعار أنواع النقود التى يحل عددها عن الحصر كانت تختلف وتتعد وتتشابك على أيدي المغامرين من المتعاملين المهرة فى جميع البلاد ، مع اتساع نطاق الخبرة بالدنيا والمعرفة بأخلاق الناس . وكانت التجارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى مظهراً من مظاهر أبهة الإسلام ، وصارت هى السيدة فى بلادها ، وكانت سفن المسلمين وقوافلهم تجوب كل البحار والبلاد ، وأخذت تجارة المسلمين المكان الأول فى التجارة العالمية ، وكانت الإسكندرية وبغداد هما اللتان تقرران الأسعار للعالم فى ذلك العصر فى البضائع الكالية على الأقل . وكان التجار اليهود^(٢) الذين يأتون من مقاطعة پروفانس بفرنسا يسمون عند المسلمين

(١) كتاب الوزراء ص ٤٧٨ . . .

(٢) يسمون الرهدانية ويقول سيمونسن Simonsen, Revue d, Et. juives, 1907 .

في القرن الثالث الهجري باسم مجرّد ، وهو «تجار البحر»^(١) . وقد وصفهم المسلمون بأنهم يسافرون بين الشرق والغرب ويحملون من «فرنجة» الخدم والعلماء والجواري والديباج والخبز الفائق والفراء والسمور ، ويركبون البحر من فرنجة ويخرجون بالقرما ، ويحملون تجارتهم على الظهر إلى القلزم ، ثم يركبون البحر الشرقي من القلزم إلى جدة والجار ، ثم يمضون إلى السند والهند والصين ، فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدارصيني وغير ذلك ، ويرجعون إلى القلزم ، ثم يتحولون إلى القرما ، ويركبون البحر الغربي ، فربما عدلوا بتجاراتهم إلى القسطنطينية فباعوها للروم ، وربما صاروا بها إلى بلاد الفرنجة فباعوها هناك ، وإن شاءوا حملوا تجارتهم في البحر الغربي ، فخرجوا بأنطاكية وساروا برا إلى القرات فركبوا في دجلة إلى الألبّة إلى عمان والهند والصين ، وكانوا يتكلمون العربية والإفريقية والفارسية والرومية ، وهم تجار اليهود الذين يقال لهم الرهدانية أو الراذانية^(٢) . وبعد ذلك لا نجد في القرن الرابع ذكراً لهؤلاء التجار الذين خلفوا التجار الشاميين الذين كانوا حتى العصور الوسطى يستوطنون نهر الرون ، وذلك لأن ظهور شأن التجارة الإسلامية ونمائها أخرج التجار الأجانب من البحار .

وكان الأمر الكبير الذي تمّ في القرن الرابع الهجري هو فتح الطريق التجاري إلى بلاد الروس في الشمال . وكانت ثمّ بعض العلاقات قبل القرن

== إنها نسبة إلى نهر الرون ، ولكن دي غوي لا يوافق على هذا التفسير القريب De Goeje, Verslagen en Mededeelingen, Amsterdam P. 141, f. 1909, p. 253 . ورأى أنه غير وجهه . وقد تكلم عن سفن اليهود في البحر الأبيض في ذلك العصر (آخر القرن التاسع الميلادي) ببلولوس في تاريخ شارل الأكبر ، فقال : يرى الانسان في مدينة من مدن الناطق^١ بفالة النرويجية سفنا يقول البعض إنها سفن يهودية ويقول البعض إنها أفريقية أو سفن لتجار بريطانيين Notker Balbulus, Karl. II, Kap. 14 (١) ابن الفقيه ص ٢٧٠ .

(٢) ابن خردادبة ص ١٥٣ — ١٥٤ ، وابن الفقيه ص ٢٧٠

الرابع بين بلاد الروس وبين بلاد الإسلام ، فقد وصف لنا ابن خردادبة مسلك تجار الروس من بلادهم إلى بلاد الإسلام بقوله : « فأما مسلك تجار الروس ، وهم جنس من الصقالبة ، فإنهم يحملون جلود الخرز وجلود الثعالب السود والسيوف من أقصى صقلية إلى البحر الرومي ، فيعشرهم صاحب الروم ، وإن ساروا في تنيس نهر الصقالبة مروا بخليج مدينة الخزر فيعشرهم صاحبها ، ثم يصيرون إلى بحر جرجان فيخرجون في أي سواحله أحبوا ، وربما حملوا تجارتهم من جرجان على الإبل إلى بغداد ، ويترجم عنهم الخدم الصقالبة ويدعون أنهم نصارى فيؤدون الجزية »^(١) . وفي سنة ٣٠٩ هـ — ٩٢١ م حدث اتصال سياسي بين الخليفة وبين ملك أهل القلجا^(٢) ، وفي العام التالي أسلم هذا الملك وأسلم أهل بلاده^(٣) ، وفي ذلك العصر تولى شؤون الجزء الشمالي الشرقي من مملكة الإسلام لأول مرة حكام أكفاء وهم آل سامان ، وكان لذلك أكبر شأن في تاريخ الإسلام ، فإنهم حفظوا تخوم البلاد وساروا بها إلى النماء والمجد ، وضمنوا للتجار الأجانب ربحاً هادئاً ، ومعظم النقود العربية التي اكتشفت في شمال أوروبا ترجع إلى القرن الرابع الهجري ، وأكثر من ثلثها من نقود السامانيين^(٤) . وكانت بلاد الروس منذ ذلك العصر وفي أثناء الحروب الصليبية هي الطريق بين شمال أوروبا وبين الشرق^(٥) ، وكما أن الإسلام وجد طريقه إلى الشمال فكذلك نال في المشرق بلاداً أخرى واسعة (انظر الفصل الأول من الجزء الأول من هذا الكتاب) ؛ ففي عام ٣٣١ هـ — ٩٤٣ م أرسل ملك الصين يخطب ود نصر بن أحمد الساماني ، ويطلب مصاهرته ؛ فرضى نصر أن يزوجه ابنة من ابنة ملك الصين ،

(١) ابن خردادبة س ١٥٤ ، وابن الفقيه س ٢٧١ . (٢) وذلك بإرسال ابن

فضلان ، وقد وصل إلينا بعض ما حكاه . (٣) خروج الذهب ج ٢ ص ١٥ .

(٤) Heyd, Levanthandel, I, 69 .

(٥) Schläumberger, Epopée bysantine, s. 9 .

فتتح هذا أمام التجار المسلمين الطريق إلى الصين^(١) ، وفي القرن الرابع الهجري أضيفت إلى مملكة الإسلام أجزاء كبيرة من بلاد الهند ذات شأن تجارى عظيم . هذا وقد كان في بلاد الصقالبة الشمالية من جهة أخرى قلاقل شديدة في القرن الرابع ، وذلك بسبب زحف الترمانيين الذين ركبوا نهر الفلجا وساروا فيه عام ٢٧٠ هـ — ٨٨٣ م ، وعام ٢٩٧ هـ — ٩١٠ م ، وعام ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م ، ويقال أنهم في المرة الأخيرة كانوا خمسمائة سفينة على كل منها ثلاثمائة رجل ، فوصلوا بحر الخزر فنهبوا كل شيء ، وفي عام ٣٥٨ هـ — ٩٦٩ م خربوا عاصمة الخزر^(٢) . وربما كان هذا هو السبب في انقطاع الزيارات الودية بين بلادهم وبلاد الإسلام ، في ذلك العصر ، ولكن ظل تجار الفرس يذهبون إلى الخزر كما كان الحثاني من قبل^(٣) ، وأصبح الخزر هم الوسطاء في اجتلاب البضائع من الشمال ، وكان الشيء الوحيد الذى تصدره بلاد الخزر مما تنتجه هو غر السمك ، أما ما كانوا يصدرونه من العسل والشمع والوبر ، فكان يحمل إليهم من ناحية الروس^(٤) . وكان تجار اليهود يستأثرون بأهم ما كانت تصدره أوروبا ، وهو الغلمان والجواري ، وفي عام ٣٥٦ هـ — ٩٦٥ م كان يختلف إلى مدينة براج — وكانت أكبر سوق للرقيق في أوروبا — مسلمون ويهود وترك من بلاد الترك يحملون البضائع وقطع الذهب البوزنطية ، ويعودون بالرقيق والصفائح والفراء^(٥) . وقد نشأ عن هذا التقدم التجارى ازدهار الجاليات الإسلامية في كثير من الأطراف التى تغلب عليها غير المسلمين ، فكان يرأسهم مسلم ، ولا يقبلون حكم غير المسلمين فيهم ، ولا يتولى حدودهم ولا يقيم عليهم شهادة إلا المسلمون وإن

(١) معجم البلدان لياقوت تحت كلمة صين نقلا عن أبي دلف .

(٢) ابن حوقل ص ٢٨١ . وانظر Dorn, Caspia, Mém. Acad. St. Peteribourg.

(٣) ابن رسته ص ١٤١ . (٤) ابن حوقل ٢٨١ — ٢٨٢ . 1875 .

(٥) Westberg Ibrahim Ibn Ja'qûbs Reiseberichte s. 53, 155 .

قلّوا ، وذلك مثل بلاد الخزر والسير والالان وغانة وكوغة وسيمور (الهند)^(١) .
وكان بالصين أيضاً جالية إسلامية^(٢) ؛ بل كان في كوريا أيضاً جالية من التجار
المسلمين^(٣) . أما في بوزنطة فكان لا يُسمح لتجار المشرق أن يقيموا أكثر
من ثلاثة أشهر^(٤) ، وكانت أكبر جالية للمسلمين في الإمبراطورية الرومانية تقيم
بمدينة أطرابزند^(٥) .

وقد حكى لنا كُستَاس Cosmas الرحالة الهندي في منتصف القرن السادس
الميلادي خبر مناظرات جرت في مجلس ملك سرنديب بين تاجر رومي وآخر فارسي
أراد كل منهما أن يثبت أن ملك بلاده أقوى ، وغلب التاجر الرومي صاحبه آخر
الأمر ، وذلك بأن أخرج قطعة ذهبية جميلة من العملة البوزنطية التي يتعامل بها
في جميع البلاد ؛ على حين أن الفارسي لم يستطع أن يخرج إلا عملة من الفضة ،
ومن الصحيح في هذه الحكاية أنه كان بين البوزنطيين وبين الدولة الساسانية
معاهدة خاصة بالعملة تقضى بأن يضرب الساسانيون نقوداً من الفضة فقط ، ويتخذوا
العملة الرومية الذهبية عملة لهم^(٦) ، ولهذا شاع في بلاد الإسلام التي كانت تحت
حكم الرومان من قبل العملة الذهبية ، على حين أن بلاد الفرس كانت عماتها الجارية
الدراهم الفضية ، وقد ذكر يحيى بن آدم (المتوفى عام ٢٠٣ هـ — ٨١٨ م) أن العملة
في العراق هي الدرهم وفي الشام الدينار وفي مصر الدينار أيضاً^(٧) ، ونلاحظ أنه
في هذا العصر الذي ندون تاريخه كانت العملة الذهبية تنفذ وتنتشر شرقاً ، وهذه

(١) ابن حوقل ص ٢٢٥ ، و Merv. de l'Inde, 142, 144, 161

(٢) انظر الفصل الخاص بالملاحة البحرية . (٣) ابن خرداذبة ص ٧٠ .

(٤) Vogt, Basile, I. s. 393 (٥) المقدسي ص ١٤٨ .

(٦) Gelzer, Byzantinische Kulturgeschichte, 1909, s. 79 وكذلك كان بين .

بوزنطة وبين كلودويج ملك الفرنجة معاهدة كهذه .

(٧) كتاب الخراج طبعة جوينبول ص ٥٢ .

أكد علامة من علامات وحدة التجارة الإسلامية . ففي أول القرن الثالث الهجري كانت عطايا الخليفة تحسب بالدرهم ، وفي أوائل القرن الرابع الهجري دخلت العملة الذهبية بغداد وصار حساب الحكومة بالدنانير ، وقد تمت الخطوة الحاسمة بين عامي ٢٦٠ هـ — ٨٧٤ م و ٣٠٣ هـ — ٩١٥ م ، ففي السنة الأولى ذكر ارتفاع العراق بالدرهم الفضة^(١) . أما في الثانية فقد ذكر بالذهب^(٢) ، وقد زال مع زوال الحساب بالدرهم الفضة حساب الأشياء بنوعها ، وهذه نقطة طريفة ، ففي عام ٢٦٠ هـ — ٨٧٤ م كان يذكر في ارتفاع العراق مقدار الحاصلات من الخنطة والشعير مثلاً وما يقابلها بالدرهم . أما في عام ٣٠٣ هـ — ٩١٥ م فقد بطل ذلك ، ويتبين من قانون نشره رؤساء اليهود بالعراق في عام ٧٨٧ م أن كثيراً من الثروة صار يعتبر ثروة منقولة ، ويقضى هذا القانون بأن تؤخذ للوفاء بتسديد ديون المدين الثروة المنقولة لا الثروة الكبيرة غير المنقولة وحدها^(٣) ، وكانت الممتلكات الفردية مع هذا تحصى بالدرهم والدنانير ، فمثلاً ذكر في ترجمة ابن يحيى ثعلب النحوى اللغوى المتوفى عام ٢٩١ هـ — ٩٠٤ م أنه خلف أحداً وعشرين ألف درهم وألثى ديناراً ودكاكين بباب الشام قيمتها ثلاثة آلاف دينار^(٤) . ولكن العطايا التي كانت توهب للشعراء مثلاً كانت دراهم على الطريقة القديمة^(٥) ، ولا شك أن هذه العطايا لم يكن ينظر إليها كما ينظر لمسألة تجارية ، وقد انتهى إلينا شيء من شعور الناس بتقدير نوعي النقود القديم والجديد ، فأما البلاد الشرقية لمملكة الإسلام فقد ظلت تتعامل بالدرهم الفضة حتى في أثناء القرن الرابع الهجري ، فيقول الأصطخري إن « نقود أهل بخارى الدرهم ولا يتعاملون بالدينار وهي

(١) قدامة بن جعفر ص ٢٢٩ .

(٢) Kremer, Einnahmebudget

(٣) Graetz, Geschichte der Juden V, 4 Aufl. s. 196

(٤) الإرشاد لياقوت ج ٢ ص ١٥٣ . (٥) كتاب الوزراء ص ٢٠٢ .

كالعرض» وربما كانت الدراهم نقداً جارياً في بعض المدن الكبرى^(١)، أما في فارس فكان البيع والشراء بجميع فارس بالدراهم وكانت الدنانير عندهم بالعرض^(٢). وقد راعى صغار الملوك الذين ضربوا العملة لأنفسهم تحت رئاسة الخليفة أو مستقلين عنه أن يخرجوا للتعامل أكبر عدد ممكن من أصناف العملة، وكان في قوائم أسعار العملة التي بين أيدي الجهابذة في ذلك العصر شيء من الطرافة، كما نستطيع أن نستنتج ذلك من أصناف العملة التي ذكرها المقدسي^(٣)، وكان الدينار في القرن الرابع الهجري يساوي نحو الأربعة عشر درهماً^(٤). وكان من أثر انفصال القسم الشرقي من مملكة الإسلام عن قسمها الغربي الذي كان وحده يتمتع بخزان الذهب أن ارتفعت أسعار العملة الذهبية في المشرق ارتفاعاً هائلاً في أواخر القرن الرابع. والمقرئ قد بالغ حين قال إن الناس في مصر لم يرد ذكر الدرهم على ألسنتهم لأول مرة إلا أيام الفقر التي كانت في عهد صلاح الدين، لأنهم كانوا قبل ذلك يتعاملون بالدنانير^(٥). وفي أواسط القرن الرابع ضرب ركن الدولة بن بويه ديناراً نصفه أو أكثره من النحاس، وكان هذا الدينار يقبل في عام ٤٢٠ هـ — ١٠٢٩ م بثلاث قينة الدرهم المعتاد^(٦). وفي عام ٤٢٧ هـ — ١٠٣٦ م حاولت حكومة بغداد أن تقوى العملة البغدادية فأمر الخليفة بترك التعامل بالدنانير المصرية المجرية، وأمر الشهود ألا يشهدوا في كتاب ابتياع ولا إجازة ولا مداينة تذكر فيها الدنانير المغربية؛ فعدل الناس عن هذه العملة إلى غيرها^(٧). ومن جهة أخرى

(١) الأضطرغى ص ٣٦٤، ٣٦٣، ٣٦٢. (٢) نفس المصدر ص ١٥٦.

(٣) انظر أيضاً رسائل الهيداني طبعة القسطنطينية ١٢٩٨ هـ ص ١١.

(٤) أمندروز (تعلق رقم ١) في كتاب الوزراء ص ٣٦ وفي عام ٣٣٩ هـ — ٩٤٣ م ضرب ناصر الدولة بن حمدان ديناراً كاملاً قيمته ثلاثة عشر درهماً. على حين أن الدينار كان يساوي من قبل عشرة دراهم JA, Sér. VII, Bd. 15, 259. وكان الدينار أحياناً يساوي خمسة عشر درهماً (عجائب الهند ص ٥٢). (٥) JA. Sér. VII, Bd. 14, P. 524.

(٦) Amédroz, JRAS, 1906, 475. (٧) المنتظم لابن الجوزي ص ١٠٩.

خفت وزن الدراهم الفضية حتى صار الخمسة وعشرون والأربعون والمائة وخمسون أحياناً بدينار^(١) ، وفي عام ٣٩٠ هـ — ١٠٠٠ م شغب حرم الديلم وقصدوا دار الوزير ثأثرين لفساد العملة الذهبية^(٢) ، وكان للعملة الزائفة ثمنها المحذد جهاراً وإن كان زهيداً كما هو الحال اليوم ، وكانت الدراهم المزيفة تسمى المزيفة^(٣) ، وكانت بمكة مثلاً أربعة وعشرون بدرهم من الدراهم النقية ، وكانت تبطل يوم السادس من ذي الحجة إلى آخر الموسم^(٤) . وكان البعض يزيف الدراهم النقية كما يفعل المزيفون في عصرنا ، ولكن لما كانت العملة توزن فلم يكونوا يبردون بها بل كانوا يصنعون عملة يتوفر لها الوزن الصحيح مستعاضين عما ينتقصونه من الذهب باستعمال الزئبق أو الأنثيمون^(٥) .

وكانت الفلوس تتدرج على أساس القاعدة السداسية ، فكان الدرهم يساوي ستة دوانق ، وكان الدانق اثني عشر قيراطاً ، والقيراط أربعة وعشرين طسوجاً ، والطسوج ثمانية وأربعين حبة ، وكانت العملة الفضية المكسرة تستعمل في المعاملات اليسيرة رغم أن ذلك كان يلقي الاعتراض دائماً^(٦) .

وكانت المعاملات الضخمة تستدعي وسائل للذيف ، مأمونة من الضياع ، خفيفة الحمل ، بعيدة عن متناول اللصوص^(٧) . ومعظم هذه الوسائل يحمل أسماء فارسية ، فيذكر عن أحد العلماء أنه سافر إلى الأندلس ومعه بفتجة وخمسة آلاف درهم نقداً^(٨) . ويحكى عن ناصر خببرو الرحالة الفارسي أنه لما خرج من أسوان بمصر

(١) كتاب الوزراء ص ٣٦ هامش رقم ١ . . . (٢) كتاب الوزراء ص ٤٠٢ .

(٣) مادة زبق عند الجوهرى ، وكانت الفضة التي تضرب بكتاب مع الزئبق انظر

Amedroz, JRAS, 1906, p. 479 . . . (٤) المقدسي ص ٩٩ .

Abu Jûsuf, JA, Sér, VII, Bd., 19 p. 20 (٥)

(٦) نفس المصدر ص ٢٥ — ٢٦ .

(٧) محمد الطاجي يانها عند R. Grasshoff, Die Sufaga und Hawala der

Araber, Jur. - Dissert, Königs, berg, 1899 . . . (٨) مصابيح السائق ص ١٠ .

أخذ خطاباً من صديق له كتبه إلى وكيله في عيذاب بأن يعطى ناصراً كل ما يريد ويأخذ منه مستنداً ليضاف إلى حساب الصديق^(١). وكذلك أرسل الأخشيد صاحب مصر إلى نائبه ببغداد سفايح بثلاثين ألف دينار ليسلمها للوزير ابن مقلة أيام أن كان مصروفاً^(٢). وكان من وسائل المعاملات الصك ، وهو في الأصل سند الدين ، وكان الرجل إذا اشترى عقاراً كضيعة مثلاً كتب صكاً بشرائها^(٣). ويحدثنا ابن حوقل أنه رأى بأودغشت صكاً باثنين وأربعين ألف دينار كتب بدين علي محمد بن أبي سعدون من أهل سجلماسة لرجل من أهلها وقد شهد عليه العدول^(٤) ، وهذا يدل على أن الورق في ذلك العصر كان قد بلغ إلى مسافة كبيرة في وسط الصحراء الكبرى . وكان الصك بالعراق أشبه بالشيك الرسمى عندنا ، وكان للجهبذ مع وجود هذه الصكوك شأن كبير ، ويذكر لنا حتى في القرن الثالث الهجري أن أحد العمال كان يكتب الصكوك للجهبذه^(٥) ويذكر عن جحظة الشاعر المتوفى عام ٣٢٤ هـ أن بعض الرؤساء صك له صكاً فدافعه الجهبذ حتى ضجر فكتب لذلك الرئيس :

إذا كانت صلاتكم رقاها تُخَطِّط بالأنامل والأكت
ولم تكن الرقاع تجر نفعاً فما خطى خذوه بألف ألف^(٦)
ويحكى عن هذا الشاعر نفسه — وكان إلى جانب الشعر بغنياً — أن
الحسن بن مخلد وهب له خمسمائة دينار أعطاه رقعة بها على صيرفي فتوجه إليه ،

(١) رحلة ناصر خسرو ص ٦٤ من طبعة شيفر . (٢) المغرب لابن سعيد ص ٣٢ .
(٣) صحيح البخاري طبعة ١٣٠٩ هـ ج ١ ص ١٤ ، وكتاب الأغاني ج ٥ ص ١٥ ،
وديون ابن المتبرج ج ١ ص ١٣٧ ، وكان الاصطلاح أن يقال صك فلان على فلان كذا —
كتاب الوزراء ص ٧٧ . (٤) ابن حوقل ص ٤٢ ، ٧٠ ؛ وكانت المسافة بين
سجلماسة وأودغشت إحدى وخمسين مرحلة (المغرب للبكري ص ١٥٦ وما بعدها) .
(٥) كتاب المحاسن والسيوف للبيهقي . وإلى هنا يرجع أصل الحكايات المتعلقة
بهارون الرشيد . (٦) الإبرشاد لياقوت ج ٢ ص ٣٨٥ .

فأفهمه الصيرفي أن الرسم أن ينقصه في كل دينار درهما ، وخيره بين ذلك وبين أن يركب معه ويقيم عنده يومه وليلته ليشرب ويسمع توقيعه ، فلما أصبح الصباح أعطاه الخمسمائة دينار؛ وأهدى إليه فوقها خمسمائة درهم^(١) . ويحكى عن جهبذ آخر أكثر حبا للفن أنه جاء إليه شاعر ليقبض مالا فلم ينقصه شيئا ؛ بل أعطاه خمسين دينارا من عنده ، وذلك لإعجابه بالقصيدة التي مدح الشاعر بها الأمير^(٢) . وإذن فقد كانت المهام التي يقوم بها الجهبذ كثيرة ، فلا عجب أن يحدثنا ناصر خسرو أنه كان بسوق الصرافين بمدينة أصفهان مائتا صراف^(٣) . وكانوا جميعا يجلسون في سوق واحد يسمى سوق الصرافين ، ولم يكن عن الصراف غنى في سوق البصرة . حوالى عام ٤٠٠ هـ — ١٠١٠ م فقد كان العمل بهذا السوق أن كل من معه مال يعطيه للصراف ويأخذ منه رقاعا ثم يشتري ما يلزمه ويحول ثمنه على الصراف ولا يعطون شيئا غير رقاع الصراف طالما كانوا بالمدينة^(٤) . ويظهر أن هذا هو أرقى ما وصل إليه التعامل المالى في المملكة الإسلامية^(٥) ، ومما له دلالة أن يظهر ذلك في مدينة البصرة المشهورة بتجارتها ، والتي تقع على الحدود بين فارس والعراق ، وذلك لأن أهل البصرة واليمن وأهل فارس كانوا أحسن تجار المملكة الإسلامية ، وكان لهم جاليات في جميع البلاد التي تجلب منها التجارة ، وهم أشبه بالسواحيين والسويسريين في الوقت الحاضر . ويقول ابن النقيه الهمداني في كتاب البلدان حوالى عام ٢٩٠ هـ ج ٩٠٢ م : « وقالوا أبعد الناس نجعة في الكسب

(١) نفس المصدر ص ٣٩٨ — ٣٩٩ . (٢) كتاب الديارات ص ١٨٨ .

(٣) رحلة ناصر خسرو ص ٢٥٣ من الترجمة ، وقد مر ناصر خسرو بأصفهان عام

٤٤٤ هـ — ١٠٥٢ م .

(٤) رحلة ناصر خسرو ص ١٢٨ من النص الفارسي .

(٥) ولسكن لم يكن هناك نظام الجيرو giro كالتى بلغ متهى كماله في مصر على عهد

اليونان (انظر 1910 Strassburg griechischen Aegypten Preisigke, Girowesen im نظام الجيرو هو نظام الجوالات .

بَصْرِيٍّ وَحِيرِيٍّ ، ومن دخل فرغانة القصوى والسبوس الأقصى فلا بد أن يرى فيها بصرياً أو حيرياً^(١) ، وكان أهل البصرة ينسبون إلى قلة الحنين إلى وطنهم ؛ حتى يحكى أنه وجد مكتوباً على حجر هذا البيت :

ما من غريب وإن أبدى تجلده إلا سيذكر عند العلة الوطن
وقد كتب تحته : إلا أهل البصرة ، فكان أهل البصرة يحملونها في رؤوسهم^(٢) .

وكان الفرس منذ الدهر الطويل قد استوطنوا جدة وهي فرضة مكة^(٣) ، وكان يسكن بمدينة سجلماسة (بجنوب مراكش) كثير من أهل العراق وتجار البصرة والكوفة وبغداد^(٤) ، وكذلك كانت الموانئ ذات الحركة التجارية القوية بالشام ، وهي طرابلس وصيدا وبيروت ، يسكنها قوم من الفرس نقلهم إليها معاوية ابن أبي سفيان^(٥) . وكانت مصرُ بلداً تجارياً^(٦) إلا أن المصري الحق سواء أكان مسلماً أم قبطياً لا يمتاز حتى في أيامنا بالاستعداد الخاص للتجارة ، وكان يعرف المصري في القرن الرابع بأنه لا يرى مستوطناً غير مصر إلا في النادرة^(٧) . وفي عصرنا هذا نجد اليونان والمشاركة والفرس وحتى الهنود هم الذين يقتطفون زبدة التجارة المصرية ؛ ومنذ القرن الثاني الهجري كان بقصة مصر جالية كبيرة قوية التأثير من أهل فارس ، ومنهم أخذ القاضي مرة ثلاثين رجلاً جعلهم ضمن الشهود ، وكان هذا المركز مرموقاً لا يقبل فيه إلا من هم أهل للشهادة^(٨) . وكان أكبر رجال الغنى والثروة بمصر في ذلك العصر هو أبو بكر محمد بن علي الماذرائي ،

(١) كتاب البلدان ص ٥١ .

(٢) رسائل المعري طبعة مرجليوث ص ٧٥ . (٣) الأسطخري ص ١٩ .

(٤) ابن حوقل ص ٤٢ . (٥) جغرافية يعقوبى ص ٣٢٧ .

(٦) يقول المقدسي (ص ٣٠٥) من كان مراده التجارة فليجئ بمصر أو عدن أو عمان .

(٧) لطائف المعارف ص ١٠٩ . (٨) السكندى ص ٤٠٢ .

ولكنه لم يكن تاجراً ، وكان ارتفاع ضياعه يبلغ أربعمائة ألف دينار ، وأصله من أسرة عراقية^(١) .

وكان أكبر منافس لأهل العراق وفارس هم اليهود ، وكانت اليهودية على مقربة من أصفهان هي القسم التجاري لهذه المدينة الفارسية الكبيرة^(٢) ، وقد صرح بعض المؤرخين أن معظم التجار بمدينة تَبَسْتَر كانوا يهوداً ، وكانت تستر أكبر مركز لصناعة البُسْط الفارسية . وكان الذي يقبض على ما يستخرج من الأوثان في شواطئ جزيرة العرب رجلاً من اليهود^(٣) ، وكانت بلاد كشمير مغلقة أبوابها في وجه جميع التجار الأجانب ، ولم يكن يدخلها إلا قليل منهم وخصوصاً من اليهود^(٤) . وكانت الحرفة التي اختص بها اليهود في المشرق أيضاً الاتجار بالعملة ، ويذكر أنه لما فرضت الحكومة على بطريك الإسكندرية جزية باهظة أواخر القرن الثالث الهجري حصل على المال اللازم بأن باع إلى اليهود أملاك الكنيسة وجزءاً من الكنيسة المعلقة^(٥) . وكان اليهود بين الصيارفة بقصبة مصر حتى إنه في عام ٣٦٢ هـ — ٩٧٣ م غرر المحتسب طائفة منهم فشغبوا ، فأمر جوهراً ألا يظهر يهودي إلا بغيار^(٦) ، وفي القرن الخامس الهجري حُكي لناصر خسرو أن بمصر رجلاً يهودياً غنياً يسمّى أبا سعيد له مال كثير ، وأنه كان على سقف سرايه ثلاثمائة جرة من الفضة ، في كل واحدة منها شجرة محملة^(٧) . أما في العراق فإننا نسمع ذكر رجلين من جهابذة اليهود ، وهما يوسف بن فنجانس وهارون بن

(١) المغرب لابن سعيد ص ١٥ ، ١٦١ — ١٦٣ .

(٢) المقدسي ص ٣٣٨ ، وبأصفهان اليوم خمسة آلاف يهودي (انظر : Jackson

Peria p. 205 . . . (٣) مسكونه ج ٥ ص ٤٠٨ .

(٤) انظر فصل الحاضلات . . . (٥) كتاب الهند لليروني ج ١ ص ٢٠٦ من

ترجمة سخاو . . . (٦) بطرس بن راهب (في مجموعة Corp. Serip. orient. Christ

من ١٣٢ ، وتاريخ الشيخ أبي صالح الأرمي من ١٤٨ . (٧) الانماط للمقريري ص ٨٧ .

(٨) رحلة ناصر خسرو ص ٨٠ من النص الفارسي .

عمران ، ومنهما اقترض الوزير عشرة آلاف دينار. في أوائل القرن الرابع الهجري^(١) . ويظهر أن هذين الرجلين كان لهما شبه بنك أو شركة ؛ لأنه لما خُلع الوزير علي بن القرات عام ٣٠٦ هـ وطُوب بالمال أقر بأن له عندهما سبعة آلاف دينار^(٢) . وكان يوسف جهيد الأهواز ، أعنى أنه كان يقدم للدولة ، إلا معجلاً ينتظر سداده من خراج الأهواز ، وكان إذا أحضر لتعجيل المال يعتذر عادة بكثرة الأموال التي يلزمه تعجيلها ؛ وأنه لا يتمكن من الدفع^(٣) . وكان هذان الجهيدان ومعهما زكريا بن يوحنا يسمون جهابذة الحضرة ، ويخاطبون في المراسلات إلى أبي فلان ؛ فلان بن فلان أبقاه الله ، وهذه هي أقل درجة في الخطابات ، فكان يُخاطب بها مثلاً صغار عمال البريد^(٤) . ثم إن اليهود الذين كان لهم الشأن الأول في صناعة البُسْط بمدينة تستر ، لم يكونوا صناعاً ، بل كانوا صيارفة^(٥) . ويحكى عن أبي علي الإسكافي المتوفى عام ٣٩٤ هـ أنه لما تولى بغداد من قبل بهاء الدولة ؛ قبض على اليهود وأخذ منهم ألف دينار وهرّب إلى البطيحة^(٦) . وإذن فلا عجب أن نجد في لغة العرب لفظة مَبْلُط (وهي اصطلاح مالي يهودي) تستعمل بمعنى المَقْلَس^(٧) .

وكان الروم والهنود إلى جانب أهل العراق والفرس واليهود هم أنشط تجار المملكة الإسلامية ، وقد نفذ الروم إلى أقصى البلاد ، حتى كانت لهم جالية من التجار في مدينة جيروفت التجارية بأواسط كرمان^(٨) ؛ أما التجار الأرمنيون

(١) v. Kremer, Einnahmebudget, s, 343 . (٢) صريب ص ٧٤ .

(٣) كتاب الوزراء ص ١٧٨ . (٤) نفس المصدر ص ١٥٩ ، وتذكر

المصادر اليهودية يوسف بن قنباس وخته تيرا من بين أكبر رجال اليهود ببغداد (انظر :

Gractz, Gesch, der juden, V, 4 Aufl. s. 277 . (٥) منسكويه ج ٥ ص ٤٠٨

(٦) التنظيم لابن الجوزي ص ١٥٠ . (٧) انظر مادة بلدا في تاج العروس

البلطة المقلس وأبطل الرجل ذهب ماله .

(٨) ولا يذكر هذا إلا منذ القرن السادس الهجري ، (انظر : Houjsma,

Seldschuken, I, 48 .

فلم يكن لهم شأن يذكر في أى مكان ؛ بل نرى من هذا الشعب طائفة تتبوأ مناصب حربية عليا في الدولة البوزنطية^(١) وكان منهم جند وقواد الفاطميين^(٢) منهم أبو النجم أمير الجيوش الذى حكم بلاد الفاطميين في القرن الخامس الهجرى^(٣) ، ولم تتغير هذه الحال إلا منذ العصر التركى .

وكانت التجارة مركزها الأسواق ، شأنها شأن الصناعة ، وكانت كل طائفة من التجار يجلسون معاً في قسم واحد ، وكانوا يمتثلون إلى ما بعد "تظهر ثم يا كلون في أحد المطابخ أو يستحضرون شيئاً إلى دكا كينهم ، ولا يذهبون إلى بيوتهم إلا في المساء"^(٤) . وكان للهراسين في العراق موضع فوق الدكا كين فيها الحصر والموائد والمرى والخدام والطشوت والأباريق والأشنان ، فإذا انحدر الرجل دفع دانقاً^(٥) . وقد وصف الهمداني في إحدى مقاماته أكلة أكلها هو وأبوزيد في أحد المطابخ^(٦) . وكانت الأكلة بعشرين (ربما كانت عشرين دانقاً أو عشرين درهماً) ، وكان الطباخون في ذلك العصر أيضاً يعولون على مظهر طبيختهم وتأثيره ، ويحكى عن مالك بن دينار المتصوف المعروف أنه قال : أخوة هذا الزمان مثل برقة الطباخ في السوق طيبة الرائحة لا طعم لها^(٧) .

وكانت الدكا كين في مصر وآسيا الغربية تمتد على طول الشوارع من

(١) Geizer, Kulturgeschichte, s, 80

(٢) الخطط للمقرئ ج ١ ص ٩٤ . (٣) نفس المصدر ص ٣٨١ .

(٤) كان الجهد ينتهى عمله ببغداد عند الظهر (الإرشاد ج ١ ص ٣٩٩) ، وكانت

هرمز بجمع تجارة كرمان وفرضة البحر ، وهى وبندر عباس في أيامنا تتناهبها أفظم أنواع الجو ، ولذلك لم يكن بها مساكن كثيرة ، وإنما كانت مساكن التجار متفرقة في قرى تمتد نحواً من

فرسخين (الأصطخرى ص ١٦٦) (٥) المقدسى ص ١٢٩ .

(٦) مقامات الهمداني ص ٥٧ وما بعدها من طبعة بيروت .

(٧) الصداق والصديق للتوحيد طبعة القسطنطينية ١٣٠١ هـ ص ٤٣ .

الجانبيين ، على كل جانب صف منها ، ولذلك لما أنشئت بغداد لم يجعل لسوقها مكان مخصص له ؛ ولهذا أيضاً تذكر «سويقة عبد الوهاب» التي كانت ببغداد كما يذكر الشيء الغريب الذي يستلفت النظر^(١) ، أما أسواق المدن فقد كانت — في مبدأ أمرها وعندما تسمت بهذا الاسم — أسواقاً أسبوعية تقام في أيام معينة من الأسبوع ، فمثلاً كان السوق بشرق بغداد يوم الثلاثاء ، وكان سوق القيروان يعقد في يومى الأحد والخميس^(٢) ، وكان سوق العسكر (خوزستان) يوم الجمعة ، وكان بين العسكر هذه وبين خان طوق ست مدن تسمى كل منها بيوم من أيام الأسبوع المتتالية وهو الذى يعقد فيه سوقها^(٣) ، وربما كان قوام الكثير من مثل هذه المدن عبارة عن دكا كين ثابتة لا تمتلئ وتعمر إلا في يوم السوق ، مثل سوق الأرباء في الجزائر الذى كان أول من وصفه الأمير بوكليز^(٤) ، أو مثل سوق بوعان الكبير باليمن الذى يمكن أن يمثله الإنسان لنفسه بأن يتصور صفين أو ثلاثة من الدكا كين التي تشبه الأكواخ ، يجتمع فيها العرب يوم السوق فتراهم يتساومون^(٥) وهم مستقرون .

أما في المشرق فقد استلزمت العادة جمع الدكا كين صفوفاً في مكان واحد ، كالدار التي بناها عضد الدولة بن بويه بمدينة كازرون ، وكانت مركز نسج الكتان ، وكان دخلها في كل يوم عشرة آلاف درهم^(٦) ، وقد بنى عضد الدولة نفسه أسواقاً عند مدينة جامع رام هرمز ، وكانت غاية في الحسن ، نظيفة قد بلطت وظلمات وزوَّمت وبرُبقت وجُعل عليها دروب تغلق في كل ليلة^(٧) . أما في غرب

(١) تاريخ بغداد طبعة سالمون ص ٢٨ . (٢) المقدسى ص ٢٢٥ — ٢٢٦ .

(٣) نفس المصدر ص ٤٠٥ — ٤٠٦ ، وكان على وادى درعة بمراكش سوق في كل يوم من أيام الجمعة لكثرة الناس عليه (المغرب للبكري ١٥٢) .

(٤) Pückler Semilasso in "Africa, II, 107 .

(٥) Glaser, Petermanns Mitteilungen, 1886, s. 41 .

(٦) المقدسى : ٤٣٤ . (٧) نفس المصدر : ص ٤١٣ — ٤٢٥ .

الملكة الإسلامية فلم يكن هناك فنادق إلا للتجار الغرباء ، وكانت أشبه بالأسواق الكبيرة ، وكانوا يضعون بضائعهم في أسفلها وينامون في أعلاها ، ويغلقون غرفهم بأقفال رومية ، وكان يطلق على هذه الأسواق أو المخازن اسم الفنادق (من الكلمة اليونانية pandokeion وكانت توجد خانات أو مخازن كبرى ، كدار البطيخ بالبصرة حيث كانت ترد جميع أصناف الفاكهة^(١)).

وكان رأس المال والترف مرتبطين في بلاد الإسلام ارتباطاً وثيقاً شأنهما في جميع البلاد ، وكان كبار التجار وأصحاب الصناعات هم المشتغلون بتجارة الترف والنعيم ، وينصح المقدسي بنصيحة يعرف فيها الإنسان خفة ماء بلد أو نقله فيقول : « إذا أردت أن تعرف خفة ماء بلد فإذهب إلى البزازين والعطارين فتصفح وجوههم ؛ فإن رأيت فيها الماء فاعلم أن خفته على قدر ما ترى من نضارتهم ، وإن رأيتها كوجوه الموتى ورأيتهم مطامني الرؤوس فعجل الخروج منها »^(٢) . وإذن فالمقدسي يعتبر أن أقرب التجار إلى الترف والنعيم في القرن الرابع هم البزازون والعطارون ، وكانوا بمدينة جامع رام هرمز يسكنون سوقاً جميلة غاية في الحسن بناها عضد الدولة^(٣) ، ومن أمثال القرن الثالث الهجري أن أحسن التجارة تجارة البرّ .

وأحسن صنعة صنعة المرجان^(٤) ، وكان ابن مجاهد المتوفى عام ٣٢٤ هـ — ٩٣٥ م يقول : « من قرأ لأبي عمرو ، وتمذهب للشافعي ، واتجر في البرّ ، وروى شعر ابن المعتز ، فقد كل ظرفه »^(٥) ، وكذلك بين أبو نصر الفارابي (المتوفى عام ٣٣٩ هـ —

(١) نفس المصدر ص ٤٢٥ ، وكانت هذه المباني تسمى خانات ، وفيما وراء النهر كان الواحد يسمى تيا (مقدسي ٣١) ، والدكان الواحد يسمى مخزن [الكلمة الأوروبية magasin] والمخزن الكبير يسمى خاتبار وجمعها خاتبارات ، (المنتظم ص ١٨٠ ب ، ١٨٢ أ) .

(٢) المقدسي ص ١٠١ . (٣) نفس المصدر ص ٤١٣ .

(٤) ونسب هذا القول إلى النبي عليه السلام كما نسب غيره ، (مخلف الحديث لابن

قتيبة ص ٩٠) . (٥) طبقات السبكي ج ٢ ص ٢٠٣ .

٩٥٠ م) الصناعات من أشرفها إلى أخسها : تجارة البز ، وصناعة التسيج (وكانت حتى ذلك العصر معتبرة من الصناعات الخسيسة ، وصناعة العطارين ، ثم صناعة الكناسين^(١) ، وكان أغنى تجار مصر وأجلهم حوالى عام ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م عفان بن سليمان البزاز ، فلما مات أخذ الأخشيذ من ماله نحو مائة ألف دينار^(٢) . وكانت أسواق العطارين والصيدلة وأصحاب الدهون والخزازين والجوهريين بعضها إلى جانب بعض ببغداد^(٣) .

وكانت طريقة التأجير شائعة شيوعاً كبيراً ، فكان الناس لا يستأجرون في المدن المساكن فقط ؛ بل كانوا يستأجرون الأثاث أيضاً ، ويحكى أنه كان بمصر امرأة تملك خمسة آلاف قدر من النحاس ، وكانت تؤجرها كل قدر بدرهم في الشهر^(٤) ، وكانت الماشطة تحضر إلى حفلات الزفاف ومعها أصناف الزينة^(٥) ، وكانت البسط وأنواع الفرش تستأجر في مثل هذه^(٦) المناسبات .

وكان البيع والشراء يتمان « بالمقايضة »^(٧) وذلك بحسب الشرع ، على أن من الفقهاء المحدثين من يرى أن البيع لا يكون صحيحاً إلا إذا كان مصحوباً بقول صريح على من الجانبين^(٨) ، وهذا ما رأيت به بتفصي في صحراء الشام : ففي أثناء المساومة بين الطرفين يضع أحدهما يمينه في يمين الآخر فإذا قال البائع : بعت ، وقال الشارى : اشتريت ؛ ترك كل يد صاحبه وتم البيع والشراء ، ولم ينس ابن المعتز -

(١) المدينة الفاضلة للفارابى طبعة ديتريشى ص ٩٠ .

(٢) المغرب لابن سعيد ص ١٧ . (٣) الأوراق للصولى ص ٩١ من مخطوط .

باريس . (٤) رحلة ناصر خسرو ص ٧٥ من النص الفارابى .

(٥) Quatremère, Hist. des Uamloos p 247 .

(٦) الأغاني ج ٥ ص ١١٩ . (٧) الجامع الصغير على هامش كتاب الخراج

ص ٧٨ ، ٧٩ .

(٨) Sachau, Muhammedanisches Qecht. s. 278 .

الشاعر المتوفى عام ٢٩٦ هـ — ٩٠٩ م في كلامه عن المصادرين أن يذكر كيف كانوا يعذبون حتى يبيعوا ضياعهم وأنهم كان يحلقون بيمين البيعة^(١).

على أنه في مملكة شاسعة كالمملكة الإسلامية التي كانت تضم كل درجات الحضارة. لا بد أنه كان بها جميع أنواع التجارة بعضها إلى جانب البعض في وقت واحد ، ولكن الجغرافيين في ذلك العصر خاصة لم يهتموا بهذا للأسف ، وكان الفقهاء من جهة أخرى يعالجون مسائلهم النظرية العقيمة ، حتى لا نجد بين أيدينا إلا قليلا من المعلومات المؤكدة ، فمثلا كان وراء سجالسة من أرض المغرب وبأقصى خراسان مما يلي الترك قوم يتبايعون من غير مشاهدة ولا مخاطبة ، فيتركون عند كل متاع ثمنه من أعمدة الذهب ، فإذا جاء صاحب المتاع اختار الذهب وترك المتاع ، وإن شاء أخذ متاعه وترك الذهب^(٢) . وقد استلقت نظر «زبي بتاحيا» في العراق أن المسلمين أهل لأن يوثق بهم كل الثقة ، فكان إذا جاء إلى هناك تاجروضع أمتعته في بيت رجل من الناس ورجع ، فيحملون هذه الأمتعة إلى جميع الأسواق للبيع ، فإذا دفع فيها ثمنها المقرر كان بها ؛ وإلا حملوها إلى جميع السماسرة ، فإن رأوا أنها أقل قيمة باعوها بهذا الثمن القليل ، وكل هذا مع غاية الأمانة والذمة^(٣).

وقد حرمت الشريعة الإسلامية منذ البداية التعامل بالربا أشد التحريم ، كما حرمت المضاربة في مواد الطعام ، وقد أنفق الفقهاء جزءاً كبيراً من جهودهم لسد أصفر الأبواب التي قد يلجأ إليها الناس فراراً من هذا التحريم ، ولكن اليهود والنصارى تعدوا حدود الشرع ، ففي أول القرن الرابع الهجري اقترض الوزير

(١) ديوان ابن المعتز ج ١ ص ١٣٧ . (٢) مروج الذهب للمسعودي ج ٤

ص ٩٢ — ٩٣ ، J. Marquart, Benfnsammlung, s. C L X X I. F

(٣) Petächjât aus Regensburg, J A, 1831, p. 373

من يوسف بن فنجاس وهارون بن عمران الجهميين اليهوديين عشرة آلاف دينار
بربح ثلاثين ديناراً في كل مائة^(١). وقد أُلّف حوالى عام ٨٠٠ م كتاب تشريع
للنصارى أُجيز فيه أن يتعاملوا فيما بينهم بربح يبلغ العشرين في المائة^(٢). وكان
من صور المراقبة الخاصة أن يقدم الناس للمصادرين وهم يعانون التعذيب وضروب
العسف مالاً وهم في هذا الموقف الحرج ، وكانوا يذالون في بعض الأحيان من
وراء ذلك عشرة عن الواحد^(٣). وعلى هذا فقد كانت الأمة الإسلامية في القرن
الرابع الهجرى قد بعدت كثيراً عن شريعة الإسلام ، بل يُذكر لنا أنه كان في
عصر المأمون تاجران متواخيان في شراء غلات العراق ، فأشرفا على ربح
عشرة آلاف ألف درهم ، ثم اتضع السعر فخراسنة ستة آلاف ألف درهم^(٤) ، وفيما
عذا هذا كانت الظروف الزراعية الخاصة تستلزم بعض صفقات المضاربة على
الحصاد والدرس وجنى الثمر ؛ وكان الفقهاء يترخصون في ذلك متجاهلين ، بشرط
أن يكون ذلك على ضمان المشتري^(٥). ويحكى لنا «فانسلب» أن الناس كانوا بمصر
حوالى عام ١٦٦٤ م يخالفون القوانين التى تحرم الربا مخالفة ظاهرة كما هو الحال
عندنا ، فكان المقترض يضطر إلى أخذ بضائع رديئة النوع بالسعر الباهظ .

(١) انظر : V. Kremer, Einnahmebudget, s. 343 .

(٢) Sachau, Syrische Rechtsbücher, II s. 157 .

(٣) ديوان ابن المعتز ج ١ ص ١٣٧ .

(٤) الإبرشاد لياقوش ج ٥ ص ٤٥٨ .

(٥) الجامع الصغير على هامش كتاب الجراج لأبى يوسف ص ٧٨ .

(٦) Wanslep, Beschreibung Aegyptens, s. 63 .

الفصل السابع والعشرون

الملاحة النهرية

كان الفرق بين وسائل المواصلات في المملكة الإسلامية وبينها في أوروبا أثناء العصور الوسطى هو قلة الطرق المائية في مملكة الإسلام ، فلم يجد المقدسي في جميع هذه المملكة الشاسعة إلا اثني عشر نهراً كبيراً فائضاً تجري فيها السفن وهي : دجلة والفرات والنيل وجيحون والشاش وسيحان وجيحان وبردان ومهران والرس ونهر الملك ونهر الأهواز^(١) . ولا نستطيع أن نعتبر ثلاثة الأنهار التي بآسيا الصغرى ولا النهرين اللذين بالقوقاز ولا النهر الذي على حدود الهند^(٢) من بين هذه الأنهار الاثني عشر نهراً من أنهار البلاد الإسلامية على التدقيق ، بحيث أنه فيما عدا النيل لا نجد بلاداً فيها الملاحة النهرية إلا أرض ما بين النهرين ،

(١) المقدسي ص ١٩ ، وهذا يتفق مع ما كان واقعاً بالفعل ، وإن كان الأستخري (ص ٩٩) ذكر في فارس وحدها اثني عشر نهراً كبيراً « تحمل السفن إذا أجريت فيها » ، أما نهر هيدمند بسجستان وهو ينبع من جبال هندكوش فكانت تجري فيه السفن إذا امتد الماء ، ولا تجري في غير ذلك (ابن حوقل ص ٣٠١) ويذكر سترابو Strabo, X V, 1 أن الفينيقيين كانوا يسرون سفنهم على نهر الأردن . أما في العصور الوسطى فكانت الملاحة على هذا النهر نادرة ، كما هي اليوم ، فلم يكن هناك إلا سفن صغار يسافر الناس عليها وتحمل عليها اثلاث فوق البحيرة الميتة بين زعر والدارة وأريجة وسائر أعمال الفوز (الإدرسي طبعة براندل ص ٢) .

(٢) وكان بين أهل كشمير وبين المنصورة مسيرة سبعين يوماً ، فكانوا يركبون السفن على نهر السند ، وهو يزيد في وقت زيادة الدجلة والفرات ، ويضعون جذور شجر المناد في أكياس زنة كل منها من سبعمائة إلى ثمانمائة رطل ، ويضعون الأكياس في جلود يطوونها بالقطر لكي لا ينفذ إليها الماء ، ثم يحزمون الأكياس أزواجاً ليقعدوا أو يقفوا عليها ، فيصلون المنصورة بعد سبعة وأربعين يوماً من غير أن تبطل الجذور Merv. de l' Inde, s. 104

وما اتصل بها من خوزستان ثم أقصى الشمال الشرقى لبلاد الإسلام . وفى هذه الأقاليم نجد أن الملاحة فى شمال بلاد ما بين النهرين تواجه صعوبات شديدة ، وذلك على الأقل فى النهرين الكبيرين ، وقد حدثنا رجال من أحسن مرتادى هذه البلاد « أن نهر الشاش عند مدينة فرغانة لا يستطيع أن يُقل قارباً للصيد فى بعض الأحيان »^(١) . هذا إلى أن كلا من جيحون والشاش يختلف مجراها فى مكان عنه فى آخر اختلافاً كبيراً مستمراً ، كما أن عمق الماء فيهما مختلف ، ولذلك أوقف سير البواخر النهرية الروسية على أولهما ؛ وهى مستمرة على الثانى بمشقة كبيرة ، « ولا تستطيع سفينة مهما كانت خفيفة أن تجتاز شلالاته عند مدينة كالف (فى أواسط مجراه) وقت الفيضان »^(٢) . ونظراً لزيادة هذا النهر زيادة من غير انتظام وكثرة الرمال على جانبيه لم يمكن أن يُتخذ عليه بلد ذو جانبيين كبغداد وواسط غير كالف هذه ؛ وذلك لتشجر النهر عندها وخلوه من البثق والرمل^(٣) . على أن الأصطخرى يقول إن السفن كانت تحمل على الأنهار الكبيرة وما يتشعب منها ، وليس هناك بالجملة بحيرات كبيرة تصلح للملاحة الطويلة مما يستحق الذكر ، وإن كانت بحيرة أرمية ؛ وهى أكبر البحيرات فى مملكة الإسلام تبلغ مساحتها عشرة أمثال مساحة بحيرة كنستانس ، وإن كانت البحيرة الميتة تبلغ مساحتها ضعف مساحة هذه البحيرة . وعلى هذا فقد كانت الشام وجزيرة العرب وفارس كلها عبارة عن أراضٍ واسعة جداً ليس فيها ملاحة فى الأنهار ولا فى البحيرات على هذا النحو الذى يبناه ، وهذا شأنها اليوم كما كانت فى العصور الوسطى .

V Middendorf, Mémoires de l' Académie de St. Péterbourg, VII, (١)

. Bd. 29, s. 189

. V. Schwarz, Turkestan, s. 425 (٢)

(٣) المقدسى ص ٢٩١ . (٤) الأصطخرى ص ٣٠١ وما بعدها .

أما في العراق فكانت أحوال الأنهار ملائمة للملاحة على نحو لا نظير له ، وذلك لأن مستوى نهر الفرات أعلى قليلاً من مستوى نهر دجلة ، وهذا يجعل سير السفن في الأنهار المتفرعة من الفرات إلى الشرق سهلاً يسيراً ، ولا يعصب عليها أن تعود إلى الغرب ، وقد استفيد من هذا في القرن الرابع استفادة كبرى ، وكان يجري على أنهار العراق كثير من أصناف القوارب الشديدة الاختلاف ، وقد ذكر أبو القاسم^(١) بعض هذه القوارب وزاد عليها في القرن الرابع الطيارات والحديديات التي كانت ترسو على أبواب كبار العمال مثلاً^(٢) ، وكانت صياح الملاحين إلى جانب صوت آلات رفع الماء مما تمتاز به بلاد العراق ، ويحكى عن محمد بن رائق أنه لما ولي الشام لم يذهب إليها ، واستخلف ابنه الحسن وقال : « ركوب في الطيار في دجلة ، وضياح الملاحين ، أحب إليّ من ملك الشام كله » . وكانت هذه عاطفة تعلق بالوطن ، وقد دفع حياته ثمناً لها ، وذلك أنه لم يذهب إلى الشام فبقى حتى قتل عام ٣٣٠ هـ^(٣) . وكان نهر الفرات صالحاً للملاحة من الموضع الذي فيه مدينة سميساط ، فكانت تنقل عليه التجارة بين الشام وبغداد ، أما المسافرون فكانوا لا يرضون عن السفر في الأنهار ، ويحكى عن علي بن عيسى أنه لما سافر من دمشق إلى بغداد انحدر إلى جسر منبج ، ثم سار إلى الفرات فسار فيه إلى بغداد ، وخرج الناس لتلقيه ؛ فثم منهم من لقيه بالرحبة ومنهم من استقبله بهيت ثم بالأنبار ، وكان المسافر من هنا يركب جواداً^(٤) . وهذا يدل على أن مركز الأنبار بالنسبة للسفر السريع في القرن الرابع كمركز الفلوجة اليوم ، وهذه تقع قريبة من تلك ، وكان عند الأنبار جسر من سفن كما هو الحال عند الفلوجة

(١) حكاية أبي القاسم البغدادى طبعة متر من ١٠٧ .

(٢) منكويه ج ٦ ص ٤٤٠ ، ٥٧ ، ١١١ . (٣) المغرب لابن سعيد ص ٢٩ .

(٤) كتاب الوزراء ص ٣١٠ .

في عصرنا^(١) ، والمسافة بينهما وبين بغداد اثنا عشر فرسخاً^(٢) . ومن عند الأنبار كان يخرج النهر المسمى نهر عيسى^(٣) . على أن مجرى الفرات الأعلى كان غيره اليوم ، فكان مأؤه يحيط بغدة جزائر تقع بين رحبة مالك وهيت ، وكان على هذه الجزائر عدة مدن هي الحديثة وعانة وألوسة ؛ لا الحديثة وحدها كما هو الحال اليوم^(٤) .

وكانت البضائع التي تنقل بكيات كبيرة على نهر الفرات هي خشب البناء من جبال أرمينية وزيت الزيتون من الشام ، وكان الخشب والزيت ينحدران في النهر على أخشاب تحملهما . وكان الرمان يُحمل على الفرات أيضاً في مراكب كبيرة. تسمى القراقير ، ويبلغ عرض الواحدة منها من ستة عشر ذراعاً إلى عشرين^(٥) ، وقد شبهها هيرودوت منذ العصر القديم ، وكذلك ليفيوس Livius بمرآكب البحر الأبيض المتوسط وذلك لكبرها ، وكانت أكبر شبكة من النهيرات توجد شرق البصرة حيث تفتش مياه الأنهار ، وقد أحصيت في بعض العصور فزادت على مائة وعشرين ألف نهر تجري فيها الزوارق ، وقد سمع ابن حوقل ذلك فأنكره حتى رأى تلك البقاع ، فشاهد في مقدار رمية سهم عدة من الأنهار صفاراً تجري في جميعها السميات ، فجوز أن يكون ذلك العدد الكبير موجوداً حقيقة في طول تلك البقعة وعرضها . وكان بتلك البلاد نخيل متصل نيفا وخسين فرسخاً لا يكون الإنسان بمكان إلا وهو في نهر ونخيل أو بحيث يراها حتى البحر ، وكانت هناك المجالس الحسنة والمناظر الأنيقة والقصور والبساتين

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ١٢٥ مثلاً فيما يتعلق بالقرن الرابع .

(٢) ابن خردادبة ص ٧٢ .

(٣) جغرافية أبي الفدا ص ٥٢ : يخرج من الفرات بالقرب من الأنبار عند ضيعة يقال لها القلوجة ، نهر يقال له نهر عيسى .

(٤) صروج الذهب ج ٣ ص ٤٠ . (٥) كتاب الوزراء ص ٢٥٧ .

على جوانب الأنهار ، فإذا جاء من البحر تراجع الماء في كل نهر حتى يدخل بساتينهم وجفانهم ، وإذا جزر الماء عنها خات منه البساتين والنخيل ، وبقيت أكثر الأنهار فارغة^(١).

وكانت حركة الملاحة كبيرة على نهر الدجلة أيضاً ، فكانت تنحدر بضائع أرمينية إلى بغداد مارة بالموصل ، وكانت هذه معتدلة الجو حسنة الثمار والبقول ، وكان منها ميرة بغداد^(٢) . بل كان الحجاج أيضاً يأتون من الشمال على الأنهار ، ففي عام ٣٤٨ هـ — ٩٥٩ م غرق منهم ألف نسمة ، وكانوا آتين من الموصل في بضعة عشر زورقاً كبيراً^(٣) ، وكانت بغداد نفسها شبيهة بمدينة البندقية بإيطاليا ، فيقول المقدسي : « والناس ببغداد يذهبون ويحيثون ويعبرون في السفن وترى لهم جلبية وضوضاء ، وثلاث طيب ببغداد في ذلك الشط »^(٤) . وكانت السفن التي تحمل البضائع تستطيع أن تقف عند أسواق كثيرة ، ويجد الإنسان بين لحظة وأخرى قنطرة عالية فوق الماء تصل بين الشوارع ، وقد أحصى في أوائل القرن الرابع عدد السفن التي تنقل الناس والتجارة في بغداد فكانت ثلاثين ألف ، وقدر كسب ملاحها في بكل يوم بتسعين ألف درهم . ولم تكن هذه السفن المكشوفة لا من حيث اسمها ، ولا من حيث صورتها تشبه قوارب اليوم التي تسمى القفاف ، بل كانت تلك السفن البسترييات (أي مراكب أهل سُمَيْرَة)^(٥) . ويظهر أن مقدار كسب أصحاب تلك السفن هحيح ، فإن صاحب القفة لا يقل دخله يومياً عن الريال المجيدى (أربعة دراهم أو خمسة)^(٦) . وكانت دار الخلافة

(١) ابن حوقل ص ١٥٨ .

(٢) المقدسي ص ١٣٨ . (٣) مسكويه ج ٦ ص ٢٣٤ .

(٤) المقدسي ص ١٢٤ . (٥) كتاب الديارات ص ١٧ ، ٢٦ ، وكتاب

تاريخ بغداد طبعة سلون ص ٧٣ ، وهي تسمى البسترييات المعبرانيات .

(٦) مجلة المشرق ج ٤ (عام ١٩٠١) ص ٦٩٢ .

تنفق لأرزاق الملاحين في الطيارات والسُميريات والحراقات وما إليها خمسمائة دينار في كل شهر^(١) . وكذلك كان ببغداد كثير من القوارب الخاصة ، فقد كان لكل من ذوى اليسار من أهل بغداد دابة في اصطبله ، وطيار في النهر ، وكان الكبراء وأصحاب الجاه ينتقلون في الغالب على الماء ، وفي أواخر القرن الثاني الهجري أمر الخليفة الأمين بعمل خمس حراقات في دجلة أحدها على خلقة الأسد ، والباقيات على خلقة الفيل والعقاب والحية والفرس وأتفق على عملها مالا عظيما ، وابنتى سفينة عظيمة على خلقة الدفين ، وهذه كلها للترفة والأبهة^(٢) . وكان للخليفة المستكفي عام ٣٣٣ هـ - ٩٤٤ م طيار يسمى الغزال^(٣) ، ولما مات الخليفة الراضى عام ٣٢٩ هـ - ٩٤١ م حُمل بعد غسله في طيار أنزل فيه إلى تربته بالرصافة^(٤) . وبعد أن هزم السلطان معز الدولة الديلم الذين ثاروا عليه في عام ٣٤٥ هـ - ٣٥٦ م انصرف إلى بغداد ، ثم سار في يومه إلى معسكر الخائب بباب الشامية أى أنه سار وسط المدينة ، وكان هو في زبزب ووراءه الثوار في زبازب مكشوفة ليراهم الناس ، وفي ذلك اليوم اجتمع الناس على الشطوط فدعوا للسلطان ودعوا على الثوار^(٥) . وفي عام ٣٦٤ هـ - ٩٧٤ م خرج عضد الدولة للقاء الخليفة ، وكان ذلك على نهر دجلة ، « فامتلات دجلة بالنسميريات والزبازب ، ولم يبق ببغداد أحد ، ولو أراد إنسان أن يعبر دجلة على النسميريات من واحدة إلى أخرى لأمكنه ذلك لكثرتها »^(٦) . وفي سنة ٣٧٧ هـ - ٩٨٧ م ركب الأمير شرف الدولة إلى دار الخليفة الطائع لله في الطيار ، وضربت القباب على

(١) كتاب الوزراء ص ١٩ . . . (٢) الطبرى ج ٣ ص ٩٥٢ وما بعدها ، وقد مدح أبو نواس الخليفة بقصيدة في هذه المناسبة .
(٣) مروج الذهب للمسعودى ج ٨ ص ٣٧٧ . . . (٤) كتاب العيون والحدائق مخطوط برلين ص ١٨٣ ب . . . (٥) مسكويه ج ٦ ص ٢١٨ . . .
(٦) ابن الأثير ج ٨ ص ٤٧٧ .

شاطئ دجلة. وزينت الدور التي عليها من الجانبين بأحسن زينة ، وخلعت على شرف الدولة الخلع السلطانية وتوج وطوق وسُور وعقد له لواءان وقرئ عهد استخلاف الخليفة إياه^(١) . وكان للجسور المعمولة من السفن في الجانب الشرقي من بغداد زنبريتان متحركتان يمكن رفعهما لتمكين السفن من المرور^(٢) . بل يذكر المقدسي أنه كان في طرفي الجسر بواسط موضعان تدخل فيهما السفن^(٣) . وكانت تستعمل لإخراج السفينة من الماء على نهر دجلة طريقة خاصة ، وذلك أن الملاحين كانوا وهم على ظهرها يجذبون خبلاً يجرى على بكرة مثبتة على نقطة من الشاطئ ؛ ولا يزالون يجذبون حتى يتجمع الحبل دوائر منتظمة على ظهر السفينة ، وكان الملاحون في أثناء ذلك يغنون ، وهذه هي الطريقة التي نراها على صور الأشوريين والتي كانوا يستخدمونها في جرّ الأحمال الثقيلة^(٤) . وكان بين بغداد وسامرا - عند الموضع الذي تقع فيه قرية تسمى علث - نقطة صعبة ضيقة الجواز كبيرة الحجارة شديدة الجريان تجتازها السفن بمشقة ؛ وكان هذا الموضع يسمى الأبواب ، وكانت السفينة إذا وافت إلى العاث أُرست بها فلا يتهيأ لها الجواز إلا بهاد من أهلها يكترونه فيمسك السكان ويتخلل بالسفينة تلك المواضع ؛ ولا يترك السكان حتى يتخلص منها^(٥) . ولكن كان في جنوب العراق القبة الكبرى التي ظلت الملاحة تواجهها على نهر دجلة طوال عهد العرب ، وذلك أن دجلة فيما بين واسط والبصرة كان يتشعب ثلاث شعب تنصب كلها في مستنقعات وآجام تسمى البطائح ، وكانت السفن إذا وصلت إليها ألقت ما تحمله إلى زوايق تجتاز

(١) المتظم لأبن الجوزي ص ١٢٥ .

(٢) ابن أبي أصيبعة ج ١ ص ١٧٩ ؛ وانظر : Gildmeister, N G O W' 1882,

(٣) المقدسي ص ١١٨ . s. 439

(٤) وكان الملاحون يضعون على أكتافهم ما يسمى القهايا (حكاية أبي القاسم ص ١٠٨)

ولم أجد هذه الكلمة في المعاجم . . . (٥) كتاب الديارات للشافعي ص ٣٨ ب .

هذه المنطقة ، فتجربى فى شبه أزقة من قصب ، وبين هذه الأزقة مواضع متخذة من قصب أشباه الدكاكين عليها أكواخ وفيها قوم يحرسون الزواريق فى هذه المنطقة الغريبة التى يتخلل آجامها بين حين وآخر رقعة من الماء الذى لا شجر فيه . وكان فى كل كوخ خمسة رجال ، وهى شبيهة ببيت النحل ، وليس لها شبابيك ، وفيها كان الحراس يكتنون من البق^(١) .

ورغم يقظة الحكومة فى المحافظة على الأمن فإن العراق فى أسفل بغداد لم تتمتع بالأمن قط فى أثناء القرن الرابع الهجرى ، وكان معظم اللصوص بها من الأكراد ، وقد بلغ من شر اللصوص أنهم قتلوا بحكم القائد التركى عام ٥٣٢٩هـ - ٩٤١م على عظيم سطوته ، وذلك أن قوما من الأكراد لقوه وهويتصيد فقتلوه بواسط^(٢) . وقد وصف الخوارزمى^(٣) وقوع شىء مرآت كثيرة بقوله : « وليس بأول غارة الكردى على الحاجى » ، كأن غارة الكردى شىء معروف مألوف . وقد اقتص بالذكر بين اللصوص فى أواخر القرن الرابع الهجرى ابن مردآق أحد رؤساء الأكراد ، فكان ينهب السفن رغم أنها كانت تسير قوافل تسمى الواحدة منها بالكار^(٤) .

وكان من رؤساء اللصوص المشهورين فى القرن الرابع الهجرى ابن حمدون ، وكان يقوم بالسرقة والنهب فى المنطقة الواقعة بين واسط وبغداد ، وكان ابن حمدون هذا رجلا غريب الأحوال من طراز رينالدو رينالدينى Rinaldo Rinaldini ، كانت فيه شهامة الفرسان وعطف على الفقراء ؛ حتى يقول التنوخى إنه كان فيه .

(١) ابن زسنة ص ١٨٥ . (٢) يحيى بن سعيد ص ١٨٥ .

(٣) رسائل الخوارزمى ص ٧٩ . (٤) ديوان ابن الحاج مخطوط لندن رقم .

٤٥٩١ ص ١٧٠ (٢) ؛ وانظر كتاب الفرج بعد الشدة للتنوخى ج ٢ ص ١٠٧ .

فتوة وظرف ، وكان لا يتعرض لأصحاب البضائع القليلة^(١) ، وصار بعض أحوال حياته مضرب المثل^(٢) .

وكان بالبطائح بين واسط والبصرة أمير للصوص يسمى عمران بن شاهين استفحل أمره حتى تضاعف طمعه في السلطان ، وتجبراً أصحابه على جند السلطان وصاروا يطالبون من يمر بهم من قواد السلطان وعماله بحق المرصد والخفارة ، فإن أعطاهم وإلا ضربوه ، فلما غلب على تلك النواحي سیر معز الدولة عام ٥٣٣٨ هـ — ٩٤٩ م جيشاً لمحاربته وعلى رأسه الوزير أبو جعفر السيمري فهزمه عمران ، فوجه إليه جيشاً آخر فهزمه ، فأرسل معز الدولة وزيره العظيم المهلبى ، فكانت الوقعة عليه وأسر القواد ومن معه من الوجوه فلم يجد معز الدولة إلا مصالحة هذا اللص الثائر ، فأجابه إلى كل ما طلب ، وقلده البطائح عام ٥٣٣٩ هـ — ٩٥١ م^(٣) .

وقد خرج اللصوص مبرة على جماعة من الكبراء ، وهم في طريقهم على النهر لاستقبال بعض الملوك ؛ فطلع عليهم اللصوص ورموهم بالحراقات وجعلوا يقولون : ادخلوا يا أزواج القحاب ! وكان في الجماعة الرضى والمرتضى وابن أبي السريان الوزير وبعض الأكابر ومعهم أحمد بن علي البتي كاتب الخليفة القادر بالله ، وكان صاحب نوادر فأوحت إليه هذه المناسبة نادرة مذكورة ، وذلك أنه لما سمع صياح اللصوص عليهم : يا أزواج القحاب ! قال : ما خرج هؤلاء علينا إلا بعين ؛ قالوا : ومن أين علمت ؟ قال : وإلا فمن أين علموا أنا أزواج قحاب ؟^(٤) .

(١) نفس المصدر ج ٢ ص ١٠٨ .

(٢) حمد المنسوب للثعالبي في مجلة Z D M G, VIII-s. 306 ، وهو كتاب ثمار القلوب

في المضاف والمنسوب . (الترجم)

(٣) مسكويه ج ٦ ص ١٧١ وما يليها ؛ وابن الأثير ج ٨ ص ٣٦٢ وما بعدها .

(٤) الإرشاد لياقوت ج ١ ص ٢٣٥ .

على أنه قد لحق الملاحة النهرية ضرراً كبيراً مما تقدم على أيدي اللصوص الرسميين ، ولا سيما بنى حمدان بحلب ، وهم الأمراء الذين امتازوا بالقروسية والشهامة ؛ واشتهروا إلى جانب ذلك بالجور واتباع سياسة جنونية في الخراج ، ومن أثر هذه السياسة أن مدينة بالس كانت على شط الفرات وأول مدن الشام من العراق ، وكانت مدينة عامرة بتجارتها ، فلما كان عهد سيف الدولة وهو أشهر بنى حمدان ثقل عليها الخراج حتى عفت زسومها ودرست قوافلها وتركها تجارها بعد عهد هذا الأمير . ومن مشهور أخبارها أنه لما هزم سيف الدولة بعد لقائه صاحب مصر أرسل إليها القاضي المعروف بأبي حُصَيْن وكان بها تجار معتقلون عن السفر فأرهبهم وقبض أموالهم وأخرجهم عن أحمال بزّ وأطواف زيت وغير ذلك من متاجر الشام في دفعتين بينهما أشهر قلائل حتى بلغ ما أخذ منهم ألف ألف دينار^(١) وكذلك كانت تؤخذ بالعراق ضرائب على البضائع في داخل البلاد ، فكان بين بغداد والبصرة حوالي عام ٣٠٠ هـ موضعان تأخذ الحكومة عندهما المكوس على البضائع^(٢) . وكان نهر دجلة يُغلق بالليل ، وذلك بأن تُشدّ سفينتان من جانبي دجلة وسفینتان من الجانب الآخر ثم تؤخذ قلوب على عرض دجلة وتشدّ رأسها إلى السفن لئلا تجوز المراكب بالليل^(٣) .

أما بمصر فقد كانت الملاحة النهرية على النيل كثيرة جداً في القرن الرابع الهجري حتى تعجب المقدسي وهو بمصر من كثرة المراكب السائرة والراسية هناك ، وسأله يوماً رجل هناك : « من أين أنت ؟ فقال من بيت المقدس ؛ قال بلد كبير ، أعلمك يا سيدي أعزك الله أن على هذا الساحل وما قد أطلع منه إلى البلدان والقري من المراكب ما لو ذهبت إلى بلدك لملت أهلها وآلاتها وحجارتها

(١) ابن حوقل ص ١١٩ . (٢) ابن رسته ص ١٨٤ (٣) .

(٣) نفس المصدر ص ١٨٤ — ١٨٥ .

وخشبها حتى يُقال : كان ها هنا مدينة ^(١) . وكان الجزء الذي يصلح للملاحة دون أى عائق على نهر النيل ينتهى عند انتهاء حدود مصر جنوباً ^(٢) . وكانت أسوان مجمعاً لتجارة السودان ، ولم يكن الذين يحملون التجارة إلى بلاد النوبة مصريون يذهبون إلى هناك ، فالأتجار في الخارج لم يكن من خصائص المصريين إلا في النوبة ^(٣) ؛ بل كان تجار النوبة هم الذين يأتون في النيل حتى الجنادل ، وعندها تقف مراكبهم ومراكب السودان ، ويتحول من فيها بتجاراتهم إلى ظهور الجمال حتى يصلوا إلى أسوان بعد اثنتي عشرة مرحلة إلى جانب النيل ^(٤) ، وكان الإقليم الواقع جنوب الشلال الثاني موصداً أمام جميع الأجانب ؛ وهو إجراء يرجع إلى العصر المصري القديم .

(١) المقدسي ص ١٩٨ . (٢) مروج الذهب للمسعودي ج ٣ ص ٤١ ، وانظر حكاية عبد الله بن سليم في آخر القرن الرابع الهجري عند المقرئى ، وراجع : Marquart, Die Beninssammlung, CCXLIX . (٣) لطائف المعارف ص ١٠١ . (٤) الإدريسي طبعة دوزي ص ٢٠ — ٢١ .

الفصل الثامن والعشرون

المواصلات البرية

لم يعمل العرب أيام سيادتهم على تقدم نظام الطرق البرية في بلاد الشرق ، لأن العرب أمة ركوب لا تميل إلى تمهيد طرق الجيوش ولا إلى اتخاذ المركبات ، بل لقد بلغ من قلة إلفهم للمركبات أنهم لما أخذوا الشطرنج عن الهنود لم تعجبهم صورة العربة (رائثا) ، فاستبدلوا بها صورة الرّخ^(١) . وكان التتر أول من اتخذ المركبات بشمال فارس^(٢) . على أن فرق المشاة الرومانية كانت قد مهدت بعض الطرق في جزء صغير من بلاد العرب ، ولكن لم يَبْقَ من آثارها إلا ألفاظ قليلة مأخوذة من اللاتينية مثل كلمة صراط ، ومعناها الطريق عند أهل الدين ، وكلمة أيتار التي تستعمل نادراً بمعنى الطريق وهي مأخوذة من اللاتينية iter^(٣) ، هذا إلى جانب علامات الطرق المسماة بالأميال . أما الأيتار المَلَيْكى (الطريق السلطاني) فقد أخذ العرب طريقة إنشائه عن الفرس كما أخذوا عنهم هذه التسمية^(٤) . ولعل طرق ذلك العهد ، شأنها شأن طرق اليوم ، لم تكن إلا شبكة من المسالك المطروقة

(١) يلاحظ الأستاذ مرجليوث في الترجمة الإنجليزية لهذا الكتاب ، أن هذه الفكرة غير سديدة من وجوه ، أولها أن كلمة رخ ليست عربية ، بل فارسية ، وثانيها أن ثم دلائل على أن كلمة رخ كانت تستعمل بمعنى العربة في العربية والفارسية (انظر : H. J. R. Murray. A history of Chess, Oxford 1913, p, 160 . Marco Polo, I, p. 48 (٢) .

(٣) يرى مرجليوث أن التشابه بين لفظي أيتار و iter أشبه بالمصادفة .

(٤) : يقول الهمداني في كتابه صفة جزيرة العرب ص ١٨٣ ، إن الطريق الذي يكثر الاختلاف عليه يسمى المحجة ، وإن الطريق المدروس يسمى الأيتار المَلَيْكى ، ولا يقوله العرب إلا مصغراً ، والقياس مَلَيْكى ، وحيال الطريق أيتاره .

لا يربطها نظام . ولا نسمع عن عناية العرب بتعهد الطرق إلا قليلا ، فمن ذلك ما حكاه ناصر خسرو من أنه كان بمصر جسر من التراب بحذاء النيل من أول الولاية إلى آخرها ، وأن السلطان كان يرسل في كل سنة عشرة آلاف دينار إلى عامل مُعتمد ليجدد عمارته^(١) ، وكذلك مُهدّ التّيه ، « وهو أرض بالقرب من أيلة لا يكاد الراكب يصعدُها لصعوبتها » ، وذلك في زمان خسرويه بن أحمد بن طولون^(٢) . وكانت لخارويه عناية بالطرق في الجملة . وفي أواخر القرن الرابع الهجري أنشأ سبكتكين في جنوبي أفغانستان الطرق التي سلكها فيما بعد ابنه العظيم السلطان محمود لما غزا الهند^(٣) .

وكذلك أنشأ جنكيزخان كثيراً من الطرق الواسعة في بلاد الجبل بآسيا الوسطى ، فشابه في ذلك نابليون ، كما شابهه في أشياء أخرى . وكان أحد هذه الطرق يخترق مضائق جبال تيان شان جنوبي بحيرة صيرم ، وقد أقيم فيه أبربعون قنطرة من الخشب تتسع كل منها لعربتين تسيران متحاذيتين^(٤) . ولكن العناية كانت في غالب الأحيان تقتصر على حراسة الطرق وتأمينها وإنشاء أماكن يستريح فيها المسافرين ، أو تيسير الماء فيها لهم على الأقل ، فمثلا كان على الطريق القصير الذي يخترق صحراء شرق فارس بين كل فرسخين أو ثلاثة قباب وخزانات يتجمع فيها ماء المطر^(٥) ؛ ورأى ناصر خسرو على مقربة من بحيرة وان بأرمينية طريقاً على امتداده مُعدّ مقامه على الأرض ليسير المسافرون أيام المطر والضباب بهديها^(٦) . وذكر البكري شيئاً يشبه ذلك في الطريق الذي بين نغراوة

(١) رحلة ناصر خسرو ص ٥٥ من النص الفارسي .
 (٢) المخطوط للمقريزي ج ١ ص ٢١٣ . (٣) كتاب الهند لليروني ترجمة سخاو
 ج ١ ص ٢٢ . (٤) رحلة تشانج تشون Tschang Tschun عام ١٢٢١ م وانظر :
 Bretschneider, Mediaeval Researches, I, 69 . (٥) رحلة ناصر خسرو
 ص ٢٥٦ . (٦) رحلة ناصر خسرو ص ٩ من الأصل الفارسي .

وقسطنطينية ، فقد أقيمت بينهما خُشب يهتدى المسافرون بها لكيلا يضلوا في الأرض السوّاخة التي بين هذين البلدين^(١) . وكانت هذه الأماكن التي تُبنى في الطرق الصحراوية رباطات للزهاد ، وكانت كثيرة بنوع خاص في بلاد ما وراء النهر لما عرف عن أهلها من الورع والزهد ، ويذكر الأصبخري أنه كان بهذه البلاد ما يزيد على عشرة آلاف رباط « في كثير منها إذا نزل النازل أقيم علف دابته وطعام نفسه إن احتاج إلى ذلك »^(٢) . وكان شرق المملكة الإسلامية أكرم من غربها بالجملة ، فيحدثنا ابن حوقل مثلاً أنه كان من آل الرزبان رجل مشهور بالكرم أقام رباطات ووقف على مصالحها بقرأ سائمة ، وجعل عليها قوامين يجلبونها ويأخذون ألبانها ويقصدون بها المجتازين عليهم ومعهم الأطعمة منها ومن غيرها ، وما من رباط إلا وفيه المائة بقرة وما فوق ذلك لهذا الوجه^(٣) . وكان أهل القرى بفارس يختارون من بين أنفسهم رجلاً مهمته توزيع الضيوف على أهل القرية وكانوا يسمونه الجزيز^(٤) . وكذلك كانت توضع حباب الماء في الشوارع والطرق بخوزستان على مراحل في الطريق ، وربما حمل إليها الباء من بعيد^(٥) . وفي البلاد التي كانت نصرانية من قبل كانت الأديرة تقدم ضيافة واسعة للمجتازين ، وكان كبار المسافرين ينزلون بها عادة طلباً للراحة ، فكان بدير يوحنا على مقربة من تكريت على نهر الفرات ودير باعربا إلى الشمال من ذلك أما كن خاضة لتضييف المسافرين^(٦) . أما فنادق المدن فلم نسمع عنها

(١) المغرب للبكري ص ٤٨ ، ويوجد في أيامنا على الطريق المار وسط صحراء الملح بين يزد وطبرستان خمس أهرامات من الحجارة أقامها البرسيون من أهل يزد ، انظر : S. Hedin. Zu Land nach Indien II, 36 ، وفي هذه النواحي تقام أعمدة من الحجارة عند ملتقيات الطرق الهامة — نفس المصدر .

(٢) الأصبخري ص ٢٩٠ . (٣) ابن حوقل ص ٢٠٨ .

(٤) كتاب الفهرست ص ٣٤٣ . (٥) المقدسي ص ٤١٦ .

(٦) كتاب الديارات للشابثي ص ٩٥ ، ب ١١٣ ، وانظر Streck, Landschaft

Balylonien, 179 ومعجم البلدان لياقوت ج ٢ ص ٦٤٥ .

إلا ببلاد فارس ، فكان في نيسابور مثلاً شبستان (أى دار لليل) ومثله بشيراز .
أما مصر فلم تعرف بها الخوانق ، والربط لم تعهد بالديار المصرية قبل الدولة
الأيوبية^(١) ، وكان في بلاد المغرب في صحاريها ونواحيها الموحشة رباطات كثيرة
يأوى إليها الناس ، وكان عليها أوقاف كثيرة بإفريقية ، والصدقات تأتيها من
جميع البلاد^(٢) .

وكان على نهر دجلة في أيام الساسانيين قناطر ثابتة ، فيحدثنا ابن حوقل في
القرن الرابع الهجرى أنه رأى آثار قنطرة من الآجر قرب تكريت^(٣) . ولا تزال
بقايا قنطرة جميلة من هذا الطراز باقية بالجزيرة إلى اليوم^(٤) . فلما جاء القرن الرابع
الهجرى كانت هذه القناطر كلها قد أصبحت أطلالاً ، واستبدل بها جسور من
السفن بعض أجزائها متحرك كما هو الحال في بغداد وواسط ، ولم يكن هذا
الطراز شائعاً ، بل لم يكن معروفاً في شمال فارس . ففي عام ٤٠٨ هـ . ذهب
يمين الدولة لينجد قدرخان على أرسلان خان ، فعقد على نهر جيحون جسراً من
السفن وضبطه بالسلاسل وعبر عليه ، ويقول ابن الأثير إن ذلك لم يكن يعرف
هناك قبل ذلك التاريخ^(٥) . وذكر الرحالة الصينى تشان تشونج - Tschang-
Tschun أنه وجد جسراً مثل هذا على نهر الشاش بعد ذلك التاريخ بنحو مائتى
عام (عام ١٢٢١ م)^(٦) . وكان على قناة عيسى عند خروجها من الفرات قنطرة
تسمى قنطرة ديمًا ، لها خمسة أبواب ، واحد كبير وأربعة صغار ، وفي أواخر القرن
الثالث الهجرى جعل عرض الباب الأكبر اثنين وعشرين ذراعاً ، وعرض الأبواب

(١) ترجمة فستفد لمصبح الأعشى ص ٨٢ (صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٦٨) .

(٢) ابن حوقل ص ٤٩ ، (٣) نفس المصدر ص ١٦٨ .

(٤) صورتها موجودة في كتاب Hugo Orotte, Geographische. Charakterbilder

aus der asiatischen Türkei (٥) ابن الأثير ج ٩ ص ٢١٠ .

(٦) Bretschneider, Med. Res, 1, 75 .

الصغيرة ثمانية أذرع ، وذلك بعد الاستيثاق من أن أكبر السفن تستطيع أن تمر منها^(١) . وكان بخوزستان شرقي مدينة سوسة القديمة قنطرة ديزقول ، وطولها ثلاثمائة وعشرون خطوة ، وعرضها خمس عشرة ، وكانت تقوم على اثنتين وسبعين أسطوانة ، ويسمى ابن سراييون قنطرة الروم^(٢) . وكان بالأهواز قنطرة هندوان ، وهي من الآجر ، وعليها مسجد يشرف على النهر^(٣) . وكان بالقسم الأعلى من نهر قارون قنطرة إيذج التي يقول ياقوت إنها من عجائب الدنيا المذكورة ، لأنها مبنية بالصخر على واد يابس بعيد القعر ، وكانت تقوم على دعائم ، ارتفاع كل منها مائة وخمسون ذراعا ، تشدها قضبان من الحديد ، وقد أنفق على إصلاحها في آخر القرن الرابع مائة وخمسون ألف دينار^(٤) . أما أعجب قنطرة في البلاد الإسلامية كلها فقد كانت مبنية على الطريقة الأوروبية ، وهي قنطرة سنجة التي بناها الإمبراطور فيسبازيان على نهر سنجة أحد أفرع دجلة على مقربة من سميساط ، وكانت تعد من عجائب الدنيا ، وكانت « كبيرة شاهقة متصلة بالجبل على حجر مخوخ إذا زاد عليها الماء اهتزت » ، وكانت عقدا واحدا ، كل حجر من أحجاره عشرة أذرع في خمسة^(٥) . أما أعظم الجسور الخشبية فربما كانت القنطرة التي على نهر طاب بين خوزستان وفارس ، فقد كانت « معلقة بين السماء والماء ، وبينها وبين الماء عشرة أذرع »^(٦) . وقد انفرد المطهر المقدسي ، أحد علماء القرن الرابع الهجري ، بذكر

(١) كتاب الوزراء ص ٢٥٧ .

(٢) Le Strange, p. 239 . (٣) المقدسي ص ٤١١ .

(٤) معجم البلدان ج ١ ص ٤١٦ . (٥) عمد النسوب للثعالي VIII ZDMG, .

f. 524 ، والأصيطخري ص ٦٢ ، والتنبية للسعودي ص ٦٤ ، ١٤٤ ، والمقدسي ص ١٤٧ .

و Le Strange, The lands of the eastern Caliphate, p. 124 ، وقد لاحظ بعض رحالة

الرومان أهمية هذه القنطرة ، فيشار إليها في كتاب Tob. Peüt عبارة : نحو قنطرة سنجة

pontem Singe وانظر : Miller, Itin. Romana p. 756 .

(٦) ابن حوقل ص ١٧٠ .

قنطرة خُتِنَ التي كانت معقودة على رأس جبل فيما وراء النهر، وهو يقول إن أهل الصين عقدوها في الدهر القديم^(١).

وكان توجد معابر على الأنهار كالتى كانت عند الخابور فيما بين النهرين ، حيث يشد الملاح وهو على ظهر المركب حبلا مثبتا على الشاطئ الآخر حتى يصل إليه ، غير أنى لا أعرف إلى أى تاريخ ترجع هذه الطريقة ، وهى مستعملة إلى اليوم فى حوض نهر التاريم^(٢).

أما البريد فهو اختراع قديم جدا ، ولكن الفضل فى تقدمه يرجع إلى ما قام به ذارا الأول من ربط أجزاء الإمبراطورية الفارسية فى الشرق الأدنى^(٣) . ونجد أن أكثر مصطلحات البريد التى كانت مستعملة أيام الخلفاء فارسية الأصل ومنها الفُرَانِق^(٤) ، والفَيْج^(٥) ، والشاكرى^(٦) بمعنى راكب البريد ، والأسكدار وهو السجل الذى يُدوّن فيه عدد حقائب البريد والخطابات ، ويثبت فيه كذلك ساعات الوصول إلى سكك البريد والخروج منها . ويظهر أن البريد اخترع فى وقت معيّن ، إذ نلاحظ أن دواب البريد عند الروم والمسامين والصينيين جميعا كانت علامتها تحذيف أذنانها ، غير أن الروم كانوا يستعملون الخيل فى حمل البريد^(٧) ، وكذلك كان الحال عند ملوك العرب فى الجاهلية^(٨) ، وكان ملوك الصينيين وملوك

(١) كتاب البدء والتاريخ ، ج ٤ ص ٩٢ .

(٢) Sven Hedin, Durch Aeiens Wrsten, II, 152.

(٣) وتورد الروايات العربية ذلك ، انظر الخطط للمقرئى ج ٢ ص ٢٢٩ (٤) .

(٤) وقد استعمل هذا اللفظ من قبل امرؤ القيس فى شعره ، انظر Ahlwardt, Siex

(٥) ومعناها الساعى على قدميه ، ونلاحظ أثر كلمة ped Diwans, p 130, Vs. 27 .

الرومية فى هذه التسمية ، ولهذا اللفظ صبغة هندية هى كلمة باتك ، انظر عجائب الهند ص ١٠٦

(٦) معناه الصياد ، وقد استعمل الخوارزمى فى القرن الرابع هذا اللفظ فى رسائله

(٧) ابن خرداذبة ص ١١٢ .

(٨) الكامل للمبرد طبعة مصر ١٣٠٨ هـ ج ١ ص ٢٨٦ .

الإسلام^(١) يستعملون البغال في بُرْدَم^(٢)، وكان الخلفاء يقيسون المسافات بالأميال
غربي الفرات، أما في شرقيه فبالفراسخ^(٣)، ولم يكن عند العرب ما يسمون به
علامات المسافات إلا كلمة ميل المأخوذة من الرومية، فقد استعملت هذه الكلمة
في بلاد لم تدخل في حكم الرومان قط^(٤). ويظهر أن الفرس لم يستعملوا ذلك
في بُرْدَم^(٥). أما في شطرى الدولة الإسلامية فكانت توجد محطات للبريد تسمى
السكك؛ وهي مزودة بالخيول والراكبين على مسافات معينة، كل ثلاثة أميال
أو فرسخين^(٦)، وربما كان راكب البريد يركب الطريق كله، ويدل على ذلك
ما حكاه الصولي عن رجل يعرف بالخلنجي كان يحمل الخريطة من مكة إلى بغداد
ويسبق بأخبار الحج^(٧)، أي أنه كان يقطع المسافة كلها. وكان بين المغرب

(١) يلاحظ الأستاذ مرجوليوث في الترجمة الإنجليزية لهذا الكتاب، أن هذا يظهر
أنه غير محقق، فإن هذه الحيوانات تسمى فيما بين أيدينا من أوامر محفوظة على أوراق البردي
بالدواب، ومعناها الخيل عادة، وعندما تكلم صاحب الفخرى عن البريد ذكر الخيل خاصة.
(٢) سلسلة التواريخ ص ١١٣، وتحذيف أذتاب الدواب لتعليمها مذكور في الجاهلية
(انظر Ahlwardt, Six Diwans, b. 1838, Vs. 28). وذكر حمزة الأصفهاني (تاريخ سني
ملوك الأرض ج ١ ص ٣٩ طبعة Gottwaldt أن كلمة بريد مشتقة من لفظ بريدة ذئب الفارسية؛
عربت وحذف نصفها الآخر، وانظر كتاب تاريخ ملوك الفرس للثعالبي طبعة زوتبرج ص ٣٩٨.
(٣) الفرسخ ثلاثة أميال — ابن خرداذبة ص ٨٣، والمقدسي ص ٦٦، وكتاب
البدء والتاريخ للمطهر المقدسي ج ٤ ص ٩٠.

(٤) مثال ذلك فيما يتعلق بجزيرة العرب ما جاء في كتاب الخراج لقدامة ص ١٩٠، وفيما
يختص بالشرق، انظر ابن رسته ص ١٦٨.
(٥) ودان في الهند من أقدم العصور أعمدة مقامة كل عشر مراحل لتعليم الطريق
والمسافات انظر Strabo, XV, I.

(٦) مفاتيح العلوم للخوارزمي ص ٦٣، والمقدسي ص ٦٦، ويقول المقدسي إن في
البريد خلافاً، فهو بالبادية والعراق اثنا عشر ميلاً، وفي الشام وخراسان ستة، وهذا خلاف
ما أورده قدامة فيما يختص بالعراق، ويغلب على الظن أن إطالة المسافة بين الأميال حدثت في
زمن متأخر عندما تمحو العراق إلى صحراء، وقد قدر ابن خرداذبة سلك البريد في المملكة
الإسلامية كلها بتسعمائة وثلاثين سكة (ابن خرداذبة ص ١٥٣).

(٧) الأوراق للصولي، مخطوط باريس ص ١٣٦.

والشرق شبه تبادل دولي في البريد ، فكان بريد الترك يصل إلى يوشجان الأعلى ، وهو حد الصين^(١) ، وكان بريد آسيا الصغرى يواصل الرحلة إلى القسطنطينية^(٢) وكان لهذا البريد سكة كل ثلاثة أميال .

وكانت أهم طرق البريد هي :

- (١) من بغداد إلى الموصل ، ومدينة بلد^(٣) بحذاء دجلة ، ثم يمتد ما بين النهرين إلى سنجار ونصيبين ورأس عين والرقّة ومنبج وحلب وحماة وحمص وبعليبك ودمشق وطبرية والرّملة وغفار والقاهرة والإسكندرية ومن ثم إلى قيرين^(٤) .
- (٢) من بغداد إلى الشام مع الضفة الغربية للفرات^(٥) مارا بالأنبار ، وكان يعبر إلى الضفة الغربية للفرات عند هيت ، وكانت حركة المرور في هذا الطريق عظيمة ؛ ففي عام ٣٠٦ هـ — ٩١٨ م كان ارتفاع خراج المرور عند هيت ثمانين ومائتين وخمسين ديناراً^(٦) .

وكان بين دمشق وبين مدينة دير طريق له شأن عظيم في الزمن القديم ، إذ كانت تقوم على طوله أماكن للحراسة ، ولا يزال مطروقا إلى اليوم على قلّة ؛ إلا أن أصحاب كتب المسالك لم يتكلموا عنه ، ولم يشر إليه المقدسي مع أنه وصف مسالك صحراء الشام وصفا دقيقا مسهبا . ولم يكن يوجد في ذلك الزمان بريد الجمال بين بغداد ودمشق ، وهو البريد الذي يجري بانتظام في أيامنا . وكان هذا البريد في ذلك الزمان يمر بهيت ودمشق باعتبار أن هذا أقصر طريق بين بغداد والشام . وكان بعض المسافرين يجتازونه بين حين وآخر على ظهور الدواب ، وكان عامل

(١) ابن خرداذبة ص ٢٩ . (٢) ابن حوقل ص ١٣٠ .

(٣) أما الطريق الكبير الذي يسير من المدائن إلى حران مارا بمترا ، والمبين في خريطة

Teubinger ، فكان قد هجر منذ زمن بعيد . (٤) الخراج لفدامة ص ٢٢٧ وما يليها .

(٥) كان الطريق قديماً يسير بحذاء الشاطئ الشرقي للفرات ، انظر الخريطة التي عملها

Teubinger . (٦) V. Kremer, Einnahmebudget, 307

هيت عند ذلك يبعث مع المسافرين خفارة من البدو^(١) .

(٣) أما الطريق الرئيسى إلى المشرق فكان يسير خلف بغداد ، ويعبر قنطرة النهران ، ثم يسير وراء حلوان ، فى جبال وصعود وهبوط ، فيما كان يعرف قديماً بميديا ، ثم يرتقى عقبة مشهورة فيها قوم يبيعون التمر والجبن ، ويواصل الصعود وراء أسد أباد حتى يبلغ هذان^(٢) ، وهذا الطريق مبين على الخرائط القديمة ، وهو بلا شك الطريق الذى كانت تسلكه ملوك فارس عند انتقالها من مشتاهها فى العراق إلى مصطافها فى اكباتانا المرتفعة ، ثم يستمر الطريق إلى الرى (على مقربة من طهران الحالية) ونيسابور وسمرو ونبخزى وسمرقند ، وكان الطريق يسير بعد سمرقند إلى الصين ، إذ نجد المقدسى يذكر أنه كان بهذه المدينة باب يسمى باب الصين^(٣) . أما مجاوزة هذا الإقليم الواقع بين الترك والصين فكانت تتوقف على ما يكون فيه الأمن ؛ لأنه كان دائماً معدن الخوف ، ففى طوال عصر صدر الإسلام — بل فى أثناء القرن الرابع من الهجرة — كان الناس لا يميلون إلى اتخاذ أقصر الطرق التى تخترق هذا الإقليم ، وهو الطريق الذى يجتاز فرغانة وحوض التاريم ، وكان أهل الصين يؤثرونه فى القرن الثامن الميلادى^(٤) ، وسار معه فيما بعد الرحالة الكبير ماركو بولو ، فلا نجد له ذكراً عند المؤلفين . على أن المسافرين من أوزبكند فى فرغانة العليا لم يكونوا يجتازون ممرات علانيا ، بل كانوا يسرون فى ممر أطباس بين قرى متصلة متقاربة ، سالكين طريقاً صعباً « إذا وقعت الثلوج لم يُسلك مسيرة يوم » ، ومن ثم يواصلون السير إلى

(١) الفرج بعد الشدة للتونجى ج ٢ ص ٧٦ ، وكان آخرون يأخذون طريقاً آخر يتفرع من هذا عند نقطة أعلى على مجرى النرات ، ثم يدورون حول الرصافة ، ويسرون إلى دمشق ، وفى عام ٤٤٠ هـ — ١٠٤٨ م فعل هذا ابن بطلان ليصل إلى حلب (أخبار الحكماء للقفطى ص ٢٩٥) ، وكان يخفى فيه من نهاية البدو ، انظر الفرج بعد الشدة ج ٢ ص ١٠٩ .

(٢) ابن رسته ص ١٦٧ . (٣) المقدسى ص ٢٧٨ .

(٤) Richthofen, China, I, 456

برشان الواقعة إلى الجنوب الغربي من بحيرة يسك^(١) ؛ وهنا يتصل هذا الطريق بالطريق الواصل من سمرقند إلى الصين ، وهو الذي كان يسير إلى برشان على قنطرة كبيرة فوق نهر الشاش مارا بالشاش وطراز (أولى عطا) وبركي (مركا)^(٢) ، وبقية هذا الطريق يعينها لنا الجردوزي في كتابه زين الأخبار (الذي ألفه حوالي عام ١٥٥٠ م) فيقول إن الناس كانوا يسرون من بتشول إلى كوشا في حوض نهر التاريم ؛ ثم ينحرفون شرقاً حتى يصلوا إلى شينان شكت على حدود الصين^(٣) .

وقد سلك هذا الطريق حوالي عام ٦٣٠ م الرحالة الصيني سوين تسانج Hsuen Tsang وذلك بأن سار من كوشا مارا ببلوكيا (ولعلها التي ذكرت في كتاب الجردوزي باسم بشول ، وربما كانت مدينة أكسو الحالية) إلى بحيرة

(١) ضبط أسم هذا المكان وموقعه بعد نشر كتاب الجردوزي (طبعة بارتولد ص ٨٩ وما بعدها) ، وربما كان قول قدامة (ص ٢٠٨ من كتاب الخراج) إن أطباش مدينة على عقبة مرتفعة بين التبت وفرغانة ويوشجان ، هي الحجة التي استند إليها دي غوي في قوله إن يوشجان هي الإقليم الذي يقع حول ختن De Goeje, De Muur van Gog en Magog, 1888, 114 ؛ ولكن العبارة لا تستقيم مع هذا ، لأن من الواضح أن الطريق إلى سمر أوش نحو أوزكند يتجه إلى الشمال ، وتتجلى حقيقة الأمر إذا عرفنا أن حوض التاريم كان يعد إذ ذاك داخلاً في إقليم التبت على ما حكاه أبو دلف (معجم ياقوت ج ٣ ص ٤٤٧) ، وقد ذكر المطهر المقدسي (ج ٤ من كتاب البدء والتاريخ) أن ختن هي قصبة التبت ، وهذا يطابق ما ورد في النصوص الصينية ، ففي القرن الثامن الميلادي كانت البلاد الواقعة بين جبال التين وتتان شان تؤدي الجزية إلى التبت J. A., 1900, XV, 34 ، وظلت التبت محتفظة بها معظم القرن التاسع ثم السلخت عنها ودخلت في حوزة الأتراك الأويراتية والخرلوكية JRAS, 1898, s. 814 . وفي قول ابن خرداذبة (ص ٣٠) إن أطباش مدينة على عقبة مرتفعة بين التبت وفرغانة دليل على أن شرقي التركستان كان للتبت ، ونجد الإدريسي (ترجمة جويهر ج ١ ص ٤٩) في منتصف القرن السادس الهجري يسمي ختن قصبة التبت ، وأخيراً فإن مما يبطل رأي دي غوي متأجاء في كتاب أبي الفدا (طبعة ريتو ص ٥٠٥) نقلاً عن البيروني والجرودوزي والسعاني (المتوفى عام ٥٦٢ هـ — ١١٦٢ م) من تسمية ختن باسمها الحالي .

(٢) ابن خرداذبة ص ٢٨ وما يليها ، وكتاب الخراج ص ٢٠٤ وما بعدها ،

والمقدسي ص ٣٤١ . (٣) الجردوزي ص ٩١ .

يساك^(١) . بل نجد في عصرنا هذا أن الطريق الرئيسي الذي يصل أواسط حوض التاريم بطشقند يمر بأكسو وممر بيدل وقرقول وبشجك وأولى عطا^(٢) . ومن أسف أننا لا نعرف الطريق الذي سلكه سلاّم في القرن الثالث الهجري لما بعثه الخليفة في كشف سد يأجوج ومأجوج ، ولا الطريق الذي سلكه أبو دلف في القرن الرابع حينما ذهب مع الوفد الذي أرسل إلى الصين أيام المخاطبات بين السامانيين وملك الصين^(٣) ، على أن المسعودي يقول إنه لقي كثيرين ممن رحلوا إلى الصين وعرف منهم أن الطريق من خراسان إلى بلاد الصين يمر ببلاد الصغد ، وأنه يمرّ بالجبال التي يؤخذ منها النشادر ، ويؤخذ من هذا أن طريق الصين كان في القرن الرابع هو الطريق الذي وصفه سوين تسانج والجردوزي ، لأن في الروايات الصينية ما يدل على أن هذه الجبال داخلة ضمن سلاسل تيان شان شمالى كوشا^(٤) . ولم يوصف هذا الطريق إلا بعد ذلك بمائتي عام ، وكان الإدريسي أول جغرافي عربي وصف الطريق الذي يسير من فرغانة إلى حوض التاريم مارا بهضبة البامير ، وذلك حوالي عام ١١٥٥ هـ ٥٥٠ م^(٥) ، وربما كان لهذا علاقة بما حدث في ختام القرن الرابع الهجري من فتح أمراء البغرا لغربي بلاد ما وراء النهر ونقلهم قصبتهن إلى كاشغر في تركستان الشرقية مما أدى إلى عودة الطريق إلى ناحية ممرات البامير .

وينحرف طريق البريد عند مروره مارا بوسط إقليم خراسان ، ولا يقصد رأساً إلى بلخ بل يدور دورة عظيمة قدرها ثلاثمائة كيلو متر حول نهر مرو حتى

(١) Riehthofen, China, I, 540 . (٢) S. Hedin, durch Asiens .
 (٣) De Goeje, De Mwir..., وانظر : Marquart, Wüsten, I s. 466 .
 (٤) Osteuropäische Streifzüge, s. 74 ff. Riehthofen, China, I, 560 .
 وذكر ذلك أيضاً الرحالة الصيني وانج بن تي ، الذي سافر بين عامي ٨٨١ ، ٨٨٣ م انظر :
 JA' 1847, Vol I, 63 .
 (٥) Riehthofen, China, I, 562 .

يصل إلى مرو الروذ ، وهذا يطابق تماماً ما كان عليه الحال في الوقت الذي عملت فيه خريطة بوتنجر Peutenger وعلى فرسخ من هذا الموضع تبدأ سلسلة الجبال التي يجتازها الطريق ماراً بمنخنتق فيها حتى يصل إلى طالقان ، وبعد بلخ يعبر نهر جيحون على مقربة من ترمذ ، ثم يفضى إلى فرغانة عند الراشت^(١) .

أما الطريق الذي يقطع إيران عرضاً من شيراز إلى نيسابور ماراً بيزد فقد لاحظته ابن خرداذبة وأشار إليه في كتابه (ص ٥٠) ؛ ولكننا لا نجد له ذكراً عند ابن رسته ولا عند قدامة ؛ وربما كان سبب ذلك القلاقل التي كانت تسود شرقي فارس ، والتي زادت شر الصوص في الصحراء الواقعة بين يزد وطبس .

وكان عضد الدولة المتوفى عام ٣٧٢ هـ — ٩٨٢ م ، أول من أقر الأمن في هذه الربوع ، ودرج حكام فارس من بعده على أخذ رهائن من هؤلاء الصوص واستبدال غيرها بينها بين الحين والحين ، لتستطيع القوافل المسافرة في حراسة الحكومة اجتياز هذا الإقليم آمنة ، وحوالى منتصف القرن الرابع الهجرى ابنتى عضد الدولة مخفراً معه خزان للماء العذب ، وقد وصفه المقدسى بقوله : « ورباط آب شتران هو معدن الخوف ومأوى الكوج ، به قناة عذيبية تصب إلى بركة ، والرباط حسن ، ما رأيت أحسن منه ببلدان الأعاجم ، من الحجارة والجص على عمل حصون الشام ، وعليه أبواب حديد ، وهو شديد العماره ، وفيه قوم يحفظونه ، بناء ابن سيمجور صاحب جيش ملك المشرق »^(٢) . ولكن إنشاء هذا المخفر لم يؤمن الطريق ، فالمقدسى نفسه أراد أن يسير من طبس إلى يزد فقطع هذه المسافة

(١) كتاب البلدان لليعقوبى ص ٢٨٧ ، وكتاب الخراج لقدامة ص ٢٠٩ وما يليها .

(٢) المقدسى ص ٤٩٣ ؛ وفي عام ١٨٨١ م ، ١٨٩٢ م أقام بعض أهل يزد بناء نفخا

لا . افريقين عند ملتقى الطريقين من طهران إلى طبس ومن يزد إلى طبس . انظر Sven hedin

Zu hand nach Indien, ١٢, 37. ff

في سبعين يوماً ، مع أن طولها لا يزيد على ثمانية وستين فرسخاً بتقدير ابن خردادبة ، وذلك لأن قافلته ضلت سبيلها ، ولأن الطريق كان — على قوله — مخوفاً من قوم « يقال لهم القفص ، يسرون إليه من جبال كرمان ، قوم لا خلاق لهم ، وجوه وحشة ، وقلوب قاسية ، وبأس وجلادة ، لا يبقون على أحد ، ولا يقنعون بالمال حتى يقتلوا من ظفروا به بالأحجار كما تُقتل الحيات ، تراهم يمسكون رأس الرجل على بلاطة ويضربونه بالحجارة حتى يتصدع »^(١) .

أما طريق الحج من بغداد فكان يعبر الفرات عند الكوفة ، ويفضى إلى الصحراء عند العذيب^(٢) ، وعلى الزغم من بعد مكة الشاسع فقد كان الناس يقدون إليها في موسم الحج من جميع أنحاء الدولة الإسلامية ، ولم تكن فريضة الحج وحدها هي التي تجذب هذه الجماعات ؛ بل كان يغريها أمان الطريق أيضاً في حاية قوافل الحج الكثيرة التي كانت تهال إلى هناك من شتى النواحي ، فمن ذلك أن كثيرين من تجار بغداد هاجروا مع قافلة الحج سنة ٣٣١ هـ — ٩٤٣ م إلى الشام ومصر ، وذلك لاتصال الفتن ببغداد وتواتر الحن عليهم من السلطان^(٣) ، وعلى عكس ذلك كان البعض يفرون من الشام من البوزنطيين ، ففي عام ٣٣٥ هـ — ٩٤٦ م التحق كثير من أهل الشام بقافلة الحج وقطعوا الطريق الشاسع من الشام إلى العراق مارين بمكة ، وكان فيهم قاضي طرسوس ، ومعه مائة وعشرون ألف دينار^(٤) .

وكان أكثر طرق المغرب خلال القرن الثالث الهجري يتجه نحو القيروان ، وفي ذلك الحين كانت دولة بني الأغلب الأقوياء قد أقرت الأمن ومنحت الطرق جانباً من عنايتها ، فكان على طول الساحل محارس ومخافير ، وكانت السفر

(١) المقدسي ص ٤٨٨ وما يليها . (٢) كتاب الخراج لقدامة ص ١٨٦ .

(٣) المنتظم لابن الجوزي ص ١٧١ . (٤) نفس المصدر ص ٩٨ ب .

مأموناً^(١) ، وكان يخرج من مصر السفلى طريقان عظيمان إلى المغرب ، أحدهما يسير بحذاء الساحل كما كان الحال في الزمن القديم ، والآخر يسير جنوباً ، وكان البريد يتخذ الطريق الثاني أول الأمر (وكان يسمى طريق السكة)^(٢) ، ثم عدل عنه بعد ذلك إلى طرابلس ، ومنها كان يقصد إلى القيروان رأساً ، وبعدها يسير بحذاء الساحل ؛ وكانت الأميال معلّمة ؛ وطول المسافة من القيروان إلى السويس الأدنى على المحيط الأطلسي ألفان ومائة وخمسون ميلاً^(٣) . وكان هذا الطريق هو الطريق الرئيسي الذي يصل الأندلس بالشرق^(٤) ، وكان هناك طريق آخر جنوبي يمر بالواحات الداخلة والكفرة^(٥) ، ويتجه إلى السودان الغربي متجهاً إلى غانة وأودغشت ، فعُدل عنه في القرن الرابع إلى طريق سجلماسة ، وذلك لتواتر الرياح ، وترادف عدوان اللصوص على القوافل^(٦) .

وكان البريد مخصصاً لأعمال الحكومة ، وكان يجري لبني العباس^(٧) ، ولم يكن يحمل الناس إلا في حالة الضرورة القصوى ، نظراً لما في ذلك من المتاعب ، كالذي رواه البيهقي من أن « صاحب بريد حضر من قبل الخليفة إلى المازني فحمله على دابة من دواب البريد حتى وافى به باب الوثائق »^(٨) ، وكانت تُحمل فيه إلى جانب الرسائل أشياء تبعث للسلطان بما يحتاج إلى سرعة الإيصال ؛ فمن ذلك أن البريد كان يحمل إلى المأمون ثماراً غضة من كابل أثناء ولايته علي خراسان^(٩) ، وما يحكيه ابن طيفور من أنه كان « يرسل لأُمير المؤمنين مع

(١) النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٧٤ (٢) .

(٢) لهذا لا يتكلم قدامة عن الطريق الساحلي — انظر كتاب الجراج ص ٢٢٢ .

(٣) ابن خرداذبة ص ٨٩ . (٤) نفس المصدر ص ٥٥ (٥) .

(٥) J. marquart, Bn̄insammlung, S. CV . (٦) ابن حوقل ص ٤٢ .

(٧) مروج الذهب ج ٦ ص ٢٦٣ .

(٨) المحاسن والسياسات للبيهقي ص ٤٢٩ من الطبعة الأوروبية .

(٩) فتوح البلدان للبلاذري ص ٤٠٢ .

البريد رطب وألطف كأنما جُنيت من ساعتها»^(١) . وحينما فتح جوهر
مراكش للخليفة الفاطمي وبلغ المحيط الأطلسي ، أرسل إليه من هناك سمكا
في زجاجة ليقيم له الدليل على وصول ملكه إلى البحر المحيط^(٢) .
وكانت تنظم أثناء الحروب بُرْد حربية لشؤون الحكومة ، فمن ذلك أنه
لما استطال صاحب القيروان على أرض مصر ، أنهض المقتدر مؤنسا الخادم
ونذب معه العساكر لمحاربة صاحب القيروان عام ٣٠٢ هـ — ٩١٤ م ، وتقدم
على بن عيسى بترتيب الجُمَازات من مصر إلى بغداد لتبلغه الأخبار كل يوم^(٣) .
وكذلك كان معز الدولة هو الذي أحدث أمر السعاة وأعطاهم الجرايات
الكثيرة ، لأنه أراد أن يبلغ أخباره لأخيه ركن الدولة^(٤) ؛ وقد تهافت شبان
بغداد على هذه الحرفة الجديدة ، وأقبل قراء الناس على تسليم أبنائهم للسلطان
معز الدولة لتدريبتهم على ذلك ، وقد امتاز من هؤلاء السعاة اثنان كان كل
منهما يقطع ما يزيد على الأربعين فرسخا (حوالي ١٨٠ كيلو مترا) من مشرق
الشمس إلى مغربها ، وكانا أثيرين عند عامة الناس ، وقد أورد المؤرخون ذكرهما
وها : فضل ومبرعوش ، وكان أحدهما ساعي السنة ؛ والثاني ساعي الشيعة^(٥) .
وكان يقام حصن عند كل فرسخ من الطريق ، والراجح أن الحكماء في ذلك
العصر عدلوا عن استعمال الخيل في البريد إلى اتخاذ الجُمَازات^(٦) ، فثلا نجد

(١) كتاب بغداد لابن طيفور ص ٣٤٧ — ٣٤٨ .

(٢) De goeje, ZDMG, 52 S. 76 (٣) ص ٥٣ .

(٤) المنتظم لابن الجوزي ص ٣٤ ب ، وراجع Quatremère, Hist. Maïn. II, 289

تقلا عن كتاب الإثناء ، ولا تزال كلمة ساع هي اسم حامل البريد إلى اليوم .

(٥) المنتظم ص ٣٤ ب ، وابن الأثير ج ٨ ص ٤٢٥ .

(٦) ابن الأثير ج ٨ ص ٤٨٠ ، وانظر لطائف المعارف للثعالبي ص ١٥ ، وهو يقول

إن الجمار مشتق من جز ، ولا تزال أسرع الجمار بفارس هي الجمار البلخية ، والواحد منها يسمى

جيس ، ويقطع في اليوم مائة كيلومتر بلا أقل مشقة (انظر Sven Hedin, Zu Lamdnach

Indien, II, 346 ff.) ، وكلمة جيس فارسية الأصل .

ابن العميد لما أراد اللحاق بأميره في فارس عام ٣٦٤ هـ — ٩٧٥ م بغاية السرعة
أخذ الجمّازات .

وكان يوجد إلى جانب ذلك بُرْدٌ خاصة وذلك في المسافات القصيرة على
الأقل ، وهي عبارة عن جماعات منظمة من الساعة ، وقد اشتهر في القرن الخامس
الميلادي جماعة من حملة الخطابات بالسرعة ، وهم السعّون سيما كوى في مصر
السفلى ، وكانوا لا يزالون موجودين في القرن الثامن الميلادي بدليل ما نجده في
إحدى ورقات رينر البردية . ويحدثنا فانسلب Wansleb أحد المؤلفين المحدثين
فيقول : من أراد أن يكون ساعياً في الإسكندرية فلا بد أن يحمل شعلة في سلة
على هيئة مدفأة مثبتة في عمود طوله قامة رجل وله حلقات من حديد ، وأن
يقطع المسافة التي بين الإسكندرية ورشيد وطولها سبعة وعشرون ميلاً ، ويعود
في يومه قبل مغيب الشمس^(١) .

أما استعمال النار في الإشارة كوسيلة من وسائل المراسلة ، فلم يكن عند
المسلمين إلا في البلاد التي كانت تابعة للدولة البوزنطية من قبل ، لأن هذه
الدولة كانت تستعملها . أما في غير ذلك من بلاد الإسلام فلم تستعمل ، ويقال
إنها استخدمت استخداماً خفياً في القرن الثالث الهجري على الساحل الأفريقي
الشمالى ؛ فقد كانت الرسائل تصل من الإسكندرية إلى سبتة في ليلة واحدة ،
ومن طرابلس إلى الإسكندرية في ثلاث ساعات إلى أربع ، ولم يبطل هذا
الحظر الأخير إلا في سنة ٤٤٠ هـ — ١٤٠٨ م حينما ثار المغرب على الفاطميين ،
ولم يعد في إمكانهم حماية الحصون من البدو^(٢) .

(١) . Führer durch die Ausstellung Rainer, S. 53 .

(٢) المراكشى ترجمة فاجنان Fagnan ص ٢٩٩ .

على أن المسلمين خطوا خطوات واسعة في تنظيم نقل البريد بواسطة حمام الزاجل الذي كان معروفا أيام الرومان^(١) ، ويظهر أن مؤسس فرقة القرامطة في القرن الثالث الهجري كان أول من نظمه واستعمله على صورة واسعة النطاق ، فجعل لنفسه من أول أمره طيورا تحمل الأخبار من جميع النواحي له في مقره بالعراق ليستعين بذلك على الشعبة والإخبار بالغيب^(٢) ، وفي أوائل القرن الرابع الهجري نجد أخباراً كثيرة عن استعمال الحمام بالعراق ، فمن ذلك أنه لما تقلد حامد ابن العباس الوزارة عام ٣٠٤ هـ - ٩١٦ م وروسل بالتقدم على الخليفة كتب على عدة أطيوار بخروجه في يومه^(٣) . وحكى عزيب في حوادث عام ٣١١ هـ - ٩٢٣ م أن القرامطة لما دخلوا البصرة أخبروا الناس بعزل ابن الفرات وولاية حامد ابن العباس قبل أن يجيء الخبر إلى البصرة بأربعة أيام ، ولما جاء الخبر بعد ذلك لأهل البصرة علموا ما أرادت القرامطة بذلك ، وأن الخبر أتاهم من وقته في جناح طائر^(٤) ، ولما قرب القرمطي من الأنبار تشوف المقتدر إلى معرفة أخباره ، فلما عرف أبو علي بن مقلة ذلك طلب أطيارا وأنفذها إلى الأنبار ، وكتب له عليها أخبار القرمطي وقتا بعد وقت^(٥) . ولما اشتد خطر القرامطة في هذه السنة نفسها (٣١٣ هـ - ٩٢٨ م) رتب الوزير علي بن عيسى بين بغداد ونهر زبار المرتبين وسلم إليهم مائة طائر إلى مائة رجل ليكتبوا له على أجنحتها كتباً يخبر العدو في كل ساعة^(٦) . وفي سنة ٣٢١ هـ - ٩٣٣ م استطاع ابن قرابة أن يحمل إلى الوزير

(١) Diels' Antike Technik, S. 68

(٢) De goëje, Mém. sur les Carmathes p., 207 ، فكان أول ما ذكر خبر الحمام الزاجل بالصين حوالي عام ٧٠٠ م ، والظاهر أن تجار العرب أو الهنود كان أول من جلبه إلى هناك ، (انظر ترجمة كتاب الرحالة Chau-Ju-Kua ص ٢٨ هامش رقم ٢) .

(٣) كتاب الوزراء ص ٣٣ (٤) عزيب ص ١١٠ وما يليها .

(٥) مسكويه ج ٥ ص ٣٠٦ ، وابن الأثير ج ٨ ص ١٣٥ ، ٢٤٠ .

(٦) مسكويه ج ٥ ص ٢٩٨ .

ابن مقلة أخبار سلامة للكوفة من القرمطى لأن أطيبار جاره — وكان من أهل الكوفة — حملت إليه أنباء أصدق مما حملته أطيبار صاحب المعونة المعين في الكوفة من قبل الوزير، فتعجب ابن مقلة من أن يكون ابن قرابة أعرف بأخبار الكوفة من صاحب المعونة^(١). ومن غريب أخبار سنة ٣٢٨ هـ — ٩٤٠ م أن طائرا وقع لفلان بحكم فوجدوا على ذنبه كتابا من بحكم بخط كاتبه إلى أخيه يعرفه فيه أخبار بحكم وأسراره^(٢). وذكر الثعالبي أن الرسائل كانت تصل في ذلك العصر من الرقة والموصل إلى بغداد وواسط والبصرة والكوفة بواسطة الأطيبار في يوم ولية^(٣). وفي النصف الثاني من القرن الرابع كان عند محمد بن عمر أبي الحسن الشريف — وكان علويا وجيها متمولا ببغداد — طيور كوفية، وبالكوفة طيور بغدادية، وكان يكتب على الطير إلى الكوفة فيأتيه الخبر في ساعة أو نحوها^(٤)، وكان هذا الشريف عند الوزير مرة جالسا فوصل إلى الوزير خبر وصول رسول القرامطة إلى الكوفة وأنه لا يد من الكتابة إلى الكوفة بالقيام بالواجب مع الرسول، فأرسل الشريف إلى الكوفة بالخبر وجاءه الرد بوصول الكتاب وامتنال الإشارة وهو جالس مع الوزير، وكان هذا يحسبه متهاونا في الأمر^(٥).

وكانت الحكومات بالجملة لا تتعرض للأفراد المسافرين، ومن الثابت أنه لم يكن بالمشرق في القرن الثاني الهجري على أبواب المدن من يسجل أسماء من

(١) نفس المصدر ص ٤١٦.

(٢) نفس المصدر ج ٦ ص ٣٢، ونجد مثل هذا كثيرا في التوابخ التأخيرة.

(٣) حمد النسوب للثعالبي: ZDMG, VIII, S: 512.

(٤) عمدة الطالب للأصيل مخطوط باريس رقم ٢٠٢١ ص ١٧٠ ب، ١٧٠ أ.

(٥) نفس المصدر، المنتظم لابن الجوزي ص ١٤٥. وانظر مسكويه ج ٦ ص ١٣.

يدخل أبوابها^(١) . وقد تكلم أحد الرحالة العرب في النصف الأول من القرن الثالث الهجري عن جوازات المرور عند الصينيين بشيء من التعجب كأنها عنده شيء غريب^(٢) . أما في مصر فقد كان فيها منذ أقدم العصور الإسلامية نظام دقيق لجوازات المرور ، فلم يكن أحد يستطيع أن يترك الناحية التي يقيم فيها إلى ناحية أخرى بدون إذن أولى الأمر ، ويقال إن عامل مصر أصدر أمره عام ١٠٠ هـ — ٧٢٠ م بأن يُقبض على من وجد مسافرا أو منتقلا من مكان إلى مكان من غير سجل ، وإذا وجد صاعدا أو نازلا من مركب أوقعت الحوطة على المركب وحرق بما فيه . ولدينا طائفة من هذه السجلات أو الجوازات وجدت ضمن ما عُثر عليه من أوراق البردي^(٣) . ويؤخذ من رواية لابن سعيد أنه كان لا بد من جواز للخروج من مصر ؛ ولا بد أن يدرج في هذا الجواز كل من يرافقون المسافر ولو كانوا عبيده^(٤) . أما في المشرق فكان الأمر على خلاف ذلك ، حتى نجد المقدسي يستنكر ما حدث في أيام عضد الدولة من أنه كان لا يدخل أحد مدينة شيراز أو يخرج منها إلا من كان يحمل جوازا^(٥) .

(١) كتاب الأغاني ج ١٩ ص ١٤٧ : أمر المنصور أحد قواده بالجلوس على جسر
التهروان ليتصفح الناس ويمر على المؤمل الشاعر ، وكان له عن ذلك مندوحة لو كان هناك
نظام تسجيل الواردين .

(٢) نبيلة التواريخ طبعة رينو ص ٤٢ .

(٣) Ch. H. Becker, Der Islam, II, 369 .

(٤) المغرب لابن سعيد طبعة فولز ص ٥٣ .

(٥) المقدسي ص ٤٢٩ .

الفصل التاسع والعشرون

الملاحة البحرية

قضت الظروف الجغرافية بأن تتوزع الملاحة البحرية في مملكة الإسلام في بحرين منفصلين : البحر الأبيض والمحيط الهندي ، لأن برزخ السويس كان حائلا دون اتصال هذين البحرين ؛ فكان من يريد أن يصل من البحر الأبيض إلى الهند أو شرق آسيا مضطرا إلى حمل بضائعه على الظهر عند القرما ، ثم يسير في الصحراء سبع مراحل حتى يصل إلى القلزم (Klysm اليونانية) وهناك يستطيع حلها في المراكب مرة أخرى .

وكان صنف السفن التي تستعمل في أحد البحرين تختلف عن نظائرها في الآخر ؛ فكانت مراكب البحر الأبيض ذات مسامير ، أما مراكب البحر الأحمر والمحيط الهندي فكانت تُخاط بحبال الليف^(١) ، وكانت هذه هي الطريقة القديمة في إنشاء السفن عند جميع الأمم ، ويذكر ابن جبير في القرن السادس الهجري طريقة إنشاء السفن على هذا النحو فيقول إن مراكب البحر الأحمر لا يستعمل فيها منسار ألبتة ، « إنما هي مخيطة بأمراس من القنبار ، وهو قشر جوز النارجيل يذرسونه إلى أن يتخييط ، ويفتلون منه أمراسا يخيطنون بها المراكب ويخللون بها بدسُر من عيدان النخل ، فإذا فرغوا من إنشاء المركب على هذه الصفة سقوها بالسمن أو بدهن الخروع أو بدهن القرش ، وهو أحسنها ، وهذا القرش حوت

(١) ابن خردادبة من ١٥٣ ؛ وجغرافية الإدريسي طبعة براندل (أوبسالا) ص ٢ ، والخطط للقرنيزي ج ١ ص ٢١٣ ؛ وصروج الذهب للمسعودي ج ١ ص ٣٦٥ .

عظيم في البحر»^(١). أما في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) فيصف الرحالة ماركو بولو المراكب التي كانت تستعمل في هرمز بأنها كانت من أسوأ صنف ومعرضة من يركبها للمهالك ، وذلك راجع إلى أنه لا يُستطاع استعمال المسامير في بنائها ، وإنما كانت تُثقب الألواح قرب أطرافها بأقصى ما يمكن من العناية بثقب من الحديد ، ثم توضع في الثقوب مسامير من خشب تصل بعضها ببعض ، فإذا تم ذلك حُزمت أو على الأصح خيطة بعضها ببعض بنوع من الليف يصنع من قشر جوز النارجيل ، ولا يُطلى المركب بعد ذلك بالقار ؛ بل بزيت يتخذ من دهن الحوت^(٢) . وهذا الخلاف في طريقة بناء المراكب راجع إلى تقاليد الصناعة للسفن عند كل فريق ، إلا أن المؤلفين علّوه ضرباً من التعليل أساسها المنفعة كما هي العادة ، فذهب ماركو بولو إلى أن « الخشب الذي كانت تصنع منه هذه السفن من صنف شديد الصلابة عرضة للتصدع والتكسر كالنفخار ، فإذا حاول الصناع أن يدقوا فيه مسماراً انشده ، وكثيراً ما يتصدع » . أما ابن جبير فيرى أن مقصدهم من دهان الجلبنة هو أن « يلين عودها ويرطب لكثرة الشعاب المعترضة في هذا البحر ، ولذلك لا يصرفون فيه المركب المنجاري »^(٣) . أما السعودي فيعلل عدم استعمال المسامير في بناء هذه السفن بالخوف من أن يأكلها ماء البحر^(٤) . وقال آخرون إن السبب هو خوف الملاحين من جبال المغناطيس^(٥) ، « وهي جبال كثيرة قد علا الماء عليها ، فلهذا لا تستعمل المسامير

(١) رحلة ابن جبير ص ٦٧ — ٦٨ ، وجغرافية الإدريسي طبعة براندل ص ٢ .

(٢) Marco Polo, I, 18 . (٣) رحلة ابن جبير ص ٦٨ .

(٤) مروج الذهب ج ١ ص ٣٦٥ .

(٥) عجائب الخلوقات للقزويني ج ١ ص ١٧٢ (طبعة فستفلد) ، وورد هذا التعليل قبل ذلك في جغرافية الإدريسي . (ترجمة جويندج ج ١ ص ٤٦) نقلاً عن كتاب العجائب للحسن بن المنذر (وهو من الذين ألفوا في العجائب) أما المطهر المقدسي الذي ألف كتابه البدء والتاريخ وهو في وسط فارس بعيداً عن البخار فقد خلط الأمر وقال إنه لا يمكن لأية سفينة أن تجرى في البحر الغربي لأن جبال المغناطيس تجذب المسامير (طبعة هوارج ص ٨٩) .

في هذا البحر خوفا من جذب جبال المغناطيس لها .

وكانت مراكب البحر الأبيض أكبر من مراكب المحيط ، فقد حكى
مفتش الضرائب تشاو جوكوا Chau-Ju-Kua في أوائل القرن الثالث عشر
الميلادي ، مع كثير من التعجب ، كيف أن سفينة واحدة تحمل بضعة آلاف
من الرجال وعلى ظهرها حوانيت لبيع الخمر ومغازل^(١) . ولم تكن السفن ذات
الدفنين موجودة في غير البحر الأبيض^(٢) : أما التي تجرى في المحيط فلم يكن
فيها أكثر من طبقة واحدة ، وكانت في معظم الأحيان ذات شراع واحد^(٣) .
هذا وكانت قيعان السفن التي تسير في البحر الأحمر « عراضاً دون تعميق في
تركيبها لتحمل بذلك كثيراً من الوسق ولا تدرّس على كبير ترس »^(٤) . وكانت
مراكب البصرة بيضاء « مشحمة بالشحم والنورة »^(٥) . أما المراكب الصينية
فكانت أكبر مراكب المشرق ، ولهذا لم تكن تستطيع اجتياز ما يجتازه غيرها من
مضايق خليج فارس^(٦) . وكان مقدار ما يؤخذ منها من المكوس في موانئ
ملبار يبلغ عشرة أضعاف ما يؤخذ من غيرها^(٧) . وكانت ضخامتها الزائدة تثير
تعجب أهل كانتون حتى القرن الثامن الميلادي . « إذ يبلغ علوها عن سطح الماء
مبلغاً يضطر الناس إلى استعمال سلالم ارتفاعها نحو العشرة أقدام ليصعدوا إلى
سطحها ، ولم يكن ربابتها من أهل الصين »^(٨) . وكان أغلى أصناف الخشب
الذي تصنع منه المراكب هو شجر النبق (اللبخ) الذي لا ينبت إلا بانصنا
(antinoe) . « وهو عود تنشر منه ألواح للسفن ، وربما أرغفت كاشرها . (لطولها) ،

(١) Fr. Hirth Die Länder des Islam nach Chinesischen Quellen

(٢) رحلة ابن جبير . ص ٢٣٥ . (٣) marco Polo, I, 18, III, 1

(٤) جغرافية الإدريسي طبعة براندل ص ٢ . (٥) مروج الذهب ج ٨ ص ١٢٨ .

(٦) سلسلة التواريخ طبعة رينو ص ١٦ . (٧) نفس المصدر ص ١٧ .

(٨) Hirth aud Rockhill, Cháu-Ju-Kau, p. 9.

وبياع اللوح بخمسين ديناراً أو نحوها ، وإذا شد لوح بلوح وطرجا في الماء ستة أيام صاراً لوحاً واحداً^(١) ، وكانت البندقية في القرن الرابع تمتد العرب بالخشب لبناء السفن مما جعل الإمبراطور البوزنطى يحتاج لدى الدوج ، فأمر الدوج بإيقاف بيع الخشب للعرب ، ولم يسمح إلا بإمدادهم بالخشب الذى لا يصلح لإنشاء السفن ، ولهذا شرط ؛ أن يكون من اللبخ والسنديان على ألا يتجاوز طول اللوح خمسة أقدام وعرضه نصف القدم ، وأذن أيضاً بأن تباع لهم الأدوات المصنوعة من الخشب^(٢) . وقد شحَّ خشب السفن في مصر على أثر ذلك ، حتى إنه لما أراد الوزير غيسى بن نسطوروس أن ينشئ أسطولاً يقوم مقام الأسطول الذى كان معداً لغزو الشام واحترق اضطر إلى جمع الأخشاب من كل الجهات ، « حتى قلمت صوّار كيار كانت مسقفة على دار الضرب بمصر بجانب دار الشرطة وفي البيمارستان الذى فى سوق الحمام ونشروا جميعها وأعدوا أسطولاً آخر^(٣) . وكانت دفات السفن التى تجرى فى البحار تحرك بجبلين كسفين التزهة عندنا^(٤) . ولا يذكر كتاب القرن الرابع شيئاً عن البوصلة ، وقد وصفها القبساقى لأول مرة سنة ١٢٨٢ م^(٥) ثم ذكرها المقرئى المتوفى عام ٨٤٥ هـ — ١٤٤٢ م^(٦) . وكان على ظهر السفينة عدد من المراسى يقال لكل منها أنجور بلفظها اليونانى^(٧) وكان

(١) المخطوط للمقرئى ج ١ ص ٢٠٤ نقلاً عن كتاب النبات للدينورى وفى هذا الكتاب حرفت كلمة نبج إلى بنج ، أنظر معجم البلدان لياقوت ج ١ ص ٣٨١ .

(٢) Schube, Handels-geschichte der romanischen Völker, s, 23. f. (٣) وكانت مصر تستورد خشب السفن من مدينة البندقية حتى أوائل القرن التاسع عشر ، وكانت تأخذ بعض خشب الوقود من آسيا الصغرى U. J. Seetzen, Reisen, III, 207 f. ، ويقال إنها تستورد الخشب الذى تصنع منه أشرعة السفن الجارية فى النيل من الغابة السوداء بألمانيا ؛ فى وقتنا هذا .

(٣) يحيى بن سعيد الأنطاكى ص ١١٣ . (٤) المقدسى ص ١٢ .

(٥) Klaproth, Lettres sur l'invention de la Boussole, 1834 .

(٦) المخطوط للمقرئى ج ١ ص ٢١٠ .

(٧) merueilles in de p, 87 .

يستعمل لسبر الأغوار سَبَك^(١). وكانت القوارب الصغيرة تستعمل لتسيير المركب بالمجاديف إذا احتاج الأمر^(٢). وقد دهش ابن حوقل مع تدوينه البلدان طوافاً من مهارة الملاحين الذين رآهم في تنيس بمصر السفلى ، إذ كانت بحيرة تنيس «قليلة العمق يسار في أكثرها بالمداري ، وتلتقي السفينتان تحك إحداها الأخرى ، هذه مصعدة وهذه نازلة بريح واحدة ، مملاة شرعها بالريح ، ومتساوية في سرعة السير»^(٣). وكان بين ملاحى السفينة ملاح غواص^(٤). وكان الغواصون في مراكب الصين في القرن الحادى عشر زنجياً يستطيعون الغوص ، وعيونهم مفتوحة^(٥). وحكى رجل من العرب في القرن الثامن الهجرى (الثامن عشر الميلادى) أنه كان فى مراكب البحر الهندى عادة أربعة من الغواصين ، فإذا نفذ الماء فى المركب وعلا فيه عمدوا إلى أجسامهم فطلوها بزيت السمسم وإلى أنوفهم فسدوها بالشمع ؛ ثم أخذوا يسبحون حول المركب فى مسيره ويسدون ثقوبه بالشمع ، وهم يستطيعون أن يسدوا عشرين إلى ثلاثين ثقبا فى اليوم^(٦) وروى أحد الثقات فى القرن التاسع أنه يوجد على مراكب الفرس التى تمخر عباب البحر كثير من الحمام يستطيع أن يطير بضعة آلاف « لى » (مقياس للمسافة) ، وإذا أطلق طار عائداً إلى بلاده رسولا يحمل أحسن الأخبار^(٧). وكذلك كانت توضع فى المراكب التى تجرى فى المحيط آنية ملأى بالأرز والدهن فى كل يوم طعاماً لللائكة التى تحرس المركب^(٨).

ولم يكن لأوروبا سلطان على البحر الأبيض خلال القرن العاشر الميلادى ،

(١) نفس المصدر ص ٣٠ . (٢) نفس المصدر ص ٤٦ .

(٣) ابن حوقل ص ١٠٣ ، وقد ذكر ماركو بولو أن الملاحين فى المشرق إذا وجدوا

الريح غير موافية استعملوا أشربة قوارب السفينة متعارضة 2, III, marco Polo .

(٤) عجائب الهند ص ٧ . (٥) Chau-Ju-Kua, S.

(٦) Gildemeister GON 1882 s, 444 .

(٧) Chau-Ju-Kua S 82 . (٨) عجائب الهند ص ٤٦ .

قد كان بحراً عربياً ، وكان لأبد لمن يريد أن يقضى لنفسه فيه أسراً من أن يخطب ود العرب كما فعلت نابولي وغيتة وأمالفي ، ويظهر أن الملاحة الأوروبية نفسها كانت في ذلك العصر بحال يرثى لها من الضعف ، ففي سنة ٩٣٥ م استطاعت مراكب عبيد الله المهدي الفاطمي أن تغزو جنوب فرنسا ومدينة جنوه ، وأن تنهبها ، وأن تفعل مثل هذا بمدينة بيزا في عامي ١٠١١-١٠١٤ م وذلك مع أن أسطول الفاطميين في شمالي إفريقيا كان في ذلك الحين أقل كفاية من أسطول الشام بصورة بيّنة ، ففي عام ٣٠١ هـ - ٩١٣ م استطاعت خمس وعشرون من مراكب الشام أن تهزم ثمانين من مراكب الفاطميين هزيمة كاملة . وكانت مراكب العرب تقطع البحر الأبيض عرضاً في ستة وثلاثين يوماً من مبدئه في الغرب إلى آخره حيث أنطاكية^(١) ، وميناء أنطاكية هذه هي سلوقية التي كانت في أثناء القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) أهم ميناء تجاري في الشام^(٢) . وقد حصنها الخليفة المعتصم^(٣) ، ولكن كان يؤذيها أكبر الأذى وجود شعاب نابذة تحت الماء بينها وبين قبرص تسمى الشفالة ، وكانت تتحطم عليها معظم السفن^(٤) ، ويذكر اليعقوبي في أواخر القرن الثالث الهجري أن ميناء طرابلس الشام « عجيب يحتمل ألف مركب »^(٥) ، وكانت صور هي الميناء الحربي الإسلامي المواجه لبوزنطة ؛ إذ كان « بها دار الصناعة ومنها تخرج مراكب السلطان لغزو الروم وكانت حصينة جليّة »^(٦) ، ولكن زحف البوزنطيين في القرن الرابع الهجري على بلاد الإسلام غير هذه الأحوال كلها في الشام ، وكان النصف الشرقي

(١) جغرافية الإدريسي طبعة دوزي ص ٢١٤ .

(٢) كانت أنطاكية معتبرة في عهد بروكوبيوس أولى المدن الرومانية في المشرق (انظر

Heyd Levanthandel I 24) .

(٣) ابن خرداذبة ص ١٥٣ ، وانظر Michael Syrus, ed, Chabot, p. 527, 527 .

(٤) مروج الذهب للمسعودي ج ١ ص ٣٣٢ . (٥) جغرافية اليعقوبي ص ٣٢٧ .

(٦) نفس المصدر .

من ساحل إفريقية الشمالى أقل ملاءمة من النصف الغربى للملاحة ، ولهذا لا تذكر كتب تلك الأيام أى ميناء طبيعى بين الإسكندرية وخليج تونس غير طرابلس ، وحتى طرابلس هذه لم يكن عمق الماء عندها كافياً لحمل مراكب ذلك العصر ، مع أنها لم تكن تحتاج إلا لعمق قليل ، فكانت المراكب إذا وصلتها « عرضت لها دائماً الرياح البحرية ، فيشتد الموج لانكشاف المرسى بها ويصعب الإرساء ، فيبادر أهل البلد بقواربهم ومراسيهم وخبالم متظوعين ؛ فيقيد المرسى ويرسى منه فى أسرع وقت بغير كلفة لأحد »^(١) ، وكانت تونس تلى طرابلس فى الأهمية ، وكانت ميناء للقيروان على مقربة من موقع قرطاجنة التى كانت سيدة البحر قديماً .

ويقص الإدريسى خبر جماعة يسميهم المغريين (أو المغررين فى رواية) ركبوا بحر الظلمات من لشبونة فى القرن الرابع على الأغلب « ليعرفوا ما فيه ، وإلى أين انتهأوه ، وكانوا ثمانية رجال كلهم أبناء عم ، فأنشأوا مركباً حمالاً وأدخلوا فيه من الماء والزاد ما يكفيهم لأشهر ، ثم دخلوا البحر فى أول طاروس الرياح الشرقية فجروا بها نحواً من أحد عشر يوماً ، فوصلوا إلى بحر غليظ الموج كدر الروائح كثير التروش قليل الضوء^(٢) ، فأيقنوا بالتلف ، فردوا قلوبهم فى اليد الأخرى ، وجروا فى البحر فى ناحية الجنوب اثنى عشر يوماً حتى وصلوا إلى جزيرة الغنم ، وفيها من الغنم ما لا يأخذه عد ، وهى سارحة لا راعى لها ولا ناظر ، ثم ساروا مع الجنوب اثنى عشر يوماً حتى وصلوا إلى جزيرة فيها عمارة وحرث فاعتقلوا ثلاثة أيام ، ثم جاءهم فى اليوم الرابع ترجان الملك يتكلم اللسان العربى ، وأحضروا بين يدى الملك ، فسألهم عن حالهم فأخبروه بخبرهم ، ثم صرفوا إلى موضع حبسهم ، إلى أن

(١) ابن حوقل ص ٤٦ .

(٢) كان العرب يظنون كما ظن القدماء قبلهم أن البحر فى أقصى مظل ، ولذلك كان أهل المشرق يسمون أقصى البحر بالبحر الزفتى لأن ماءه كدر ورياحه شديدة وهو دائم الظلمة تقريباً ، انظر جغرافية أبى الفدا طبعة رينوج ٢ ص ٢٦ .

بدأ جرى الرياح الغربية فوضّعوا في قارب وعصبت أعينهم وجُرى بهم في البحر برهة قدروها بثلاثة أيام حتى انتهوا إلى برٍّ ، فأخرجوا وكتفوا إلى خلف وتركوا بالساحل حتى طلع النهار ، وجاء قوم برابر فخلوا وثاقهم وأخبروهم أن بينهم وبين بلادهم مسيرة شهرين^(١)

وكان البحر الأحمر مخوفا لما فيه من شغاب بارزة ورياح معاكسة ، ولهذا كانت الملاحة فيه بالنهار فقط « فأما بالليل فلا يُسلك »^(٢) . وكان نظام هبوب الرياح فيه يجعل الملاحة من الشمال إلى الجنوب فقط في فصل من السنة ، ومن الجنوب إلى الشمال في الفصل الآخر ، ولهذا احتفظ نهر النيل الذي يسير موازيا لهذا البحر بأهميته الكبيرة باعتباره طريقا من طرق الملاحة النهرية ، وكانت عيذاب هي نقطة الاتصال بين تجارة البحر وتجارة النهر ، وكان ميناؤها عميقا غزير الماء مأمونا من الشغاب النابتة^(٣) ، فكانت ترد إليها البضائع من الحبشة واليمن وزنجبار بطريق البحر ، ثم تُحمل على الإبل في الصحراء مسيرة عشرين يوما إلى أسوان أو قوص ، ومن هناك تنقل إلى القاهرة في النيل^(٤) . وقد بلغت عيذاب في نهاية القرن الخامس الهجري درجة عظيمة من الازدهار ، وأصبحت إحدى اللوانى التي تختلف إليها المراكب من جميع البلاد ، ولا يغرب السبب الذي كان يجعل تجارة شمال إفريقيا إلى المشرق تمرّ بها ، وكان حجاج مصريون عن طريق عيذاب بين سنتي ٤٥٠ — ٦٦٠ هـ (١٠٥٨ — ١٢٥٨ م) ، ولم تأخذ عدن شأن عيذاب

(١) - جغرافية الإدريسي طبعة دوزي ص ١٨٤ .

(٢) الأصطخرى ص ٣٠ ومروج الذهب ج ٣ ص ٥٦ . والإدريسي طبعة براندل ص ١

(٣) Wüstenfeld, Qalqashandi, 169 (وهو ترجمة من صبح الأعشى ج ٣ ص ٦٨) .

(٤) رحلة ناصر خسرو ص ٩٤ . فمن الأصل الفارسي : وقد زار هذا الرحالة عيذاب

عام ٤٤٢ هـ — ١٠٥٠ م .

إلا منذ عام ٨٢٣ هـ — ١٤٣٠ م^(١) ، وكان يؤخذ من كل حاج ثمانية دنانير^(٢) .
وقد تحدث ابن جبير عنها في عام ٥٧٩ هـ — ١١٨٣ م ، فقال إنها « من أحفل
مراسى الدنيا ، بسبب أن مراكب الهند واليمن تحطّ فيها وتقلع منها ، زائداً على
مراكب الحجاج الصادرة والواردة » ، ثم قال بعد ذلك إن أكثر ما شاهده في
عذاب من سلع الهند أحمال القفل^(٣) .

وقال المسعودى في عام ٣٣٢ هـ — ٩٤٣ م : « وقد ركبت عدة من البحار
كبهر الصين والروم والقلم واليمن ، وأصابني فيها من الأهوال ما لا أحصيه كثرة ،
فلم أجد أهول من بحر الزنج » ، وكان قد ركب البحر سنة ٣٠٤ هـ — ٩١٦ م من
زنجبار (قنبلو) إلى عمان ، وذلك في مركب أحمد وعبد الصمد أخوى عبد الرحيم
بن جعفر السيرافي ، وفي ذلك البحر غرقا بمركبهما وجميع من كان معهما^(٤) .
وكان ملوك زنجبار في تلك الأيام مسلمين^(٥) ، وكان أقصى ما تصل إليه مراكب
المسلمين في أسافل بحر الزنج إقليم سُفالة (موزمبيق) ، « وهي أقصى بلاد الزنج
وإليها تقصد مراكب العمانيين والسييرانيين » ، وكان يغريهم بقصدها معدن الذهب
في ما شونا لاند^(٦) . وكان الجديد أكبر ما يؤخذ منها إلى الهند للصناعة ، وكانت
تصنع منه في الهند آلات عظيمة القيمة^(٧) . ويذكر لنا بعض المؤلفين المحدثين
بعض التواريخ المضبوطة فيما يتعلق بذلك فيقولون إن مقدشو أنشئت عام ٩٠٨ م
(وهي موجدوكسو في الصومال الإيطالي) ، وإن مدينة براوه (كلوة في إفريقيا
الشرقية الألمانية) أنشئت حوالي عام ٩٧٥ م^(٨) ، وذلك نقلاً عن تقرير

(١) الخطط للقرنيزي ج ١ ص ١٩٤ — ١٩٨ ، ص ٢٠٢ — ٢٠٣ .

(٢) جغرافية الإدريسي ترجمة جويد ج ١ ص ١٣٣ .

(٣) رحلة ابن جبير ص ٦٤ — ٦٦ .

(٤) مروج الذهب ج ١ ص ٢٣٤ . (٥) نفس المصدر ج ٣ ص ٣١ .

(٦) نفس المصدر ج ٣ ص ٦ . (٧) جغرافية الإدريسي (ترجمة جويد) ج ١

ص ٦٥ . (٨) انظر مثلاً ما كتبه شورتز Schwrtz في كتاب : Helmholtz,

Weltgeschichte, III . s. 428 .

Rizby المسمى Report on the Zanzibär Domenions (ص ٤٧) ، وهو يعتمد على ما لا يزال يزوى إلى أيامنا هذه من حكايات في أخبار تلك البلاد . أما المراجع القديمة فليس بين أيدينا منها شيء في هذا الموضوع ، وربما نجد شيئاً من ذلك فيما كتبه مؤرخو جنوب جزيرة العرب .

ويعتبر البحر يون الإسلاميون عدنا مبدأ « البحر الفارسي » ، ويقولون إن هذا البحر يحيط ببلاد العرب حتى يصل إلى خليج فارس ، وينتهي على مقربة من المكان الذي تبتدى عنده بلوخرستان ؛ أما ما بعد ذلك فكانوا يعتبرونه من المحيط الهندي ، وكانت الملاحة ميسورة في هذين البحرين في موسمين ، فإذا هدا أحدهما هاج الآخر وانقلب « وأول ما يبدأ هياج بحر فارس عند دخول الشمس السنبلة وقرب الاستواء الخريفي إلى أن تصير الشمس في الجوت ، وأشد ما يكون صعوبة في آخر زمان الخريف عند ما تكون الشمس في القوس ، وأشد ما يكون البحر الهندي عند الاستواء الربيعي ... وبحر فارس قد يركب في كل أوقات السنة ، فأما بحر الهند فلا يركبه الناس عند هيجانه وظلمته وصعوبة مركبه »^(١) ولهذا كان البحر الأول مجالا كبيرا ملتصقة البحر ، وكان للساحل العربي خاصة أسوأ سمعة بسبب تهولاء القرصان وحوالي عام ٢٠٠ هـ - ٨١٥ م قام أهل البصرة بحملة على القرصان في بلاد البحرين ولكنهم أخفقوا^(٢) ، أما في القرن الرابع فلم يكن الناس يجرءون على ركوب البحر الأحمر من غير « مقاتلة ونقاطين »^(٣) ؛ وكانت جزيرة سقطرى (أو أشقطره) خاصة عشا خطرا للقرصان ، وكانت المراكب إذا مرت بها لا تزال في نعل حتى تتجاوزها ، وكانت تأوى إليها بوارج قرصان.

(١) ابن رسته ص ٨٦ - ٨٧ .

(٢) Michael Syrus ed. Chabat p. 514

(٣) المقدسي ص ١٢ .

الهند ليقطعوا الطريق على المسلمين^(١) ، ولم تكن هذه القرصنة تعتبر عملاً شائناً أو أمراً غريباً ، ولم ينشئ العرب للقرصان لفظاً خاصاً ، والأصطخري مثلاً يسميهم باسم لين فيقول « متلصصة البحر » (ص ٣٣) وفيما عدا ذلك كان يطلق عليهم الاسم الهندي barques^(٢) .

وكانت عدن وسيراف وعمان أكبر مرفئ الملكة الإسلامية على المحيط الهندي ، ويلى ذلك في الأهمية البصرة وديبل (على مصب نهر السند) وهرمز ، وكانت فرضة كرمان .

وكانت عدن المركز التجاري الكبير بين إفريقية وبلاد العرب ، ونقطة ارتكاز التجارة بين الهند والصين ومصر ، فيسميها المقدسي مثلاً « دهليز الصين »^(٣) ، ويحدثنا أنه سمع عنها أن من الناس من دخلها بألف درهم فرجع بألف دينار ، ومنهم من دخلها بمائة فرجع بخمسمائة ، ومنهم من دخلها بكندر فرجع بمثل ما دخل به كافوراً^(٤) .

وكانت سيراف هي الفرضة التي تمر بها صادرات فارس ووارداتها^(٥) ، وكانت على الخليج الفارسي تقصدها المراكب من جميع البلاد ، وكانت فرضة لبضائع الصين خاصة ، بل كانت بضائع اليمن المرسلة إلى الصين تحمل على المراكب بسيراف^(٦) . وبلغت المكوس التي كانت تؤخذ من المراكب بها حوالى آخر القرن الثالث الهجرى نحواً من مائتين وثلاثة وخمسين ألف دينار في كل عام^(٧) . وكان أهل سيراف أغنى تجار فارس كلها ، وخير شاهد على ذلك ما كان لهم من

(١) مروج الذهب للمسعودي ج ٣ ص ٣٧ ، والمقدسي ص ١٤ .

(٢) فهرس المكتبة الجغرافية ص ١٩٥ (٢) ؛ ومجائب الهند ص ١٩٣ .

(٣) المقدسي ص ٣٤٠ . (٤) نقبس المصدر ص ٩٧ .

(٥) الأصطخري ص ٣٤٠ . (٦) سلسلة التواريخ طبعة Janglès ص ١٠١ (ألف

هذا الكتاب حوالى عام ٣٠٠ هـ) (٧) ابن البلخي JRAS, 1912, p. 188 .

مساكن عالية ذات طبقات عديدة مبنية من خشب الساج الغالى الثمن ، ويحكى الأصطخرى عن أحد أصحابه أنه أنفق فى بناء داره ثلاثين ألف دينار ، وكانت ملابس تجارها مع هذا الغنى بسيطة إلى درجة تبعث على العجب ، ويقول الأصطخرى إن الإنسان ليجد فيهم من يملك الأربعة آلاف ألف دينار ، وتراه مع هذا لا يتميز فى لباسه عن أجيره^(١) . وكان لأهل سيراف متاجر يملكونها فى البصرة أيضاً ، ويقول ابن حوقل إنه لقي رجلاً منهم يملك ثلاثة آلاف ألف دينار ، ويقول إنه لم يسمع أن أحداً من التجار ملك هذا المقدار ولا تصرف فيه ، لأن ذلك كالحرافات يستوحش من حكاها منها^(٢) . وكان كثير من أهل سيراف يقضون حياتهم كلها فى البحر ، فمن ذلك ما رواه الأصطخرى من أن رجلاً منهم ألف البحر حتى ذكر أنه لم يخرج من السفينة نحواً من أربعين سنة ، وكان إذا قارب البر أخرج صاحبه لقضاء حوائجه فى كل مدينة ، وكان إذا انكسرت السفينة التى هو فيها وتشعثت تحول عنها إلى أخرى^(٣) . وكان أشهر أصحاب السفن فى ذلك العهد ، وهو محمد بن بابشاد ، من أهل سيراف ، ويذكر أن ملك الهند أمر أن ترسم له صورة لأنه كان أكبر أهل صنعته ، وكانت عادة ملوك الهند أن يقتنوا صوراً لأشهر الرجال فى كل حرفة^(٤) .

وكان من أثر هذا المركز العظيم الذى تمتعت به مدينة سيراف أن اللغة الفارسية أصبحت أكبر لسان يتكلم به تجار المسلمين الذين يقصدون الهند وشرق آسيا ، ولا تزال اللغة العربية إلى اليوم تشتمل على كثير من الاصطلاحات البحرية الفارسية مثل : ناشدا وهو صاحب السفينة^(٥) ، وديذبان وهو الحارس ،

(١) الأصطخرى ص ١٣٨ — ١٣٩ . (٢) ابن حوقل ص ٢٠٦ — ٢٠٧ .

(٣) الأصطخرى ص ١٣٨ — ١٣٩ . (٤) عجائب الهند ص ٩٨ .

(٥) وليس هو قائد السفينة ، لأن القائد يسمى الرأس أو الريان (المقدسى ص ٣١) ، فكان الناشدا بابشاد وهو الرجل الذى يسافر على سفينته يصطحب معه رياناً يتولى أمر الملاحة =

وربّان (ربما كان أصلها راه بان) وهو قائد السفينة ، أما الرجل الذى كانت مهمته تبليغ أوامر الربّان إلى الملاحين بصوته فكثيراً ما كان يسمى المنادى وهو لفظ شائع عند الناطقين بالعربية^(١) . وكان كل ربّان يحلف يميناً ألا يتهاون بسفينته فيلقبها إلى الهلاك ما دامت سليمة لم يحلّ بها القضاء المحتوم^(٢) .

وتقع البصرة على نهر شط العرب ، وبينها وبين البحر مرحلتان^(٣) ، وكان هناك تجاه مصب النهر جزيرة صغيرة تشبه جزيرة هيليجولاند ، فيها مدينة صغيرة ذات حصن صغير ، وهى مدينة عبّادان ، وكان فيها رباطات وعبّاد صالحون ، وأكثر أهلها يصنعون الحصر من الخلفاء ، غير أن الماء بها ضيق والبحر عليها مطبق^(٤) . وكان الناس يقصدونها للإقامة بها متعبدين ومكفرين عن ذنوبهم^(٥) ، وكانت رسوم المراكب تجبى عندها^(٦) . وكانت بها حامية لمكافحة القرصان ، وكان على نحو ستة أميال منها تجاه البحر موضع يعرف بالخشبات فيه عمد من الخشب منصوبة فى الماء قد بنى عليها مرقب يسكنه ناظور . ويوقد نرّتب بالليل لتهدى به السفن وتستدل به على مدخل دجلة ، وكان هذا الموضع مخوفاً إذا ضلت فيه السفينة خيف انكسارها لركة الماء به^(٧) . وقد سخر أحد شعراء البصرة من رجل شديد النحول فقال فيه :

والحكايات المتعلقة بالمهارة الملاحية لاتنسب إلى الناشدا بل إلى الربّان ، أما اليوم فيفرق الناس فى البحر الأحمر بين من يسمى ناشدا البحر ، وهو الرئيس الحقيق للسفينة ، وهو يقودها ويرأس بحارتها ويمسك الدفة ، (وهذا عجيب) ، وبين ناشدا البر الذى هو صاحب السفينة ، انظر : Maltzan, Meine Wallfahrt nach Mekka, 1865, I, s. 71 .

- (١) عجائب الهند ص ٢٣ . . (٢) نفس المصدر ص ٢٢ .
 (٣) الأضطخري ص ٧٩ . . (٤) المقدسى ص ١١٨ .
 (٥) كتاب الوزراء ص ٧٣ . . (٦) الإرشاد لياقوت ج ١ ص ٧٧ .
 (٧) الأضطخري ص ٣٢ ؛ والمقدسى ص ١٢ ، وهو يذكر أنه كان عند عبّادان بيوت كثيرة توقد فيها النار لتباعد المراكب عن الماء الرقيق .

لا تَعْشَقَنَّ ابْنَ الرِّبْعِ فَإِنَّهُ عِنْدَ التَّجَرُّدِ آيَةُ الْآيَاتِ .
وَجْهَ كَعْبَادَانِ لَيْسَ وَرَاءَهُ لِحَبِّهِ شَيْءٌ سِوَى الْخَشَبَاتِ ^(١)

وذكر المسعودي في القرن الرابع الهجري أنه كان ثم ثلاث خشبات كالكراسي ، عليها أناس يوقدون النار بالليل في جوف البحر خوفاً على المراكب الواردة من عمان وسيراف وغيرها أن تقع في تلك الجزيرة فتعطب ، فلا يكون لها خلاص ^(٢) . ويقول ناصر خسرو في القرن الخامس الهجري إن الخشبات اثنتان ، وهو يفصل في وصفها فيقول إنها أعمدة من خشب الساج منصوبة بحيث تؤلف على الأرض قاعدة مربعة واسعة ، ثم تضيق في أعلاها ، وهي تعلو سطح البحر بخمسين متراً وفي أعلاها حجرة مربعة للناظر ^(٣) . ويدل هذا على رقة الماء عند مدخل نهر شط العرب ، وكانت السفن إذا دخلته مسّ قاعها الأرض واصطدم بها بضع مرات ، فلا غرابة أن يروى المقدسي أنه سمع شيخاً يقول إن هذا موضع يسافر فيه أربعون مركباً فيرجع واحد ^(٤) .

ويسود تاريخ المراكز التجارية الإسلامية في الشرق الأقصى شيء من الاضطراب ^(٥) ، فيُحكى من أخبار القرن الثامن الميلادي أن أسماء ربانة السفن الأجانب كانت تقيد في ديوان التجارة البحرية في مدينة خائقو ، وأن هذا الديوان كان يطالب بحق تفتيش المراكب قبل السماح لها بإنزال ما تحمله إلى البر ، وكان يأخذ رسوم تصدير وتحميل . وكان تصدير الأشياء النادرة أو ذات القيمة محظوراً ، وكان بكل من يحاول التهريب يعاقب بالحبس ^(٦) . وربما تكون قد

(١) بتيبة الدهر للثعالبي ج ٢ ص ١٣٤ . (٢) مروج الذهب للمسعودي ج ١ ص ٢٣٠ . (٣) رحلة ناصر خسرو ص ٩٠ . (٤) المقدسي ص ١٢ . (٥) جمعت المراجع الصينية أخيراً في كتاب تشويوكوا الذي لغيره هيرث وروكهل Fr. Hirth. W.-W. Rockhell في سانت بطرسبرج عام ١٩١٢ ص ٩ وما يليها . (٦) نفس المصدر ص ٩ .

أنشئت في ذلك العصر مراكز تجارية إسلامية في نواح أخرى من الصين . وفي عام ٧٥٨ م كانت جالية الأجانب الواندين من الغرب إلى كانتون (خانقو) كبيرة العدد ، حتى استطاعت أن تنهب المدينة وتحرق مخازنها وتهرب بما انتهبت^(١) . وفي أوائل القرن التاسع الميلادي كان على رأس الجالية الإسلامية في كانتون رئيس مسلم يعينه إمبراطور الصين ، وكان هذا الرئيس يقضى بين أفراد الجالية بأحكام الشريعة ، وإذا كانت الجمعة أو العيد خطب في المساجد ، ودعا في خطبته لسلطان المسلمين^(٢) ، وفي ذلك العصر كان البحريون إذا وصلوا المدينة قبض الصينيون متاعهم وصيروه في البيوت وضمنوا البرك إلى ستة أشهر إلى أن يدخل آخر البحريين ، ثم يؤخذ من كل عشرة ثلاثة ويسلم الباقي إلى التجار ، وكان السلطان إذا احتاج إلى شيء أخذه بأعلى الثمن وعجله ، ولم يظلم فيه ، وكان مما تأخذه الحكومة الكافور ، المن بنمسين فكوجا والفكوج ألف فلس ، وهذا الكافور إذا لم يأخذه السلطان بيع بنصف الثمن^(٣) ، وكان يستورد أيضاً العاج وقضبان النحاس والذبل وهو قشر السلاحف وقرن الكركدن الذي كان أهل الصين يتخذون منه المناطق ، وفي طول ذلك العصر كانت مراكب المسلمين تذهب إلى بحار الصين ، كما كانت مراكب الصين تختلف إلى عُمان وسيراف والأبلة والبصرة^(٤) .

(١) نفس المصدر ص ١٤ وما بعدها .

(٢) سلسلة التواريخ ص ١٤ طبعة رينو بياريس عام ١٨١١ م .

(٣) نفس المصدر ص ٣٦ . (٤) نفس المصدر ص ٣٥ ، وانظر مروج الذهب

للمسعودي ج ١ ص ٣٠٨ ، ويستبعد هيرث في كتاب Chau Ju-Kua (ص ١٥ هامش رقم ٣) أن تكون هذه المراكب أو قوادها صينيون ، لأن أهل الصين كانوا حتى آخر القرن الثاني عشر لا يعرفون عدن ولا سيراف ، ولا أسماء هذين البلدين ، ويؤيد هذا أيضاً أن العرب لم يذكروا شيئاً قط عن الملاحين الصينيين ، وأن مراكب الصين لم تعد تختلف إلى المياه العربية بعد أن دمرت مراكز المسلمين التجارية في الصين ، فالمقصود إذن من عبارة مراكب الصين أنها مراكب صينية يملكها المسلمون وتسير بين بلادهم وبين الصين .

وتؤيد التواريخ الصينية ما حكاه بحريو العرب من القضاء على المراكب والجاليات التجارية الإسلامية في الصين^(١) ولا سيما في مدينة خانقو (وهي كانتون الحديثة)^(٢) حوالى عام ٨٨٠ م ، وذلك أن شيرابنغ في الصين — كما يقول المسعودى — فقضى على أسرة تنج وأفسد أمور الصين ، وفتح خانقو وكانت ملقى السفن التجارية الإسلامية ، وقتل من أهلها مائتى ألف من المسلمين ومن غيرهم ، وباضمحلال أمر هذه الأسرة فسد كل شيء في جنوب الصين^(٣) ، واختفت معالم التجارة البحرية من هناك ، ونستطيع أن نستدل من كتاب عجائب الهند — وأهم ما فيه وصف أحوال القرن الرابع الهجرى هناك — على أقصى ما كانت تبلغه مراكب المسلمين مدينة ككاه أو كدا في ماقا ، وكان هذا البلد في موضع سنغافورة اليوم . ويقول أبو دلف إن كله هي أول بلاد الهند وآخر منتهى مسير المراكب ؛ لا يتها لها أن تتجاوزها وإلا غرقت^(٤) ، وكذلك يقول المسعودى حوالى عام ٣٣٢ هـ — ٩٤٤ م إن بلاد كله هي النصف من طريق الهند أو نحو ذلك ، وإليها تنتهى مراكب أهل الإسلام من السيرافيين والعانيين في هذا الوقت ، وفي كله أيضا كان التاجر السمرقندى ينزل من المراكب الآتية من عمان ، ويركب البحر في مراكب الصين إلى خانقو^(٥) .

على أن حكومة الصين بذلت في نهاية القرن العاشر جهدا كبيرا لاجتذاب التجارة الأجنبية الآتية من البحر إلى الصين رأسا ، فأرسلت بعثة لتدعو التجار

(١) سلسلة التواريخ ص ٦٢ وما بعدها ، ومروج الذهب ج ١ ص ٣٠٢ وتاريخ أبي الفدا في حوادث عام ٢٦٤ هـ .

(٢) انظر أيضا Fr, Hirth and Rockhill. Chau-Ju-Kua p. 15.

(٣) Richthofen, China. I. 572.

(٤) معجم البلدان لياقوت ج ٣ ص ٤٩٣ (كلمة جين) .

(٥) مروج الذهب للمسعودى ج ٣ ص ٣٠٨ .

الأجانب الذين يعملون في البحر الجنوبي ويركبون البحار في البلاد الأخرى للحضور للصين ، ووعدهم بتهيئة الظروف الحسنة لاستبدال بضائعهم . وفي عام ٩٧١ م أعيد تنظيم ديوان البحر في مدينة كانتون ، ثم احتكرت الحكومة التجارة الخارجية عام ٩٨٠ م وأصدرت الأمر بعقاب كل من وجد متاجراً مع الأجانب بالنفي من البلاد ويكوى وجهه بالنار . وفي ذلك العصر وما جاء بعده تذكر الروايات كثيراً من تجار المسلمين زاروا بلاط إمبراطور الصين واستقبلوا هناك استقبالا مملوءاً بالموادة مما يعجب له المؤرخ . وفي عام ٩٧٦ م جلب رجل من الغرب أول عبد أسود إلى قصر إمبراطور الصين ، فلما جاء القرن الحادي عشر الميلادي كان أغنياء الناس في كانتون يقتنون الكثير من هؤلاء العبيد^(١) ، واستقر كثير من التجار في تسوان شو إلى جانب استقرارهم في كانتون . وفي عام ٩٩٩ م أنشئت دواوين للتجارة البحرية في ثغرى هانجشو وتانجشو . زيادة على ما كان في غيرها من الموانئ ، وذلك إجابة لطلب التجار الأجانب وتوفيراً لأسباب راحتهم^(٢) . وفي عام ١١٧٨ م يقول أحد كتاب الصين : إن مملكة العرب لا يفوقها بلد آخر من البلدان الأجنبية في كثرة ما يدخر بها من البضائع المتنوعة الغالية ، ويليها في ذلك جاوة والمبايج (وهي سومطرة) ثم تأتي بعد ذلك بلاد أخرى كثيرة^(٣) . ويحدثنا هذا المؤلف أيضاً عما كان من تجديد نشاط الملاحة إلى الصين قائلاً إن الذين يأتون من بلاد العرب يتخذون أول الأمر سفناً صغيرة تسير بهم إلى الجنوب حتى ساحل كويلون (مليبار) ومن ثم ينتقلون إلى سفن كبيرة تحملهم إلى المبايج (سومطرة)^(٤) . وكان الطريق البحري إلى الصين خاضعاً لما تقتضيه هبوب الرياح الموسمية التي تستطيع السفن أن تسير معها من غير حاجة إلى استعمال البوصلة ،

(١) Chau-Ju- Kua, s. 31 f .

(٢) نفس المصدر ص ١٧ وما يليها ، ص ١١٩ . (٣) نفس المصدر ص ٢٣ .

(٤) المصدر المتقدم ص ٢٤ .

وقد وصف هذا الطريق في كتاب سلسلة التواريخ (طبعة Langles) ، وأورد هذا الوصف في كتابه المسمى Relation des voyages ص ١٦ وما يليها ، وابن خرداذبة (ص ٦١ وما بعدها) ونجده أيضاً في كتاب عجائب الهند . ومن ذلك كله نعلم أن الناس كانوا يسرون بجذاء ساحل الهند أو يتجهون بن مسقط إلى ميناء كولام (كيلون الحالية) رأساً ، وذلك في نحو شهر ، ثم يواصلون سيرهم جاعلين جزيرة سرنديب إلى شمالهم ، ويقصدون جزائر نيكوبار (على مسيرة عشرة أيام أو خمسة عشر يوماً إلى جزيرة سرنديب)^(١) ، ومن ثم إلى مدينة ركدا في ملقا ، وهي على مسيرة شهرين من كيلون ، ومن هناك يقصدون جاوه وجزيرة ماهيت في جزائر سندا ، ثم يسرون خمسة عشر يوماً حتى يصلوا كبوديا ، ومنها إلى كوشين شين وإلى الصين . وكان المسافر يسير مع ساحل الصين وحده شهرين ، وكان لا بد له بعد ذلك من انتظار الرياح الطيبة ، لأن تلك النواحي تسودها رياح واحدة في كل ستة أشهر . أما في العودة فكان الناس يسرون أربعين يوماً من تشوان تشو إلى أتيا (على الطرف الشمالي الغربي من جزيرة سومطرة) وكانوا يتاجرون هناك ثم يعودون إلى البحر في العام التالي ، ويعودون إلى بلادهم في ستين يوماً بمعاونة الرياح العادية^(٢) . ولما كانت هذه السفن خلواً من كل آلة يستعان بها في الملاحة كانت الرحلة مخوفة بالمعاطب ، فكان الناس يتعجبون أشد التعجب إذا عمل الربان هذه الرحلة سبع مرات^(٣) ، وكان المسافر إذا وصل إلى

(١) وكذلك يقول السكاتب الصيني Chau-Ju-Kua في القرن الثالث عشر الميلادي إن الرحلة من سومطرة إلى ملبار تستغرق شهراً مع الرياح الموسمية ، وانظر أيضاً Marco Polo ، III. 4 ، وقد سلك هذا الطريق في القرن الخامس عشر الميلادي الحاج فاه هين الصيني عائداً إلى وطنه ، انظر Chau-Ju-Kua ص ٢٧ وما بعدها .

(٢) وهذا على الأقل ما حكاه أحد الرحالين الصينيين في القرن الثاني عشر الميلادي ، انظر

(٣) عجائب الهند ص ٨٥ . Chau-Ju-Kua, 114

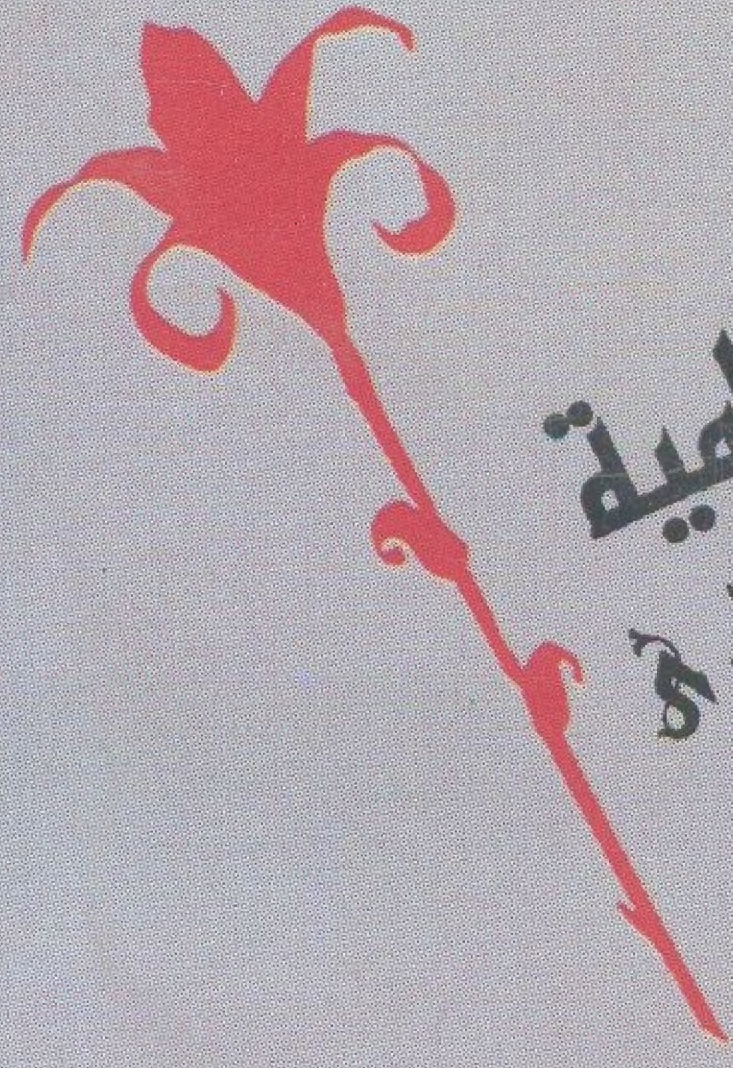
الذين جُدَّ ذلك عجيباً . أما رجوعه إلى بلاده فكان يعتبر كالمستحيل^(١) ، ولهذا
فلا عجب أن نسمع أن الرجل الذي في أعلى السارية إذا رأى أول علامات أرض
الوطن نادى قائلاً ، رحم الله كل من قال الله أكبر ؛ فعند ذلك يجيبه جميع من
في المركب قائلين : الله أكبر ؛ ويهني بعضهم بعضاً ، ويبكون لما يكون قد هجم
عليهم من السرور^(٢) .

(١) نفس المصدر . .

(٢) نفس المصدر ص ٩١ .

الإشراف اللغوى : عبد الرحمن حجازى
الإشراف الفنى : حسن كامل
التصميم الأساسى للغلاف : أسامة العبد

تم طبع هذا الكتاب من نسخة قديمة مطبوعة



أطروقتن الانظارا الاسلامية فلا القرن الرابع الهجرى الجزء الثانية

عديداً - لنا نحن أبناء الحضارة العربية - الدروسُ الباقية والمبادئ الضرورية التى يُتيح لنا هذا المؤلفُ استلهاماً؛ ولا مبالغة فى القول إن حاجتنا لذلك اليوم لهى أشد هما كانت عند صدوره منذ ما يقرب من القرن وعند صدور ترجمته العربية منذ أكثر من نصف القرن، وقد تدافعت علينا موجات عاتية مناهضة تكاد تُجهز على روح هذه الحضارة وتُفقدِها الوعى الصحيح بجوهرها الأصيل. وإلى جانب كون هذا السفرُ مرآة عاكسة - على امتداد فصوله التسعة والعشرين - لكثير من جوانب حضارتنا، العقلية والمادية، فى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى، الذى هو قرن ازدهار ملحوظ ظهرت فيه بوضوح قسماها الفارقة المميزة لها فى تاريخ الحضارات، فإننا نجد، مع ذلك، فى ثنايا مطالعتنا له، ما يثير، ويطرح الأسئلة، ويوجب المراجعة لكثير من قضايانا، زاداً نافعاً يزيدنا منعة وقوة.

